

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين

قسم الكتاب والسنة

تخصص: علوم القرآن والحديث



رقم التسجيل:.....

الرقم التسلسلي:.....

## الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية سورة التوبة أنموذجا

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية. تخصص: علوم القرآن والحديث

إشراف:

الدكتور: عبد العزيز ثابت

إعداد الطالب:

عبد العزيز شلي

### لجنة المناقشة

| الاسم واللقب          | الرتبة العلمية       | الجامعة الأصلية  | الصفة        |
|-----------------------|----------------------|--|--------------|
| أ.د/ سلمان نصر        | أستاذ التعليم العالي | جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -<br>قسنطينة. | رئيسا        |
| د/ عبد العزيز ثابت    | أستاذ محاضر " أ "    | جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -<br>قسنطينة. | مقررا ومشرفا |
| أ.د/ عادل مقراني      | أستاذ التعليم العالي | جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -<br>قسنطينة. | عضوا         |
| أ.د/ منصور كافي       | أستاذ التعليم العالي | جامعة الحاج لخضر باتنة 1                               | عضوا         |
| أ.د/ عمر حيدوسي       | أستاذ التعليم العالي | جامعة الحاج لخضر باتنة 1                               | عضوا         |
| أ.د/ عبد الرحمن معاشي | أستاذ التعليم العالي | جامعة الحاج لخضر باتنة 1                               | عضوا         |

السنة الجامعية: 1444 هـ / 1445 هـ - 2022 م / 2023 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الأميرة  
عبد

الإسلامية

## إهداء

أهديكم ثمرة هذا الجهد العلمي الذي تم بعونه الله تعالى  
ويتوفيقه:

**أولاً:** لوالديتي: والديتي الشهيد مصطفى الذي لم تكتحل  
عيناك برؤيته.

والديتي المجاهدة مبروكة التي ضحيت بزهره عمرها من  
أجلنا، فهي صاحبة الفضل الأول بعد الله جلّه وعزّه في  
تربيتنا وتعليمنا ﴿رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

**وثانياً:** لزوجتي أم محمد المهدي عاى تشجيعها لي وصبرها  
من أجل بلوغ هذه اللحظة.

**وثالثاً:** لأبنائي فلذات كبري: محمد المهدي ومصطفى  
وهيبت الله ونور.

**ورابعاً:** لأخي الوعيد رابع .

الطالب: عبد العزيز شايح

## شكر وتقدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:  
أولاً: أحمد الله جلّه وعزّه أنه يسرّ لي أسبابه إكمال هذا  
البحث العلمي ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ فله الحمد  
وله الشكر وله الثناء الجميل.

وثانياً: من باب شكر وتقدير من أسدي المعروف لقوله  
النبي صلى الله عليه وسلم أنه: " لا يشكر الله من لا يشكر  
الناس " أبو داود، فالشكر والتقدير موصولان لجامعة الأمير عبد  
القادر للعلوم الإسلامية بقسطنطينة العاصرة، التي أعمنته إليها  
طالبا بالدراسات العليا ثم طالبا بالدركتوراه ثم أستاذا بقسم الكتاب  
والسنة فيها؛ ممثلة في مديرتها الأستاذة الدكتورة السعيدة دراجي  
وعميد كلية أصول الدين الأستاذ الدكتور أحمد عبدلي.

وثالثاً: الشكر الوافر للمشرف الأول علي هذا العمل العلمي  
الدكتور الحبيب رمضان بخلفه، والمشرف الحالي أخيه العزيز  
الدكتور عبد العزيز ثابت.

ورابعاً: الشكر الجزيل لكل من كانت لهم أياد بيضاء لإتمام هذه  
الأطروحة من أساتذة وموظفين.

وخامساً: الشكر والتقدير للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة  
الموقرون علي قبولهم تجشم عناء القراءة والمناقشة: أ.د/ سلمان  
نصر وأ.د/ عادل مقراني  
و.أ.د/ منصور كافي وأ.د/ عمر عيوسوي وأ.د/ عبد الرحمن معاشي.  
وصلى الله وسلم على عبينا محمد وعلى آله وصحبه

الطالب: عبد العزيز شايح

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أبان البيان الأكمل وبعد:

فإن القرآن الكريم هو كتاب هداية الله للبشرية جمعاء ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٩﴾ الإسراء ، وهو حجة الله البالغة على خلقه، ولذلك تحفّزت إليه العقول الثيرة واتجهت إليه الهمم العالية بالنظر في معانيه وتدبر حكمه ومقاصده استجابة قول منزله جلّ وعزّ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٩﴾ سورة ص، وذلك لاستخراج أنواره والوقوف على هديه وتلمس ملامح إعجازه، فما انفكت جهود علماء الأمة - على مرّ التاريخ الإسلامي - عن تفسيره وتدبره واستنباط غرر أحكامه وحكمه والاهتداء بهديه. وإذا كانت عناية العلماء التفسير الموضوعي قد بلغت مداها ، فأبرزت المكتبة التفسيرية تراثا ضخما فإنّ عناية العلماء والباحثين في العصور المتأخرة قد اتجهت بشكل أساس إلى التفسير الموضوعي بأقسامه الثلاثة:

**القسم الأول:** يتتبع فيه الباحث المصطلح القرآنيّ ثمّ يجمع الآيات التي ورد فيها وبعد الإحاطة بتفسيرها يستنبط الدلالات بحسب الاستعمال القرآني لها.

**والقسم الثاني:** يتتبع فيه الباحث موضوعا من خلال سور القرآن الكريم وبعد جمع الآيات والإحاطة بمعانيها يقسم الباحث موضوعه إلى فصول ومباحث، ثمّ يوزع الآيات بحسب دلالاتها على الموضوع محلّ الدراسة وفق الهدي القرآني وهذا القسم هو المشهور في عرف أهل الاختصاص باسم التفسير الموضوعي.

**والقسم الثالث:** يُبحث فيه عن الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ويتحقّق ذلك ببحث موضوعها العام وموضوعاتها الفرعية التي تخدم الموضوع العام فيها، وبحث تناسبها فيما بينها بعد الإحاطة بظروف نزولها، ومناسبة السورة لما جاورها من السور ومناسبة موضوعها لموضوعات القرآن الكريم، وفي هذا القسم يدرج بحثي.

**أولاً: عنوان البحث :****الوحدة الموضوعية في السّورة القرآنية****- سورة التوبة أنموذجاً -**

فموضوع البحث يتضمن دراسة الوحدة الموضوعية في سورة التوبة والوقوف على حقيقتها وتصورها تصوراً سليماً.

**ثانياً: إشكالية البحث :**

لقد تعددت مناهج المفسرين في تفسيرهم للقرآن الكريم؛ فهم من اهتمّ بالتفسير الموضوعي فتتبع بالبيان القرآن الكريم آية آية، واهتمّ بعضهم بالكشف عن مواطن الإعجاز البياني، وبعضهم اهتمّ ببيان الأحكام الفقهية .... ثمّ برز الاهتمام بالتفسير الموضوعي التجميعي، الذي نال حظاً وافراً من البحث، وكذا بحث المفردة القرآنية من حيث دلالاتها في المواضع المختلفة من السّور.

وأما جانب البحث في الوحدة الموضوعية في السّورة القرآنية فلم يرق بعد - فيما أرى - إلى ما يتطلبه هذا النوع من التفسير الموضوعي، وقد حاولت أن أتجشم صعاب هذا المجال وألقي بنفسي في لجه لعلّي أظفر ببحث يكون لبنة تضاف لجهود غيري من الباحثين.

ولذلك فإتني أحاول تشخيص إشكالية البحث منطلقاً من هذه الأسئلة:

- هل السّورة القرآنية - السبع الطول أو المئين - على طولها وتعدّد موضوعاتها تتحقّق فيها الوحدة الموضوعية، فتكون كالجسد الواحد تتفاعل أعضاؤه في تناسب وتناسق في كيان واحد؟.
- وعليه فلا تتمّ الاستفادة التامة من السورة القرآنية إلا بالرؤية الشاملة المتكاملة لها، من أجل الوصول إلى إدراك موضوعها العام واستيفاء معانيها، أم أنّ موضوعاتها المتعدّدة لا يربط بينها رابط؟.
- وسورة التوبة وقد تعدّدت موضوعاتها: فهل هذه الموضوعات تتناسب فيما بينها فتتآلف في موضوع عام واحد؟ أم أنّ كلّ موضوع من موضوعاتها مستقلّ بذاته لا ينسجم مع غيره؟.
- وإذا قلنا بوحدة الموضوع في السورة القرآنية، فما المسلك الأمثل لتحديد وتحديد موضوعاتها الفرعية؟

- وما السبيل لإبراز تناسب هذه الموضوعات فيما بينها وتناسبها مع الموضوع العام؟

- وهل بتحديد موضوع السورة العام وموضوعاتها الفرعية يمكن التّخلص من النظرة التجزئية للسورة القرآنية؟

### **ثالثا : أهمية البحث:**

- تكمّن أهمية البحث في كونه:
- وسيلة لإبراز وجوه جديدة من أوجه الدرس التفسيري.
  - أداة للكشف عن هدايات القرآن بالاستقصاء والاستنباط الدقيق للسّنن الإلهية.
  - وسيلة لإدراك الموضوع العام للسورة القرآنية وموضوعات الوحدات الفرعية المتكاملة فيما بينها ليتحقّق الفهم العميق والشامل لمراد الله عزّ وجلّ ، والبعد عن النظرة التجزئية للسورة القرآنية.
  - الطريق لتأصيل منهج للدراسات القرآنية.

### **رابعا : أسباب ودوافع اختيار البحث:**

السبب الموضوعي لاختيار هذا البحث هو: المشاركة ببحث علميٍّ محكّم يثري المكتبة التفسيرية بدراسة الوحدة الموضوعية لسورة التوبة، وذلك ببحث موضوعها العام وموضوعاتها الفرعية وفق وحدات موضوعية تتناسب فيما بينها وتتآلف مع الموضوع العام للسورة بمنحى تفسيري تراعى فيه الرؤية الموضوعية في السورة القرآنية.

### **خامسا : أهداف موضوع البحث :**

ما من باحث إلا وهو يتقصّد أهدافا يتوخى تحقيقها من خلال بحثه، والذي أروم الوصول إليه من خلال هذا البحث الموسوم ب: الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية - سورة التوبة أمودجا- أهدافا أجملها فيما يلي:

- أ- بيان مركزية بحث الوحدة الموضوعية للسورة في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.
- ب- تحقيق الوحدة الموضوعية لسورة التوبة وفق رؤية تدبّرية شاملة.
- ت- الوصول إلى ضبط الخطوات المنهجية في بحث الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.
- ث- الوصول إلى تقسيم السورة إلى وحدات موضوعية متآلفة تتناسب فيما بينها وتتناسب وموضوع السورة العام وتخدمه.
- ج- الكشف عن بيان الهدي القرآني الأخير فيما يجب أن تكون عليه علاقة المسلمين بغيرهم.

## سادسا : الدراسات السابقة :

يمكن تقسيم الدراسات التي تناولت بالبحث سورة التوبة إلى نوعين:

### النوع الأول: الدراسات التي كتبت في التفسير الموضوعي لسورة التوبة:

وهي دراسة واحدة، فيما أعلم، جاءت ضمن دراسة موضوعية لسور القرآن الكريم تحت عنوان: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف الدكتور صطفى مسلم- كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة - 1431هـ / 2010م ، وقد تناولت الدراسة: سورة التوبة في المجلد الثالث ابتداء من الصفحة: 187 إلى الصفحة: 302، وبالنظر في هذه الدراسة علمت أنّ هدفها لم يكن الوحدة الموضوعية للسورة ؛ فدون مقدمات بدأت الدراسة ب: بين يدي السورة وكان التركيز على أسماء السورة (أربع صفحات)، غاب عنها تحديد الموضوع العام للسورة، ثم قُسمت السورة إلى ستة مقاطع غير متناسبة من حيث موضوعاتها: بحيث حوى بعضها آيتين كالمقطع الرابع والمقطع السادس، واقتصرت الدراسة على: جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع والمشاهد، ثم الحكم والدروس والعبر والهدايات التي يرشد إليها المقطع.

**والخلاصة:** أنّ هذه الدراسة جاءت خالية من البعد الموضوعي المنشود في السورة.

### النوع الثاني: الدراسات التي تناولت سورة التوبة من جانب واحد مما اشتملت عليه ، أذكر منها :

**1- أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة- دراسة تحليلية -:** وهو بحث مقدم استكمالا للحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من إعداد الطالب: حسن عبد الله طه الخطيب بإشراف فضيلة الدكتور: عبد الكريم حمدي الدهشان 1429هـ 2008م، بالجامعة الإسلامية - غزة-.  
وقد حدّد الباحث موضوع بحثه بقوله: (هذا البحث فيتناول فيه الباحث موضوعات السورة كلها، محاولا استنباط ما هو جديد من أهدافها ومقاصدها، في إطار دراسة تحليلية شاملة ومتكاملة لموضوعات السورة).

فقد اقتصرَت الدراسة على تحديد أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة وتحليلها للوصول إلى الأبعاد التربوية والجهادية في نفوس المسلمين.

2- علاقة المسلمين بغيرهم كما جاءت في سورة التوبة. لعبد الله محمد الزعبي - ماجستير ، وقد اعتنت

هذه الدراسة ببحث علاقة المسلمين بغيرهم برؤية فقهية .

3- المنافقون كما تحدثت عنهم سورة التوبة، للمؤلفة: زينب عبد الرحمن الدخيل، ماجستير.

4- موقف القرآن من خصومه كما تصوره سورة التوبة، لعمر أحمد علي عبد الرحمن - دكتوراه - 1972م جامعة الأزهر.

5- معالم الجهاد في سورة التوبة: دراسة موضوعية، لصفوان حاج إسماعيل عبد الله - ماجستير. قال الباحث في ملخص بحثه: (تهدف الرسالة إلى إبراز معالم الجهاد في سورة التوبة التي هي الفيصل بين الشرك والإيمان وبين الحق والباطل)

6- المنهج القرآني مع غير المسلمين في ضوء سورة التوبة، لعمار جبار الديلمي.

والذي يظهر من هذه الدراسات لسورة التوبة: أنّ كل واحدة منها تناولت موضوعاً واحداً مما حوته السورة من موضوعات برؤية تجزيئية دون الدراسة العامة للسورة، أما بحثي هذا فإنه يبحث الوحدة الموضوعية للسورة برؤية شاملة، تتناول جميع موضوعاتها. والذي أسجله في هذا المقام أنني لم أستعن في تقسيم السورة إلى وحدات بهذه الدراسات لئلا أحمّل عملاً رسمته لنفسه من منهجية البحث.

### **سابعا : منهج البحث :**

بحث الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية يقتضي ابتداء تحديد الموضوع العام للسورة وذلك باستقصاء موضوعاتها الفرعية، والبحث عن الروابط التي تجمعها فتتكامل فيما بينها وتتناسق لتحقيق الموضوع العام للسورة، مع استقصاء امتدادات هذه الموضوعات الفرعية في باقي السور، واستنباط الهدايات القرآنية والملاحم الإعجازية، والمقارنة بين أقوال المفسرين والترجيح فيما بينها.

وعليه فإنّ منهج البحث قائم على: التكامل المنهجي بين الاستقراء والتحليل والمقارنة بين الأقوال والترجيح فيما بينها للوصول إلى موضوعات السورة ممثلة في وحدات موضوعية واستنباط الهدايات. ويمكنني القول: إن المنهج المتبع في بحثي هذا قائم على: الاستقراء والتحليل والمقارنة والترجيح.

### **منهجي في كتابة هذا البحث:**

سلكت في هذا البحث منهجية سرت عليها تلخص فيما يلي :

- 1- قسمت البحث إلى فصول ومباحث ومطالب وفروع.
- 2- أمهد للفصل والمبحث والمطلب بتمهيد ألج به مضمونه.
- 3- عرفت بالمصطلحات العلمية الواردة لغة واصطلاحا.
- 4- عزوت الأقوال لأصحابها في الهامش متبعا منهجا ثابتا في كامل البحث، وذلك بذكر اسم المصدر أو المرجع ثم اسم الكاتب ثم رقم الجزء والصفحة، فإذا ذكرت أحدهما في المتن فلا أذكره في الهامش.
- 5- وأرجأت ذكر التحقيق والطبعة والبلد والتاريخ إلى فهرس المصادر والمراجع.
- 6- ضبطت الآيات القرآنية من مصحف المدينة النبوية برواية حفص عن عاصم، وذكرت اسم السورة ورقم الآيات في المتن كي لا أثقل كاهل الهوامش.
- 7- خرجت الأحاديث والآثار من مصادرها، وأقتصر على ذكر الكتاب والباب.
- 8- ختمت البحث بفهارس علمية تساعد وترشد القارئ إلى معرفة مضامين الرسالة بسهولة ويسر.

### **ثامنا : عناصر البحث وتبويبه :**

قسمت البحث إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة : وقد حوت عناصرها العشرة المعروفة.

#### **الفصل الأول : بين يدي السورة وفيه مبحثان:**

المبحث الأول : التعريف بسورة التوبة

المبحث الثاني: المناسبات في السورة

#### **الفصل الثاني : الهدى القرآني في بيان العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المشركين**

وأهل الكتاب. وفيه مبحثان:

**المبحث الأول :** الهدى القرآني في بيان العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المشركين.

الآيات: من الآية الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين (28/1).

**المبحث الثاني:** الهدى القرآني في بيان علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب

من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين (37/29).

#### **الفصل الثالث: غزوة تبوك ظروفها وافرازاتها.**

الوحدة الموضوعية الثانية : من الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الواحدة والأربعين (38/41).

**الفصل الرابع : وفيه سبعة مباحث**

**المبحث الأول:** المنافقون بين القعود عن الخروج إلى تبوك والاستئذان عنه.

الوحدة الفرعية الأولى: من الآية الثانية والأربعين إلى الآية الثامنة والأربعين (52/42).

**المبحث الثاني :** المال في حياة المنافقين

الوحدة الفرعية الثانية: من الآية الثالثة والخمسين إلى الآية الستين (60/53).

**المبحث الثالث:** إيداء المنافقين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطَّعْنِ فِي أَخْلَاقِهِ الْعَظِيمَةِ وَشَمَائِلِهِ الْكَرِيمَةِ.

الوحدة الفرعية الثالثة: من الآية الواحدة والستين إلى الآية السادسة والستين (66/61).

**المبحث الرابع:** رجال المنافقين ونسأؤهم سواء في مسلك الهدم الاجتماعي من الداخل.

الوحدة الفرعية الرابعة : من الآية السابعة والستين إلى الآية الرابعة والسبعين (74/67).

**المبحث الخامس:** نقض المنافقين للعهود.

الوحدة الفرعية الخامسة: من الآية الخامسة والسبعين إلى الآية الثمانين (80/75).

**المبحث السادس:** المنافقون بين الفرح بالتخلف عن الجهاد واستحقاق الطبع على قلوبهم.

الوحدة الفرعية السادسة: من الآية الواحدة والثمانين إلى الآية السادسة والتسعين (96/81)

**المبحث السابع:** جماعات أخرى من المنافقين الأعراب: دورها وخطرها وبيان الهدى القرآني في كيفية

التعامل معها.

الوحدة الموضوعية الفرعية السابعة: من الآية السابعة والتسعين إلى الآية العاشرة بعد المائة (110/97)

**الفصل الرابع: قاعدة استقرار المجتمع الإسلامي وأسس بنائها.**

الوحدة الموضوعية الثالثة: من الآية: الحادية عشرة بعد المائة إلى الآية التاسعة عشرة بعد المائة (111

119/).

**الفصل الخامس: الهدى القرآني لما يجب أن يكون عليه المسلمون.**

الوحدة الموضوعية الرابعة: من الآية العشرين بعد المائة إلى الآية التاسعة والعشرين بعد المائة (119

129/).

خاتمة: وفيها خلاصة لأهم نتائج البحث والتوصيات التي توصلت إليها.

**تاسعا : مصادر ومراجع البحث :**

لقد استعنت لإتمام هذا البحث وإخراجه بمصادر ومراجع تراوحت الاستفادة منها بين الاقتباس منها مباشرة، أو في بناء الفكرة العلمية، وسأقتصر على ذكر بعضها لأنها ستكون مدونة في فهرس المصادر والمراجع، ومنها:

#### أ: كتب التفسير:

وهي أخصّ الكتب التي استعنت بها في بحثي بناء لفكرة أو تأصيلاً لمسألة أو تدليلاً أو تمثيلاً ومن أهمها:

- تفسير مجاهد - مجاهد بن جبر.
- تفسير مقاتل بن سليمان - مقاتل بن سليمان
- جامع البيان في تأويل آي القرآن : الطبري.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور.
- البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي.
- أحكام القرآن : أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المالكي.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين الشنقيطي.
- الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للزمخشري.
- المحرر والوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية الأندلسي.
- الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي.
- أحكام القرآن : الإمام الشافعي.
- التفسير الكبير : الفخر الرازي.

#### ب: كتب علوم القرآن :

- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي.
- إتقان البرهان في علوم القرآن - الدكتور فضل عباس
- معاني القرآن - أبو جعفر النحاس
- فضائل القرآن - القاسم بن سلام
- كتاب المصاحف - ابن أبي داود
- مرسوم الخط - العُقيلي

- كتاب عدد آي القرآن - أبو الحسن علي بن محمد الأنطاكي

### ج: كتب القراءات

- كتاب السبعة في القراءات - ابن مجاهد .
- حجة القراءات : عبد الرحمن بن زنجلة.
- الحجة للقراء السبعة : أبو علي الفارسي.
- التيسير في القراءات السبع - أبو عمرو الداني .
- وجمال القراء وكمال الإقراء - السخاوي

### د: كتب الحديث وعلومه :

- وقد استعنت بها لبيان مواطن الأحاديث، ومنها على سبيل الذكر :
- صحيح البخاري - محمد ابن إسماعيل البخاري.
  - صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج.
  - سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارقطني وغيرها.
  - السلسلة الصحيحة والضعيفة : محمد ناصر الدين الألباني.

### هـ: اللغة وعلومها :

- واستفدت منها في التعريفات اللغوية خاصة، ومنها :
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية - الجوهري
  - تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى الزبيدي.
  - القاموس المحيط : الفيروزآبادي.
  - لسان العرب: ابن منظور.
  - المصباح المنير: أحمد بن محمد الفيومي المقري.
  - المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم - د/ محمد حسن حسن جبل.

### عاشرا : صعوبات البحث :

لا يخلو بحث من البحوث العلمية من الصعاب التي تكون حائلا بين الباحث والمعارف العلمية التي يصبو الوصول إليها، ومن أهم الصعوبات :

- البحث عن مراد الله من خلال سورة التوبة وهذا قد يجعل الباحث - في بعض الأحيان - يتوقف الساعات بل الليالي ذوات العدد لتحقيق مسألة.

- إرادة النسيج على غير منوال سابق: فلم أسلك في بجني هذا سبيل غيري بل سرت فيه على أسلوب عندي بكر، ولعلّ هذا يكون أدعى للصفح عما يظهر في البحث من خلل ونقص، ولا يسلم كلام من نقص إلا أن يكون وحياً.

- العوائق الشخصية الكثيرة - الالتزامات - التي تؤدي في بعض الأحيان إلى الانقطاع عن البحث الأشهر ذوات العدد - والإنقطاع آفة البحث -.

والحمد لله الذي يسر جمع هذه المادة العلمية في هذا البحث، والشكر له على نعمه العظيمة المتوالية وآلائه المتتابعة.

فإن كنت أصبت فيما جمعت ورتبت فهذا فضل الله تعالى، وإن كانت الأخرى فذاك حال أهل النقص والتقصير، وإن كان المجتهد المخطئ لا يعدم أجراً، وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد فيما يستقبل.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.



## الفصل الأول

### بين يدي السورة

المبحث الأول:

التعريف بسورة التوبة

المبحث الثاني:

المناسبات في السورة

## الفصل الأول : بين يدي سورة التوبة

### تمهيد:

هذه مقدمات أضعها بين يدي سورة التوبة تساعد في إعطاء صورة مفصلة عن السورة وبيان الملامح العامة لسورة التوبة، والوقوف على ما يميزها عن غيرها من حيث: التعريف والافتتاح والاسم والفضل، وسبب وزمن النزول وعدد الآي، وكونها مدنية، وأول وآخر ما نزل منها، ومناسباتها.

عبد القادر للعطوم الإسلامية

### المبحث الأول: التعريف بسورة التوبة

لتبيين الملامح العامة لسورة التوبة والوقوف على ما يميزها عن غيرها من حيث التعريف والافتتاح والاسم والفضل.

### المطلب الأول: التعريف بسورة التوبة

ويشمل التعريف اللغوي ل(السورة) وتعريفها الاصطلاحي وفتحتها والتي تعتبر من مبتكرات القرآن الكريم واسمها ووجه تسميتها وفضلها.

### الفرع الأول: تعريف السورة لغتاً واصطلاحاً.

أ- **التعريف اللغوي: السورة لغتاً:** للسورة لغة معان منها:

- **السورة بمعنى المنزلة:** وكلّ سورة قرآنية منزلة بعد أخرى وهي مقطوعة عن الأخرى وهي درجة إلى غيرها، (والسورة المنزلة، والجمع: سُورٌ وسُور، والسورة من البناء: ما حسن وطال. الجوهري: والسُورُ: جمع سُورة مثل بُسرة وبُسْر، وهي: كل منزلة من البناء، ومنه سورة القرآن لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى، والجمع (سُور) بفتح الواو. قال: ويجوز أن يجمع على: سورَات وسُورَات ... ابن سيده: سميت السورة من القرآن سورةً لأنها درجة إلى غيرها...)<sup>1</sup>.

- **ومنها أنّ السورة تكون بمعنى القطعة:** والسورة القرآنية القطعة من القرآن فقد نزلت السور منجماً؛ الواحدة تلو الأخرى، غير أنه لكل سورة ما يميزها عن غيرها من السور بفتحتها وخاتمها (... والسورة من سور القرآن عندنا قطعة من القرآن سبق وحدأها جمعها كما أنّ الغرفة سابقة للغرف وأنزل الله عزّ وجلّ القرآن على نبيّه صلى الله عليه وسلم شيئاً بعد شيء وجعله مفصلاً وبين كلّ سورة بخاتمها وبادئتها وميّزها من التي تليها)<sup>2</sup>، قال (... ابن سيده: ومن همزها جعلها بمعنى بقية من القرآن وقطعة، وأكثر القراء على ترك الهمزة فيها)<sup>3</sup>.

**ومنها أنّ السورة كون بمعنى الرفعة وسموّ المقام:** لجلال القرآن وسموّ مقامه ومقامه سوره،

(قال ابن الأعرابي: السورة الرفعة وبها سميت السورة من القرآن أي رفعة وخير... السورة من القرآن

<sup>1</sup> لسان العرب - ابن منظور - ج 1 ص 2174. بتصرف في الحذف.

<sup>2</sup> نفسه - ج 1 ص 2174.

<sup>3</sup> نفسه - ج 1 ص 2174.

مَعْنَاهَا الرَّفْعَةُ لِإِجْلَالِ الْقُرْآنِ...<sup>1</sup> اهـ

### ب- التعريف الاصطلاحي

السورة من المصطلحات التي تفرّد بها القرآن الكريم، وقد جعل القرآن سورا في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وتسوير القرآن من السنة في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان القرآن يومئذ مقسما إلى مائة وأربع عشرة سورة بأسمائها)<sup>2</sup>.

ومما جاء في تعريف السورة اصطلاحا:

**التعريف الأول:** (السورة هي طائفة من القرآن لها بداية ونهاية واسم خاص بها يميزها عن غيرها بتوقيف من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)<sup>3</sup>.

**التعريف الثاني:** (السورة قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيّران، مسماة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المناسبة)<sup>4</sup>.

**فالسورة القرآنية:** اسم مخصوص للقطعة من القرآن لها بداية ولها نهاية، تحوي آيات متناسبة المعاني تجمعها موضوعات ومقاصد.

### ثانيا: فواتح السور:

افتتح الله جلّ وعزّ سور القرآن الكريم بأنواع من فواتح الكلام (وقد افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها)<sup>5</sup>.

### الفرع الثاني: افتتاح سورة التوبة

ومن هذه الفواتح: الافتتاح بالجملة الخبرية، وسورة التوبة من السور التي افتتحت بالجملة الخبرية، قال الزركشي<sup>6</sup>: (الاستفتاح بالجملة الخبرية...الرابع: الجمل الخبرية نحو: (يسألونك عن الأنفال)، (براءة من

<sup>1</sup> لسان العرب - ابن منظور - ج 1 ص 2174.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 1 ص 85.

<sup>3</sup> إتيان البرهان في علوم القرآن - الدكتور فضل عباس - ص 443.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 1 ص 84.

<sup>5</sup> البرهان في علوم القرآن - الزركشي - ج 1 ص 164.

<sup>6</sup> نفسه - ج 1 ص 179.

الله)، (أتى أمر الله)، (اقترب للناس حسابهم)، (قد أفلح المؤمنون)، (سورة أنزلناها)، (تنزيل الكتاب)، (الذين كفروا)، (إنا فتحنا)، (اقتربت الساعة)، (الرحمن علم القرآن)، (قد سمع الله)، (الحاقة)، (سأل سائل)، (إنا أرسلنا)، (لا أقسم) في موضعين، (عبس)، (إنا أنزلناه)، (لم يكن)، (القارعة)، (أهلكم)، (إنا أعطيناك)، فتلك ثلاث وعشرون سورة). اهـ

### الفرع الثالث: افتتاحها من مبتكرات القرآن

من مبتكرات القرآن افتتاح سورة بأساليب لم تألفها العرب في طرائقها في افتتاح كلامها فقد (افتتحت السورة كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدل كلمة على الغرض الذي يراد منها)<sup>1</sup>، وذهب ابن عاشور في المقدمة العاشرة لتفسيره التحرير والتنوير إلى أنّ (للقرآن مبتكرات تميّز بها نظمه عن بقية كلام العرب)<sup>2</sup>، ومما تتجلى فيه مبتكرات القرآن افتتاح سورة بأساليب لم تألفها العرب في طرائقها في افتتاح كلامها، فلم تألف العرب إعلان المفاصلة التامة والهجوم على الغرض ابتداء كما جاء في مطلع سورة براءة وسورة محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن عاشور في فصل مبتكرات القرآن: (ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من أول الأمر نحو: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿١﴾ محمد، و﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ التوبة)<sup>3</sup>.

- ويمكنني القول: إن من مبتكرات افتتاح السور كذلك؛ افتتاح السورة بحكم ما انتهت إليه أحداث غزوة تبوك، وتشترك سورة التوبة في هذا الافتتاح مع سورة الأنفال؛ فقد افتتحت سورة التوبة بالبراءة من عهود المشركين: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ التوبة. وافتتحت سورة الأنفال بحكم المختلف فيه من الأنفال التي كانت آخر ما انتهت إليه غزوة بدر الكبرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١﴾ الأنفال.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 102.

<sup>2</sup> نفسه - ج 1 ص 120.

<sup>3</sup> نفسه - ج 1 ص 121.

## المطلب الثاني: اسم سورة التوبة ووجه تسميتها وفضلها

تعرف سورة التوبة بكثرة أسمائها وهي بمجموعها تدل على ما اشتملت عليه السورة من مقاصد وغايات، غير أنها اشتهرت باسمين توقيفين دلت السنة عليهما وهما:

### الفرع الأول: اسم سورة التوبة ووجه تسميتها

فباستقراء أسماء هذه السورة في كلام السلف وفي المصاحف وفي كتب التفسير وكتب الحديث نجد أن الاسم الغالب لها هو: سورة التوبة ومن ذلك:

#### أولاً: ما روي عن السلف رضي الله عنهم:

1 - ما روي عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة التوبة، قال: آلتوبة؟ قال:

(التوبة بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم ومنهم، حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها)<sup>1</sup>.

2 - وما روي عن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عن - وكان ممن يكتب الوحي - أنه قال:

(...فقلت فتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة

التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

(التوبة) إلى آخرهما...)<sup>2</sup>.

3 - وما روي عن البراء - رضي الله عنه - : (أن آخر سورة أنزلت تامة: سورة التوبة، وأن آخر آية

أنزلت: آية الكلاله)<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> صحيح مسلم - كتاب التفسير - باب في سورة براءة والأنفال والحشر. وقام الحديث: عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس:

سورة التوبة، قال: آلتوبة قال: (بل هي الفاضحة ما زالت تنزل، ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحد، إلا ذكر فيها)، قال:

قلت: سورة الأنفال، قال: (تلك سورة بدر) قال: قلت: فالحشر قال: (نزلت في بني النضير). وصحيح البخاري - كتاب تفسير

القرآن - سورة لحشر - باب الجلاء: الإخراج من أرض إلى أرض.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة براءة - باب قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ التوبة، وكتاب فضائل القرآن - باب جمع القرآن.

<sup>3</sup> صحيح مسلم - كتاب الفرائض - باب آخر آية أنزلت آية الكلاله.

4 - وما روي عن أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - حين خطب قال: (أيكم يقرأ سورة التوبة)؟ قال رجل: أنا، قال: اقرأ، فلما بلغ: ﴿... إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ...﴾ التوبة، بكى أبو بكر وقال: (أنا والله صاحبه)<sup>1</sup>.

5 - وما روي عن أبي عطية قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن (تعلموا سورة التوبة، وعلموا نساءكم سورة النور)<sup>2</sup>.

### ثانياً: اسمها التوبة في مصاحف منها:

- 1- المصحف المنسوب لعثمان بن عفان<sup>3</sup> - رضي الله عنه - نسخة متحف طوب قايي سراي.
- 2- وفي كتاب المصاحف<sup>4</sup> لابن أبي داود (ت 316هـ)، قال: (خبر قران سورة الأنفال بسورة التوبة. وقال<sup>5</sup>: ومن سورة التوبة: ﴿أَمْ مَنَ أَسَّسَ بُيُوتَهُ﴾ التوبة، مقطوعة...).
- 3- وفي كتاب مرسوم الخط للإمام إسماعيل بن ظافر بن عبد الله العُقيلي<sup>6</sup> (ت 623هـ): سورة التوبة.
- 4- وفي مصحف المدينة: سورة التوبة.
- 5- مصحف الجزائر: سورة التوبة<sup>7</sup>.

### ثالثاً: اسمها التوبة في تفاسير كثيرة منها:

- 1- تفسير مجاهد<sup>8</sup> (ت 103 هـ): سورة التوبة.
- 2- تفسير مقاتل بن سليمان (ت 150 هـ)<sup>1</sup>: سورة التوبة.

<sup>1</sup> جامع البيان - الطبري - سورة التوبة: القول في تفسير السورة التي يذكر فيها التوبة. ج 14 ص 93.

<sup>2</sup> فضائل القرآن - القاسم بن سلام - باب فضل سورة براءة. ص 241.

<sup>3</sup> توجد نسخة مصورة منه بمكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية دراسة وتحقيق الأستاذ الدكتور طيار آلي

فولاج، واسم السورة واقع في الصفحة: 232.. وهذه صورة الصفحة:

<sup>4</sup> كتاب المصاحف - ابن أبي داود (ت 316 هـ) - ج 1 ص 225.

<sup>5</sup> نفسه - ج 3 ص 434.

<sup>6</sup> مرسوم الخط - العُقيلي (623 هـ) - ص 121.

<sup>7</sup> المطبعة الثعالبية - الجزائر - ردوسي قدور بن مراد التركي - طبعة: 1350 هـ / 1931 م.

<sup>8</sup> تفسير مجاهد - مجاهد بن جبر - ص 97. ثم اطلعت على الطبعة الأولى كذلك (1410 هـ - 1989 م) بتحقيق د/محمد عبد السلام

أبو النيل ص 363. وأخرى بالطبعة الأولى 1426 هـ - 2005 م ضبط نصه وخرج أحاديثه أبو محمد الأسيوطي.

- 3- تفسير عبد الرزاق الصنعاني<sup>2</sup> (ت 211 هـ)، قال: سورة التوبة وهي مدنية.
- 4- سنن سعيد بن منصور - بداية التفسير (ت 227 هـ) قال: تفسير سورة التوبة<sup>3</sup>.
- 5- تفسير الطبري<sup>4</sup> (ت 310 هـ)، قال: القول في تفسير السورة التي يذكر فيها التوبة.
- 6- تفسير ابن أبي حاتم<sup>5</sup> (ت 327 هـ)، قال: ومن السورة التي تذكر فيها التوبة قوله تعالى:
- ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾
- 7- تفسير الماتريدي<sup>6</sup> المسمى: تأويلات أهل السنة لمحمد بن محمد أبو منصور الماتريدي (ت 333 هـ): سورة التوبة.
- 8- الكشف والبيان عن تفسير القرآن - الثعلبي (ت 427 هـ)<sup>7</sup>: قال: سورة التوبة مدنية...
- 9- النكت والعيون للماوردي<sup>8</sup> (ت 450 هـ): سورة التوبة مدنية عند جميعهم.
- 10- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي<sup>9</sup> (ت 875 هـ): وتسمى سورة التوبة.
- وبعد هذه القرون توالى تسميتها: سورة التوبة.

#### رابعاً: في كتب الحديث

وترجم لها الترمذي<sup>10</sup> في (جامعه) باسم التوبة.

#### وجه تسمية السورة بسورة التوبة

ينسب اسم سور التوبة مع كثرة ذكر لفظ التوبة فيها، فقد ورد ذكر لفظ (التوبة) فيها ثلاث عشرة مرة (13)، ومن أبرز المواضع التي وردت فيها: توبة الله تعالى على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وهو

<sup>1</sup> تفسير مقاتل بن سليمان - مقاتل بن سليمان (ت 150 هـ) - ج 2 ص 133.

<sup>2</sup> تفسير القرآن - عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 211 هـ) - ج 2 ص 131.

<sup>3</sup> سنن سعيد بن منصور - ج 5 ص 231.

<sup>4</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري (ت 310 هـ) - ج 14 ص 93.

<sup>5</sup> تفسير ابن أبي حاتم - ابن أبي حاتم الرازي - مج 6 ص 1745.

<sup>6</sup> تأويلات أهل السنة - أبو منصور الماتريدي (ت 333 هـ) - ج 1 ص 379.

<sup>7</sup> الكشف والبيان عن تفسير القرآن - الثعلبي (ت 427 هـ) - ج 5 ص 5.

<sup>8</sup> النكت والعيون - الماوردي (ت 450 هـ) - ج 2 ص 336.

<sup>9</sup> الجواهر الحسان في تفسير القرآن - عبد الرحمن الثعالبي (ت 875 هـ) - ج 3 ص 161.

<sup>10</sup> سنن الترمذي الجامع الصحيح - أبواب تفسير القرآن - باب و من سورة التوبة - ج 5 ص 272.

حدث عظيم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ التوبة.

### - اسم السورة الثاني : سورة براءة

تسمى هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كلام السلف<sup>1</sup>: سورة براءة، وهو من أشهر أسمائها.

#### أولاً: كتب الحديث

- ترجم لها البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، قال: سورة براءة<sup>2</sup>.
- ترجم لها مسلم في صحيحه في كتاب التفسير - باب في سورة براءة والأنفال والحشر<sup>3</sup>.
- روى البخاري<sup>4</sup> أنّ أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر، نُؤذَنُ بِمَنَى: أن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّاً، فأمره أن يؤذن ببراءة<sup>5</sup>، قال أبو هريرة: فأذن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر: لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.
- و روى البخاري<sup>6</sup> ومسلم<sup>7</sup> عن البراء رضي الله عنه قال: (آخر سورة نزلت كاملة براءة، وآخر سورة نزلت خاتمة سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكًا... ﴿١٧٦﴾) والنساء، وبذلك ترجم لها في كتاب التفسير مسلم<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 95.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة براءة - ج 6 ص 63. ط/السلطانية.

<sup>3</sup> صحيح مسلم - كتاب التفسير - باب في سورة براءة والأنفال والحشر - ج 8 ص 245. ط التركية.

<sup>4</sup> صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة البقرة - باب قوله: (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير...). وكتاب الصلاة - باب ما يستر من العورة.

<sup>5</sup> (يؤذن براءة): يقرؤها على الناس، وبراءة اسم لسورة التوبة وسميت براءة لأنها تبدأ بقوله تعالى (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) - شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق.

<sup>6</sup> كتاب المغازي - باب حجّ أبي بكر بالناس في سنة تسع.

<sup>7</sup> كتاب الفرائض - باب آخر آية أنزلت آية الكلاله - ولفظه: عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب يقول: (آخر آية أنزلت آية الكلاله وآخر سورة أنزلت براءة).

<sup>8</sup> صحيح مسلم - كتاب التفسير - باب في سورة براءة والأنفال والحشر.

## ثانيا كتب التفسير

- 1- تفسير سفيان الثوري<sup>1</sup> (ت 161هـ) قال: ومن سورة براءة.
- 2- تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين<sup>2</sup> (ت 399هـ): قال تفسير سورة براءة وهي مدنية كلها.
- 3- تفسير: الهداية إلى بلوغ النهاية لمحمد مكي بن أبي طالب (ت 437هـ)، قال<sup>3</sup>: تفسير سورة براءة.
- 4- التفسير البسيط للواحدي<sup>4</sup> (ت 468هـ) قال: تفسير سورة براءة.
- 5- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (ت 546هـ)، قال<sup>5</sup>: تفسير سورة براءة هذه السورة مدنية إلا آيتين.
- 6- تفسير القرطبي (ت 671 هـ)، قال القرطبي<sup>6</sup>: تفسير سورة براءة مدنية باتفاق.
- 7- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المشهور بتفسير البيضاوي<sup>7</sup> (ت 685هـ): سورة براءة مدنية.
- 8- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت 885 هـ)<sup>8</sup> قال: سورة براءة مقصودها معادة...  
9- وسماها الداني<sup>9</sup>: براءة، يقول وفي براءة ﴿... أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ...﴾ ﴿١١٩﴾ التوبة، مقطوع.

## وجه تسميتها ببراءة

سُمِّيت السورة (ببراءة) لافتتاح السورة بالبراءة من المشركين ونقض ما كان بين رسول صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهود التي كانوا عليها فيما بينه وبينهم: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ التوبة.

## ذكر الاسمين في حديث واحد:

- 1 تفسير سفيان الثوري - ص 123.
- 2 تفسير القرآن العزيز- ابن أبي زَمَنِين (ت 399هـ) - ج 2 ص 191 .
- 3 الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) - ج 4 ص 2903 .
- 4 الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- الواحدي- ج 10 ص 277.
- 5 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية (ت 546هـ) - ج 3 ص 3.
- 6 الجامع لأحكام القرآن - القرطبي (ت: 671هـ) - ج 10 ص 93.
- 7 أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوي (ت 685 هـ) - ج 9 ص 140.
- 8 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- برهان الدين البقاعي (ت 885 هـ) - ج 8 ص 350.
- 9 في كتابه: المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار - باب ذكر ما اتفقت على رسمه مصاحف أهل الأمصار من أول القرآن إلى آخره- ص 504.

ذكر اسم التوبة وبراءة معاً في حديث زيد بن ثابت، كما في صحيح البخاري: (...حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ التوبة، حتى خاتمة براءة...<sup>1</sup>.

### أسماء أخرى توفيقية لسورة التوبة

ذكر ابن الجوزي أنّ لها تسعة أسماء، قال في تفسيره<sup>2</sup>: ولها تسعة أسماء أحدها: سورة التوبة، والثاني: براءة وهذان مشهوران بين الناس. والثالث: سورة العذاب قاله حذيفة. والرابع: المشقشة قاله ابن عمر. والخامس: سورة البحوث لأنها بحثت عن سرائر المنافقين قاله المقداد بن الأسود. والسادس: الفاضحة لأنها فضحت المنافقين قاله ابن عباس. والسابع: المبعثرة لأنها بعثرت أخبار الناس وكشفت عن سرائرهم قاله الحارث بن يزيد وابن إسحاق. والثامن: المنيرة لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم قاله قتادة. والتاسع: الحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين قاله الزجاج.

<sup>1</sup> صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري - باب جمع القرآن.

<sup>2</sup> زاد المسير في علم التفسير - ابن الجوزي (ت 597هـ) - ج 2 / ص 230 .

## الفرع الثاني: فضل سورة التوبة

لم يرد في فضل سورة التوبة حديث يبيّن فضلها خاصّة، غير أنّها مشمولة بحديث وأثر:

أما الحديث: فحديث فضل سور المئين؛ فعن واثلة بن الأسقع عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: (

أعطيت مكان التوراة السبع ومكان الزبور المئين ومكان الإنجيل المثاني وفُضِّلَت بالمفصّل)<sup>1</sup>.

أما الأثر: فما روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه أمر بتعلّمها:

فعن أبي عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم

سورة النور، وحلوهنّ الفضة)<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> انظر: مسند الطيالسي - سليمان بن داود (ت 204 هـ) - ج 2 ص 351. ورواه عنه أحمد بن حنبل في مسنده - مسند

الشاميين حديث واثلة بن الأسقع . ورواه عنه الطبري - جامع البيان - القول في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه - ج 1 ص 100.

البيهقي - السنن الصغير - كتاب الصلاة تفريع أبواب سائر صلاة التطوع - باب تخصيص السبع الطوال بالذكر ج 2 ص 546.

والجامع لشعب الإيمان - البيهقي - السبع الطوال - ج 4 ص 71. ودلائل النبوة - جماع أبواب غزوة تبوك - باب ما جاء في

تحدث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم - ج 6 ص 108.

<sup>2</sup> التفسير من سنن سعيد بن منصور (ت 227 هـ) - تفسير سورة التوبة - ج 3 ص 294. والجامع لشعب الإيمان - البيهقي - ذكر

سورة الأعراف والتوبة والنور - ج 4 ص 82.

المطلب الثالث: سبب وزمن نزولها وعدد آياتها.

### الفرع الأول: سبب نزولها

لم ترد مرويات يعتد بها في إثبات سبب نزول سورة التوبة كاملة، إلا ما روى الطبري<sup>1</sup> بسنده عن ابن إسحاق قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحاج من سنة تسع، ليقوم للناس حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين، ونزلت سورة براءة في نقض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم: أن لا يُصدَّ عن البيت أحدٌ جاءه، وأن لا يُخاف أحدٌ في الشهر الحرام.

وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك. وكانت بين ذلك عهد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل من العرب خصائص إلى أجل مسمى، فنزلت فيه وفيمن تخلف عنه من المنافقين في تبوك، وفي قول من قال منهم، فكشف الله فيها سراير أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون، منهم من سمي لنا، ومنهم من لم يسم لنا، فقال: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(١)</sup> التوبة، أي: لأهل العهد العام من أهل الشرك من العرب ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾<sup>(٢)</sup> إلى قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...﴾<sup>(٣)</sup> التوبة، أي: بعد هذه الحجة.

وأما البغوي<sup>2</sup> فقال: قال المفسرون: (لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ...﴾<sup>(٤)</sup> الأنفال.

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري (310 هـ) - ج 14 ص 96 و97. وسيرة ابن هشام - ج 4 ص 188.

<sup>2</sup> معالم التنزيل - البغوي (ت 516 هـ) - ج 4 ص 8.

## الفرع الثاني: زمن نزول السورة

كان نزول سورة التوبة بين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لغزو الروم في رجب سنة تسع وكان (ذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاد: وحين طابت الثمار، والناس يجبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه)<sup>1</sup> وبين الخروج إلى (غزوة تبوك في رجب سنة تسع)<sup>2</sup> وما وقع في أعقابها من أحداث، ثم رجوع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وخروج أبي بكر الصديق إلى الحج، وتكليف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنداء في الناس ببراءة.

فتكون سورة التوبة هي آخر سورة نزلت كاملة بالمدينة وذلك لما روي عن البراء رضي الله عنه قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكًا ...﴾<sup>3</sup> النساء.

وممن قال بذلك:

- الزجاج<sup>4</sup> قال: وبراءة نزلت في سنة تسع من الهجرة، وافتتحت مكة في سنة ثمان.
- وابن كثير قال<sup>5</sup>: (وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ...).
- وابن عاشور قال<sup>6</sup>: (وهذه السورة آخر السور نزولاً عند الجميع، نزلت بعد سورة الفتح في قول جابر بن زيد، فهي السورة الرابعة عشرة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن.
- وروي: أنها نزلت في أول شوال سنة تسع وقيل آخر ذي القعدة سنة تسع بعد خروج<sup>7</sup> أبي بكر الصديق من المدينة للحجّة التي أمره عليها النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: قبيل خروجه.

1 السيرة النبوية - ابن هشام - ج 2 ص 516.

2 نفسه - ج 2 ص 515.

3 صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة النساء - باب يستفتونك قل: الله يفتيكم في الكلاله.

4 معاني القرآن وإعرابه - الزجاج (ت 311هـ) - ج 2 ص 427.

5 تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (ت 774هـ) - ج 4 ص 102.

6 التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 97.

7 وقال في موضع آخر: وأكثر الأقوال على أنّ براءة نزلت قبل خروج أبي بكر من المدينة - ج 10 ص 97.

والجمهور على أنّها نزلت دفعة واحدة، فتكون مثل سورة الأنعام بين السور الطوال. وفسّر كثير من المفسّرين بعض آيات هذه السورة بما يقتضي أنّها نزلت أوزاعاً في أوقات متباعدة، كما سيأتي، ولعلّ مراد من قال إنّها نزلت غير متفرقة: أنّه يعني إنّها لم يتخلّلها ابتداء نزول سورة أخرى).

### الضريح الثالث: ظروف نزول سورة التوبة

وصف القرآن الكريم الظروف التي وقعت في أثناءها غزوة تبوك فقد كانت في زمان من عسرة الناس وشدة من الحرّ وجذب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم وبعد الشقة المسير إلى الأرض البعيدة وطول السفر والمقام بعيداً عن الأهل والولد ومقارعة جحافل الروم في عقر دارهم فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ التوبة.

**ساعة العسرة:** وقد وصف ابن هشام في سيرته ساعة العسرة بقوله: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحرّ وجذب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كآتى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبطه فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم)<sup>1</sup>.

وطُلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يحدث بشأن ساعة العسرة فوصف ما أصابهم من الشدة فيها، فعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال عمر: (خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع حتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظنّ أنّ رقبته ستقطع حتى إن الرجل ينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في

<sup>1</sup> السيرة النبوية - ابن هشام (ت 218 هـ) - ج 2 ص 515.

الدعاء خيرا فادع لنا، فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر...<sup>1</sup>

**بعد الشقة:** فلبعد المكان فلا يقطع إلا بتكبد المشقة والتعب فنقل على المسلمين السفر (واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوما، أقام منها عشرين يوما في تبوك، والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوبا)، ولذلك قال الله جلّ وعزّ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾<sup>2</sup> التوبة، وقد جاء في لسان العرب<sup>3</sup>: (والشقة السفر البعيد يقال شقة شاقة وربما قالوه بالكسر. الأزهري، والشقة: بعد مسير إلى الأرض البعيدة، قال الله تعالى: ﴿...وَلَا كُنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ...﴾<sup>4</sup> وفي حديث وفد عبد القيس: (إنا نأتيك من شقة بعيدة)<sup>3</sup> أي: مسافة بعيدة. والشقة أيضا: السفر الطويل.

<sup>1</sup> صحيح ابن خزيمة - أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت 311هـ) تحقيق - كتاب الوضوء - جماع أبواب ذكر الماء الذي لا ينجس - باب ذكر الدليل على أن الماء إذا خالطه فرث ما يؤكل لم ينجس - ج 1 ص 92.

- وصحيح ابن حبان - كتاب الطهارة - باب النجاسة وتطهيرها، ذكر الخبر الدال على أن فرث ما يؤكل لحمه غير نجس. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. ج 4 ص 223.

- المستدرک علی الصحیحین للحاکم - كتاب الطهارة - ج 1 ص 263.

- البحر الزخار مسند البزار - ومما روى نافع بن جبیر - ج 1 ص 331.

- السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الضحايا جماع أبواب ما لا يحل أكله وما يجوز للمضطر من الميتة - باب ما يحل من الميتة بالضرورة - ج 19 ص 569.

<sup>2</sup> لسان العرب - ابن منظور - ج 4 ص 2302.

<sup>3</sup> صحيح البخاري - كتاب العلم - باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم. ج 1 ص 28. ط السلطانية.

الضرع الرابع : عدد آي سورة التوبة<sup>1</sup>

وهي مئة وتسع وعشرون آية في العدّ الكوفي وثلاثون في عدد الباقرين<sup>2</sup>.

اختلفها ثلاث آيات:

﴿ أَنْ اللَّهُ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة، عدّها البصري ولم يعدّها الباقر.

﴿ إِلَّا تَفْرُوا يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ التوبة، وهو الأول عدّها الشامي ولم يعدّها الباقر.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ التوبة، عدّها المدنيان والمكي ولم

يعدّها الباقر.

<sup>1</sup> كتاب عدد آي القرآن - أبو الحسن علي بن محمد الأنطاكي (299هـ / 388هـ) - ص 74 و 275 و 276.

- و البيان في عدّ آي القرآن - الداني - ص 160.

- وجمال القراء وكمال الإقراء - السخاوي (ت 643 هـ) - ج 2 ص 524.

- وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - الفيروزآبادي (ت 817) - ج 1 ص 227.

<sup>2</sup> غير أن الشوكاني قال: هي مئة وثلاثون آية وقيل مائة وسبع وعشرون آية.

## المطلب الرابع : مدنية السورة وأول وآخر ما نزل منها.

## الفرع الأول: تقرير مدنية السورة

مدامت سورة التوبة قد نزلت في السنة التاسعة للهجرة وسجلت أحداث غزوة تبوك إعدادا وخروجا ورجوعا وتوبة على الثلاثة الذين خلفوا... فإنها مدنية بلا خلاف، ولذلك ذهب جمهور المفسرين إلى أن سورة التوبة مدنية بالاتفاق<sup>1</sup>، وجاء في الدر المنثور<sup>2</sup> : (سورة التوبة مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة).

وذكر الخلاف في الآيتين الأخيرتين من السورة وهما قوله جلّ وعزّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ التوبة، أمكيتان هما أم مدنيّتان على قولين:

## القول الأول: الآيتان مدنيّتان:

1- روى ابن جرير الطبري أثريّن يدلان على مدنية الآيتين قال<sup>3</sup> :

الأول: عن أبيّ بن كعب قال: (آخر آية نزلت من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... ﴿١٢٨﴾﴾ التوبة، إلى آخر الآية.

والثاني: عن أبيّ قال: (آخر آية<sup>4</sup> نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... ﴿١٢٨﴾﴾ التوبة، الآية<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> انظر: تفسير القرآن العزيز- ابن أبي زَمَنِين (399 هـ) - ج 2 ص 191.

- النكت والعيون- الماوردي (ت450هـ)- ج 2 ص 336.

- تفسير القرآن- أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني (489هـ) - ج 2 ص 274.

- و المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ابن عطية الأندلسي (ت546 هـ) - ج 3 ص 33.

- الجامع لأحكام القرآن- القرطبي (ت:671هـ)- ج 10 ص 93.

- البرهان في علوم القرآن - الزركشي - ج 1 ص 194.

<sup>2</sup> الدر المنثور في التفسير بالمأثور- جلال الدين السيوطي (911 هـ) - ج 7 ص 222.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن- ابن جرير الطبري (310 هـ)- ج 14 ص 588 و589.

<sup>4</sup> تعقب القرطبي الأثرين بقوله: وحكى النقاش عن أبي بن كعب أنه قال: أقرب القرآن عهدا بالله تعالى هاتان الآيتان " لقد جاءكم رسول من أنفسكم" إلى آخر السورة، وقد بيناه. وروى يوسف بن مهراّن عن ابن عباس أن آخر ما نزل من القرآن " لقد جاءكم

وروى ابن أبي حاتم<sup>2</sup> بسنده عن أبي بن كعب: (أنهم جمعوا القرآن فلما انتهوا إلى هذه الآية: ﴿... ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ...﴾ ﴿١٢٧﴾ التوبة، فظنوا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبي بن كعب: إن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأني بعد هذا آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ ﴿١٢٨﴾ التوبة إلى قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٢٩﴾ التوبة.

قال: فهذا آخر ما نزل من القرآن، فختم الأمر بما فتح به ب (لا إله إلا الله) يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٥﴾ الأنبياء.

2- و قال مكِّي بن أبي طالب<sup>3</sup>: (قال أبي بن كعب: آخر آية نزلت ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ ﴿١٢٨﴾ التوبة، إلى آخر السورة).

3- وأما ابن العربي فقال<sup>4</sup>: (قال علماؤنا: هذه السورة من آخر ما نزل بالمدينة)، دون أن يستثني الآيتين الأخيرتين، فدل ذلك على مدنيتهما.

4- وأما ابن عطية<sup>5</sup> فقد ذهب في بداية تفسيره للسورة إلى أن الآيتين الأخيرتين مكيتان يقول: (هذه السورة مدنية إلا آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ...﴾ ﴿١٢٨﴾ التوبة، إلى آخرها).

رسول من أنفسكم" وهذه الآية، ذكره الماوردي. وقد ذكرنا عن ابن عباس خلافة، على ما ذكرناه في البقرة وهو أصح - ج 8 ص 303.

1 قال المحقق أحمد محمد شاكر: علي بن زيد بن جدعان سبي الحفظ، و يوسف بن مهران البصري ثقة. وهذا الخبر رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه 5: 117 من طريق محمد بن أبي بكر عن بشر بن عمر عن شعبة بتمثله. وخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد 7: 36 وقال: (رواه عبد الله بن أحمد و الطبراني و فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ثقة سبي الحفظ وبقية رجاله ثقات) ا هـ. الهامش رقم 1 - ج 14 ص 589. قلت: ورواه الحافظ ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: كتاب التفسير، باب سورة براءة. قال بعد رواية الحديث: هذا إسناد حسن. مع 14 ص 681.

ورواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين: كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة قال: حديث شعبة عن يونس بن عبيد: (صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي في التلخيص فقال: (على شرط البخاري ومسلم). ج 2 ص 401.

2 تفسير ابن أبي حاتم - ابن أبي حاتم الرازي (327 هـ) - ج 6 ص 1919.

3 الهداية إلى بلوغ النهاية - مكِّي بن أبي طالب (ت 437هـ) - ج 4 ص 3202.

4 أحكام القرآن - أبو بكر بن العربي (ت 543هـ) - ج 2 ص 444.

5 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 3.

غير أنه عند تفسير الآيتين قال<sup>1</sup>: (وليس تباية موادة لأنها من آخر ما نزل) فاندفع أول كلامه بآخره، وثبت بكلامه - رحمه الله - أن الآيتين مدنيتان.

ثم قال في آخر تفسير الآيتين<sup>2</sup>: (وذكر النقاش عن أبي بن كعب أنه قال أقرب القرآن عهدا بالله تعالى هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ...﴾ ﴿١٢٨﴾ التوبة إلى آخر الآية.

5- وجاء في تفسير ابن كثير<sup>3</sup>: (هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم). دون أن يستثني الآيتين. وفي آخر تفسير السورة أورد الآثار الدالة على مدنية الآيتين.

6- أما البغوي<sup>4</sup> فقد صدر تفسير سورة التوبة بقوله: (قال مقاتل: هذه السورة مدنية إلا آيتين من آخر السورة). غير أنه عند تفسيره للآيتين ذهب إلى مدنية الآيتين، فقد جاء في تفسيره قوله: (روي عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ ﴿١٢٨﴾ التوبة، إلى آخر السورة، وقال: (هما أحدث الآيات بالله عهدًا).

**والقول الثاني:** سورة التوبة مدنية بالاتفاق، إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان، وهما قوله جلّ وعزّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٢٩﴾ التوبة.

من القواعد التي يحتكم إليها في استثناءات السور أنّ: الأصل في السورة المكية أن تكون كل آياتها مكية، ولا يقبل القول بمدنية بعض آياتها إلا بدليل استثنائي صحيح، كما أنّ السورة المدنية يحكم بجميع آياتها بأنها مدنية، إلا ما خرج بدليل استثنائي صحيح<sup>5</sup>.

ومن الذين ذهبوا إلى أنّ الآيتين مكيتان:

1- مقاتل ابن سليمان<sup>1</sup> إذ يقول: (سورة براءة مدنية كلها غير آيتين هما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ

<sup>1</sup> نفسه - ج 3 ص 115.

<sup>2</sup> نفسه - ج 3 ص 115.

<sup>3</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 101.

<sup>4</sup> معالم التنزيل - البغوي (ت 516 هـ) - ج 4 ص 116.

<sup>5</sup> المكي والمدني - محمد شفاعة رباني - موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - ص 7.

جَاءَكُمْ رَسُولٌ... ﴿التوبة﴾، إلى آخر السورة فإنهما مكيتان... وفي آخر تفسير السورة يقول<sup>2</sup>:  
(فنزلت هاتان الآيتان بمكة وسائرهما بالمدينة).

وقد تعقب القرطبي<sup>3</sup> قول مقاتل بقوله: (وقال مقاتل: تقدم نزولها بمكة، وهذا فيه بعدٌ لأن السورة مدنية، والله أعلم).

واعتبر ابن عاشور رواية مكية الآيتين من آخر سورة التوبة عن مقاتل رواية شاذة (وشد ما روي عن مقاتل: أن آيتين من آخرها مكيتان، وهما: لقد جاءكم رسول من أنفسكم...) التوبة 128 إلى آخر السورة)<sup>4</sup>.

2- وأما الماوردي<sup>5</sup> فقد ذكر رواية أبي بن كعب فقال: (روى يوسف بن مهرا عن ابن عباس أن آخر ما أنزل من القرآن هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ وهذه الآية. وقال أبي بن كعب: هما أحدث القرآن عهداً بالله، ثم ذكر رواية مقاتل وقال: (وقال مقاتل: تقدم نزولها بمكة، والله أعلم). ثم توقف الماوردي ولم يرجح إحدى الروايتين على الأخرى.

3- وقال ابن الجوزي في تفسيره<sup>6</sup>: (هي مدنية بإجماعهم<sup>7</sup> سوى الآيتين في آخرها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ ﴿التوبة﴾، فإنها نزلت بمكة) ولم يزد على كونها مكية، ولكنه عند تفسيره للآيتين في آخر السورة أثبت الرواية عن أبي رضي الله عنه وقال: (قال أبي بن كعب آخر آية أنزلت (لقد جاءكم رسول) إلى آخر السورة)<sup>8</sup>.

**تعليق:** يظهر من كلامه رحمه الله في أول السورة إذ يقول: (فإنها نزلت بمكة) أنه يميل إلى كونها مكية لأنه في آخر السورة ذكر الرواية في آخر التفسير ولم يعلق ولو بكلمة واحدة.

<sup>1</sup> تفسير مقاتل بن سليمان - مقاتل بن سليمان - ج 2 ص 153.

<sup>2</sup> نفسه - ج 2 ص 79.

<sup>3</sup> الجامع لأحكام القرآن - القرطبي (ت 671هـ) - ج 8 ص 303.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عشور - ج 10 ص 97.

<sup>5</sup> النكت والعيون - الماوردي (ت 450هـ) - ج 2 ص 419.

<sup>6</sup> زاد المسير في علم التفسير - ابن الجوزي (ت 597 هـ) - ج 2 ص 230.

<sup>7</sup> واستدل على ذلك بما رواه البخاري قال: (روى البخاري في صحيحه من حديث البراء قال آخر سورة نزلت براءة)

<sup>8</sup> زاد المسير في علم التفسير - ابن الجوزي (ت 597 هـ) - ج 2 ص 313.

4- وقال ابن الفرس<sup>1</sup>: هي مدنية إلا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ (١٢٨) التوبة ، آخر السورة.

**والخلاصة:** إنَّ القول بمدنية الآيتين من آخر سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩) التوبة، أولى لصحة الخبر عن أبي بن كعب وأنَّ كلَّ الذين قالوا بمدنية الآيتين من آخر سورة التوبة اعتمدوا على قول مقاتل بن سليمان: (سورة التوبة سورة براءة مدنية كلها غير آيتين هما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ (١٢٩) إلى آخر السورة)<sup>2</sup>.

### الفرع الثاني: أول وآخر ما نزل منها؛

يعتمد في بيان أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن على النقل الصحابة الذين عايشوا التنزيل - رضي الله عنهم - وقد أجمل ابن الجوزي الاختلاف المنقول في: أول ما نزل من براءة وآخر ما نزل منها: بقوله: (واختلفوا في أول ما نزل من (براءة) على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن أول ما نزل منها قوله تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) «2»، قاله مجاهد.

والثاني: انْفَرُّوا خِفَافًا وَثِقَالًا ، قاله أبو الضحى وأبو مالك.

والثالث: إِلَّا تَنْصُرُوهُ، قاله مقاتل.

وهذا الخلاف إنما هو في أول ما نزل منها بالمدينة، فإنهم قد قالوا: نزلت الآيتان اللتان في آخرها بمكة)<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> أحكام القرآن - ابن الفرس (ت 597هـ) - ج 3 ص 113.

<sup>2</sup> تفسير مقاتل بن سليمان - مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت ١٥٠هـ) - ج 2 ص 154.

<sup>3</sup> زاد المسير في علم التفسير - ج 2 ص 230.

### المطلب الخامس : وجه عدم كتابة البسملة في مطلع سورة التوبة:

مدار هذه المسألة على الحديث الذي رواه يزيد الفارسي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقد جزم أحمد شاكر في تحقيقه لمسند الإمام أحمد بأن هذا الحديث ضعيف جداً، بل لا أصل له بناء على القواعد الصحيحة التي يطبقها أهل الصنعة، قال: (... حديث لا أصل له تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث...) <sup>1</sup> وقد أخرج هذا الحديث: أبو داود <sup>2</sup>، ورواه مع زيادة الترمذي <sup>3</sup> وابن حبان <sup>4</sup> والحاكم في المستدرک <sup>5</sup>، ورواه أيضاً بتلك الزيادة أحمد <sup>6</sup>، والنسائي <sup>7</sup> والبيهقي <sup>8</sup> في دلائل النبوة والطبري في تفسيره <sup>9</sup> والبزار <sup>10</sup> في مسنده وابن أبي داود في المصاحف <sup>11</sup> والنحاس في الناسخ والمنسوخ <sup>12</sup> كلهم يروي عن يزيد الفارسي قال: حدثنا ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: (ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطول، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: (ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)

<sup>1</sup> مسند أحمد بن حنبل (ت 241هـ) - ج 1 ص 333.

<sup>2</sup> سنن أبي داود - كتاب الصلاة أبواب تفریع استفتاح الصلاة - باب من جهر بها - يعني البسملة -

<sup>3</sup> الجامع الصحيح - سنن الترمذي - الذبائح أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب: ومن سورة التوبة وقال: هذا حديث حسن.

<sup>4</sup> صحيح ابن حبان - كتاب الوحي - ذكر ما كان يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن.

<sup>5</sup> المستدرک على الصحيحين - الحاكم - كتاب التفسير - تفسير سورة التوبة . وقال في الموضوع الثاني: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

<sup>6</sup> مسند أحمد بن حنبل - مسند العشرة المبشرين بالجنة - مسند الخلفاء الراشدين - مسند عثمان بن عفان رضي الله عنه - ج 1 ص 57، 69.

<sup>7</sup> السنن الكبرى - النسائي - كتاب فضائل القرآن السورة التي يذكر فيها كذا.

<sup>8</sup> دلائل النبوة - البيهقي - جماع أبواب غزوة تبوك جماع أبواب كيفية نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في تأليف القرآن . ومعرفة السنن والآثار - البيهقي كتاب الصلاة.

<sup>9</sup> جامع البيان - الطبري - القول في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه - ج 1 / 45

<sup>10</sup> البحر الزخار - مسند البزار - عبد الله بن عباس

<sup>11</sup> وابن أبي داود خبر قران سورة الأنفال بسورة التوبة.

<sup>12</sup> الناسخ والمنسوخ - النحاس - سورة براءة - ج 2 / 396.

وإذا نزلت عليه الآية فيقول: (ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)، وكانت الأنفال من أوائل ما نزلت بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظنت أنها منها، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، فوضعتها في السبع الطول). قال الترمذي: هذا حديث حسن<sup>1</sup> لا

<sup>1</sup> وقد علق العلامة أحمد شاكر على هذا الحديث في تحقيقه لمسند الإمام أحمد بكلام نفيس، وجزم بأن هذا الحديث ضعيف جداً، بل لا أصل له؛ لأن إسناده يدور على يزيد الفارسي وقال: في إسناده نظر كثير بل هو عندي ضعيف جداً، بل هو حديث لا أصل له، يدور إسناده في كل رواياته على: يزيد الفارسي الذي رواه عن ابن عباس، تفرد به عنه عوف بن أبي جميلة الأعرابي، وهو ثقة، فقد رواه أبو داود: 287-288 - والترمذي 4: 113، وقال: (هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس)، وفي نسخة الترمذي طبعة بولاق 2: 182 - 183 (حسن صحيح) وزيادة التصحيح خطأ، فإن النسخ الصحيحة التي في شرحه للمباركفوري ليس فيها هذا، وكذلك لم يذكر في مخطوطتنا الصحيحة من الترمذي، التي صحّحها الشيخ عابد السندي محدث المدينة في القرن الماضي، وهي التي وصفها في ص 13 من مقدمة شرحي على الترمذي، وأيضاً فلم ينقل المنذري والسيوطي عن الترمذي إلا تحسينه، انظر شرح أبي داود والدر المنثور 3، 207 ورواه أيضاً ابن أبي داود في كتاب المصاحف 31 - 32 بثلاثة أسانيد، والحاكم في المستدرک 2: 330.221 وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي! ورواه البيهقي في السنن الكبرى 2: 42، كلهم من طريق عوف عن يزيد الفارسي، ونسبه السيوطي أيضاً في الدر المنثور لابن أبي شيبه والنسائي - ولم أجد فيه - وابن المنذر وابن حبان، وغيرهم، ويزيد الفارسي هذا اختلفت فيه: أهو يزيد بن هرمز أم غيره؟ قال البخاري في التاريخ الكبير 2/ 367: "قال لي عليّ: قال عبد الرحمن: يزيد الفارسي هو ابن هرمز، قال: فذكرته ليحيى فلم يعرفه، قال: وكان يكون مع الأمراء". وفي التهذيب 11: 369: "قال ابن أبي حاتم: اختلفوا هل هو - يعني ابن هرمز - يزيد الفارسي أو غيره، فقال ابن مهدي وأحمد: هو ابن هرمز، وأنكر يحيى بن سعيد القطان أن يكون واحداً، وسمعت أبي يقول: يزيد بن هرمز هذا ليس يزيد الفارسي، هو سواه". وذكره البخاري أيضاً في كتاب "الضعفاء الصغير" ص 37 وقال نحوه من قوله في التاريخ الكبير، فهذا يزيد الفارسي الذي انفرد برواية هذا الحديث، يكاد يكون مجهولاً، حتى شبه على مثل ابن مهدي وأحمد والبخاري أن يكون هو ابن هرمز أو غيره، ويذكره البخاري في الضعفاء، فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن، الثابتة بالتواتر القطعي، قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك، فلا علينا إذا قلنا إنه: حديث لا أصل له تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث، قال السيوطي في تدريب الراوي 99 في الكلام على أمارات الحديث الموضوع: أن (يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية، أو السنة المتواترة، أو الإجماع القطعي). وقال الحافظ ابن حجر في شرح النخبة: (ومنها ما يؤخذ من حال المروي، كأن يكون مناقضاً لنص القرآن، أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي)، وقال الخطب في كتاب الكفاية 432: (ولا يقبل خير الواحد في منافية حكم العقل، وحكم القرآن الثابت المحكم والسنة المعلومة والفعل الجاري مجرى السنة وكل دليل مقطوع به). وكثيراً ما يضعف أئمة الحديث رايواً لانفرادهم براوية حديث منكر يخالف المعلوم من الدين بالضرورة، أو يخالف المشهور من الروايات، فأولى أن تضعف يزيد الفارسي هذا، بروايته هذا الحديث منفرداً به.

نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ويزيد الفارسي قد روى عن ابن عباس غير حديث ويقال هو: يزيد بن هرمز، ويزيد الرقاشي هو: يزيد بن أبان الرقاشي ولم يدرك ابن عباس إنما روى عن أنس بن مالك، وكلاهما من أهل البصرة ويزيد الفارسي أقدم من يزيد الرقاشي.

الذي يترجح - والله أعلم - من ترك البسملة بين سورة الأنفال وسورة براءة هو إتباع ما وجدته عثمان بن عفان ومن اجتمع معه من الصحابة في جمع أبي بكر الصديق - رضي الله عنهم جميعاً - (في المعنى الذي من أجله تركت البسملة في براءة قال مالك في أول براءة: إنما ترك من مضى أن يكتبوا في أولها بسم الله الرحمن الرحيم، فكأنه رآه من وجه الإتيان في ذلك، وكان في آخر ما أنزل من القرآن)<sup>1</sup>، وبدليل أن سورة الأنفال بدأ نزولها في بداية العهد المدني وأما سورة براءة فقد كان نزولها في نهاية العهد المدني، ثم إنَّ (القرآن مرتب من قبل الله تعالى ومن قبل رسوله على الوجه الذي نقل، ولو جوزنا في بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله على سبيل الوحي، لجوزنا مثله في سائر السور وفي آيات السور الواحدة، وتجويزه يطرف ما يقوله الإمامية من تجويز الزيادة والنقصان في القرآن، وذلك يخرج من كونه حجة، بل الصحيح أنه عليه السلام أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحياً، وأنه عليه السلام حذف بسم الله الرحمن الرحيم من أول هذه السورة وحياً)<sup>2</sup>، والذي ذهب إليه الرازي هو المذهب المرضي عندي.

إلا أن البخاري ذكره. في الضعفاء، وينقل عن يحيى القطان أنه كان يكون مع الأمراء، ثم بعد كتابة ما تقدم وجدت الحافظ ابن كثير نقل هذا الحديث في التفسير 4: 106 - 107 وفي كتاب فضائل القرآن المطبوع في آخر التفسير ص 17 - 18 ووجدت أستاذنا العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله علق عليه في الموضوعين، فقال في الموضوع الأول بعد الكلام على يزيد الفارسي: (فلا يصح أن يكون ما انفرد به معتبراً في ترتيب القرآن الذي طلب فيه التواتر). وقال في الموضوع الثاني: (فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر). وهذا يكاد يوافق ما ذهبنا إليه، فلا عبرة بعد هذا كله في الموضوع بتحسين الترمذي ولا بتصحيح الحاكم ولا بموافقة الذهبي، وإنما العبرة للحجة والدليل، والحمد لله على التوفيق.

المرجع: مسند أحمد بن حنبل (ت 241هـ) - ج 1 ص 334.

<sup>1</sup> البيان والتحصيل - ابن رشد القرطبي (ت 520هـ) - ج 17 ص 35. وانظر: التحرير والتنوير - ابن عاشور - ج 10 ص 102.

<sup>2</sup> مفاتيح الغيب - التفسير الكبير - فخر الدين الرازي - ج 15 ص 521.

## المبحث الثاني: المناسبات في السورة

من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً تتنافر أجزاءه، فالعلم بالمناسبة علم بمسالك الكشف عن انتظام مباني الآيات والصور واتساق معانيها، واتصال بعضها ببعض، ومسلك الكشف عن المناسبات هو النظر في أوجه الاتصال بين آي القرآن الكريم والوحدات الموضوعية العامة والفرعية في السورة القرآنية، والسورة القرآنية فيما بينها، للوقوف على أوجه الروابط التي تربط آي القرآن و وحداته الموضوعية وسوره القرآنية.

### المطلب الأول: التعريف بعلم المناسبات

#### الفرع الأول: المناسبات لغتياً واصطلاحاً:

أ. **لغتياً**: يدور معنى كلمة (نسب) حول اتصال الشيء بالشيء وارتباطه واتصاله به لمشاكلته إياه، فقد جاء في معناها: ((نَسَبَ) النُّونُ وَالسِّينُ وَالْبَاءُ كَلِمَةً وَاحِدَةً قِيَاسُهَا اتِّصَالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، مِنْهُ النَّسَبُ، سُمِّيَ لِاتِّصَالِهِ وَلِلاتِّصَالِ بِهِ. تَقُولُ: نَسَبْتُ أَنْسَ ب. وَهُوَ نَسِيبُ فُلَانٍ، وَمِنْهُ النَّسِيبُ فِي الشِّعْرِ إِلَى الْمَرْأَةِ، كَأَنَّهُ ذِكْرٌ يَتَّصِلُ بِهَا؛ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي النِّسَاءِ. ... وَالنَّسِيبُ: الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ، لِاتِّصَالِ بَعْضِهِ مِنْ بَعْضٍ)<sup>1</sup>. (وتقول: ليس بينهما مناسبة، أي مشكلة)<sup>2</sup>، (وَيَبِينُهُمَا (مُنَاسَبَةً) أَي مُشَاكَلَةً)<sup>3</sup>.

#### ب. المناسبات اصطلاحاً

المناسبة في الاصطلاح هي: (ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني)<sup>4</sup>.

فعلم مناسبات القرآن: (علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لما يقتضيه الحال)<sup>5</sup>.

#### الفرع الثاني: المقصد من علم المناسبات

البحث عن ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، ونفي الخلل الترتيبي الذي قد يتوهمه من لا حظّ له في فقه

<sup>1</sup> مقاييس اللغة - ابن فارس - ج 5 ص 424.

<sup>2</sup> الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية - الجوهري (ت 393هـ) - ص 224.

<sup>3</sup> مختار الصحاح - الرازي - ص 309.

<sup>4</sup> البرهان في علوم القرآن - الزركشي - قال الزركشي: (قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المرديدن) - ج 1 ص 36.

<sup>5</sup> مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور - البقاعي (885هـ) - ج 1 ص 142.

القرآن يقصد بهذا العلم إبراز الصلات وبيان الارتباط بين الآيات فيما بينها وبين السور القرآنية فيما بينها ففائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء<sup>1</sup>، ولأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط<sup>2</sup>، فقد حوى الذكر الحكيم من خبايا اللطائف والأسرار ما يدل عليها ترتيب آيه وسوره.

### الفرع الثالث: أهمية علم المناسبات<sup>3</sup>

إذ العلم به علم بمسالك الكشف عن انتظام مباني الآيات واتساق معانيها، واتصال بعضها ببعض، فيحسن الكلام حينما يرتبط بعضه ببعض وتتعانق معانيه، ف(من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً)<sup>4</sup>، فمسلك الكشف عن المناسبات النظر في سياق الآيات للوقوف على الروابط التي تربط آي القرآن بعضها ببعض (والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقى له)<sup>5</sup> فهو (علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه)<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> البرهان في علوم القرآن - الزركشي - ج 1 ص 36.

<sup>2</sup> تفسير الرازي - فخر الدين الرازي (ت 606هـ) - ج 10 ص 110.

<sup>3</sup> ولا يضر علم المناسبات إنكار الشوكاني - رحمه الله - له، فهو يعتبره ضرباً من التكلف، وأنه لا فائدة منه إذ يقول: "اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه؛ وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته) - فتح القدير - الشوكاني - ج 1 ص 85. وأنظر: موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات - أحمد بن محمد الشوقاوي سالم - ص 4 بتقييم الشاملة الآلي. وقد أثبت في بحثه أن (الناظر في تفسير الشوكاني يشهد فيه نماذج عديدة ومتنوعة للمناسبات بين الآيات حيث أبرز العديد من وجوه الصلة بين الآيات) ص 85.

<sup>4</sup> البرهان في علوم القرآن - الزركشي (ت 774هـ) - ج 1 ص 36.

<sup>5</sup> نفسه - ج 1 ص 37.

<sup>6</sup> البرهان في علوم القرآن - الزركشي - قال الزركشي: (قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين) - ج 1 ص 36.

## المطلب الثاني : المناسبة بين سورة التوبة وسورة الأنفال<sup>1</sup>

ظهر لي أنّ المناسبة بين سورة التوبة والأنفال:

**النوع الأول: من حيث مطلع السورتين:** مطلع سورة الأنفال بدأ من حيث ما انتهت إليه غزوة بدر

الكبرى، فقد اختلف الصحابة حول قسمة الغنائم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا

اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ الأنفال، وكان هذا مبدأ القتال،

وأما مطلع سورة التوبة فقد بدأ من حيث انتهت غزوة تبوك بإعلان براءة الله تعالى ورسوله من عهود

المشركين وأهل الكتاب وعدم الوفاء لهم بها إذا نكثوا العهود ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ التوبة.

## النوع الثاني: من حيث مناسبة مطلع التوبة لموضوع سورة الأنفال

فمطلع سورة التوبة القاضي بالبراءة من عهود المشركين ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ التوبة، يتناسب مع ما ختمت به سورة الأنفال من إيجاب مولاة المؤمنين بعضهم

لبعض ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا

أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ... ﴿٧٢﴾ الأنفال، وقطع مواليتهم الكفار، لأنّ الكفار لا تكون ولايتهم إلا

لبعضهم بعضا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ... ﴿٧٣﴾ الأنفال، فإذا لم يوال المؤمنين بعضهم بعضا،

وكانت ولايتهم للكفار كانت الفتنة والفساد الكبير ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي

الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٤﴾ الأنفال.

وقد ختمت سورة الأنفال بقوله تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ الأنفال، فدلت الآية الكريمة

على شمول علم الله جلّ وعزّ (المراد أنّ هذه الأحكام التي ذكرتها وفصلتها كلّها حكمة وصواب

وصلاح، وليس فيها شيء من العبث والباطل، لأنّ العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلا بالصواب)<sup>2</sup>،

فافتتحت سورة براءة بما يناسب علمه جلّ وعلا، (وأیضا فلما ذكر في آخر التي قبلها أمر العهد تارة

بنبذه إلى من خيفت خيانتة كائنا من كان في قوله ﴿...فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ... ﴿٥٨﴾ الأنفال، وتارة

<sup>1</sup> اكتفيت بذكر ما يناسب المقام، وإلا فإنّ المناسبات بين السورتين تحتاج لدراسة مستقلة.

<sup>2</sup> مفاتيح الغيب- فخر الدين الرازي (ت 606هـ) - ج 15 ص 520.

بالتمسك به عند الأمن من ذلك في وقوله: ﴿...إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...﴾ ﴿٧٢﴾ الأنفال، وبين من يصلح للموالاتة ومن لا يصلح، وختمت بالإخبار بشمول علمه، ابتدئت هذه السورة بالأمر بالتبذ إلى ناس بأعيانهم نقضوا أو خيف منهم ذلك وذلك تصريح بما أفهمته آيات الموالاتة في التي قبلها من أن إحدى الفرقتين لا تصلح لموالاتة الأخرى فقال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ التوبة<sup>1</sup>.

فتكون سورة التوبة كالمتممة لسورة الأنفال من حيث أحكام الحرب والسلام والمعاهدات ونبذها (وأما التناسب بينها وبين ما قبلها، فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض، فهي كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه، والسنن الإلهية والتشريع وجله في أحكام القتال وما يتعلق به من الاستعداد له، وأسباب النصر فيه، وغير ذلك من الأمور الروحية والمالية، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضي له، وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض والكافرين بعضهم مع بعض، كذا أحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب، فما بدأ به في الأولى أتم في الثانية)<sup>2</sup>.

### النوع الثالث: مناسبة خاتمة سورة التوبة لمطلع سورة يونس؛ ووجه المناسبة بينهما: ختمت

سورة التوبة- وهي من القرآن المدني- بذكر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وما كان يعانيه من مكر المنافقين وتعدد أساليبهم في الاستهزاء بالوحي، ومع هذا فقد جاءت خاتمة السورة فيها امتنان الله جلّ وعزّ على العرب وعلى العالمين ببعثة الرسول الخاتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بقوله جلّ وعزّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ التوبة، فكان هذا منسبا لمطلع سورة يونس- وهي من القرآن المكي- التي افتتحت بذكر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله جلّ وعزّ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ يونس، فمكر

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ)- ج 8 ص 360.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 132.

الكافرون بالوحي وصاحبه فوصفوه بالسحر المبين: ﴿...قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾<sup>١</sup>  
يونس، فناسب آخر سورة التوبة أول سورة يونس؛ ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يشقّ عليه ويشتدّ على نفسه ويثقل عليها أن يرى أمة الدعوة تلاقى المكروه والضّرر والمشقة الشديدة، الموصلة لسوء العاقبة، بأن تعمل ما يوقعها في العنت، وشدة رغبته صلى الله عليه وسلم وإرادته في اهتداء القوم الذين بُعث فيهم ورجوعهم إلى الحقّ استصلاحاً لحالهم، فيتعجبون من أن يوحى إلى رجل منهم تعجب استحالة ﴿...أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ... ﴿٢٤﴾﴾ يونس. وقال الزجاج: (إن الخطاب للعالم كله لعموم بعثته، فيكون بمعنى ما يأتي في أول السورة التالية) ﴿...أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ... ﴿٢٤﴾﴾ يونس) إلخ، ولكن آية أول سورة يونس هذه في الردّ على منكري كون البشر رسولا من الله وهو المحكي عن جميع كفار الأمم)<sup>1</sup>.

فقد فضح القرآن الكريم مسالك المنافقين في خاتمة التوبة حين نزول الوحي وحين ذكر مثالبهم فيه، هو مسلك التخفي حين إرادة الانصراف عن القرآن والاهتداء بهديه والانصراف عن مجالسه لأنهم لا يطيقون سماع القرآن بل إنهم يتأذون من سماعه ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ... ﴿٢٧﴾﴾ التوبة، فإذا نزلت السورة من القرآن (نظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالاً على الطعن في تلك السورة والاستهزاء بها وتحقير شأنها، ويحتمل أنهم كانوا يستحقرون القرآن كُله؛ فكلما سمعوا سورة، استهزءوا بها وطعنوا فيها وضحكوا وتغامزوا)<sup>2</sup>، فإذا أرادوا الخروج من المسجد قال بعضهم لبعض ﴿...هَلْ يَرَىٰكُمْ مِّنْ أَحَدٍ... ﴿٢٧﴾﴾ التوبة، أي: (من المؤمنين إن قمتم، فإن لم يرههم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم أقاموا وثبتوا)<sup>3</sup>، فهم (يقولون ذلك إيماءً لأنهم منافقون لا يظهرون ذلك)<sup>4</sup>، خشية أن يكون أحد قد اطلع على ما يدبرونه سرّاً.

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 71. لم أجد النص عند الزجاج في كتابه: معاني القرآن وإعرابه.

<sup>2</sup> اللباب في علوم الكتاب - سراج الدين بن عادل الحبلي (ت 775هـ) - ج 10 ص 246.

<sup>3</sup> نفسه - ج 10 ص 246.

<sup>4</sup> معاني القرآن وإعرابه - أبو إسحاق الزجاج (ت 311هـ) - ج 2 ص 476.

**النوع الرابع: مناسبة مطلع سورة التوبة لخاتمتها**

بُدئت سورة براءة بالبراءة من عهود المشركين ومواثيقهم ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ التوبة، والتنبيه على أحوالهم وصفاتهم وبيان الهدى القرآني في كيفية التعامل معهم في حال السلم والحرب، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستقامة لهم في عهدهم، ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم وترك مظاهرة عدوهم عليهم ﴿فَمَا اسْتَقَلُّمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧﴾ التوبة، ومع نقضهم للعهود والمواثيق التي واثقوا بها النبي صلى الله عليه وسلم وعدوانهم المتكرر فقد تسامح معهم القرآن الكريم ومنحهم أربعة أشهر يأمنون فيها فلا يؤخذوا على حين غفلة قال الله تعالى: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾ ﴿٤﴾ التوبة، مع مراعاة تقوى الله في الوفاء بعهودهم إلى آجالها ما لم ينقضوها أو يخلّوا بشرط من شروطها أو يمالئوا على المسلمين أحدا، فإن من كمال العهد الحفاظ على الوفاء به ولهذا حرص الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧﴾ وهذا من مظاهر رحمة هذا الدين وإعداره إلى أعدى أعدائه المحاربين.

ومع قوة التسامح والدعوة إلى الاستقامة والوفاء بالعهود والمواثيق، فهناك قوة القتال والدفع، فالقرآن الكريم هدى إلى التعامل مع المشركين بأسلوب آخر كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٥﴾ التوبة.

فناسب أن تحتم سورة التوبة بالهدى القرآني في مقاتلة الكفار وذلك بالاهتداء بهديين قرآنيين:

**الهدى الأول:** الغلظة في مقاتلة ترهيبا لهم، والصبر على جهادهم ليجدوا في المؤمنين قوما أولى بأس شديد فتتخلع قلوبهم، وتضطرب نفوسهم فترجع إلى هدى القرآن ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ ﴿١٣﴾ التوبة.

**و الهدى الثاني:** ومع أمر الله جلّ وعزّ المؤمنين بالغلظة على الكفار ختمت الآية الكريمة بتنبيه المؤمنين إلى وجوب مراعاة تمحيض قتالهم الكفار والغلظة عليهم لله جلّ وعزّ ﴿... وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣﴾ التوبة، والتخلق بأخلاق الإسلام في الحرب والسلم، وألا تُقصد بقتال الكفار غنيمة ولا فخر ولا إظهار شجاعة وبسالة، ليكون ذلك مدعاة لهم للإقبال على الإسلام.

ففي مقاتلتهم رحمة لهم فناسب أن تحتم سورة التوبة بامتثانه جلّ وعزّ على العرب وعلى العالمين ببعثة محمد صلى الله عليه وسلّم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ التوبة. فالنبي صلى الله عليه وسلم يشقّ عليه ويشتدّ على نفسه ويثقل عليها-لأنّه منهم- أن يرى أمة الدعوة تلاقي المكروه والضّرر والمشقة الشديدة، الموصلة لسوء العاقبة، مع شدة رغبته صلى الله عليه وسلّم وإرادته في اهتداء من بُعث فيهم بإيمان كافريهم ومنافقيهم، وتوبتهم ورجوعهم إلى الحقّ ، وحرصه صلى الله عليه وسلّم على مكابدة المشاقّ في دعوته لهم من جهة وفي مجاهدتهم والغلظة عليهم من جهة أخرى، وفي ذلك مصلحتهم واستصلاح حالهم .

## الفصل الثاني

الوحدة الموضوعية الأولى

الهدى القرآني في بيان العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المشركين وأهل  
الكتاب

من الآية الأولى إلى الآية السابعة والثلاثين (37/1)

وفيها: مبحثان

المبحث الأول:

الهدى القرآني في بيان العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المشركين

الوحدة الفرعية الأولى

الآيات من الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين (28/1).

المبحث الثاني:

الهدى القرآني في بيان علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب

الوحدة الفرعية الثانية:

من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين (37/29).

## الفصل الثاني

### الوحدة الموضوعية الأولى

الهدى القرآني في تحديد العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المشركين وأهل الكتاب.

من الآية الأولى إلى الآية السابعة والثلاثين (37/1)

تمهيد :

استغلّ المشركون حالة خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك وما لابسها من بعد المسافة وقلة المال وطيب الثمار وتثييط المنافقين للمسلمين وبثّهم الأراجيف ... فأخذوا ينقضون عهودا لهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، فجاءت هذه الآيات بنقض عهودهم. قال البغوي<sup>1</sup>: قال المفسرون: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الله عزّ وجلّ بنقض عهودهم، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَاَبْدُ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الأنفال، قال صاحب المنار<sup>2</sup>: (يعني أنه صلى الله عليه وسلم إنما عمل في نبذ عهودهم بآية الأنفال التي تقدمت وليس تشريعا جديدا لنبذ عهود المشركين مطلقا).

<sup>1</sup> معالم التنزيل - البغوي (ت 516 هـ) - ج 4 ص 8.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا (ت 1354 هـ) - ج 10 ص 136.

## المبحث الأول:

الهدى القرآني في بيان العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المشركين

## الوحدة الفرعية الأولى:

الآيات من الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين (28/1).

تمهيد:

جاء مطلع السورة حاسماً في البراءة من عهود المشركين الناكثين لمواثيقهم، وقد أثبت المشركون أنهم لا عهود لهم يرعونها ولا موثيق يلتزمون بها، وقد استغلوا خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وتخلف المنافقين وقد أرجفوا الأراجيف، غير أن القرآن الكريم راعى عهود من استقام من المشركين فأملهم إلى مدتهم، وأمر بمقاتلة أئمة الكفر الذين لا أيمان لهم.

المطلب الأول: التنبيه على أحوال المشركين وصفاتهم وبيان كيفية التعامل معهم في حال السلم والحرب.

## الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الفرعية الأولى:

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ① فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكٰفِرِينَ ② وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ③ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ وَبَشِيرٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْبَلِيَّةِ ④ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ⑤ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ⑥ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ⑦ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ⑧ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑨ وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ⑩ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ⑪ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْلَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ⑫ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ⑬ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ⑭ اسْتَرَوْا بِبَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ⑮ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْزِلُهُمْ فِي صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَعَلَتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا

وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَّيَبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَإِنَّمَا الْمَشْرُكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ۖ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ شَاءَ إِلَهٌ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴿ التوبة.

### الفرع الثاني: سبب النزول

أخرج الإمام مسلم<sup>1</sup> وأحمد<sup>2</sup> عن النعمان بن بشير قال: (كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ... ﴾ ﴿١٩﴾ الآية إلى آخرها.

قلت: وهذه العبارة في الحديث (فأنزل الله عز وجل) صريحة في سبب النزول، فهي تدل على أن الحادثة عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب لنزول الآية وذلك (لصحة إسناده وتصريحه بالنزول واتفاقه مع لفظ الآية وسياق القرآن والنظر الصحيح)<sup>3</sup>.

### الفرع الثالث: القراءات<sup>4</sup>

في هذه الوحدة أربع كلمات اختلفت قراءتها عند القراء وهي كما يلي:

**الكلمة الأولى:** في قوله تعالى: ﴿... لَا أَيْمَنَ لَهُمْ... ﴾ ﴿١٩﴾ التوبة، والاختلاف فيها من حيث: فتح همزة ﴿... أَيْمَنَ... ﴾ ﴿١٩﴾ وكسرها (إيمان)، ولا يخفى الفرق بين القراءتين؛ ف(إيمان) بفتح الهمزة جمع

<sup>1</sup> صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى - ص 955.

<sup>2</sup> مسند أحمد بن حنبل - أول مسند الكوفيين حديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم. والمعجم الأوسط - الطبراني - باب الألف من اسمه أحمد. ومستخرج أبي عوانة - مبتدأ كتاب الجهاد - بيان ثواب المجاهد في سبيل الله. وجامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - سورة التوبة القول في تأويل قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد). ج 30 ص 319.

<sup>3</sup> المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية - لخالد بن سليمان المزيني - ص 585.

<sup>4</sup> القراءات في هذه المباحث تخص وجوه القراءات التي لها أثر في المعنى، أما ما تعلق بطرق الأداء فهو ألصق بباب التجويد.

يمين وهي قراءة جميع القراء ما عدا ابن عامر الذي قرأ بكسر الهمزة (إيمان) وهي من الفعل (ءامن) واختلفوا في فتح الألف وكسرها من قوله ﴿...إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ...﴾ (١٣) ﴿التوبة فقرأ ابن عامر وحده (لا إيمان لهم) بكسر الألف وقرأ الباقيون (لا إيمان) لهم بفتحها<sup>1</sup>، وجاء في البدور الزاهرة<sup>2</sup>: ﴿...إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ...﴾ (١٣) التوبة فقرأ ابن عامر بكسر الهمزة وبعدها ياء ساكنة مدية، والباقيون بفتح الهمزة وبعدها ياء ساكنة غير مدية.

والوجه المتجه مع سياق الآيات القراءة بفتح الهمزة ﴿...إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ...﴾ (١٣) التوبة، فلا عهد لهم يفون به ولا ميثاق لهم صادق يلتزمون به، (ومما يقوي (إيمان) بفتح الهمزة أن قوله: (فقاتلوا أئمة الكفر) يعلم منه أنه لا إيمان لهم؛ فإذا كان كذلك فالفتح في قوله جل وعز: (لا إيمان لهم) أولى، لأنه لا يكون تكريرا، ولم يقع عليه دلالة من الكلام الذي تقدمه<sup>3</sup>).

وقراءة الباقيين من القراء ﴿...لَا أَيْمَنَ لَهُمْ...﴾ (١٣) التوبة، بالفتح جمع يمين وحثتهم قوله (اتخذوا أيمانهم جنة) وهو الاختيار لأنه في التفسير لا عهد لهم ولا ميثاق ولا حلف فقد وصفهم بالنكث في العهود<sup>4</sup>، والذي جعلهم كذلك انعدام الإيمان في قلوبهم فانعدم ائمتانهم<sup>5</sup>، فاتجهت القراءة الثانية لابن عامر (إنهم لا إيمان).

<sup>1</sup> أنظر: كتاب السبعة في القراءات - ابن مجاهد - ص 312. والحجة للقراء السبعة - أبو علي الفارسي (ت 377هـ) - ج 4 ص 176.

<sup>2</sup> البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة - عبد الفتاح القاضي (ت 1403هـ) - ص 134. وهو غير البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة لأبي حفص سراج الدين عمر زين الدين قاسم ابن محمد بن علي الأنصاري النشار (ت: 938هـ).

<sup>3</sup> والحجة للقراء السبعة - أبو علي الفارسي (ت 377هـ) - ج 4 ص 177.

<sup>4</sup> حجة القراءات - ابن زنجلة (ت 403هـ) - ص 315.

<sup>5</sup> وجه أبو علي الفارسي (إيمان) بكسر الهمزة من آمنته إيمانا الذي هو خلاف الخوف قال: (لا إيمان) لهم أن يجعله مصدرا من آمنته إيمانا، يريد به خلاف التخويف، ولا يريد به مصدر آمن الذي هو صدق، أي: ليس لأئمة الكفر من المشركين إيمان، كما يكون الإيمان الذي هو مصدر آمنته لذوي الذمة من أهل الكتاب، لأنّ المشركين لا يقرون، ولا يؤمنون إلا أن يسلموا، فإن لم يسلموا فالسيف، ولا يؤمنون بتقرير بقبول جزية، كما يقرّ أهل الكتاب، ولا يكون على هذا الإيمان الذي هو خلاف الكفر، فيكون تكريرا لدلالة ما تقدم من قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر) على أنّ أهل الكفر لا إيمان لهم، لأن الإيمان على هذا إنما هو مصدر. آمنت المنقول من آمن الذي هو خلاف خوفت). الحجة للقراء السبعة - أبو علي الفارسي - ج 4 ص 178.

والحجة لوجهي القراءتين: (قوله تعالى: ﴿...إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ...﴾ التوبة يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتح أنه أراد جمع يمين والحجة لمن كسر أنه أراد مصدر: آمن يؤمن إيماناً، وإنما فتحت همزة الجمع لثقله وكسرت همزة المصدر لخنفته والفتح ها هنا أولى لأنها بمعنى اليمين، والعهد أليق منها بمعنى الإيمان<sup>1</sup>.

**والكلمة الثانية:** في قوله تعالى: الاختلاف في قراءة (مساجد) على الجمع وعلى الأفراد في قوله تعالى: ﴿... أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، فقد (اختلفوا في: ﴿... أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، فقرأ البصريان وابن كثير (مسجد الله) على التوحيد، وقرأ الباقون بالجمع)<sup>2</sup>، جاء في النجوم الزاهرة<sup>3</sup>: ﴿... أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، فقرأ المكي والبصريان بإسكان السين ويلزمه حذف الألف بعدها على الأفراد، والباقون بفتح السين وألف بعدها على الجمع، وأجمعوا على قراءة ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، بفتح السين وألف بعدها على الجمع.

ووجه القراءة بالأفراد أنّ المقصود بالمسجد المسجد الحرام و(قوله تعالى: ﴿... أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، يقرأ بالتوحيد والجمع؛ فالحجة لمن وُحِد أنه أراد به المسجد الحرام ودليله قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ (التوبة، والحجة لمن جمع أنه أراد جميع المساجد ودليله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، وهذا لا خلف فيه واحتجوا أنّ الخاصّ يدخل في العامّ والعامّ لا يدخل في الخاصّ)<sup>4</sup>.

- قال ابن مجاهد<sup>5</sup>: واختلفوا في الجمع والتوحيد من قوله: ﴿... أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿... أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، على الواحد ﴿... أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة، على الجمع، وقرأ عاصم ونافع وابن عامر وهمزة والكسائي على الجمع فيهما.

<sup>1</sup> الحجة في القراءات السبع - ابن خالويه - ص 174.

<sup>2</sup> النشر في القراءات العشر - ابن الجزري (ت 833 هـ) - ج 2 ص 278. وكتاب السبعة في القراءات - ابن مجاهد - ص 313.

<sup>3</sup> البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة - عبد الفتاح القاضي - ص 134..

<sup>4</sup> الحجة في القراءات السبع - ابن خالويه - ص 174. وانظر: حجة القراءات - ابن زنجلة - ص 316.

<sup>5</sup> كتاب السبعة في القراءات - ابن مجاهد - ص 313.

وحدثني أبو حمزة الأنسي قال حدثنا حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن ابن كثير ﴿... أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ التوبة، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ...﴾ ﴿٥٨﴾ التوبة، بغير ألف جميعاً على التوحيد.

**والكلمة الثالثة:** في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ...﴾ ﴿٦١﴾ التوبة، (قرأ حمزة بفتح الياء وإسكان الباء وضم الشين مع تخفيفها<sup>1</sup>، والباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين وتشديدها)<sup>2</sup>.

**والكلمة الرابعة:** في قوله تعالى: والخلف في قراءة ﴿... يُضِلُّ...﴾ ﴿٣٧﴾ التوبة، على ما لم يسم فاعله، وعلى ما سمي فاعله؛ (واختلفوا في فتح الياء وكسر الضاد وضمها وفتح الضاد من قوله (يضل به الذين كفروا) فقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (يُضِلُّ) به بفتح الياء وكسر الضاد وقرأ عاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي (يُضِلُّ) به بضم الياء وفتح الضاد)<sup>3</sup>. ووجه القراءة: (قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿٣٧﴾ التوبة، يقرأ بضم الياء وفتح الضاد وكسرها، ويفتح الياء وكسر الضاد.

- فالحجة لمن ضم الياء وفتح الضاد: أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله، و(الذين) في موضع رفع، و(كفروا) صلة الذين.

- والحجة لمن كسر الضاد مع ضم الياء: أنه جعله فعلاً لفاعل مستتر في الفعل، وهو مأخوذ: من أضلّ يضلّ، والحجة لمن فتح الياء: أنه جعل الفعل ل(الذين) فرفعهم به وإن كان الله تعالى الفاعل ذلك بهم، لأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء. فمعناه: أنه أضلهم عقوبة لضلّهم، فاستوجبوا العقوبة بالعمل. وقيل: (صادفهم كذلك)<sup>4</sup>. وقيل أضلّهم: ستمّاهم ضالين)<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> أي: (يُبَشِّرُهُمْ).

<sup>2</sup> البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة - القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب - عبد الفتاح القاضي - ج 1 ص 134.

<sup>3</sup> كتاب السبعة في القراءات - ابن مجاهد - ص 314.

<sup>4</sup> أي وجدهم ضالين، من قولهم: صادفت فلانا أي لاقيته ووجدته. لسان العرب - ابن منظور - ج 9 ص 188.

<sup>5</sup> الحجة في القراءات السبع - ابن خالويه (ت 370هـ) - ص 175.

## الفرع الرابع: موضوعات الوحدة الموضوعية الأولى

- إعلان البراءة من عهود المشركين: ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ التوبة. 12﴾
- توصيف حال المشركين في نقضهم للمواثيق وطعنهم في الدين وأنهم في حال الظهور على المؤمنين: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً ... ﴾ ﴿ التوبة. 13﴾
- بيان موقف المؤمنين منهم بالبراءة منهم ومن مواثيقهم من غير تعدٍّ، ومقاتلة المعتدين منهم: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ التوبة. 14﴾
- سماحة الإسلام وتسامح المسلمين
- ولاء المؤمنين لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
- سنة الله ماضية في أعداء الله وأعداء أوليائه
- إنحاض هم المؤمنين لقتال أئمة الكفر وأتباعهم لتحقيق سنة التدافع
- سنة الله تعالى وتجلياتها في تمحيص المؤمنين
- عمارة مساجد الله وصفات أهلها
- قطع ولاء المشركين

## المطلب الثاني : التفسير الموضوعي<sup>1</sup> للوحدة الموضوعية الأولى

عاهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين في الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط تساهل معهم فيها منتهى التساهل عن قوّة وعزّة، لا عن ضعف وذلّة، ولكن حبّاً للسلم ونشر دينه بالإقناع والحجّة، فدخلت خزاعة في عهده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخلت بنو بكر في عهد قريش، ثم عدت بنو بكر على خزاعة، وأعانتهم قريش بالسلاح فنقضوا عهدهم، فكان ذلك سبب عودة حال الحرب بين المسلمين والمشركين، وإثر ذلك كان فتح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَكَّة، الذي كسر شوكة الشرك وأذلّ أهله، وقد أثبت المشركون أنهم لا عهود لهم يرعونها ولا موثيق يلتزمون بها، فجاء مطلع سورة التوبة بنبذ عهودهم المطلقة، وإتمام مدة عهودهم المؤقتة لمن استقام منهم عليها.

### الفرع الأول : الهدى القرآني في بيان كيفية التعامل مع المشركين

نتبّع بالبحث والدراسة هنا كيفية تعامل المؤمنين مع المشركين عامّة والمشركين من ذوي الأرحام والأقارب خاصّة وفق الهدى القرآني في حال الحرب.

### المعاملة الأولى: إعلان حاسم وموقف قاطع لنبذ عهود المشركين

بدأ مطلع سورة التوبة من حيث انتهت غزوة تبوك بإعلان براءة الله تعالى ورسوله من عهود المشركين وأهل الكتاب وعدم الوفاء لهم بها إذا نكثوا، ليتلاءم ذلك مع مقصد السورة العام في بيان الهدى القرآني للتعامل مع المشركين<sup>2</sup>، فجاء افتتاح السورة (... بالهجوم على الغرض من أول الأمر... ﴿بِرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>3</sup>، فقد افتتحت السورة (كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدّل كلمة على الغرض الذي يراد منها كما في قولهم: هذا ما عهد به فلان، وهذا ما اصطلح عليه فلان وفلان... وذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرسائل والمواريق ونحوها)<sup>4</sup> وذلك ل (إنهاء العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين)<sup>5</sup>، ذلك أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما

<sup>1</sup> هذا العنوان ذو أهمية بالغة إذ يعدّ المحور الذي يدور حوله تفسير السورة موضوعياً وذلك بربط مقصد كل مقطع من مقاطع السورة بمقصدها العام، لتظهر السورة متجانسة مقاصدها متناسبة موضوعاتها متألّفة آياتها بينة معانيها.

<sup>2</sup> الزركشي: ومن أول براءة إلى قوله: (إنما المشركون نجس) خطاب لمشركي مكة وهي مدنية. ج 1 ص 196.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - ج 1 ص 121

<sup>4</sup> نفسه - ج 10 ص 103.

<sup>5</sup> في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 5 ص 101.

خرج إلى تبوك (كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجلّ بنقض عهودهم، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً...﴾<sup>1</sup> الآية<sup>2</sup>.

والخطاب في قوله جلّ وعزّ: ﴿... عَاهِدْتُمْ...﴾<sup>3</sup> التوبة، أما هو لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما المتولي للعقد فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم (والمعنى: إلى الذين عاهد، ولكن أدخلوا في الخطاب لأنهم راضون بفعله فكأنهم عقدوا وعاهدوا)<sup>3</sup> بأنفسهم.

فهذا (حكم من الله عز وجلّ بنقض العهود والموادعات<sup>4</sup> التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين طوائف المشركين الذين ظهر منهم أو تحسّس من جهتهم نقض)<sup>5</sup>. ونُسبت كل من البراءة والمعاهدة إلى من هو أصل فيها<sup>6</sup>: فنسبت البراءة إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم تفخيما لشأنها وتعظيما - مع شمولها للمسلمين في اشتراكهم في حكمها ووجوب العمل بموجبها - لأن ذلك منوط بجانب الله تعالى، واشتراك المسلمين إنما هو على طريقة الامتثال لا غير لأنها إنهاء لحكم الأمان ورفع له. ونُسبت المعاهدة للمسلمين - مع كونها بإذن الله تعالى - لأنهم المباشرون لها ولأنها عقد كسائر العقود الشرعية لا تترتب عليها الأحكام إلا بمباشرة المتعاقدين لها على وجه لا يتصور صدوره منه تعالى وإنما الصادر عنه سبحانه الأذن في ذلك. وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في المقامين للتنويه بشأنه الرفيع صلى الله عليه وسلم.

<sup>1</sup> التفسير البسيط - الواحدي النيسابوري (ت 468هـ) - ج 10 ص 281/280. ومعالم التنزيل - البغوي - ج 4 ص 8. ومعاني

القرآن - الفراء - ج 2 ص 92.

<sup>2</sup> ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ﴾<sup>3</sup> الأنفال.

<sup>3</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 281.

<sup>4</sup> الموادعات: توادع القوم: أعطى بعضهم بعضا عهدا وكله من المصالحة (حكاه المروى في الغريين) وقال الأزهري: توادع الفريقان إذا

أعطى كل منهم الآخرين عهدا ألا يغزوه، تقول وادعت العدو إذا هادنته موادعة وهي الهدنة والموادعة. وادع بني فلان أي:

صالحهم وسالمهم على ترك الحرب والأذى وحقيقة الموادعة المتاركة، أي يدع كل واحد منهما ما هو فيه. لسان العرب - ابن

منظور - ج 6 ص 4798.

<sup>5</sup> المحرر الوجيز - ابن عطية - ج 3 ص 4.

<sup>6</sup> روح المعاني - الألوسي - ج 5 ص 238. بتصرف

قلت: فناسب أن تُذكر البراءة منسوبة لله جلّ جلاله وأن تذكر المعاهدة منسوبة للمسلمين ليدلّ ذلك على أنّ إبرام المعاهدات والبراءة منها لا تكون إلا حيث يأذن بها المشرع سبحانه وتعالى ويرضى.

### المعاملة الثانية: آجال مضروبة وعهود محترمة

وقد شُفعت براءة الله ورسوله بآجال مضروبة وعهود محترمة إلى أوقاتها بتأجيل مدتها ليكون ذلك أدعى لتنفيذها ﴿ فَيَسْجُوهَا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٢﴾ التوبة، وظاهر الآيتين العموم في جميع الكفار المعاهدين<sup>1</sup>، وأنه بعد انقضاء أشهر الإمهال الأربعة المذكورة في قوله جلّ وعزّ ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ... ﴾ ﴿٢﴾ لا عهد لكافر ولكن الذي يدلّ عليه السياق القرآني وتشهد له الآيات أن هذه المدة لا تشمل أولئك الذين لهم عهود تزيد مدتها عن الأشهر الأربعة بل لا بد من الوفاء بما إلى مدتها ما استمروا عليها دون نقض منهم، ودون مظاهرة لعدو المسلمين قال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٤﴾ التوبة. وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٧﴾ التوبة، وهو الذي رجّحه الطبري في تفسيره بناء على السياق الذي جاءت الآية فيه إذ يقول<sup>2</sup>: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأجل الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: ﴿ فَيَسْجُوهَا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ... ﴾ ﴿٢﴾ التوبة، إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه فإنّ الله جلّ ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٤﴾ التوبة.

فإن ظنّ ظانّ أنّ قول الله تعالى ذكره: ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ... ﴾ ﴿٥﴾ التوبة، يدلّ على خلاف ما قلنا في ذلك، إذ كان ذلك ينبئ على أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم، قتل كلّ مشرك، فإنّ الأمر في ذلك بخلاف ما ظنّ، وذلك أن الآية التي تتلو ذلك

<sup>1</sup> أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي - ج 10 ص 3 و 4. بتصرف

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري (224 / 310 هـ) - ج 14 ص 102 / 103 .

ثُبِينُ عَنْ صِحَّةِ مَا قَلْنَا وَفَسَادِ مَا ظَنَّنَا مِنْ ظَنِّ أَنْ انْسِلَاخِ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ كَانَ يَبِيحُ قَتْلَ كُلِّ مُشْرِكٍ، كَانَ لَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ عَهْدٌ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ٧﴾ التوبة، فهؤلاء مشركون وقد أمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِقَامَةِ لَهُمْ فِي عَهْدِهِمْ، مَا اسْتَقَامُوا لَهُمْ بِتَرْكِ نَقْضِ صَلِحَتِهِمْ وَتَرْكِ مَظَاهِرَةِ عَدُوهِمْ عَلَيْهِمْ.

وقد دلَّ الحديث المرويُّ عن عليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - على أنَّ عهود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محفوظة إلى آجالها فعن عليِّ رضي الله عنه قال<sup>1</sup>: (بعثني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربع: ألا يطوف بالبيت مشرك ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا ومن كان بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد فهو مدته ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة).

### المعاملة الثالثة: سماحة الإسلام وتسامح المسلمين<sup>2</sup>

إننا لا نجد تسامحا كتسامح الإسلام مع منافئيه؛ فمع نقضهم للعهود والمواثيق التي واثقوا بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعدوان المتكرر منهم فقد تسامح معهم القرآن الكريم ومنحهم أربعة أشهر<sup>3</sup> (يسيروا فيها مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه)<sup>4</sup> ومنع أن يؤخذوا

<sup>1</sup> مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار - أبو بكر أحمد بن عمرو المعروف بالبزار (ت 292 هـ) - عَنْ زَيْدِ بْنِ يُنَيْعٍ - ج 3 ص 34. وجامع البيان - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 104.

<sup>2</sup> بعد أن وضعت هذا العنوان وجدت الشيخ الشعراوي يقول: ومن سماحة هذا الدين الذي أنزله الحق تبارك وتعالى؛ أن المولى سبحانه يعطي مهلة لمن قطعت المعاهدة معهم، فأعطاهم مهلة أربعة أشهر حتى لا يقال إن الإسلام أخذهم على غرة، بل أعطاهم أربعة أشهر ومن كانت مدة عهد أكثر من أربعة أشهر فسوف يستمر العهد إلى ميعاده... وأن سماحة الإسلام تمنع أن نأخذكم على غرة... فالحمد لله على الموافقة.

<sup>3</sup> والراجح في تحديد الأشهر الأربعة: أنها تبتدئ من يوم الحج الأكبر وتنتهي في العاشر من شهر ربيع الآخر. قال البغوي: (وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر). ج 4 ص 9.

وجاء في المنار: (وهذه الأربعة الأشهر تبتدئ من عاشر ذي الحجة من سنة تسع وهو عيد النحر الذي بلغوا فيه هذه الدعوة كما يأتي وتنتهي في عاشر ربيع الآخر من سنة عشر. وقال الزهري: إنها الأشهر الحرم؛ لأن البراءة نزلت في أول شوال سنة تسع وتنتهي بانتهاء الحرم أول السنة العاشرة. وهو غلط يقتضي أن تكون مدة الأربعة الأشهر بعد التبليغ شهرين لما سيأتي من كون تبليغهم البراءة كان يوم النحر في منى ولا يعقل أن يحاسبوا بالمدّة قبل العلم بها). المنار - ج 10 ص 136.

<sup>4</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 111.

على غرة فقال لهم الله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾<sup>1</sup> التوبة، (والمراد من الأمر بالسيحة حرية السير والانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر لا يعرض المسلمون لهم فيها بقتال فلهم فيها سعة من الوقت للنظر في أمرهم والتفكير في عاقبتهم، والتخيير بين الإسلام وبين الاستعداد للمقاومة والصدام إذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم، وهذا من غرائب رحمة هذا الدين وإعذاره إلى أعدى أعدائه المحاربين، ولولاه لأمكن أن يقال: إنه أخذهم على غرة ودانهم بما كانوا يدينونه عند القدرة، فإن كان هذا من العدل فأين ما امتاز به من الفضل؟)<sup>1</sup>.

### المعاملة الرابعة: سنتا الله ماضية في أعداء الله وأعداء أوليائه

جاء ختام الآية الثانية متناسبا مع إعلان البراءة الحاسم بنبد عهود المشركين وضرب الآجال لهم واحترامها والتسامح معهم فإن لم يُظهروا إلا العناد والإصرار على الكفر جرت فيهم سنة الله يجعلهم مغلوبين خزايا قد سيموا ذلاً وهواناً (لأنه لما أنبأهم بالأمان في أربعة الأشهر عقبه بالتحذير من بأس الله احتسائاً من تطرق الغرور وتهديداً بأن لا يطمئنون من أن يسلط الله المسلمين عليهم في غير الأشهر الحرم وإن قبعوا في ديارهم)<sup>2</sup>. فقال الله لهم<sup>3</sup> ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا يُظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَدِي تَفَدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>4</sup> البقرة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾<sup>5</sup> فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَابَتِنَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾<sup>6</sup> فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُلَذِّقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾<sup>7</sup> فصلت.

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا (ت 1354هـ) - ج 10 ص 136.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 107 و108.

<sup>3</sup> جاء في التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور: (فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنهم الموجه إليهم الكلام وذلك التفات فالتقدير: فليسبحوا في الأرض ونكتة هذا الالتفات إبلاغ الإنذار إليهم مباشرة، ويجوز تقدير قول محذوف مفرع على البراءة من عهودهم أي فقل لهم: سيحوا في الأرض أربعة أشهر).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَكْزَبُ الْعَظِيمِ ﴾<sup>١٦</sup> التوبة. وغيرها من الآيات الدالة على سنة الله الماضية في أعدائه الناقضين للعهد.

### المعاملة الخامسة: إعلام بالبراءة يوم الحج الأكبر

﴿ وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُّ فَهُوَ حَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾<sup>٢٥</sup> التوبة، وأيا ما كان المقصود بالحج الأكبر أهو يوم عرفة أم أنه يوم النحر أم أنه أيام الحج كلها لا يوم بعينه<sup>1</sup> فإن وقوع البراءة في هذا اليوم مؤذن بالإعلام بها وإشهارها لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم (من حيث كان الحكم المتعلق بذلك يلزمهما جميعاً)<sup>2</sup>؛ فيلزم المشركين الذين لا عهد لهم ويلزم الذين لهم عهد ويلزم المسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة لئلا يكونوا غادرين وقد جاء التصريح بلفظ البراءة في هذا المقام قطعاً للمعاذير واستقصاء في الإبلاغ<sup>3</sup>، وإضافة الأذان إلى الله ورسوله ذون المسلمين لأنه تشريع وحكم في مصالح الأمة فلا يكون إلا من الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة لئلا يكونوا غادرين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَابْنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾<sup>٥٨</sup> الأنفال.

ويستمر إعلام المشركين بالتسامح معهم ودعوتهم إلى الرجوع عن الشرك وما يزينه لهم من الخيانة والغدر بنقض العهود<sup>4</sup>، وقبول هداية الإسلام لأنها سبيل السعادة، وفي حال الإعراض عن إجابة هذه الدعوة إلى التوبة والاستقامة فإن سنة الله الماضية فيهم وأنهم غير فائتيه. ومن الهدايات التي يهدي إليها هذا الدين في التعامل مع المشركين: مراعاة تقوى الله في الوفاء بعهودهم إلى آجالها<sup>5</sup> ما لم ينقضوها أو يخلوا بشرط من شروطها أو يمالئوا على المسلمين أحداً فإن من كمال العهد

<sup>1</sup> انظر الأقوال الثلاثة مفصلة في: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري ج 14 ص 126.

وأما ابن عطية فيرى أن (كل حج بعد حج أبي بكر فمتركب عليه فحقه لهذا أن يستمى أكبر) - المحرر الوجيز - ج 3 ص 6.

<sup>2</sup> التفسير الكبير - الفخر الرازي (ت 604هـ) - ج 15 ص 229.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 109 . بتصرف.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 137

<sup>5</sup> قال القرطبي: وإن كانت أكثر من أربعة أشهر - ج 8 ص 71.

الحفاظ على الوفاء به (ولهذا حرص الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>1</sup> أي: الموفين بعهدهم)<sup>2</sup> ، (يفهم من مفهوم مخالفة هذه الآية<sup>3</sup>: أنّ المشركين إذا نقضوا العهد جاز قتالهم، ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>4</sup> التوبة، وهذا المفهوم في الآيتين صرح به جلّ وعلا في قوله: ﴿وَإِنْ تَكَثُرُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾<sup>5</sup> (التوبة)<sup>6</sup>.

### المعاملة السادسة: أسلوب آخر في معاملة المشركين

فمع قوة التسامح والدعوة إلى الاستقامة والوفاء بالعهود والمواثيق، هناك قوّة القتال والدفع فالقرآن الكريم هدى إلى التعامل مع المشركين بأسلوب آخر كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>7</sup> التوبة.

إنه أسلوب قوة القتال و وقوّة المدافعة؛ فبانقضاء (أشهر التسيير الأربعة<sup>5</sup> المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾<sup>8</sup> التوبة)<sup>6</sup> أمر الله تعالى بمقاتلتهم فقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>9</sup> التوبة، فكان الأمر بقتال المشركين على جهة (التشجيع وتقوية النفس، أي: هكذا يكون أمركم معهم)<sup>7</sup> ؛

<sup>1</sup> جاء في التحرير والتنوير: وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تذييل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بأن ذلك من التقوى، أي من امتثال الشرع الذي أمر الله به لأنّ الإخبار بمحبة الله المتقين عقب الأمر كناية عن كون المأمور به من التقوى. ج 10 ص 113

<sup>2</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (ت 774 هـ) - ج 4 ص 110.

<sup>3</sup> ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُواكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّوكُمْ شَيْئًا وَلَا يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>4</sup> التوبة.

<sup>4</sup> أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - الشنقيطي - ج 10 ص 6.

<sup>5</sup> ورجح ابن كثير أن تكون الأشهر الحرم في الآية هي أشهر التسيير الأربعة، قال: (والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾<sup>8</sup> التوبة. ج 4 ص 111. وهو الذي نصّ عليه مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) في تفسيره: الهداية إلى بلوغ النهاية - ج 4 ص 2931.

<sup>6</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 111.

<sup>7</sup> المحرر الوجيز - ابن عطية - ج 3 ص 9 .

فَيَتَعَقَّبُونَ بِالْقَتْلِ حَيْثُ وَجَدُوا<sup>1</sup> وبالأسر حيث قدر عليهم، وأن يُقصدوا بالحصار في معاقبتهم وحصونهم، وأن يُرصدوا في طرقهم ومسالكهم حتى يُضيق عليهم الواسع، ويُضطرون إلى القتل أو الإسلام<sup>2</sup> ولهذا قال الله جلّ وعزّ: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>3</sup> التوبة.

ومع هذا الذي أمر الله به من القتل والأسر والحصار والرصد فإنّه تعالى: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وفي هذا (التذليل حتّى للمسلمين على عدم التعرّض بالسوء للذين يسلمون من المشركين وعدم مؤاخذتهم لما فرط منهم)<sup>3</sup>، فقد جعل التوبة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة سببا في تخلية سبيلهم وتأمينهم وستر ذنوبهم والرحمة بهم بترك معاقبتهم، اقتداء بفعل الله جلّ وعزّ فقد (غفر لهم ما فرط منهم كما تعلمون فكونوا أنتم بتلك المثابة في الإغضاء عمّا مضى)<sup>4</sup>، وهذا هدي رباني في التعامل مع المشركين، فعن أنس بن مالك: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فارقها والله عنه راض) قال أنس: (وذلك دين الله الذي جاءت به الرّسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، يقول الله عزّ وجلّ: (فإن تابوا) خلعوا الأنداد وعبادتها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> قال ابن كثير: وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَاقْتُلُوا حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَالْأَشْهُرَ الْحُرُمَ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْقِتْلَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُبْتَلَوْا فِيهِ إِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ كَالَّذِينَ قَتَلْتُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة - ج 4 ص 111.

- أما ابن جرير الطبري فيرى العموم في قوله تعالى يقول: (فاقتلوا المشركين) يقول: فاقتلوه (حيث وجدتموهم): حيث لقيتموهم من الأرض في الحرم وغير الحرم في الأشهر الحرم وغير الأشهر الحرم - ج 14 ص 134.

<sup>2</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 111. بتصرف.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 117.

<sup>4</sup> نفسه - ج 10 ص 117.

<sup>5</sup> مسند الحارث - كتاب الإيمان - باب في شرائع الإسلام - ج 1 ص 152. والمطالب العالية للحافظ - ابن حجر العسقلاني - كتاب

الإيمان والتوحيد - باب تعريف الإسلام - ج 12 ص 370. المستدرک على الصحيحين للحاكم - كتاب التفسير - تفسير

سورة التوبة - ج 2 ص 362. سنن ابن ماجه - المقدمة - باب في الإيمان - ج 1 ص 27.

## المعاملة السابعة: وجه آخر للتسامح

ومع الأمر بقتال المشركين هدى القرآن الكريم إلى إعطاء الجوار وتأمين كلّ مشرك يطلب عهداً يأمن به، ويسمع القرآن ويفهم أحكامه وأوامره ونواهيه، ويرى حال الإسلام فيعطى ذلك: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ التوبة، ثم أمر الله تعالى بتبليغه المأمن إذا لم يرض الإسلام ولم يُهد إليه<sup>1</sup>، وهذه السماحة في التعامل مع غير المسلمين مبنية على تعليمهم مرشد أمورهم ودعوتهم إلى الحق وهي سماحة لا نجدها في أيّ مذهب إنساني آخر، قال ابن عطية<sup>2</sup>: ( ذلك ) إشارة إلى هذا اللطف في الإجارة والإسماحة وتبليغ المأمن و(لا يعلمون) نفي علمهم بمرشدتهم في إتباع محمد صلى الله عليه وسلم).

## الفرع الثاني: حكمة البراءة من عهود المشركين

جاء إعلان البراءة من عهود المشركين لأنهم متلبسون بنقضها متصفون بالعدو فيها مجاهرون بالتعدي على بنودها إلا من استقام منهم على العهد، فمن كان هذا شأنه والعدو صفته فلا يمكن بحال أن يكون له من الله ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم عهد، (على أيّ وجه يكون للمشركين عهد وهم قد نقضوا وجاهروا بالتعدي)<sup>3</sup> ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ التوبة، فالآية فيها (تبيين) للحكمة الداعية لما سبق من البراءة ولواحقها والمراد من المشركين الناكثون، لأنّ البراءة إنما هي في شأنهم والاستفهام لإنكار الوقوع)<sup>4</sup>، فإذا كان هذا حال المشركين فإنّ الله تعالى بيّن الهدى الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في تعاملهم مع المشركين فأمرهم بالاستقامة لهم على العهود فقال: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: (إذا استقاموا لكم في وفاء العهد فاستقيموا لهم في وفائه وإن انقضت المدة)<sup>5</sup>، (فدلّ على أنهم إذا نقضوا العهد سقط أمانهم وحلّت دماؤهم)<sup>6</sup>، ورغبهم في ذلك فقال: ﴿إِنَّ

<sup>1</sup> المحرر الوجيز - ابن عطية - ج 3 ص 10. بتصرف .

<sup>2</sup> نفسه - ج 3 ص 10.

<sup>3</sup> المحرر الوجيز - ابن عطية - ج 3 ص 10. (والاستفهام على جهة التعجب والاستبعاد).

<sup>4</sup> روح المعاني - الألوسي - ج 10 ص 54 .

<sup>5</sup> تأويلات أهل السنة - محمد أبو منصور الماتريدي (ت: 333هـ) - ج 5 ص 304.

وانظر: النكت والعيون - الماوردي - ج 2 ص 342.

<sup>6</sup> النكت والعيون - الماوردي (ت: 450هـ) - ج 2 ص 342.

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾ ليرغب المؤمنون في تحصيل محبة الله فيكون ذلك أذعى لهم للمداومة على الاستقامة في مراعاة العهود والمحافظة عليها فتتحقق لهم التقوى التي ينالون بها رضون الله، (وإنّ الوفاء بالعهد من التقوى إذ هو يُرضي الله ويقوي الأمة وهو من أفضل الأخلاق، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله جلّ وعزّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧﴾<sup>1</sup>.

### وحكمة أخرى من البراءة من عهود المشركين

تمثلت في إبراز أحوالهم وصفاتهم في عهودهم، و(إخباراً عن دخائلهم)<sup>2</sup> ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ التوبة. ليكون المسلمون على بصيرة في تعاملهم معهم ومعاداتهم و(بما عُدد من الصفات السيئة هم المعتدون المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة)<sup>3</sup>.

**أول هذه الصفات** أنهم لا يصدّقون في عهد أبرموه مع المسلمين إلا أن يكونوا على ضعف وغلبة وذلة (ولا عهد لذلك، وهذا عهد الأذلاء يعقدونه للإرضاء لا للوفاء)<sup>4</sup>.

**وثانيها:** شدّتهم في أخذ المسلمين إن كانت لهم القدرة والغلبة إذ لا يراعون فيهم رحماً واصله ولا عهداً عاهدوه ولا يخافون الله فيهم<sup>5</sup>، قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً...﴾ ﴿٨﴾ التوبة.

<sup>1</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة (ت1394هـ) - ج 6 ص 3235.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 123.

<sup>3</sup> روح المعاني - الألوسي - ج 10 ص 57.

<sup>4</sup> روح المعاني - الألوسي - ج 6 ص 3236.

<sup>5</sup> قال ابن كثير: قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والوعوي عن ابن عباس: (الإل): القرابة و(الذمة): العهد. وكذا قال الضحاك والسدي، كما قال تميم بن مُقْبِل: أفسد الناس خُلُوفَ خلفوا ... قطعوا الإلّ وأعراقَ الرحم. وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه: وجدناهم كاذباً إهمم ... وذو الإلّ والعهد لا يكذب وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: (لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا) قال: الله. وفي رواية: لا يرقبون الله ولا غيره.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن سليمان عن أبي مجلز في قوله تعالى: (لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً) مثل قوله: (جبرائيل)، (ميكائيل)، (إسرافيل)، كأنه يقول: يضيف (جبر)، و(ميكائيل)، و(إسرافيل)، إلى (إيل)، يقول عبد الله: (لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا) كأنه يقول: لا يرقبون الله. والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً: (الإل): العهد. وقال قتادة: (الإل): الحلف. - ج 4 ص 115.

**وثالثها:** عهدوهم قائمة على النفاق لأتھميبطون نية الغدر إن ظهروا على المسلمين فهم(يرضونكم بالحسن من القول وتأبى قلوبهم الوفاء به)<sup>1</sup>، وهم(يخادعونكم في حال الضعف بما يبنذون به من الكلام العذب الذي يرون أنه يرضيكم سواء كان عهدا أو وعدا أو يمينا مؤكدا لهما وتأبى قلوبهم المملوءة بالحق والصدق أن تصدق أفواههم) ﴿... يَقُولُونَ بِاللَّيْسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ...﴾ (١١) ﴿الفتح﴾<sup>2</sup> ولذلك وصف الله تعالى حالهم هذه بقوله: ﴿...يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾ (٨) ﴿التوبة﴾.

**ورابعها:** فسقهم وعدم انضباط نفوسهم بحيث لا يصبرون على عهد، وهم (خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء)<sup>3</sup>، وقد دلّ على هذا ختام الآية: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٠) ﴿التوبة﴾، و(من فسق وتمرد كان سببه مجرد إتباع الشهوات والركون إلى اللذات)<sup>4</sup>.

**وخامسها:** إيثائهم العاجلة والبقاء على الشرك لمنافع يجتنونها من عوائد قومهم: من غارات يشنها بعضهم على بعض ومحبة الأحوال الجاهلية من خمر وميسر وزنى، وغير ذلك من المذمات واللذات الفاسدة وذلك شيء قليل آثروه على الهدى والنجاة في الآخرة، فصدوا كل قاصد سبيل الهداية وذلك دأبهم وتلك حالهم المذمومة<sup>5</sup> قال الله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩) ﴿التوبة﴾<sup>6</sup>.

**وسادسها:** عدم مراعاتهم حقوق العهود حال عامة مستمرة فيهم وحلقت متأصل فيهم، سواء أكانوا أقوياء أم كانوا مستضعفين، وذلك لسوء طويتهم<sup>7</sup> ﴿لَا يَرْفَعُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذَمَّةً...﴾ (١٠) ﴿التوبة﴾،

<sup>1</sup> التفسير البسيط - الواحدي (ت: 468هـ) - ج 10 ص 309.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا (ت 1354هـ) - ج 10 ص 167.

<sup>3</sup> نفسه - ج 10 ص 167.

<sup>4</sup> روح المعاني - محمود الألوسي - ج 10 ص 57.

<sup>5</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 125. بتصرف.

<sup>6</sup> قال ابن عاشور: وهذه الآية وصف القرآن فيها المشركين يمثل ما وصف به أهل الكتاب في سورة البقرة: من الإشتراء بآيات الله ثمنًا قليلاً، ثم لم يوصفوا يمثل هذا في آية أخرى نزلت بعدها لأن نزلها كان في آخر عهد المشركين بالشرك إذ لم تطل مدة حتى دخلوا في دين الله أفواجاً سنة الوفود وما بعدها. التحرير والتنوير - ج 10 ص 126. والآية هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٣) ﴿البقرة﴾.

<sup>7</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 126. وروح المعاني - الألوسي - ج 10 ص 57. بتصرف.

و(السبب في أنهم لا يراعون فيكم رحماً واصلة ولا مودة راحمة ولا عهداً يعاهدونكم فيه، إنه إيمانكم هو الذي صرفهم إلى النكث في العهد)<sup>1</sup> ﴿لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ التوبة<sup>2</sup>، أي: (المتجاوزون فيكم إلى ما ليس لهم بالظلم والاعتداء)<sup>3</sup>، قال الله جلّ وعزّ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ التوبة<sup>4</sup>. فإنّ البراءة من عهود المشركين وبيان أحوالهم في نقضهم للعهد وتجاوزهم الحدّ في الاعتداء إنما كان مزجراً عنها ومظنّة للتوبة، فإن تابوا عمّا هم عليه من الكفر وسائر العظائم كنقض العهد وغيره (وأقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة) على الوجه المأمور به (فإخوانكم) أي فهم إخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> زهرة التفاسير للشيخ - أبو زهرة ج 6 ص 3239.

<sup>2</sup> جاء في زهرة التفاسير وقوله تعالى: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ) فيه تأكيد الاعتداء من وجوه: أولها: في التعبير بالإشارة المتضمن لصفاتهم التي هي سبب الحكم. ثانيها: ضمير الفصل الذي يؤكد الحكم. ثالثها: القصر بالحكم بأنهم المعتدون وحدهم؛ لأن تعريف الطرفين يدل على الاختصاص، أي أنهم اختصوا بالاعتداء وليس بمعتد عليهم من لا يأخذ بعهدهم. - ج 6 ص 3240.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري (224 / 310 هـ) - ج 14 ص 151.

<sup>4</sup> قال الألوسي: في بيان الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ التوبة. والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب الشرطية السابقة مع اتحاد الشرط فيهما لما أن الأولى سبقت إثر الأمر بالقتل ونظائره فيجب أن يكون جوابها أمراً بخلاف هذه، وهذه سبقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه فلا بد من أن كون جوابها حكماً البتة وهذه الآية أجلب لقلوبهم من تلك الآية إذ فرق ظاهر بين تخليّة سبيلهم وبين إثبات الأخوة الدينية لهم وبما استدل على تحريم دماء أهل القبلة - روح المعاني - ج 10 ص 57.

وفي تفسير المنار: (أن الشرط فيها كالشرط في الآية الخامسة وإنما اختلفت الجواب لمناسبة السياق وردت تلك الآية نالمة تلو الأمر بقتل المشركين فناسب أن يكون جواب الشرط فيها الأمر بتركه وهو قوله تعالى: (فخلوا سبيلهم) ووردت هذه الآية تلو إثبات رسوخ المشركين في كفرهم وضلالهم وصددهم عن سبيل الله، وكونه هو الباعث لهم على قتال المؤمنين ابتداء ثم على نقض عهودهم، فناسب أن يذكر في جواب شرطها (فإخوانكم في الدين) وهذه أجلب لقلوبهم وأشد استمالة لهم إلى الإسلام كما قال بعض المفسرين) - ج 10 ص 170.

<sup>5</sup> روح المعاني - الألوسي - ج 10 ص 57.

## الفرع الثالث: الهدي القرآني في قتال أئمة الكفر

بعد أن عدّد الله جلّ وعزّ صفات عاقمة المشركين السيئة حضّ المؤمنين وأغرامهم بقتال أئمة الكفر منهم فقال: ﴿... فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ...﴾<sup>1</sup> فهم رؤساء الكفر وحملة لوائه وقادة أهله وهم الناكثون للعهود الطاعنون في الدين (وخصّهم بالذكر لعظم جنائهم ولأنّ غيرهم تبع لهم)<sup>1</sup> ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ...﴾<sup>2</sup> التوبة، وهم المتّبعون في قومهم وهم البادئون بالنقض والاعتداء على النبي صلّى الله عليه وسلّم (إذ الذي يتولى قتال النبي صلّى الله عليه وسلّم والدفع في صدر شريعته هو إمام كلّ من يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة ثم تأتي في كلّ جيل من الكفار أئمة خاصة بجيل بجيل)<sup>2</sup>، فهذه الصفات التي طبعوا عليها ﴿... فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ...﴾<sup>3</sup> (تغري<sup>3</sup> بعدم الهوادة في قتالهم... فكانت جملة ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ فَوْماً نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ...﴾<sup>4</sup> التوبة، تحذيراً من التراخي في مبادرتهم بالقتال)<sup>4</sup> فالله جلّ وعزّ (بين ما يُعامل به الذين يستمرّون في غيبيهم وينقضون عهودهم ويطعنون في الدين)<sup>5</sup> فقال جلّ وعزّ: ﴿وَإِنْ نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾<sup>6</sup> (التوبة).<sup>6</sup> ففي الآية (إيدان بأنّ الطعن في الإسلام ضرب من ضروب نكث الأيمان

<sup>1</sup> تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ج 1 ص 330.

<sup>2</sup> المحرر الوجيز - ابن عطية - ج 3 ص 13.

<sup>3</sup> معاني القرآن وإعرابه - الزجاج - ج 2 ص 436 . وابن كثير - ج 4 ص 117 . والتحرير والتنوير - ج 10 ص 132.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 132.

<sup>5</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 6 ص 3241.

<sup>6</sup> قال ابن كثير: وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة وأمّية بن خلف وعدّد رجالا. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مرّ سعد برجل من الخوارج فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر رواه ابن مردويه. وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال: (ما قوتل أهل هذه الآية بعد). وروى عن علي بن أبي طالب مثله. ثمّ **خلص إلى القول:** والصحيح أنّ الآية عامّة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامّة لهم ولغيرهم، والله أعلم. تفسير القرآن العظيم - ج 4 ص 116.

قال ابن عطية: وأصوب ما في هذا أن يقال: إنه لا يعني بها معيّن وإنما وقع الأمر بقتال أئمة الناكثين بالعهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين. - المحرر الوجيز - ج 3 ص 13.

وجاء في تفسير المنار: (ولا أدري ما الذي حمل هؤلاء المفسرين على إخراج الآية عن ظاهرها حتى إنهم روّوا عن عليّ وحذيفة أنّهما قالا: (ما قوتل أهل هذه الآية بعد)، يعنون أنّها نزلت في قوم يأتون بعد، وزعم بعضهم أنّهم الدجال وقومه من اليهود، والحق أنّها صريحة في مشركي العرب أصحاب العهود مع المؤمنين من بقي منهم ويدخل في حكمها كل من كانت حاله مع المؤمنين كحالهم.

ونقض السلم والولاء كالقتال ومظاهرة الأعداء)<sup>1</sup>، ومقاتلة أئمة الكفر وأتباعهم لعلها تكون (سبباً في انتهائهم عما هم عليه من الكفر، وهذا من غاية كرم الله وفضله على الإحسان)<sup>2</sup>.

وخاتمة الآية تضمنت (النهي عن القتال إتباعاً لهوى النفس أو إرادة منافع الدنيا من سلب وكسب وانتقام محض بالأولى)<sup>3</sup>، وقد ذكر الله جلّ وعزّ ثلاثة أسباب كلّ واحد منها كاف لمقاتلتهم فكيف إذا اجتمعت كلّها فيهم:

(أحدها: نكثهم العهد ونقضهم المواثيق، وكل المفسرين حمله على نقض العهد ... وهذه الآية تدل على أنّ قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار ليكون ذلك زجراً لغيرهم: ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ...﴾<sup>١٣</sup> التوبة.

وثانيها: الهّم بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله جلّ وعزّ: ﴿وَهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَمَنْ يَدْعُ إِلَى دِينِ اللَّهِ فَسَوْفَ يُجْعَلُ لَهُ مِنَ اللَّهِ رِزْقًا وَسَعِيدًا﴾<sup>١٤</sup> التوبة<sup>4</sup>، فإن هذا من أوكد ما يجب القتال لأجله.

وثالثها: الابتداء بالقتال لقوله جلّ وعزّ: ﴿وَهُمْ بَدَأُوا وَاكْفَارًا أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾<sup>١٥</sup> التوبة، يعني بالقتال يوم بدر، لأنهم حين سلم العير قالوا: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً ومن معه)<sup>5</sup>.

وختام الآية: قوله جلّ وعزّ: ﴿... أَن تَخْشَوْهُمْ فَنَقِصَ مِن دِينِكُمْ وَأَن تُخْشَوْهُمْ فَيَقْبَلُوا مِنكُم مَّا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾<sup>١٦</sup> التوبة، وفي هذا تقوية لداعي القتال عند المؤمنين ويجعلهم يستنكفون عن داعية الخوف، فإذا كان الضرر المتوقع من المشركين غايته القتل فالتوقع من الله العقاب الشديد في القيامة والذمّ اللازم في الدنيا... إن كُنتم

فكل من يجمع بين عداوتهم بنكث عهودهم، والطعن في دينهم فيجب عدّه من أئمة الكفر ولهم حكمهم ومن لم يرههم أهلاً لعقد العهد معه على قاعدة المساواة فهو أعدى وأظلم ممن يكتفون الأيمان وذلك ما نشاهده من الجامعين بين الاعتداء على شعوبنا وبلاذنا، وبث الدعاة فيها للطعن في ديننا لصدنا عنه واستبدال دينهم به أو جعلنا معطلين لا دين لنا). - ج 10 ص 173.

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 172.

<sup>2</sup> التفسير الكبير - الفخر الرازي - ج 1 ص 2183. وتفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 173.

<sup>3</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 173.

<sup>4</sup> قال الرازي في تفسيره: (واختلفوا فيه فقال بعضهم: المراد إخراجهم من مكة حين هاجر. وقال بعضهم: بل المراد من المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والاجتماع على قصده بالقتل. وقال آخرون: بل هموا بإخراجه من حيث أقدموا على ما يدعوه إلى الخروج وهو نقض العهد وإعانة أعدائه، فأضيف الإخراج إليهم توسعاً لما وقع منهم من الأمور الداعية إليه). التفسير الكبير - الفخر الرازي - ج 1 ص 2183.

<sup>5</sup> التفسير الكبير - الفخر الرازي - ج 1 ص 2183.

مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ التوبة، فالإيمان يوجب عليكم مقاتلتهم<sup>1</sup>. (وجيء بالشرط المتعلق بالمستقبل مع أنه لا شك فيه لقصد إثارة همّتهم الدينية فيبرهنوا على أنهم مؤمنون حقًا يقدمون خشية الله على خشية الناس)<sup>2</sup>.

### الضريح الرابع: إنهاض همم المؤمنين لقتال أئمة الكفر وأتباعهم لتحقيق سيرة التدافع

بعد التحضيض على قتال أئمة الكفر وأتباعهم جاء صريح الأمر من الله جلّ وعزّ بقتالهم بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ وجاء جواب الأمر ب(جزم الأحرف الثلاثة ... على وجه المجازاة، كأنه قال: قاتلوهم فإنكم إن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصرهم عليهم)<sup>3</sup>، وفي هذا الجواب خمس فوائد<sup>4</sup> للمؤمنين ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُدْهَبُ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ التوبة، (إذ تشتمل كل فائدة منها على كرامة للمؤمنين وإهانة لهؤلاء المشركين)<sup>5</sup> و(كل واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد فكيف بها إذا اجتمعت؟)<sup>6</sup> (وكلها ترجع إلى تسكين الدواعي الناشئة من القوة الغضبية وهي التّشفي ودرك الثأر وإزالة الغيظ)<sup>7</sup> والفوائد هي:

**الفائدة الأولى:** تعذيب المشركين<sup>8</sup> تعذيب قتل وجراحة بأيدي المسلمين للمؤمنين ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ...﴾ التوبة، وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين، وجعلت أيدي المسلمين آلة له تشريفاً للمسلمين. (وإنما يدلّ هذا الإسناد على أنه تعالى سيحدث في أنفس المشركين في هذا القتال ألماً

1 التفسير الكبير - الفخر الرازي - ج 1 ص 2183.

2 التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 134.

3 جامع البيان - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 162.

4 نفسه - ج 10 ص 135 وما بعدها. التفسير الكبير - الرازي - ج 1 ص 2184. زهرة التفاسير - ج 6 ص 3246.

5 نفسه - ج 10 ص 135.

6 التفسير الكبير - الفخر الرازي - ج 1 ص 2184.

7 المصدر نفسه - ج 1 ص 2185.

8 قال الرازي: فإن قالوا: ليس أنه تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١٣) الأنفال، فكيف قال ههنا: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾؟ قلنا: المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ عذاب الاستئصال، والمراد من قوله: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ عذاب القتل والحرب، والفرق بين البابين أن عذاب الاستئصال قد يتعدى إلى غير المذنب وإن كان في حقه سبباً لمزيد الثواب، أما عذاب القتل فالظاهر أنه يبقى مقصوداً على المذنب.

نفسياً لعلّ أظهر أسبابه اليأس وسلب البأس... وللعذاب هنا معنى آخر غير الشعور بالألم... وهو أنّ ما يصيب الجماعات والأمم من الآلام والشدائد يكون لبعضها تربية وتمحيصاً تتهدّب به أفرادها ويرتقي به مجموعها)<sup>1</sup>.

**الثانية:** خزي المشركين ﴿... وَيُخْزِهِمْ...﴾<sup>(١٤)</sup> التوبة، وما ينزل بهم من الدّل والهوان حيث شاهدوا أنفسهم مقهورين في أيدي المؤمنين بالأسر والتتبع في الأرض وذهاب سطوتهم وقوّتهم وانخلاع العرب من ربقتهم وذهاب سلطاتهم المادي والأدبي، وهذا يستلزم عزة المسلمين.

**الثالثة:** نصر المسلمين ﴿... وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ...﴾<sup>(١٥)</sup> التوبة، ولا يكون النصر من الله إلا إذا اتخذت أسبابه من العبد واحتسبت النية، قال الله جلّ وعزّ: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدِمَت صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾<sup>(١٦)</sup> الحج، وهذه كرامة صريحة للمؤمنين وتستلزم هزيمة المشركين وهي إهانة لهم.

**الرابعة:** شفاء صدور فريق من المؤمنين بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم لقوله تعالى: ﴿... وَيَشْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾<sup>(١٧)</sup>، وإذلالكم وقهركم إياهم وذلك الداء هو ما كان في قلوبهم عليهم من الموجدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه.. وهذه صريحة في شفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، وتستلزم شفاء صدور المؤمنين كلّهم وتستلزم حرج صدور أعدائهم جميعهم.

**الخامسة:** إذهاب غيظ<sup>2</sup> قلوب فريق من المؤمنين<sup>3</sup> أو المؤمنين كلّهم ﴿... وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ...﴾<sup>(١٨)</sup> التوبة، وهذه تستلزم ذهاب غيظ قلوب بقية المؤمنين الذي تحملوه من إغاظه أحلامهم، وتستلزم غيظ قلوب أعدائهم، ومن المعلوم أنّ من طال تأذّيه من خصمه ثم مكّنه الله منه على أحسن الوجوه فإنّه يعظم سروؤه به ويصير ذلك سبباً لقوّة النفس وثبات العزيمة.

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 177.

<sup>2</sup> جاء في زهرة التفاسير: (وعبر الله في الغيظ بقوله تعالى: ﴿... وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن الغيظ ليس داءً ولكنه حال عارضة من أمر قابل للزوال والنصر يزيله وفيه إشارة إلى حصول الوعد. أما التردد والحيرة وبوادر الشك فأعراض تلازم النفوس المريضة فعبّر عن زوالها بالشفاء؛ لأنها أمراض الإيمان والله هو الذي يشفيها ويودعها الاطمئنان.) أبو زهرة - ج 6 ص 3247.

<sup>3</sup> قال الطبري في تفسيره: يقول الله تعالى ذكره: ويذهب وجد قلوب هؤلاء القوم المؤمنين (من خزاعة) على هؤلاء القوم الذين نكثوا أيمانهم من المشركين، وغمها وكرها بما فيها من الوجد عليهم بمعونتهم بكرة عليهم. - ج 14 ص 161.

## الفرع الخامس: شأن التوبة وقبولها شأن خاص بالله جلّ وعزّ

وشأن التوبة وقبولها شأن خاص بالله جلّ وعزّ يجري وفق سنته تعالى في الهداية والضلال ﴿... وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٥﴾ التوبة، وفي هذا هدي قرآني للمؤمنين في شأن توبة المشركين ﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٦﴾ لإفادة أن الله يعامل الناس بما يعلم من نياتهم، وأنه حكيم لا يأمر إلا بما فيه تحقيق الحكمة، فوجب على الناس امتثال أوامره، وأنه سبحانه وتعالى يقبل توبة من تاب إليه تكثريراً للصالح<sup>1</sup> ليعلموا أنه تعالى (يمنّ على من يشاء من عباده الكافرين، فيقبل به إلى التوبة بتوفيقه إياه)<sup>2</sup>. وهو جلّ وعزّ عليم (بسرائر عباده ومن هو للتوبة أهل فيتوب عليه، ومن منهم غير أهل لها فيخذه (حكيم) في تصريف عباده من حال كفر إلى حال إيمان بتوفيقه من وقفه لذلك ومن حال إيمان إلى كفر، بخذلانه من خذل منهم عن طاعته وتوحيده، وغير ذلك من أمرهم)<sup>3</sup>.

## أولاً: سنتا الله تعالى في تمحيص المؤمنين

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ٥٧﴾ التوبة، جرت سنة الله جلّ وعزّ بابتلاء المؤمنين<sup>4</sup> بما يحصّهم ويختبرهم وأنهم لن يُتركوا في دعة من غير جهاد قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ... ٥٨﴾ التوبة، فالآية (خطاب للمؤمنين إلهاباً لهم وحثاً على ما حصّهم عليه بقوله سبحانه: (قاتلوهم يعدّهم الله)<sup>5</sup> وذلك ل(يعرف به أهل ولايته المجاهدين منكم في سبيله من المضيعين أمر الله في ذلك المفرطين)<sup>6</sup> وعدم تركهم مهملين وذلك ليميز الخبيث من الطيب والصادق في دينه من الكاذب فإنه جلّ وعزّ (لا يتركهم دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث)<sup>7</sup> ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 137.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 162.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 162 - ج 14 ص 162.

<sup>4</sup> قال ابن عطية: (وهذه الآية مخاطبة للمؤمنين معناها أنه لا بد من اختبارهم فهي كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ... ٥٧﴾ البقرة. وكقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ فِي الْفَرَقِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ العنكبوت. الحر الوجيز - ج 3 ص 17. وانظر تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 119.

<sup>5</sup> روح المعاني - محمود شكري الألوسي - ج 10 ص 64.

<sup>6</sup> جامع البيان - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 163.

<sup>7</sup> التسهيل لعلوم التنزيل - ابن جزي - ج 1 ص 587.

أَنْ تُرَكُّوْا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَهِدُوا مِنْكُمْ ... ﴿١٦﴾ التوبة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾ آل عمران، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٦١﴾ البقرة، وقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٣﴾ العنكبوت.

### ثانياً: تجليات ستة تمحيص المؤمنين

جرت سنة الله جلّ وعزّ في تمحيص المؤمنين في جهادهم واتخاذهم البطانات من دون الله ورسوله والمؤمنين ف(أبي - جلّ وعزّ - أن يدعهم دون التّمحيص)<sup>1</sup> فقال جلّ وعزّ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَهِدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ التوبة.

ويتجلى ابتلاء المؤمنين واختبارهم وتمحيصهم بأشدّ ما يتلى به الإنسان في التعامل مع المشركين وذلك:

أ - جهاد المشركين وعدم الهوادة في قتالهم بإخلاص؛ (وأنّ الإخلاص إذا لم يظهر أثره بالجهاد في سبيل الله تعالى ومضادة الكفار كلا إخلاص)<sup>2</sup> لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَهِدُوا مِنْكُمْ ...﴾ ﴿١٦﴾ التوبة<sup>3</sup>.

ب - عدم موالاته المشركين وذلك بعدم اتخاذهم بطانةً، وعدم البوح لهم بالأسرار (ولم يتخذوا بينهم وبين الكافرين دخيلة مودة)<sup>4</sup>، لقوله جلّ وعزّ: ﴿... وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ ...﴾ ﴿١٦﴾ التوبة، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 164.

<sup>2</sup> روح المعاني - محمود شكري الألوسي - ج 10 ص 64.

<sup>3</sup> قال ابن عاشور: (أم منقطعة لإفادته الإضراب عن غرض من الكلام للانتقال إلى غرض آخر. والكلام بعد أم المنقطعة له حكم الاستفهام دائماً، فقوله: حسبتم في قوة (أحسبتم) والاستفهام المقدر إنكاري - التحرير والتنوير - ج 10 ص 137.

<sup>4</sup> معاني القرآن وإعرابه - الزجاج (المتوفى: 311هـ) - ج 2 ص 437.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدَّ بَدَّتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَقْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧٨﴾ آل عمران <sup>1</sup>. ﴿... وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ التوبة

ج- منع <sup>2</sup> المشركين من دخول المسجد الحرام وعمارته بعد عام إعلان البراءة من عهودهم ونبذها لأنهم (ليسوا بأهل لأن يعمرُوا مساجد الله بما تعمر به من العبادات) <sup>3</sup> لقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ سَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ التوبة <sup>4</sup>، فقد قرنوا بين عمارة المساجد والشهادة على أنفسهم بالكفر في حال واحدة، و(إن المساجد إنما تعمر لعبادة الله فيها لا للكفر به، فمن كان بالله كافراً فليس من شأنه أن يعمر مساجد الله) <sup>5</sup>، فالشرك يوجب حرمان المشركين من عمارة مساجد الله وحبوط أعمالهم والخلود في النار ﴿... أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ التوبة.

### ثالثاً: ممن تكون عمارة مساجد الله

لما قضى الله جلّ وعزّ بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام وأوجب حرمانهم من عمارتها، لأنه لا

<sup>1</sup> ومحل الشاهد قوله تعالى: ﴿... لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ بَنِي دُونِكُمْ...﴾ ﴿١٧٨﴾، قال ابن جرير الطبري في تفسيره: وإنما جعل (البطانة) مثلاً لخليل الرجل فشبّهه بما ولي بطنه من ثيابه لخلوله منه - في اطلاعه على أسرارها وما يطويه عن أبعاده وكثير من أقاربه - محلّ ما وليّ جسده من ثيابه، فهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخصياء وأصفياء، ثم عرفهم ما هم عليه لهم منطون من الغش والخيانة، وبغيتهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم ومن مخالفتهم. ج 7 ص 139.

- وقال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿... لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ بَنِي دُونِكُمْ...﴾ ﴿١٧٨﴾ أي: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره. ج 2 ص 106.

<sup>2</sup> وهذا المعنى ذهب إليه ابن عاشور إذ يقول: (هذا ابتداء غرض من أغراض معاملة المشركين، وهو منع المشركين من دخول المسجد الحرام في العام القابل، وهو مرتبط بما تضمنته البراءة في قوله: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) ولما اتصل بتلك الآية من بيان النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسل به مع أبي بكر الصديق: (أن لا يخرج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان) وهو توطئة لقوله: (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) التوبة 28. التحرير والتنوير ج 10 ص 139. وقال البغوي: أوجب على المسلمين منعهم من ذلك. - ج 4 ص 19.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 139.

<sup>4</sup> جاء في البحر المحيط: ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر البراءة من المشركين وأنواعاً من قبائحهم توجب البراءة منهم، ذكروا أنهم موصوفون بصفات حميدة توجب انتفاء البراءة منها كونهم عامري المسجد الحرام. أبو حيان - ج 5 ص 20.

<sup>5</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 165

يستقيم لهم (أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وعبادته)<sup>1</sup>، بين جلّ جلاله بما تكون عمارة المساجد؛ فعمارتهما تكون عبادة الله وحده وإقامة الشعائر فيها، وعمارتهما بتعليم الناس أحكام دينهم، فقال جلّ وعزّ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أَوْلَاتِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ التوبة، فما خلا مسجد في الإسلام من فضيلة عمارته بالتعليم، فكما أنه لا ينفك مسجد عن الصلاة فإنه لا ينفك مسجد عن عمارته بالتعليم (المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام فما بنى النبي صلى الله عليه وسلم يوم استقر في دار الإسلام، بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتبط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة، فلا إسلام بدون تعليم، ولهذا الحاجة مضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عمارة المسجد بما، فما انقطع عمره كله عن الصلاة، وعن التعليم في مسجده، حتى في مرضه الذي توفي فيه. ثم مضى المسلمون على هذه السنة في أمصار الإسلام يقفون الأوقاف على المساجد للصلاة والتعليم، ومن أظهر ذلك وأشهره اليوم، الجامع الأزهر وجامع الزيتونة وجامع القرويين)<sup>2</sup>.

وقد جاء الهدي القرآني مبينا الذين هم الأحقّ بعمارة المساجد، وإيهم لهم الموصوفون بهذه الصفات:

**الصفة الأولى:** فالذين يعمرّون مساجد الله هم أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، لا أهل الشرك، ﴿... مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ التوبة، فإنهم يعمرّونها بتعاهداتها وتعظيمها وتنظيفها وصيانتها ممّا لم تبّن له، وقد دلّ الحديث على هذا المعنى؛ فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان))، فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ...﴾ الآية<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري جار الله (ت 538هـ) - ج 2 ص 253.

<sup>2</sup> آثار ابن باديس - د/ عمار طالبي - ج 3 ص 225.

<sup>3</sup> سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح - أبواب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء في حرمة الصلاة وقال: هذا حديث غريب حسن - ج 5 ص 12. سنن ابن ماجه - كتاب المساجد والجماعات - باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة. ولفظه: (يعتاد) - ج 1 ص 513.

**الصفة الثانية:** أنهم يعمرونها بتعظيمها وإقامة الشعائر فيها ﴿...وَأَقَامَ الصَّلَاةَ...﴾ التوبة، باعتبارها للعبادة والذكر وبالمداومة فيها على الصلاة في أوقتها وعلى صفتها المشروعة وإقامة الجماعات فيها.

**الصفة الثالثة:** وأنّ عمار المساجد هم المؤدّون للزكاة: ﴿...وَأَتَى الزَّكَاةَ...﴾ التوبة، (هي أفضل الأعمال المتعدية إلى برّ الخلائق)<sup>1</sup>.

**الصفة الرابعة:** وأنهم أهل التقوى الذين يؤثرون حقوق الله على حقوق أنفسهم ﴿...وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ التوبة، الخشية هي التي تحمل صاحبها على إثارة حقّ الله على حقّ نفسه (هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران: أحدهما حق الله، والآخر حق نفسه أن يخاف الله، فيؤثر حق الله على حق نفسه)<sup>2</sup>.

فمن اتّصف بهذه الأوصاف الأربعة كان جديرا بأن يكون من عمّار مساجد الله وطمع في أن يكون من جملة أهل الهداية ﴿...فَعَسَىٰ أَوْلَاتِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ التوبة، (والحاصل أن من اتصف بالأوصاف الأربعة كان صالحا وخليقا وجديرا وحقيقا بأن يتحرك طمعه ويمتد أمله إلى أن يكون من جملة أهل الهدى)<sup>3</sup>.

**وختام الآية** فيه حثّ للمؤمنين على الثبات على الأوصاف الأربعة لنيل الهداية، وتباعد لهم عن تبعض العمل الصالح فإنّ بعضها لا يغني عن بعض ففيها (حثّ على الاستزادة من هذا الاهتداء وتحذير من الغرور والاعتماد على بعض العمل الصالح باعتقاد أنّ بعض الأعمال يغني عن بقيتها، والتعبير عنهم باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقّوا هذا الأمل فيهم بسبب تلك الأعمال التي عدّت لهم)<sup>4</sup>.

وفيها تباعد للمشركين عن مواطن الهداية، وقطع أطماعهم في الانتفاع افتخروا بها استعظاما لشأنها (تباعد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم أطماعهم من الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها)<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 121.

<sup>2</sup> الكشف - الزمخشري - ج 2 ص 255.

<sup>3</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - برهان الدين البقاعي - ج 3 ص 283.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 142.

<sup>5</sup> الكشف - الزمخشري - ج 2 ص 255.

## رابعاً: التحذير من الغرور بالاعتماد على بعض العمل الصالح:

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾<sup>19</sup> التوبة. التحذير من الغرور بالاعتماد على بعض العمل الصالح لأنه قد يكون صاحبه غير متلبس بالإخلاص لله جلّ وعزّ حين العمل (فربما دخلها بعض المفسدات وصاحبها لا يشعر بها)<sup>1</sup>، وترك الجهاد بالنفس والمال، فالجاهدون في سبيل الله (أعظم درجة عند الله من أصحاب السقاية والعمارة الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا الجهاد الكثير الذي جاهدته المسلمون أيام بقاء أولئك في الكفر، والمقصود تفضيل خصالهم)<sup>2</sup>، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا بِاللَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾<sup>18</sup> أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾<sup>19</sup> التوبة.

ففي الآيتين (قطع اتكال المؤمنين على أعمالهم وما هم عليه وإرشادهم إلى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء)<sup>3</sup>، وبيان ذلك ما روي<sup>4</sup> عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام قال: حدثني النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... ﴾<sup>19</sup> التوبة، الآية إلى آخرها<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) - ج 5 ص 22.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 148.

<sup>3</sup> روح المعاني - محمود شكري الألوسي - ج 10 ص 66. وانظر: الكشاف - الزمخشري - ج 2 ص 243.

<sup>4</sup> صحيح مسلم - كتاب الإمامة - باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى - ج 6 ص 36.

<sup>5</sup> جاء في المحرر في أسباب نزول القرآن: أن سبب نزول الآية الكريمة الحديث الذي رواه النعمان بن بشير لصحة إسناده وتصريحه بالنزول واتفقه مع لفظ الآية وسياق القرآن، والنظر الصحيح والله أعلم. المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية - خالد بن سليمان المزيني - ج 1 ص 585.

## الفرع السادس: بلوغ المهاجرين المجاهدين المنية

فالمهاجرون المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم قد حازوا أعظم الدرجات عند الله جلّ وعزّ دون غيرهم ممن افتخروا بعمارة البيت وسقاية الحجيج ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ...﴾<sup>1</sup> التوبة، ذلك أنهم طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان وطهروا أبدانهم بالهجرة فتركوا ديارهم وأموالهم فنالوا بهذه الخصال منيةهم وفازوا بأعظم الدرجات ﴿...وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾<sup>2</sup> ففوزهم لا يدانيه فوز لأنه فوز برضوان الله (وتعريف المسند باللام مفيد للقصر، وهو قصر ادعائي للمبالغة في عظم فوزهم حتى إنّ فوز غيرهم بالنسبة إلى فوزهم يعدّ كالمعدوم)<sup>1</sup>.

## أولاً: بشارة الله للمهاجرين المجاهدين

لما حقّق المهاجرون المجاهدون عبوديتهم لربهم بالأوصاف التي تحلوا بها وهي ثلاثة: الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، بشرّهم ربّهم بثلاث بشارات وهي: الرّحمة والرّضوان والجنّات، حقّق الله لهم بذلك فوزهم ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾<sup>3</sup> التوبة، وهذه لم تمنح لغيرهم من أهل السقاية والعمارة، وما أعظمها من بشارة من ربّهم جلّ وعزّ بإدخال المسرة عليهم وتحقيق فوزهم، وقد شرفهم بالإضافة إلى ضميرهم، (فبدأ بالرحمة لأنها الوصف الأعم الناشئ عنها تيسير الإيمان لهم، وثنى بالرضوان لأنه الغاية من إحسان الرب لعبده وهو مقابل الجهاد، إذ هو بذل النفس والمال، وقدم على الجنّات لأن رضا الله عن العبد أفضل من إسكانهم الجنة وفي الحديث الصحيح: ((أن الله تعالى يقول: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربنا كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك وأدخلتنا جنتك، فيقول: لكم عندي أفضل من ذلك، فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضائي فلا أسخط عليكم بعدها))<sup>2</sup>، وأتى ثالثاً بقوله: وجنّات لهم فيها نعيم مقيم، أي دائم لا ينقطع، وهذا مقابل لقوله: وهاجروا لأنهم تركوا أوطانهم التي نشأوا فيها وكانوا فيها منعمين، فأثروا الهجرة على دار

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 148.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب صفة الجنة والنار - ج 8 ص 114. و صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً - ج 8 ص 144. ولفظ البخاري: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)).

الكفر إلى مستقر الإيمان والرسالة، فقبلوا على ذلك بالجنات ذوات النعيم الدائم، فجاء الترتيب في أوصافهم على حسب الواقع: الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد. وجاء الترتيب في المقابل على حسب الأعم، ثم الأشرف، ثم التكميل<sup>1</sup>، وهذا الثواب العظيم الذي أعدّه الله جلّ وعزّ للمؤمنين المهاجرين المجاهدين ﴿... إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٢﴾ التوبة، إنما هو بعض ما عند الله من الخيرات فيحصل من ذلك الترغيب في الازدياد من الأعمال الصالحة ليزدادوا رفعة عند ربهم.

### ثانياً: قطع ولاء المشركين

قطع الولاء عن المشركين مهما كانت درجات قرابتهم<sup>2</sup>: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ٢٣﴾ التوبة، فقد جاء الهدي القرآني لبيان معاملة المشركين من الأقارب بعد أمر الله جلّ وعزّ للمؤمنين بالبراءة من عهود المشركين ومواثيقهم وبجهادهم عامة وعدم الهوادة في قتالهم وعدم موالاتهم وعدم اتخاذهم بطانة ومنعهم من دخول المسجد الحرام وعمارته لأنهم ليسوا أهلاً لعمارته، ثم جاء النهي عن موالاته المشركين من الآباء والإخوان وذلك ل(تجريد المشاعر والصلوات في قلوب الجماعة المؤمنة وتمحيصها لله ولدين الله؛ فيدعو إلى تخليصها من وشائج القرى والمصلحة واللذة، ويجمع كلّ لذائذ البشر وكلّ وشائج الحياة فيضمها في كفة ويضع حبّ الله ورسوله وحبّ الجهاد في سبيله في الكفة الأخرى ويدع للمسلمين الخيار)<sup>3</sup>.

بعد أن قرّر القرآن الكريم مبدأ قطع المؤمنين ولاء المشركين وتجريد المشاعر في قلوب المؤمنين وتمحيصها لله ولدين الله بقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ٢٣﴾ التوبة، عرض القرآن الكريم (ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة - وشيخة الدم والنسب والقرابة والزواج - والأموال والتجارة - مطمع الفطرة ورغبتها - والمسكن المريحة - متاع الحياة ولذتها - وفي الكفة

<sup>1</sup> البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) - ج 5 ص 389.

<sup>2</sup> أما الإحسان إلى الآباء والإخوان والأقارب من المشركين غير المحاربين فليس داخلاً في هذا الحكم لقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٥﴾ إِنَّمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٦﴾ الممتحنة .

<sup>3</sup> في ظلال القرآن لسيد قطب ج 10 ص 161.

الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله<sup>1</sup>، في قوله جلّ وعزّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ التوبة، فإذا كان حبّ الأقرار وحبّ الأموال والتجارة والمساكن والتي هي من دواعي مخالطة الكفار فإن امتثال أمر الله تعالى ورسوله ينبغي أن أحب إليكم، فمراعاة الدين خير من مراعاة هذه اللذائذ، ولا ريب أنّ هذه الآية (شديدة لا ترى أشد منها، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب جبل اليقين، فلينصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته، فلا يدري أي طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 10 ص 163.

<sup>2</sup> الكشاف - الزمخشري - ج 2 ص 257.

## الفرع السابع: السرّ في ذكر غزوة حنين في هذا المقام

ولكن ما السرّ في ذكر غزوة حنين<sup>1</sup> في هذا الموضع من السورة دون باقي الغزوات؟ وما المناسبة من ورود يوم حنين في ثنايا الحديث عن الهدي القرآني في التعامل مع المشركين؟ وهذا في قول الله جلّ وعزّ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَّتْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ التوبة.

- الذي أرجحه قي بيان السرّ في ورود هذه الآيات في ثنايا الحديث عن أحداث غزوة تبوك ما روي عن مجاهد قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ...﴾ أول ما أنزل من براءة يعرفهم بنصره ويوطنهم

<sup>1</sup> وملخص غزوة حنين ما رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين عن العباس قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مديريين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض على بغلته قبل الكفار. قال عباس: وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان أخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي عباس! ناد أصحاب السمرّة)، فقال عباس، وكان رجلاً صميّاً، فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرّة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم، حين سمعوا صوتي، عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك. قال: فاقتلوا والكفار. والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج. فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج، يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته، كالمتطاول عليها، إلى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هذا حين حمي الوطيس). قال: ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار ثم قال: انهزموا وربّ محمد. قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى خدّهم كليلاً وأمرهم مدبراً). - ج 5 ص 166. \* يعني أهل بيعة الرضوان.

- و روى البخاري في كتاب المغازي باب: قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَّتْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ إل قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ التوبة. عن أبي إسحاق: سمع البراء وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنما لما حملنا عليهم انكشفوا فأكبنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهم ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بزمامها، وهو يقول: (أنا النبي لا كذب) - ج 5 ص

لغزوة تبوك، قوله تعالى ﴿...وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾<sup>1</sup>، ففيها التنبيه على ما ينبغي أن يكون عليه الإعداد لغزوة تبوك وفيها التذكير للمؤمنين بنصر الله لهم في المواطن الكثيرة رغم قلة عددهم وعدتهم كبدر والأحزاب والفتح... وفيها تحذيرهم من الاغترار بالكثرة، ليكون الخروج إلى تبوك كأحسن ما يكون عليه الإعداد: استحضر نصر الله وعدم الاغترار بالكثرة.

- ولعل المناسبة في تذييل الأحكام المتعلقة بالبراءة من المشركين وبيان الهدي القرآني في التعامل معهم هي أنّ (في بعض النفوس من الغرور بالكثرة ما يكسبها سكرة تغفلها عن بعض مواقع القدرة)<sup>2</sup> وأنه جلّ وعزّ يرهّب المؤمنين من النظر إلى الكثرة واعتبارها من عوامل النصر فقال الله جلّ وعزّ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ...﴾ وقد (كنتم من الذلة والقلّة والانكسار بحال لا يتخيّل معها نصركم وظهوركم على جميع الكفار وأنتم فيهم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، وما وكلكم إلى مناصرة من تقدم أمره لكم بمقاطعتهم، فدلّ ذلك على أنّ من أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه وإن عاداه الناس أجمعون)<sup>3</sup>.

- ووجه آخر لتخصيص (يوم حنين) بالذكر في هذا المقام هو: أخذ العبرة ممّا وقع للمؤمنين من انهزامهم ورسول الله صلى الله عليه وسلّم معهم (ف)تخصيص يوم حنين بالذكر من بين أيام الحروب: لأنّ المسلمين انهزموا في أثناء النصر ثم عاد إليهم النصر، فتخصيصه بالذكر لما فيه من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال، ففيه مثل وشاهد لحالتي الإيثارين المذكورين آنفاً في قوله تعالى: ﴿... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾<sup>4</sup> التوبة، ليتنبهوا إلى أنّ هذا الإيثار قد يعرض في أثناء إيثار آخر، فهم لمّا خرجوا إلى غزوة حنين كانوا قد آثروا محبة الجهاد على محبة أسبابهم وعلاقاتهم، ثم هم في أثناء الجهاد قد عاودهم إيثار الحظوظ العاجلة على امتثال أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم الذي هو من آثار إيثار محبتها، وهي عبرة دقيقة حصل فيها الضدان ولذلك كان موقع قوله: ﴿... إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ...﴾<sup>5</sup> بديعاً لأنّه

<sup>1</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن أبي حاتم الرازي (ت 327هـ) - ج 6 ص 1772.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - برهان الدين البقاعي - ج 3 ص 293.

<sup>3</sup> نفسه - ج 3 ص 293.

تنبيه على خطيئهم في الأدب مع الله المناسب لمقامهم أي: ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتمكم<sup>1</sup>.

### الضريح الثامن: مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

1- تسليية المؤمنين الذين حذرهم الله جلّ وعزّ من موالاة الآباء والأبناء والأخوان والعشائر ومحبة الأموال والتجارات والمساكن محبة تصرفهم عن محبة الله ورسوله ولما كان ذلك (يشق جداً على النفوس والقلوب ذكر ما يدلّ على أنّ من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضاً، وضرب تعالى لهذا مثلاً؛ وذلك أن عسكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في واقعة حنين كانوا في غاية الكثرة والقوة فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين ثمّ في حال الانهزام لما تضرعوا إلى الله قواهم حتى هزموا عسكر الكفار، وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه<sup>2</sup>.

2- لما أمر الله جل وعزّ المؤمنين بمقاتلة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا ذمة و(أنهم مضمرون العزم على الابتداء بنقض العهود التي بينهم وبين المسلمين لو قدر لهم النصر على المسلمين) وأنه تعالى ينصر عباده المؤمنين ولو كانوا قلة (جاء في هذه الآية بشواهد ما سبق من نصر الله المسلمين في مواطن كثيرة، وتذكير بمقارنة التأييد الإلهي لحالة الامتثال لأوامره، وإنّ في غزوة حنين شواهد تشهد للحالين، فالكلام استيناف ابتدائي لمناسبة الغرض السابق)<sup>3</sup>.

3- لقد أجهّم المهّدّد به في قول الله تعالى: ﴿... فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيََ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥١﴾ التوبة. جاء الجواب في هذه الآيات بما حدث لهم يوم حنين إذ الكثرة ليست جالبة للنصر ولكن الجالب للنصر إنما هو الطاعة لله ورسوله والالتزام بالهدي القرآني في ضبط العلاقة بالمشركين عامة والمشركين من ذوي القرابة خاصة، إذ أنه لما أعجب المسلمون بكثرتهم - ولم تكن هذه حالهم من قبل - هزموا يوم رغم كثرتهم وولوا مديرين بحال من (اشتدّ عليهم البأس واضطربوا ولم يهتدوا لدفع العدو عنهم بحال من يرى الأرض الواسعة ضيقة<sup>4</sup>). ﴿... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتِكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 155 و166.

<sup>2</sup> التفسير الكبير - الفخر الرازي - ج 16 ص 18.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 154.

<sup>4</sup> نفسه - ج 10 ص 156.

عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِبِينَ ﴿٢٩﴾ التوبة، فجاء الذي (أجمه من التهديد جواباً لسائل كان كأهفقال: ما ذاك الأمر الذي يتربص لإتيانه ويخشى من عظيم شأنه؟ فقيل: الذل والهوان والافتقار والانكسار، فكأنه قيل: وكيف يكون ذلك؟ فقيل: بأن يسلط القدير عليكم- وإن كنتم كثيراً - أقوياء غيركم وإن كانوا قليلاً ضعفاء كما سلطكم- وقد كنتم كذلك- حتى صرتم إلى ما صرتم إليه<sup>1</sup>.

ثم حُتم الهدى القرآني في معاملة المشركين بالخطاب للمؤمنين فقال الله جلّ وعزّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاوِمِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِلَهٌ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ التوبة، فالآية عود على بدء (فهذه الآية مع أول براءة في القراءة ومع آخرها في التأويل)<sup>2</sup> لتكون خاتمة البيان الإلهي في البراءة من المشركين بهذا التعبير المنقّر من موالاتهم لأنهم (نجس)، فحريّ بالمؤمن أن يتعد عنهم ابتعاده عن النجاسة<sup>3</sup> ﴿...فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاوِمِهِمْ هَذَا...﴾ ﴿٣٨﴾ وهذا (يقتضي أمر المسلمين بمنعهم)<sup>4</sup> من أن يقربوا المسجد الحرام (بعد العام الذي نادى فيه عليّ رحمة الله عليه ببراءة، وذلك عام حجّ بالناس أبو بكر وهي سنة تسع من الهجرة)<sup>5</sup>، وهذه المفاصلة بين المؤمنين والمشركين قد تورت في النفوس شبهة انقطاع تجارة المشركين عن مكة، فتساءل بعضهم: (من أين تأكلون وقد نفى المشركون وانقطعت عنكم قوافل التجارة؟)<sup>6</sup> فجاءت الإجابة ببيان الهدى القرآني في مواجهة الشدة الناتجة عن منع المشركين من دخول الحرم وذلك في قوله تعالى: ﴿...وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِلَهٌ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ التوبة، عن أبي هريرة<sup>7</sup> قال: (بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى أن لا يحجّ بعد

1 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- برهان الدين البقاعي - ج 3 ص 293.

2 تفسير مجاهد - سورة التوبة - ص 367.

3 بعد أن كتبت الجملة وجدت ابن الجوزي يقول: (نجس أي قدر والمعنى ينبغي اجتنابهم كاجتناب الأنجاس) انظر: تذكرة الأريب في تفسير الغريب - ج 1 ص 212. فالحمد لله على التوفيق.

4 المحرر الوجيز - ابن عطية الأندلسي - ج 3 ص 24.

5 جامع البيان - بن جرير الطبري- ج 14 ص 192.

6 نفسه - ج 14 ص 192.

7 مسند الشاميين للطبراني- ما انتهى إلينا من مسند بشر بن العلاء أخي عبد الله روايته عن المدنيين - ج 4 ص 184.

العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، وإنّ يوم الحج الأكبر يوم النحر، والحج الأكبر الحج، والحج الأصغر العمرة، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحجّ في العام القابل الذي حجّ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك، وأنزل الله عزّ وجلّ في العام الذي نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ التوبة.

فكان المشركون يوافون بالتجارة فينتفع بها المسلمون، فلما حرم الله على المشركين أن يقربوا المسجد الحرام وجد المسلمون في أنفسهم مما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها، فأنزل الله: ﴿... وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ... ﴿٢٨﴾﴾ فأحلّ في الآية الأخرى التي تتبعها الجزية ولم تكن تؤدّى قبل ذلك، فجعلها عوضاً مما منعهم من موافاة المشركين بتجاراتهم فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ التوبة، فلما أحق الله ذلك للمسلمين؛ عرفوا أنه قد عاوضهم أفضل ممّا كانوا وجدوا عليه ممّا كان المشركون يوافون به من التجارة).

والإغناء من فضله سبحانه مقيّد بمشيئته (لتنقطع الآمال إلى الله ولينبّه على أنه متفضّل في ذلك وإنّ الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام)<sup>1</sup> وذلك بعلمه سبحانه وحكمته فيما يعطي ويمنع (حتى ينقطعوا إليه سبحانه ويقطعوا النظر عن غيره)<sup>2</sup>. (وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً وأسلمت العرب كلها وتمادى جلب الطعام إلى مكّة ثم فتح عليهم البلاد وجلبت لهم الغنائم وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن)<sup>3</sup>.

وانظر البحر المديد - ابن عجيبة - ج 3 ص 66 . و تفسير مجاهد - سورة التوبة - ج 1 ص 276.

<sup>1</sup> البحر المديد - ابن عجيبة - ج 3 ص 66.

<sup>2</sup> روح المعاني - محمود شكري الألوسي - ج 10 ص 77.

<sup>3</sup> المصدر نفسه - ج 3 ص 66.

## المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الأولى

دلت آيات هذه الوحدة الموضوعية على الهدايات الآتية:

- 1- افتتاح سورة التوبة بأدل كلمة على الغرض الذي يراد منها: نقض عهود المشركين، وذلك مراعاة لمقتضى الحال في نقض عهود المشركين وموآثيقهم ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ التوبة.
- 2- ناسب أن تُذكر البراءة منسوبة لله جلّ جلاله وأن تذكر المعاهدة منسوبة للمسلمين ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢﴾ التوبة، ليدل ذلك على أن إبرام المعاهدات والبراءة منها لا يكون إلا حيث يأذن المشرع سبحانه وتعالى بها ويرضى.
- 3- نُسبت البراءة إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم تفخيماً لشأنها وتعظيماً ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ ﴿٣﴾ التوبة، لأن ذلك منوط بجانب الله تعالى، مع شمولها للمسلمين في اشتراكهم في حكمها ووجوب العمل بموجبها.
- 4- نُسبت المعاهدة للمسلمين - مع كونها بإذن الله تعالى - لأنهم المباشرون لها ولأنها عقد كسائر العقود الشرعية لا تترتب عليها الأحكام إلا بمباشرة المتعاقدين لها على وجه لا يُنصّر صدره منه تعالى وإنما الصادر عنه سبحانه الأذن والأمر بذلك.
- 5- ذكّر النبي صلى الله عليه وسلم في مقام نسبة البراءة من عهود المشركين وذكّره في مقام نسبة المعاهدة للمسلمين للتنبؤ به بشأنه الرفيع صلى الله عليه وسلم.
- 6- عقود النبي صلى الله عليه وسلم وعهوده على أمته هي عقودهم وعهودهم، لرضاهم بأفعاله فيهم وتسليمهم لعقوده وعهوده عليهم، فعقد عليهم كعقودهم على أنفسهم، ولذلك لقوله جلّ وعزّ: ﴿... إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٤﴾ التوبة.
- 7- وجوب مراعاة العهود والموآثيق لأن من كمالها الحفاظ على الوفاء بها، والتنبيه على أن الوفاء بالعهد من التقوى ﴿... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥﴾ التوبة.
- 8- الهدى القرآني في بيان سماحة الإسلام مع مناويهم إذ منحهم أربعة أشهر ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾ ﴿٦﴾ التوبة، يسيحون بحرية وينتقلون بأمان دون أن يؤخذوا على حين غفلة ليتفكروا في عواقبهم والتخيير بين الإسلام وبين الاستعداد للقتال، وهذا من غرائب رحمة هذا الدين وإعذاره إلى أعدى أعدائه المحاربين.

9- مع التسامح، جرت سنة الله جلّ وعزّ يجعل الناقضين للعهد المصرين على الكفر مغلوبين خزايا

قد سيموا ذلاً ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَيْرٌ مُّعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ التوبة.

10- هدى القرآن الكريم المسلمين إلى التعامل مع المشركين بأسلوب آخر: فمع قوة التسامح توجد

قوة القتال و وقوة المدافعة، وذلك قوله جلّ وعزّ: ﴿فَإِذَا أَسْلَحَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦﴾﴾ التوبة.

11- وجه آخر للتسامح: لا نجده في أيّ مذهب إنساني آخر، إنه الإجارة والإسماع وتبليغ المأمن لمن

يطلبه: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ التوبة، وهذه السماحة في التعامل مع غير المسلمين مبنية على تعليمهم مرشد أمورهم ودعوتهم إلى الحق.

12- ترغيب المؤمنين في تحصيل محبة الله بالاستقامة في مراعاة العهود والمحافظة عليها ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴿٦﴾ ليتحقق لهم التقوى التي ينالون بها رضوان الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ فيكون ذلك أذعى لهم للمداومة.

13- الهدى القرآني في البراءة من عهود المشركين بتنبية المؤمنين على صفاتهم في عهودهم ليكونوا على

بصيرة في تعاملهم وفي معاداتهم والوقوف على دخائل نفوسهم فهم: ﴿لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا دِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١١﴾﴾ التوبة، فالبراءة من عهودهم إنما كانت مزجرة لهم ومظنة توبتهم.

14- من كرم الله وفضله أنه أمر بمقاتلة أئمة الكفر وأتباعهم ﴿... فَاقْتُلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ... ﴿١٢﴾﴾ لعل

ذلك يكون سبباً في انتهائهم عما هم عليه من الكفر، والتحذير من التراخي في مبادرتهم بالقتال ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّذَرْنَا لَهُمْ الْأَمَنَةَ... ﴿١٣﴾﴾ التوبة.

15- من أسباب مقاتلة أئمة المشركين وأتباعهم:

السبب لأول: نكثهم العهد ونقضهم المواثيق ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّذَرْنَا لَهُمْ الْأَمَنَةَ... ﴿١٣﴾﴾ التوبة.

والثاني: الهم بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله جلّ وعزّ: ﴿وَهُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴿١٣﴾﴾ التوبة،

فإن هذا من أوكد ما يجب القتال لأجله.

والثالث: الابتداء بالقتال لقوله جلّ وعزّ: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أُولَ مَرْءٍ... ﴿١٣﴾﴾ التوبة.

16- ومن الهدى القرآني تقوية داعي القتال عند المؤمنين ويجعلهم يستنكفون عن داعية الخوف وذلك في قوله تعالى: ﴿... أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَأَلْحَقُ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ التوبة ، إثارة همّهم الدينية ليبرهنوا على أهمّ مؤمنون حقاً، فيقدمون خشية الله على خشية الناس).

17- إنهاض همّ المؤمنين لقتال أئمة الكفر وأتباعهم لتحقيق سنّة التدافع ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُدْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ التوبة.

18- شأن التوبة وقبولها مما اختصّ به الله جلّ وعزّ، فهو يجري وفق سنّته تعالى في الهداية والضلال ﴿... وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ التوبة، وفي هذا هدي قرآني للمؤمنين في شأن توبة المشركين وأنّه سبحانه وتعالى يقبل توبة من تاب إليه تكثريراً للصالح، فيمنّ على من يشاء من عباده بالتوبة.

19- من سنن الله تعالى تمحيص المؤمنين وأنهم لن يتركوا في دعة من غير جهاد، قال الله تعالى: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ... ﴿١٦﴾﴾ التوبة، ليعرف أهل ولايته المجاهدين في سبيله من المضيعين أمر الله المفرطين فيه.

20- وقد جاء الهدى القرآني مبينا من همّ الأحقّ بعمارة المساجد ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا إِلَى اللَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ التوبة، فالموصوفون بهذه الصفات همّ الأحقّ بعمارتها وتعظيمها وتعاهدها وتنظيفها وصيانتها ممّا لم تبن له، وأما المشركون فإنهم يجمعون بين أمرين متنافيين: إرادة عمارة متعبدات الله، مع الكفره وعبادته.

21- بلوغ المهاجرين المجاهدين المنيّة بـ:

- أنهم حازوا أعظم الدرجات عند الله جلّ وعزّ دون غيرهم ممّن افتخروا بعمارة البيت وسقاية الحجيج ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ...﴾ التوبة، ذلك أنهم طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان وطهروا أبدانهم بالهجرة ﴿... وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ففوزهم لا يدايه فوز لأنه فوز برضوان الله.

- بشارة الله لهم بثلاث بشارات وهي: الرّحمة والرضوان والجنّات ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ التوبة، فتحقق بذلك فوزهم.

22- الهدي القرآني في بيان معاملة المشركين من الأقارب وذلك بقطع الولاء عن المشركين مهما كانت درجات قرابتهم : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَاخوانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا ءَلَكُمُ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾﴾ التوبة، وذلك لتمحّض المشاعر والصلوات في قلوب المؤمنين لله وحده ولدينه.

23- من الهدي القرآني جعل رابطة الولاء لله ولدينه أقوى وأولى من كلّ الروابط الأخرى ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَابنَاؤُكُمْ وَاخوانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ءِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ التوبة، ويقرر أن ثمرة الهجرة والجهاد لا تظهر إلا بترك ولاية المشركين، وإيثار طاعة الله والرسول على كل شيء في الحياة.

القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الثاني

## الهدى القرآني في بيان علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب

## الوحدة الفرعية الثانية:

من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين (37/29).

لما استقامت جزيرة العرب للإسلام وأذعنت لأمر الله جلّ وعزّ بعد غزوة حنين جاء الهدى القرآني ببيان كيفية التعامل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وبيان حقيقة تدبّر أهل الكتاب من اليهود والنصارى وفضح أساليب الكيد عندهم، وما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بينهم وبين المؤمنين.

## المطلب الأول: الأمر بقتال أهل الكتاب .

## الفرع الأول: آيات الوحدة الفرعية الثانية:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّكَونَ ﴿٣٠﴾ أَنْتُمْ تَأْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ زِيَادَةٌ

فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجْلُونَهُ عَامًا وَيَحْرِمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ التوبة.

### الفرع الثاني: سبب النزول

- أخرج البخاري<sup>1</sup> عن زيد بن وهب قال: (مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التوبة، قال: معاوية نزلت في أهل الكتاب فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها، فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان فقال لي: (إن شئت تنحيت فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمروا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت).

### الفرع الثالث: القراءات

- جاء في البدور الزاهرة<sup>2</sup>: (سقاية الحاج وعمارة) قرأ ابن وردان بخلف عنه (سقاية) بضم السين وحذف الياء و(عمرة) بفتح العين وحذف الألف بعد الميم.  
وقرأ الباقر (سقاية) بكسر السين وإثبات الياء، و(عمارة) بكسر العين وألف بعد الميم، وهو الوجه الثاني لابن وردان.

- (عزيز ابن الله)<sup>3</sup> قرأ عاصم والكسائي ويعقوب بتنوين (عزيز) وكسره حال الوصل ولا يجوز ضمه للكسائي على مذهبه لأن ضمة ابن ضمة إعراب، والباقر بضم الراء وحذف التنوين.

### الفرع الرابع: المناسبات

لما أعلن الله جلَّ وعزَّ البراءة من عهود المشركين ومواثيقهم وإمهاهم أربعة أشهر ﴿فَإِذَا أَنْسَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة، وأمر بمقاتلتهم وتبعيدهم عن المسجد الحرام، فما إن فرغ رسول الله

<sup>1</sup> صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب: ما أدى زكاته فليس بكنز.

<sup>2</sup> البدور الزاهرة - عبد الفتاح القاضي - ص 134.

<sup>3</sup> البدور الزاهرة - عبد الفتاح القاضي - ص 134.

صلى الله عليه وسلم من قتال من يليه من المشركين حتى شرع في مجاهدة أهل الكتاب ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ التوبة، فكانت الآية إيذاناً بحرب أهل الكتاب، فجاء الهدي القرآني ببيان كيفية التعامل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لأنهم أقروا بأن الله خالقهم وأنه له ولد، وأشرك المشركون معه الأصنام، فأعلم الله عز وجل أن هذا غير إيمان بالله أما اليهود فقالوا ﴿...عَزَىٰ رَبُّ أَدْنَىٰ...﴾ ﴿٣٧﴾ وأما النصارى فقالوا: ﴿...الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ...﴾ ﴿٣٨﴾ وهي صفة تجمعهم بالمشركين.

#### الفرع الخامس: موضوعات الوحدة الفرعية الثانية:

- موجبات قتال أهل الكتاب
- حقيقة عقيدة أهل الكتاب وعبادتهم
- عداوة أهل الكتاب للإسلام والعمل من أجل إطفاء نور الله
- مسالك الأحرار والرهبان في أكل أموال الناس بالباطل

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الأولى

لما خلت جزيرة العرب من الوثنية واستقامت على دين الله بعد جهاد ميرير خاضه النبي صلى الله عليه وسلم لمحو الشرك وتثبيت التوحيد (فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتال من يليه من العرب أمره بجهاد أهل الكتاب)<sup>1</sup> فقد جاء الدور على أهل الكتاب (الذين أعطوا كتاب الله وهم أهل التوراة والإنجيل)<sup>2</sup> لتبين آيات هذا المقطع الهدي القرآني في تحديد علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب، فجاء الأمر بقتالهم بقوله جل وعز: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ التوبة، فكانت الآية إيذاناً بحرب أهل الكتاب وحينها كان الخروج إلى غزوة تبوك (وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره بحرب الروم فغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولها غزوة تبوك)<sup>3</sup>.

الفرع الأول: الهدي القرآني في بيان الصفات الموجبة لقتال أهل الكتاب<sup>4</sup>:

**أولاً:** عدم إيمانهم بالله الواحد قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ فهم (الذين لا يؤمنون بالله إيماناً الموحدين، لأنهم أقرّوا بأن الله خالفهم وأنه له ولدٌ. وأشرك المشركون معه الأصنام، فأعلم الله عز وجل أن هذا غير إيمان بالله)<sup>5</sup> أما اليهود فقالوا: ﴿...عَزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ...﴾ وأما النصارى فقالوا: ﴿...الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ...﴾ وهي صفة تجمعهم بالمشركين.

**ثانياً:** عدم إيمانهم باليوم الآخر لأن اعتقادهم فيه فاسد، فإنهم لا يقولون بالمعاد والحساب (وأن إيمانهم بالبعث ليس على جهة إيماننا لأنهم لا يقرّون بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون وليس يقرون باليوم الآخر

<sup>1</sup> تفسير ابن أبي حاتم - ج 6 ص 1778.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - محمد ابن جرير الطبري - ج 14 ص 199

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - محمد ابن جرير الطبري - ج 14 ص 200. وتفسير مجاهد - ج 1 ص 276. وانظر تفسير ابن أبي حاتم - ج 6 ص 1778.

<sup>4</sup> التسهيل لعلوم التنزيل - ابن جزري - ج 1 ص 592. تفسير المنار - رشيد رضا (ت 1354هـ) - ج 10 ص 248. وتهديب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به من الأباطيل وردئ الأفويل - عبد القادر بن شبيرة الحمد - ج 6 ص 83.

<sup>5</sup> معاني القرآن وإعرابه - الزجاج (ت 311هـ) - ج 2 ص 441.

كما أعلم الله جلَّ وعزَّ<sup>1</sup> لقوله تعالى: ﴿...وَلَا بِأَيُّومٍ الْآخِرِ...﴾<sup>(١٦)</sup>، و أن إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بجميع حقوقه جلَّ وعزَّ، فبتركهم الإقرار بحقوقه تعالى يكونون كمن لا يقرّ بياليوم الآخر أصلاً.

**وثالثاً:** أنهم يستحلّون الحرامات كالميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك ﴿...وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾<sup>(١٦)</sup> قال أبوزهرة<sup>2</sup>: (لقد حرّم عليهم في التوراة، وهي شريعة لليهود والنصارى، أكل الخنزير فأكلوه وحرّم عليهم الربا فاستحلوه وحرّم عليهم أن يسفكوا دماءهم فسفكوها، وكانوا كالمشركين يجرمون الطيبات ويستحلون الخبائث)<sup>3</sup>.

**رابعاً:** تمرّدهم على الحقّ ﴿...وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ...﴾<sup>(١٦)</sup> فهم لا يقبلون الدين الخاتم ولا يؤمنون بنبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم ولا برسالته، ويرفضون الدخول في الإسلام والإقرار بمبادئه وقد ثبت لديهم أنه الدين (الحقّ الخالد الذي نسخ ما قبله من الأديان؛ لأن فيه خلاصتها الباقية، ولو كان موسى بن عمران حيّاً لآمن به واتبعه، وعندهم العلم به، لأن التوراة والإنجيل قد بشّرا به، ويعرفون رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم كما يعرفون آباءهم وأبناءهم، ومع ذلك تمرّدوا ولم يؤمنوا ولما جاءهم ما عرفوا كفروا به)<sup>4</sup>.

فهذه الأمور الأربعة التي أسند إليهم تركها هي أصول الدين الإلهي عند كلّ أمة كما بيّنه تعالى في آية البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيَّةَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(١٦)</sup>، (وقد أمر هنا بقتال الذين لا يقيمونها عندما يقوم السبب الشرعي لقتالهم حتى يعطوا الجزية بشرطها فذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ووضع تركهم لتحريم ما حرم الله ورسوله وترك الخضوع لدين الحق في موضع العمل الصالح من تلك الآية وسيأتي الكلام فيه)<sup>5</sup>.

**وعلة قتالهم:** اتصافهم بهذه الصفات الأربع وهي التي تدور عليها عداوتهم للإسلام والمسلمين (فوصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم أربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للإسلام ووجوب خضوعهم

<sup>1</sup> معاني القرآن وإعرابه - الزجاج - ج2 ص 441.

<sup>2</sup> زهرة التفاسير - محمد أبو زهرة (ت 1394هـ) - ج 6 ص 3276.

<sup>3</sup> النكت والعيون - الماوردي - ج2 ص 350.

<sup>4</sup> النكت والعيون - الماوردي - ج 6 ص 3276.

<sup>5</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا (ت 1354هـ) - ج 10 ص 248.

لحكمه في داره ؛ لأن إقرارهم على الاستقلال وحمل السلاح فيه يفضي إلى قتال المسلمين في دارهم أو مساعدة من يهاجمهم فيها، كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبي صلى الله عليه وسلم إياهم وجعلهم حلفاء له، وسمح لهم بالحكم فيما بينهم بشرعهم فوق السماح لهم بأمر العبادات كما تقدم في سورة الأنفال [ص 41 - 52 ج 10 ط الهيئة] وكما فعل نصارى الروم في حدود البلاد العربية كما يأتي عند الكلام على غزوة تبوك<sup>1</sup>، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٤﴾ التوبة.

**خامساً: الكف عن قتالهم:** جاء الهدي القرآني ببيان متى يكف المسلمون عن قتال أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿...حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ...﴾<sup>2</sup> فإذا قبلوا أن يكونوا من أهل الذمة وقبلوا العيش في سلام لزمهم أن يعطوا الجزية ممتدة بما أيديهم ذليلة بما نفوسهم خاضعة بما رقابهم وحينئذ يحمون أنفسهم ويكف عنهم القتال، (فإنهم يبذلون الجزية دفعاً عن رقابهم ومكافأة للمسلمين بإقرارهم على دينهم)<sup>3</sup>.

### الفرع الثاني: الهدي القرآني في بيان حقيقة عقيدة أهل الكتاب وعبادتهم :

جاء الهدي القرآني ببيان حقيقة عقيدة اليهود والنصارى في الله جل جلاله:

**أولاً:** أنهم نسبوا الولد لله سبحانه وتعالى ولقد (نسب ذلك إلى جميعهم لأنهم متبعون لمن قالها، والظاهر أن جماعتهم قالوها إذ لم ينكروها حين نسبت إليهم)<sup>4</sup>: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضِلُّهُمُ عَنْ قَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ التوبة، لقد ادَّعوا شيئاً عظيماً (ليس فيه بيان ولا برهان إنما هو قول بالفم لا معنى تحته

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 248.

<sup>2</sup> جاء في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت 311هـ): وقوله: ﴿...حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ...﴾ قيل معنى (عَنْ يَدٍ) عَنْ ذَلِّ، وقيل عن يَدٍ عن قهر وذَلِّ، كما تقول اليد في هذا لفلان. أي: الأمر النافذ لفلان. وقيل (عن يَدٍ) أي: عن إنعام عليهم بذلك لأن قبول الجزية منهم وترك أنفسهم نعمة عليهم ويد من المعروف جزيلة. ج 2 ص 442. ومجاز الصاغر: الدليل الحقيق - مجاز القرآن - أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 209هـ) - 1/ 256.

<sup>3</sup> التفسير البسيط - الواحدي (ت 468هـ) ج 10 ص 362. وانظر جامع البيان - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 99.

<sup>4</sup> التسهيل لعلوم التنزيل - ابن جزي - ج 1 ص 593.

صحيح، لأنهم معترفون بأن الله لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون له ولدا، فإنما هو تكذُّبٌ وقولٌ فقط)<sup>1</sup>  
 أن دعوا للرحمن ولدا ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ ﴾<sup>٨٨</sup> لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ  
 مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُزُّ الْجِبَالِ هَذَا ۗ ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ ﴿٩١﴾ إِنَّ كُلَّ  
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۗ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 فَرْدًا ۗ ﴿٩٢﴾ مريم، وهم بهذا يشابهون قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم التي ضلت ولكن (أي وجه  
 يذهب بهم، ويحيدون؟ وكيف يصدون عن الحق؟)<sup>3</sup>

**ثانياً:** أنهم اتخذوا علماءهم<sup>4</sup> وعبادهم<sup>5</sup> أرباباً وسادة لهم من دون الله يجلون لهم الحرام ويحرمون عليهم  
 الحلال فيطيعونهم ويتبعونهم ولهذا قال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ  
 وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۗ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا  
 يُشْرِكُونَ ۗ ﴾<sup>٢١</sup> التوبة، فقد (أطاعوهم فيما أمرهم به من تحريم حلال وتحليل حرام فعبدوهم بذلك)<sup>6</sup>  
 فعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال: (يا عدي  
 اطرح عنك هذا الوثن). وسمعتة يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ  
 اللَّهِ... ﴾<sup>٢٢</sup> قال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا  
 عليهم شيئاً حرموه)<sup>7</sup>. (وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحرار والرهبان والمسيح أرباباً، إلا  
 أن يعبدوا معبوداً واحداً، وأن يطيعوا إلا ربا واحداً دون أرباب شتى، وهو الله الذي له عبادة كل شيء  
 وطاعة كل خلق، المستحق على جميع خلقه الدينونة له بالوحدانية والربوبية (لا إله إلا هو) يقول تعالى

<sup>1</sup> معاني القرآن وإعرابه - الزجاج (ت: 311هـ) - ج 2 ص 443.

<sup>2</sup> جاء في لسان العرب: (أد) (الإد والإادة: العجب والأمر الفظيع العظيم والداهية. - ابن منظور - ج 3 ص 71.

<sup>3</sup> جامع البيان - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 208. وانظر تفسير ابن كثير - ج 4 ص 134.

<sup>4</sup> نفسه ج 14 ص 208.

<sup>5</sup> نفسه ج 14 ص 209. قال الطبري: (رهبانهم) وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم. وجاء في التفسير البسيط

للنيسابوري (ت 468هـ): وقال أهل المعاني: (الحبر: العالم الذي صناعته تحبير المعاني بحسن البيان عنها، والراهب: الخاشي الذي  
 يظهر عليه لباس الخشية، وكثير استعماله في متنسكي النصارى) - ج 10 ص 385.

<sup>6</sup> مصنف ابن أبي شيبة كتاب الزهد ما ذكر في زهد الأنبياء وكلامهم عليهم السلام. وانظر تفسير ابن كثير ج 4 ص 135.

<sup>7</sup> سنن الترمذي الجامع الصحيح الذبائح أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب: ومن سورة التوبة. قال

الترمذي: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث).

ذكره: لا تنبغي الألوهية إلا للواحد الذي أمر الخلق بعبادته، ولزمت جميع العباد طاعته (سبحانه عما يشركون) يقول: تنزيها وتطهيرا لله عما يشرك في طاعته وربوبيته، القائلون: (عزير ابن الله)، والقائلون: (المسيح ابن الله)، المتخذون أحبارهم أربابا من دون الله<sup>1</sup>.

**وختار الآية:** أنّ من خالف ما أمر الله به في العبادة كان كمن أشرك به، فقله جلّ وعزّ: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (هذا بيان أن مخالف أمر الله في التحريم والتحليل كالمشرك في عبادة الله، لأن استحلال ما حرم الله كفر بالإجماع، وكل كافر مشرك، ومن اعتقد طاعة أحد لعينه أو لصفة فيه فأطاعه في خلاف ما أمر الله فهو من الذين ذكروا في هذه الآية أنهم كانوا يعتقدون وجوب طاعة أحبارهم، فأخبر الله تعالى أنهم اتخذوهم أرباباً)<sup>2</sup>.

### الفرع الثالث: الهدي القرآني في بيان عداوة أهل الكتاب للإسلام

ما ترك أهل الكتاب من سبيل لإطفاء نور الله إلا سلكوه وإرادتهم في ذلك دائمة مستمرة لما تلبسوا به من العداوة والبغضاء للإسلام وأهله وذلك بـ (تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وصدّ الناس عن اتّباع الإسلام وإعانة المناوئين للإسلام بالقول والإرجاف والتحريض على المقاومة والانضمام إلى صفوف الأعداء في الحروب، ومحاولة نصارى الشام الهجوم على المدينة)<sup>3</sup>... ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾<sup>4</sup> وفي هذا (زيادة إثارة غيظ المسلمين على أهل الكتاب بكشف ما يضمرونه للإسلام من الممالة والتألب على مناوأة الدّين حين تحقّقوا أنّه في انتشار وظهور فتار حسدّهم وخشوا ظهور فضله على دينهم)<sup>5</sup>، ولكن ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَهًا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾<sup>6</sup> التوبة، فالله لا يريد للدين إلا تمامه (يعلو دينه وتظهر كلمته ويتم الحقّ الذي بعث به رسوله محمّدا صلى الله

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري. ج 14 ص 213.

<sup>2</sup> التفسير البسيط للواحد النيسابوري (ت: 468هـ). ج 10 ص 388.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 171.

<sup>4</sup> قال ابن عاشور: (وجيء بهذا التركيب هنا لشدة محاكاة أهل الكتاب وتصلّبهم في دينهم، ولم يُجأ به في سورة الصف إذ قال:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾<sup>7</sup> الصف. لأنّ المنافقين كانوا يكيدون للمسلمين خفية وفي لين

وتملق) - ج 10 ص 172.

<sup>5</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 171.

عليه وسلّم) <sup>1</sup>، ومحاولات إطفاء ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ من قبل أعداء الدين لن تثمر وأن أصحابها لن يبلغوا مرادهم وإن تألبوا وتظاهروا للتصدي للدين وحاولوا إبطاله.

﴿نُورَ اللَّهِ﴾ ظاهر على كل الملل والأديان لأنه الرسالة الخاتمة ولأنه الدين الحق (ليعليه على سائر الأديان فينسخها) <sup>2</sup>، فالله جلّ جلاله الذي أبي إلا أن يتم نوره ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ <sup>3</sup> وعليه فالإسلام (ظاهر على سائر الأديان) <sup>4</sup> كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال: (إنّ الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمي ما زوي لي منها) <sup>5</sup>.

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، عزّا يعزّ الله به الإسلام وذلا يذلّ الله به الكفر). فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعزّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية) <sup>6</sup>.

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 214.

<sup>2</sup> جامع البيان في تفسير القرآن - الإيجي الشافعي (ت: 905هـ) - ج 2 ص 61.

<sup>3</sup> قال الخازن: وقال ابن عباس: الهاء في (ليظهره) عائدة إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، والمعنى: ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شيء منها. لباب التأويل في معاني التنزيل (ت: 741هـ) - ج 2 ص 353.

<sup>4</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 136. والاستدلال بالحديثين على ظهور الدين لابن كثير. وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 214.

<sup>5</sup> صحيح مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (إنّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يردّ وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا).

<sup>6</sup> مسند أحمد بن حنبل مسند الشاميين حديث تميم الداري . قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا صفوان قال: حدثني سليم بن عامر عن تميم الداري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول:... والمستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب الفتن والملاحم. وصحيح ابن حبان كتاب التاريخ ذكر الإخبار عن إظهار الله الإسلام في أرض العرب وجزائرها.

## الفرع الرابع: الهدى القرآني في بيان تلبس أكثر علماء أهل الكتاب وأكثر عبّادهم بأكل السحت وخيانة دينهم:

وقد نالوا مقامات الرفعة في قومهم وليسوا أهلاً لذلك فقد بين الله جلّ وعزّ (مساوي أقوام رفع الناس أقدارهم لعلمهم ودينهم وكانوا منطوين على خبائث خفية)<sup>1</sup>، فقد جاء الهدى القرآني مبيناً حال الأخبار والرهبان في إغوائهم لأرادهم، فقد تلبس أكثر علماء أهل الكتاب وأكثر عبّادهم<sup>2</sup> ب:

1- أكل السحت بالاعتداء على أموال أتباعهم بغير وجه حق اعتماداً على ثقة عامة أتباعهم في علمهم وعبادتهم ورياستهم (وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك)<sup>3</sup>، وقد وصفهم الله جلّ وعزّ بذلك فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ...﴾ (٣٤).

2- وهم مع تلبسهم بهذا الجرم يسارعون في الإثم فيصدّون بباطلهم الناس عن إتباع الدين الحقّ ﴿وَيَصُدُّوكَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فقد خانوا الحقّ الذي جاءهم من عند الله بالتلبس على الناس وكتمان الحقّ الذي أمروا بتبليغه كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ (١٦) آل عمران.

3- ومع هذه الخيانة لدينهم فقد زادوا لها خيانة كتمان حقيقة دعوة محمد صلى الله عليه وسلم لصدّ الناس عن دعوته، وهم يعرفون صدق ما جاء به كما يعرف أحدهم ولده<sup>4</sup> مصداقاً لقوله جلّ وعزّ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْمُونَ﴾ (١٦) البقرة.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 176.

<sup>2</sup> الرهبان ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيّينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٤) المائدة. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّحْمٰنُ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَإِثْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٥) المائدة.

<sup>3</sup> تفسير ابن كثير ج 4 ص 138. وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 216.

<sup>4</sup> الآية الثانية التي نوهت بهذا هي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦) الأنعام. انظر: معالم التنزيل للبغوي ج 3 ص 134، الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (ت 437هـ). قال ابن كثير في تفسيره: (يخبر تعالى أنّ علماء أهل الكتاب يعرفون صحّة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحّة الشيء بهذا). ج 1 ص 462.

4- ومع أكلهم السحت بالاعتداء على أموال أتباعهم بغير وجه حق فإنهم متّصفون بالحرص على الجمع والاكتناز ومنع النفقات الواجبة فيها ولا يخدمون بها دين الله الذي اكتسبوا من طريقه، وكان الأولى أن يكون المال المكتسب بالدين في خدمة الدين، ولذلك استحقوا الوعيد الشديد بقوله جلّ وعزّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَأُخْرُؤُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٢﴾<sup>1</sup>، وفي هذا تنبيه للمؤمنين على أن كثيرا من أهل الكتاب متلبسون بالحرص على جمع المال واكتنازه علماء وعامة كما قال الله جلّ وعزّ: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴿٣٣﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٣٤﴾ المائدة، فهم بهذا (لا يستحقون المقام الديني الذي ينتحلونه)<sup>2</sup>، لأنهم أكّالون

<sup>1</sup> وللمفسرين في معنى الآية قولان: أمّا خاصة وعامة وموجز القول في المسألة:

- اختلف أبو ذر ومعاوية رضي الله عنهما في كونها عامة أم خاصة، روى البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن سورة البقرة باب قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالريذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: (كنا بالشام فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ قال معاوية: ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: (إنما لفينا وفيهم). وفي السنن الكبرى للنسائي بزيادة: إلى أن كان قول وتنازع وكتب إلى عثمان يشكوني، كتب إلي عثمان رحمه الله أن اقدم، فقدمت المدينة فكثر ورائي الناس كأنهم لم يروني قط فدخلت على عثمان فشكوت إليه ذلك فقال: تنح وكن قريبا فنزلت هذا المنزل، والله لو أمر علي حبشي ما عصيته ولا أرجع عن قولي).

- وجاء في تفسير الطبري: عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ يقول: هم أهل الكتاب. وقال: هي خاصة وعامة. قال أبو جعفر: يعني بقوله: (هي خاصة وعامة): هي خاصة من المسلمين فيمن لم يؤد زكاة ماله منهم، وعامة في أهل الكتاب لأنهم كفار لا تقبل منهم نفقاتهم إن أنفقوا. (225/14). وانظر التفسير البسيط الواحدي النيسابوري (ت: 468هـ). 10/ 394.

- وذهب ابن كثير إلى أنهم فئة ثالثة بعد العلماء والعباد قال: (هؤلاء هم القسم الثالث من رءوس الناس؛ فإنّ الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم: وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوءٍ ورُهْبَانُها؟. ج 4 ص 138).

- وقال ابن عاشور: ومضمون الجملة الثانية بيان مساوي أقوام رفعهم الناس لأجل أموالهم، فبين الله أنّ تلك الأموال إذا لم تنفق في سبيل الله لا تغني عنهم شيئا من العذاب.

للسّحت مستبيحون للأموال، خائنون لما جاءهم من عند الله، كاتمون لما جاءهم من دعوة محمد صلى الله عليه وسلّم، كانوا في أيديهم من المال، وهم بهذا قد اجتمعت فيهم مساوئ ما اجتمعت في أحد إلا أهلكته وإنّ (الرائد لا يكذب أهله ولا يغشّ نفسه)<sup>1</sup>، وأما كان مقصدهم من هذا كلّه الإنفراد بالسيادة والتوجيه.

### وخاتمة الوحدة الموضوعية:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَيْمٌ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجْلُونَهُ عَامًا وَيَحْرِمُونَهُ عَامًا يُؤَاطُونَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُجْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْتٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ التوبة. عن أبي بكر، عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: (إنّ الزمان

قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض<sup>2</sup>، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان)<sup>3</sup>.

ففي الآيتين تذييل ومقدمة؛ فالآيتان تذييل ببيان مساوئ المشركين وأهل الكتاب الذين لا يعظّمون ما شرع الله وعظّمه، فيعمدون إلى تغيير أحكامه بما يتوافق مع أهوائهم (اعلم أن هذا شرح النوع الثالث من قبائح أعمال اليهود والنصارى والمشركين، وهو إقدامهم على السعي في تغييرهم أحكام الله، وذلك لأنه

<sup>1</sup> دلائل النبوة للبيهقي ذكر حديث قس بن ساعدة الإباضي ومعرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني باب الهاء من اسمه هشام هند بن هند بن أبي هالة. دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني الفصل الواحد والثلاثون. المعجم الكبير للطبراني باب الهاء.

<sup>2</sup> (أي دار على الترتيب الذي اختاره الله تعالى ووضعه يوم خلق السماوات والأرض وهو أن يكون كل عام اثني عشر شهرا وكل شهر ما بين تسعة وعشرين إلى ثلاثين يوما وكانت العرب في جاهليتهم غيروا ذلك فجعلوا عاما اثني عشر شهرا وعاما ثلاثة عشر فإنهم كانوا ينسئون الحج في كل عامين من شهر إلى شهر آخر بعده ويجعلون الشهر الذي أنسئوه ملغى فتصير تلك السنة ثلاثة عشر وتبدل أشهرها فيحلون الأشهر الحرم ويحرمون غيرها فأبطل الله تعالى ذلك وقرره على مداره الأصلي، فالسنة التي حج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلّم حجة الوداع هي السنة التي وصل ذو الحجة إلى موضعه فقال النبي صلى الله عليه وسلّم إن الزمان قد استدار يعني أمر الله تعالى أن يكون ذو الحجة في هذا الوقت فاحفظوه واجعلوا الحج في هذا الوقت ولا تبدلوا شهرا بشهر كعادة أهل الجاهلية). عون المعبود شرح سنن أبي داود - محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (ت ١٣٢٩هـ) - ج 5 ص 294.

<sup>3</sup> صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن سورة البقرة باب قوله: إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، وصحيح مسلم كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال.

تعالى لما حكم في كل وقت بحكم خاص، فإذا غيروا تلك الأحكام بسبب النسيء فحينئذ كان ذلك سعيًا منهم في تغيير حكم السنة بحسب أهوائهم وآرائهم فكان ذلك زيادة في كفرهم وحسرتهم...أنهم لرعاية مصالحهم في الدنيا سعوا في تغيير أحكام الله وإبطال تكليفه، فلهذا المعنى استوجبوا الدم العظيم في هذه الآية<sup>1</sup>.

ثم حُتمت هدايات الله جلّ وعزّ للمسلمين في بيان معاملتهم للمشركين وأهل الكتاب بهذا الخطاب الحاسم بقوله جلّ وعزّ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ ولا يتأتى للمؤمنين الاستجابة لهذا الأمر بمقاتلة المشركين إلا أن يكونوا ﴿كَافَّةً﴾؛ مجتمعين<sup>2</sup> غير متفرقين متآلفين غير متناوئين لأنّ المشركين يقاتلونهم وهم ﴿كَافَّةً﴾؛ يجمعهم الباطل وتتألفهم الأهواء (وقاتلوا المشركين بالله، أيها المؤمنون، جميعا غير مختلفين، مؤتلفين غير مفترقين، كما يقاتلكم المشركون جميعا، مجتمعين غير متفرقين)<sup>3</sup> ومع هذه الحال من الطاعة والاجتماع والاتلاف في مقاتلة المشركين تتحقق معية الله جلّ وعزّ لأهل التقوى من المؤمنين ومن (كان الله معه لم يغلبه شيء لأنّ الله مع من اتقاه فخافه وأطاعه فيما كلفه من أمره ونهيهِ)<sup>4</sup> و(أنه ضامن لهم النصر)<sup>5</sup>. ف(كونوا في حربكم غلاظا بما يناسب الموقف؛ لأنّ الحرب تتطلب القسوة والشدة، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك، ولكن استعملها لله لتضمن أن تكون في معية الله)<sup>6</sup>.

وقد جاء التذكير بمعية الله للمتقين في مقام الحرب لأنّ في الحرب مظنة الانتصار للنفس والظلم وعدم الوفاء بالوعود ونكث العهود... ففي آي القرآن الحكيم الدعوة إلى التزام التقوى في حال الحرب في نفس السورة وذلك قوله جلّ وعزّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ

<sup>1</sup> التفسير الكبير - الفخر الرازي - ج 16 ص 44.

<sup>2</sup> والكافة: الجماعة، وقيل الجماعة من الناس يقال لقبّتهم كافة أي كلهم. لسان العرب ج 9 ص 301.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري. ج 14 ص 241.

<sup>4</sup> نفسه - ج 14 ص 242.

<sup>5</sup> التفسير الكبير - الفخر الرازي نقلا عن الزجاج ولم أقف عليه - ج 16 ص 44.

<sup>6</sup> تفسير الشعراوي - ج 1 ص 3781.

غَلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٤﴾ التوبة، وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَن  
أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٤﴾ البقرة.

وهذا كله كالمقدمة للوحدة الموضوعية الموالية والتي يأمر الله تعالى المؤمنين فيها بالنفير ويحذرهم من  
الرضا بالحياة الدنيا والركون إليها.

الوحدة الموضوعية  
عبد القادر للعطوم الإسلامية

## المطلب الرابع: الهدايات المستنبطة من الآيات

دلت آيات هذه الوحدة الموضوعية على الهدايات القرآنية الآتية:

1- الهدى القرآني هو التدرج في مجاهدة أعداء الله ورسوله: فبعد إذعان مشركي العرب جاء الدور لمقاتلة أهل الكتاب الصادين عن سبيل الله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٩) التوبة.

### 2- موجبات قتال أهل الكتاب المحاربين للمسلمين:

أ- أنهم ﴿... لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ... ﴾ (١٠) ﴿ إِيْمَانِ الْمُوَحِّدِينَ.

ب- أنهم يستحلون المحرمات كالميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك: ﴿... وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ... ﴾ (١١)

ت- وأهم متمردون على الحق ﴿... وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ... ﴾ (١٢) ﴿ فهم لا يقبلون الدين الخاتم ولا يؤمنون بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ولا برسالته، ويرفضون الدخول في الإسلام والإقرار بمبادئه.

### 3- الهدى القرآني في بيان حقيقة عقيدة أهل الكتاب وعبادتهم :

أ - أشركوا في عقيدتهم فنسبوا الولد لله سبحانه وتعالى؛ فأما اليهود فقالوا: ﴿... عَزَّزْتُ ابْنَ اللَّهِ... ﴾ (١٣) ﴿ وأما النصارى فقالوا: ﴿... الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ... ﴾ (١٤) ﴿ لقد ادّعوا شيئاً عظيماً، وهي صفة تجمعهم بالمشركين ﴿... ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١٥) التوبة.

ب - أشركوا في عبادتهم فانخدوا علماءهم وعبادهم أرباباً من دون الله أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ولهذا قال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ الْإِسْلَامِ وَهُمْ لِيَئِسُّوا أَلْفَاكًا وَهُمْ لَا يُفْقَهُوا سِيْرَ الْبَاطِلِ الَّذِينَ يَبْتِغُونَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا بِأَسْمَاءِ حُرُوفٍ يُوقَفُونَ عَنْهَا عَنُقُهُمْ وَإِلَهُ تَعَالَى ﴾ (١٦) التوبة.

### 4- الهدى القرآني في بيان عداوة أهل الكتاب للإسلام وتلبس أكثر علمائهم

عبادهم بأكل السحت وخيانة دينهم

- أ- عداوة أهل الكتاب للإسلام وأهله ومسالكم لإطفاء نور الله بالقول والإرجاف والتحريض قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ فالله لا يريد لدينه إلا التمام ولو كره الكافرون.
- ب- أكل علماء أهل الكتاب وعبادهم السحت بالاعتداء على أموال أتباعهم اعتمادا على ثقة عامة أتباعهم في علمهم وعبادتهم قال الله جلّ وعزّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ ءَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ...﴾ ﴿٣٤﴾.
- ت- خيانة دينهم الذي جاءهم من عند الله بكتمانه والتلبيس فيه على الناس ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِرِ تَلْسُونِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَكَتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ ﴿٧١﴾ آل عمران.
- ث- مع خيانتهم لدينهم فقد زادوا لها خيانة كتمان حقيقة دعوة محمد صلى الله عليه وسلم لصدّ الناس عن دعوته لقوله جلّ وعزّ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْمُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ البقرة.
- ج- التحذير من علماء السوء وعباد الضلال وفي هذا تنبيه للمؤمنين على أنّ كثيرا من أهل الكتاب متلبسون بالحرص على جمع المال واكتنازه - علماء وعامة - والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ ءَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ ﴿٣٤﴾ التوبة، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين بمناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك.

## الفصل الثالث

غزوة تبوك ظروفها وإفرازاتها

الوحدة الموضوعية الثانية

من الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الواحدة والأربعين (38 / 41).

## الفصل الثالث

### غزوة تبوك ظروفها وإفرازاتها

#### الوحدة الموضوعية الثانية

من الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الواحدة والأربعين (38 / 41).

#### تمهيد:

لما بين الله جلّ وعزّ هديه في كيفية التعامل مع مشركي العرب وهديه في التعامل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى التفت الخطاب القرآني إلى المؤمنين يحثهم ويستنهض همهم ويثير مشاعرهم الإيمانية ليستنفروهم للخروج إلى الجهاد لنصرة دين الله ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان الخروج إلى تبوك في وقت حُبّب إلى الناس فيه المقام؛ لما في هذه الغزوة من بُعد الشُّقة وطيب الثمار وشدة الحرّ وبأس العدو وكثرتة وقد (وجد المنافقون فرصتهم للتخذيل فقالوا: لا تنفروا في الحرّ وخوفوا الناس بعد الشُّقة وحذروهم بأس الروم)<sup>1</sup>، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى غيرها، حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، واستقبل غزو عدوّ كثير، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوّهم وأخبرهم بوجهه الذي يريد)<sup>2</sup>. وقد شاركت عوامل ذكرتها السورة في تناقل بعض المؤمنين عن الخروج إلى تبوك، منها<sup>3</sup>:

أ- أن الزمن كان وقت حرّ شديد.

ب- أنهم كانوا قريبي عهد من الرجوع من غزوتي الطائف وحنين.

ج- أنهم كانوا في عسرة شديدة وجهد جهيد من قلة ذات اليد والطعام.

د- أن الجني قد حان موسمُه، ورطب بالمدينة قد تمّ صلاحُه، وأن وقت تلطف الحرّ، لأنّ رجبا وافق أكتوبر في تلك السنة، كما روى ابن جرير عن مجاهد<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 4 ص 30.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب من أراد غزوة فورى غيرها.

<sup>3</sup> تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي (ت 1371هـ) - ج 10 ص 119.

<sup>4</sup> ينظر جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري (ت 310هـ) - ج 14 ص 253.

### المطلب الأول: استنهاض الهمم للنفير

استنهضت آيات الوحدة الموضوعية الثانية همم المؤمنين للنفير وحذرتهم من سوء عاقبة التأخر عنه والإخلاد إلى الأرض والرضا بعرضها، وسوء عاقبة التخلي عن نصره النبي صلى الله عليه وسلم، وتطهير المؤمنين من عوامل التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والعودة عن الجهاد خلافة.

#### الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الثانية

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ إِلَّا تَتَّصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾ التوبة.

#### الفرع الثاني: سبب النزول

روى الطبري بسنده عن مجاهد قوله: (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) الآية، قال: (هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحين وبعد الطائف، أمرهم بالنفير في الصيف، حين اختُرِفَت النخل، وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشقَّ عليهم المخرج. قال: فقالوا: "الثقل، ذو الحاجة، والضَّيعة، والشغل، والمنتشرُ به أمره في ذلك كله، فأنزل الله: (انفروا خفافا وثقالا) 1).

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ

1 جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 253.

اللَّهُ أَتَقَلَّتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٢٦﴾ التوبة، وهو عتاب لكل من تخلف عن الخروج إلى تبوك قال ابن عطية: (هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتابا على تخلف من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام غزا فيها الروم في عشرين ألفا بين راكب وراجل، وتخلف عنه قبائل من الناس ورجال من المؤمنين كثير ومنافقون، فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخصّ الثلاثة كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية بذلك التذنيب الشديد بحسب مكائهم من الصحبة إذ هم من أهل بدر وممن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة)<sup>2</sup>.

### الفرع الثالث: ظروف نزول الآيات

اتفقت مصادر السيرة النبوية<sup>3</sup> على أنّ غزوة تبوك كانت في زمان من عسرة الناس وشدة من حرّ الصيف وجذب من البلاد: وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشّحوص على الحال من الزّمان الذي هم عليه، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم على تلك الحال، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بين للناس مقصدهم بعد الشّقة وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهبّ الناس لذلك أهبتة، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم.

<sup>1</sup> قال ابن عاشور: (اتقلتم إلى الأرض) تمثيل لحال الكارهين للغزو المتطلبين للعذر عن الجهاد كسلا وجبنا بحال من يطلب منه النهوض والخروج، فيقابل ذلك الطلب بالالتصاق بالأرض والتمكّن من القعود، فيأبى النهوض فضلا عن السير - التحرير والتنوير - ج 10 ص 198 .

<sup>2</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية (ت 542هـ) - ج 3 ص 34.

<sup>3</sup> السيرة النبوية - ابن هشام (ت 213هـ) - ج 2 ص 516. والمغازي - محمد بن عمر الواقدي (ت 207هـ) - ج 3 ص 993.

**الفرع الرابع: زمن الغزوة**

وقد أمروا بغزوة تبوك في رجب من السنة التاسعة للهجرة (9 هـ) بعد أحداث دامية وملاحقة ابتداء من معركة مؤتة التي وقعت في جمادى الأولى سنة 8 هـ وهي من أعظم الحروب الدامية التي خاضها المسلمون في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد مهدت لفتوح بلدان النصراري. وبعد مؤتة كانت سرية ذات السلاسل في جمادى الآخرة سنة 8 هـ بسبب موقف القبائل العربية - التي تقطن مشارف الشام- في معركة مؤتة واجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين...، فكانت الحاجة لإيقاع الفرقة بينها وبين الرومان...

ثم جاءت سرية أبي قتادة إلى (خضرة) التي كانت في شعبان سنة 8 هـ إذ خرجوا إلى غطفان... ثم جاء الفتح الأعظم فتح مكة: لعشر خلون من شهر رمضان المبارك سنة 8 هـ فقد غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة متجها إلى مكة، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم... وبعد هذه الأحداث المتلاحقة أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتجهز لغزو الروم في شدة حر الصيف (حين اختُرِفَت النخل<sup>1</sup> وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشقَّ عليهم المخرج)<sup>2</sup>.

**الفرع الخامس: الموضوعات والمناسبات****أولاً: الموضوعات الفرعية**

- الدعوة إلى النفير العام إلى غزوة تبوك.
- سوء عواقب التخلف عن النفير إلى الجهاد .
- النفير لإعلاء كلمة الله ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم.
- تطهير المؤمنين من عوامل التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عن الجهاد خلفه

<sup>1</sup> جاء في مختار الصحاح: (تخترف) فيه الثمار أي تجتنى (خرف) الثمار اجتنائها وبابه نصر والتمر (مخروف) و(خريف)- الرازي (ت) 666هـ- ص 89.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 253.

## ثانياً: المناسبات

## أ- مناسبة الوحدة لموضوع السورة العام

لما كان المقصد العام للسورة بيان الهدى القرآني في علاقة المسلمين بغيرهم من المشركين وأهل الكتاب - اليهود والنصارى - الذين عدّ الله قبائحهم وأمر بقتالهم جاءت هذه الوحدة الموضوعية لبيان ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في خروجهم إلى تبوك لقتال الروم.

## ب- مناسبة الوحدة للوحدة السابقة

ناسب أن تكون هذه الآيات كالحاتمة العملية للآيات السابقة الآمرة بقتال مشركي العرب واليهود والنصارى ذلك أن الله تعالى (لما ذكر أنواعاً من قبائح أهل الشرك وأهل الكتاب، ذكر أيضاً نوعاً منه وهو تغيير العرب أحكام الله تعالى<sup>1</sup>، لأنه حكم في وقت بحكم خاص، فإذا غيروا ذلك الوقت فقد غيروا حكم الله)<sup>2</sup>، وأما هذه الآيات فهي أمرة للمؤمنين بالخروج لقتال الروم في تبوك، وما ينبغي أن يكونوا عليه حال خروجهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهذه الآيات كالمقدمة للآيات التي بعدها المبينة للهدى القرآني في كيفية التعامل مع المنافقين (ومناسبتة لما قبله أن المراد قتالهم في تبوك: هم الروم وأتباعهم المستعبدون من عرب الشام، وكلهم من النصارى الذين نزلت الآيات الأخيرة في حكم قتال اليهود وقتالهم، وبيان حقيقة أحوالهم، وأهمها خروجهم عن هداية دين المسيح عليه السلام، في كل من العقائد والفضائل والأعمال)<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِقُونَ عَامًا وَيُحْرِمُونَ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ذُنُوبَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ التوبة.

<sup>2</sup> البحر المحيط - أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) - ج 5 ص 414.

<sup>3</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 365.

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الثانية:

آيات هذه الوحدة واقعة بين بيان الهدي القرآني في التعامل مع مشركي العرب وفي التعامل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى من جهة وبين بيان الهدي القرآني في التعامل مع المنافقين من خلال إخراج أضغانهم وبيان سيماهم وفضح أساليبهم في الهدم من الداخل من جهة أخرى، فهي تذييل لما سبق من بيان الهدي القرآني في معاملة الروم ووجوب النفي لقتالهم بعد حشدتهم لقتال المسلمين، وهي كالمقدمة لما بعدها لما فيها من استنهاض همم المؤمنين للنفي لئلا يتخلفوا تخلف المنافقين.

## الضلع الأول: استنهاض همم المؤمنين للنفي

لما ذكر الله جلّ وعزّ قبائح مشركي العرب وأنهم غيروا أحكام الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَنَحْرِمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زِيَّتَ لَهُمْ سَوْءَ عَمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>1</sup> التوبة، حث<sup>1</sup> الله جلّ وعزّ المؤمنين على الاستجابة لنداء النفي إلى قتال الروم واستنهاض هممهم للقيام بما يوجبه الإيمان عليهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾<sup>2</sup> (هذا ابتداء خطاب للمؤمنين للتخريض على الجهاد في سبيل الله، بطريقة العتاب<sup>2</sup> على التباطؤ بإجابة دعوة النفي إلى الجهاد، والمقصود بذلك غزوة تبوك)<sup>3</sup> وقد جاءت غزوة تبوك بعد فتح مكة وبعد الطائف وبعد غزوة حنين ف(أمروا بالنفي في الصيف حين خُرِفَت<sup>4</sup> النخل وطابت الثمار واشتتهوا الظلال وشقّ عليهم المخرج)<sup>5</sup>، فكان ذلك امتحاناً للمؤمنين لينالوا به (شرف الكرامة التي عند الله لأوليائه بطاعته

<sup>1</sup> ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 251 . والهداية إلى بلوغ النهاية - مكّي بن أبي طالب (ت 437هـ) - ج 4 ص 2994 . وزهرة التفاسير - محمد أبو زهرة - ج 6 ص 3305 .

<sup>2</sup> قال ابن عطية في تفسيره: (فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخصّ الثلاثة كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية بذلك التذنب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أهل بدر وممن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة ... ) - المحرر الوجيز - ج 3 ص 34.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 195.

<sup>4</sup> قال ابن منظور: (وَحُرِفَتِ الثِّمَارُ أَحْرَفُهَا، بِالضَّمِّ، أَي اجْتَنَّبْتُهَا) - لسان العرب - ج 9 ص 64.

<sup>5</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 253.

والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوه<sup>1</sup>.

فأخبروا بر(أنهم إذا تناقلوا عن الجهاد رضوا البقاء في الأرض فحقت عليهم الذلّة)<sup>2</sup>، وفي هذا تنبيه لهم ألا يكون حالهم في التخلف عن الغزو بسبب الحرّ وطيب الثمار وبعد المسافة... كحال مشركي العرب الذين كانوا يؤخّرون الأشهر الحرم بسبب مشقّة الحرب فيجعلون الحلال حراما والحرام حلالا ل(أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات فإذا جاء الشهر الحرم وهم محاربون شقّ عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شقّ شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى: ﴿لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا العدة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين<sup>3</sup> وذلك (زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته)<sup>4</sup> هذا أولا.

- **وثانياً:** توعد الله جل جلاله من لا يستجيب من المؤمنين للنفر إذا استنفر لقتال الروم - وضر ذلك إنما يعود عليهم - بأمرين:

**الأول:** الوعيد العذاب المؤلم في الدارين وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.  
**والثاني:** استبدالهم بقوم أشدّ استجابة لله ورسوله وأشدّ حباً لهما (ينفرون إذا استنفروا، ويجيبونه إذا دعوا، ويطيعون الله ورسوله)<sup>5</sup> وهذا مصداق قوله جلّ جلاله: ﴿وَيَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.  
**وختام الآية:** قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ متناسب مع الآية التي بعده وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...﴾ فقد ختمت الآية الكريمة بما يناسب الآية التي بعدها؛ فكما أنه جلّ جلاله قادر على إنفاذ وعيده في الذين لا يستجيبون للنفر، وأنه جلّ جلاله قادر على استبدال من لا يستجيب له ولرسوله صلى الله عليه وسلم بقوم يحبهم ويحبونه كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ المائدة، فقد تجلّت قدرته جلّ

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 253

<sup>2</sup> زهرة التفاسير - محمد أبو زهرة - ج 6 ص 3305 .

<sup>3</sup> الكشاف - الرمحشري (ت 538هـ) - ج 2 ص 270.

<sup>4</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 243.

<sup>5</sup> نفسه - ج 14 ص 254.

جلاله في نصرته نبيه صلى الله عليه وسلم - يوم هجرته - ولم يكن له نصير ولا ظهير، كما أنه جلّ جلاله استبدل قريشا التي جحدت أنعم الله عليها بقوم يحبون الله ورسوله - الأنصار - فعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية الإيمان حبّ الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار)<sup>1</sup>.

### الفرع الثاني: نصرته الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم

بعد عتاب الله جلّ جلاله للمؤمنين الذين تتأقّلوا عن النفير (ولزموا أرضهم ومسكنهم والجلوس فيها)<sup>2</sup>، أعلمهم جلّ جلاله بأنه ناصر عبده محمدا صلى الله عليه وسلم سواء أخرجوا معه أم لم يخرجوا، فكما نصره في هجرته على قريش من غير مناصر له ولا عدّة، فالآية (إعلام من الله لأصحاب النبي عليه السلام أنّ الله عزّ وجلّ قد تكفل بنصره على أعدائه في كل وقت وحين)<sup>3</sup>، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا تَتَصَرَّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إذ كان صلى الله عليه وسلم: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ فما كان له جند يحمونه وصاحبه، حتى غلب الحزن على أبي بكر - رضي الله عنه - خشية أن يمسّ النبي صلى الله عليه وسلم بسوء فطمأنه بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم رفع قدمه رأنا، قال: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)<sup>4</sup>.

وفي هذا تذكير لهم بالتاريخ القريب - تاريخ الهجرة النبوية - إذ خرج النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه مهاجرا من غير أنصار ولا عدة (نصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد، فكيف يخذله ويؤجّجه إليكم وقد كثّر الله أنصاره وعدد جنوده؟)<sup>5</sup>، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، فأعزّ الله نبيه وأعلى كلمته وأذلّ الشرك وأهله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

<sup>1</sup> صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب: علامة الإيمان حبّ الأنصار.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 252 . بتصرف.

<sup>3</sup> الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب - (ت 437هـ) - ج 4 ص 2999.

<sup>4</sup> صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن سورة البقرة - باب قوله: ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول.

<sup>5</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري ج 14 ص 258.

**وختام الآية:** ختام هذه الآية بقوله جلّ وعزّ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مؤذن بأنّ من استجاب له فجاهد بنفسه وماله فله العزة... وَاللَّهُ الْعَزِيزُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ... ﴿٨﴾ المنافقون، فهو عزّ وجلّ عزيز (في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه)<sup>1</sup>.  
وله في الأمر بالنفير إلى تبوك حكمة لأنه عزّ وجلّ ﴿حَكِيمٌ﴾ في (تدبيره خلقه، وتصريفه إياهم في مشيئته)<sup>2</sup>.

### الفرع الثالث: أنواع التفر وخيراته

لما عاتب الله تعالى المتثاقلين عن التفر عتاب استنهاض، وهذد المعرضين عن النفر تهديد عذاب واستبدال، وذكر بنصره عبده صلى الله عليه وسلم من غير حاجة إلى عدّتهم وعددهم أمر الله تعالى المؤمنين بأمرين:

#### الأول: النفير العام:

فقال: ﴿أَفِرُّوا خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾<sup>3</sup>، ثم قفى على ذلك ببيان أنّ الخير في النفير على أيّ حال<sup>4</sup> كان الإنسان من الخفة والثقل، (والخفة والثقل يكونان بالأجسام وصفاتها: من صحة ومرض، ونحافة وسمن، وشباب وكبر، ونشاط وكسل... ويكونان بالأسباب والأحوال: كالقلة والكثرة في المال والعيال، ووجود الظهر (الراحلة) وعدمه، وثبوت الشواغل وانتفائها)<sup>5</sup>.

#### والثاني: الجهاد بالأموال والأنفس:

أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله<sup>6</sup> فقد قال الله جلّ جلاله: ﴿... وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾<sup>٥</sup> التوبة.

<sup>1</sup> تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج 4 ص 155.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن ابن جرير الطبري ج 14 ص 257.

<sup>3</sup> قال القرطبي: الثالثة: واختلف في هذه الآية، فقيل إنها منسوخة بقوله تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) التوبة: 91.

وقيل: الناسخ لها قوله: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) التوبة 122. والصحيح أنها ليست بمنسوخة. الجامع لأحكام القرآن ج 8 ص 150.

<sup>4</sup> ويستثنى من هذا العموم أصحاب الأعدار الذين ذكروا في سياق هذه الآيات ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى...﴾<sup>٥</sup> التوبة.

<sup>5</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 397 و 398.

<sup>6</sup> العبارة للبخاري - كتاب الجهاد والسير - باب: أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

وفي الحديث: (أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد<sup>1</sup> في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة)<sup>2</sup>.

ففي النفير والجهاد بالأموال والأنفس خير للمؤمنين ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>٩١</sup> التوبة، (وإيهام ﴿خَيْرٌ﴾ لقصد توقع خير الدنيا والآخرة من شعب كثيرة أهمها الاطمئنان من أن يغزوهم الروم ولذلك عقب بقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>٩١</sup> أي إن كنتم تعلمون ذلك الخير وشعبه، وفي اختيار فعل العلم دون الإيمان مثلاً للإشارة إلى أن من هذا الخير ما يخفى فيحتاج متطلب تعيين شعبه إلى إعمال النظر والعلم)<sup>3</sup>.

ظهر لي - والله أعلم - أن آية سورة الصف قد بينت شعباً من هذا الخير وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُّرٌ عَلَىٰ تَجْرَةٍ تُجِيبُكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلَهِكُمْ﴾<sup>٩٢</sup> تَوَمُّونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>٩٣</sup> يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>٩٤</sup> وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>٩٥</sup> الصف.

فمن شعب هذا الخير للمجاهد في سبيل الله العامل على نصر دين الله وإعلاء كلمته بماله ونفسه خيران:

### الخبر الأول: الفوز العظيم في الآخرة

وهو فوز لا يضاهيه فوز (وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة)<sup>4</sup>؛ ومع أن العاجلة تسبق الآخرة فقد بشر الله المؤمنين بالخير الدائم الذي لا انقطاع له على خير الدنيا الزائل المنقطع، فللمؤمن المجاهد في الآخرة فوز بـ:

- فضيلة غفران الذنوب وسترها إلا الدين ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾<sup>١</sup> وهذه الفضيلة العظيمة للمجاهد وهي

<sup>1</sup> (وتوكل الله للمجاهد في سبيله) أي: ضمن له إحدى الحسينين: الشهادة والجنة، أو العودة بالسلامة والأجر والغنيمة. منار القاري

شرح مختصر صحيح البخاري - حمزة محمد قاسم ج 4 ص 85.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب: أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 208.

<sup>4</sup> في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 6 ص 3559.

تكفير خطاياهم كلها إلا حقوق الأدميين)<sup>2</sup>، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ)<sup>3</sup>.

- وفضيلة ثواب مستقرّ دائم في جنّات عدن، وهي فضيلة عظيمة ثانية ينالها المؤمن المجاهد بقوله تعالى: ﴿...وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ...﴾<sup>4</sup>، (وإنما خصّت المساكن بالذكر هنا لأنّ في الجهاد مفارقة مساكنهم، فوعدوا على تلك المفارقة المؤقتة بمساكن أبدية)<sup>4</sup>.

### الخبر الثاني: بشرى النصر على الأعداء في الدنيا

وما أكثر ما يحبّ العبد أن يكون من المنتصرين في صراعه مع أعدائه، فبشّر الله عباده المؤمنين بما يحبون من النصر والفتح في العاجلة فقال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>5</sup> (الصف، ووصف أخرى بجملة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ إشارة إلى الامتنان عليهم بإعطائهم ما يحبون في الحياة الدنيا قبل إعطاء نعيم الآخرة)<sup>5</sup>، وفي البشارة بالفتح القريب إخبار بما سيقع في المستقبل وقد تحقّق للمؤمنين فتح مكة وما بعدها وختمت الانتصارات بالانتصار على الرّوم دون قتال في غزوة تبوك.

وبهذا تكون هذه الآيات قد بينت حال المؤمنين الذين كلفهم الله تعالى بمواجهة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومشركي العرب وبينت لهم هديه في معاملتهم جميعاً، كما حدّرت الآيات المؤمنين من التلبس بصفات المنافقين حال الدعوة إلى النفي.

<sup>1</sup> في قول الله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِكُلِّ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال السعدي في تفسيره: (وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر). والكلام على إطلاقه محلّ نظر لأنه جاء في حديث مسلم استثناء الدّين: (يغفر للشّهِيد كلّ ذنب إلا الدّين).

قال الطيبي: أراد ب (الدّين) هنا ما يتعلق بدمته من حقوق المسلمين؛ إذ ليس الدائن أحقّ بالوعيد والمطالبة منه من الجاني والقاصب والخائن والسارق. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) - شرف الدين الحسين الطيبي. ج 8 ص 2635. وقال ابن عبد البر: (وفي هذا الحديث أن القتل في سبيل الله على الشرط المذكور لا تكفر به تبعات الأدميين - والله أعلم - وإنما يكفر ما بين العبد وبين ربّه من كبيرة وصغيرة لأنّه لم يستثن فيه خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا الدّين الذي هو من حقوق بني آدم...)

الاستذكار - ج 5 ص 100.

<sup>2</sup> المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - النووي (ت 676 هـ) - ج 13 ص 29.

<sup>3</sup> صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياهم إلا الدّين. وموطأ مالك - كتاب الجهاد - باب الشهداء في

سبيل الله. ومسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم - مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما - حديث: 6868

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 28 ص 195.

<sup>5</sup> نفسه - ج 28 ص 196.

## المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الثانية

دلّت آيات الوحدة الموضوعية الثانية على الهدايات الآتية:

1- من سنن الله تعالى الماضية التي لا تتخلف: سنة الابتلاء بالشدائد وذلك بابتلاء النفس بما يشقّ عليها ليميز الله المؤمنين من المنافقين؛ ومنها الابتلاء بالخروج إلى تبوك حال إخلاد النفوس إلى الدعة وميلها إلى الراحة في (حمارة الفيظ وطيب الثمار وبرد الظلال)<sup>1</sup> وبعده الشقة وقوة العدو وكثرته ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ .

2- الثاقل عن الجهاد والتقاعد عن المبادرة بالخروج إليه إلقاء بالنفس إلى التهلكة وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ البقرة، ففي حضّ الله المسلمين على النفقة في سبيله والجهاد لئلا يقوى العدو فتصير عاقبة أمرهم إلى الهلاك.

3- الاستجابة لنداء النفير هي استجابة لنداء الإيمان قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ .

4- سوء عاقبة التخلف عن النفير ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ تتجلى في أمرين :

أ- عذاب مؤلم في الدارين وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

ب- استبدال المتخلفين بقوم أشدّ استجابة لله ورسوله وأشدّ حباّ لهما ينفرون إذا استنفروا ويجيبونه إذا دعوا، ويطيعون الله ورسوله وهذا مصداق قوله جلّ جلاله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ .

5- الهدي القرآني ببيان أنّ من نصره الله فهو المنتصر، فقد نصر نبيّه صلى الله عليه وسلم ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إذ كان صلى الله عليه وسلم: ﴿ثَانِي أُمَّتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وهو في غاية الضعف يوم الهجرة النبوية إذ خرج وصاحبه مهاجرا من غير أنصار ولا عدة فنصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ ، فأعزّ الله نبيّه وأعلى كلمته وأذلّ الشرك وأهله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ .

<sup>1</sup> أحكام القرآن- أبو بكر بن العربي المالكي (ت 543هـ)- ج 2 ص 510.

- 6- قوله جلّ وعزّ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مؤذن بأنّ من استجاب له فجاهد بنفسه وماله فله العزّة ﴿...وَاللَّهُ الْعَزُّ وَالرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنِينَ...﴾ المنافقون، فهو عزّ وجلّ عزيز يمنع الجناح لا يضمام من لاذ ببابه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# الفصل الرابع

## توصيف القرآن لأحوال المنافقين الظاهرة والباطنة

الوحدة الموضوعية الثالثة

من الآية الثانية والأربعين إلى الآية : العاشرة بعد المئة (110/42)

المبحث الأول :

المنافقون بين القعود عن الخروج إلى تبوك والاستئذان عنه

المبحث الثاني :

المال في حياة المنافقين

المبحث الثالث :

إيذاء المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم بالطعن في أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة.

المبحث الرابع :

رجال المنافقين ونسأؤهم سواء في مساك الهدم الاجتماعي من الداخل

المبحث الخامس :

نقض المنافقين للعهود

المبحث السادس:

المنافقون بين الفرح بالتخلف عن الجهاد واستحقاق الطبع على قلوبهم.

المبحث السابع :

جماعات أخرى من المنافقين الأعراب دورها وخطرها وبيان الهدى القرآني في كيفية

التعامل معها.

## الفصل الرابع

## توصيف القرآن لأحوال المنافقين الظاهرة والباطنة

## الوحدة الموضوعية الثالثة

من الآية الثانية والأربعين إلى الآية : العاشرة بعد المئة (110/42)

## تمهيد:

من هنا ابتداءً الهدي القرآني في بيان أحوال المنافقين<sup>1</sup> وكشف دخائل نفوسهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وكيدهم للهدم من الداخل بأقسام أقسموها وأعدار اعذروها وأحقاد أضمرها، وأكثر ما ذكر من أحوالهم من أنباء الغيب<sup>2</sup> (عن الطوائف التي ظهرت عليها أعراض الضعف في الصف وبخاصة جماعة المنافقين الذين اندسوا في صفوف المسلمين باسم الإسلام، بعد أن غلب وظهر، فرأى هؤلاء أنّ حبّ السلامة وحبّ الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عزّ عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف)<sup>3</sup>.

(هذا شروع في بيان حال أناس من أولئك المنافقين بأقوال قالوها فيما بينهم جهراً وأموراً أكنوها في

أنفسهم سرّاً وأقوال سيقولونها وأقسام سيقسمونها وأعدار سيعتذرونها غير ما سبق منهم وشئون عامة فيهم - أكثرها من أنباء الغيب - مع ما يتعلق بذلك ويناسبه من الحكم والأحكام، والعقائد والآداب)<sup>4</sup>

<sup>1</sup> المحرر الوجيز - ابن عطية (المتوفى: 542هـ) - ج 3 ص 38.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا (ت 1354هـ) - ج 10 ص 412.

<sup>3</sup> في ظلال القرآن - سيد قطب (ت 1385هـ) - ج 3 ص 1661.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا (ت 1354هـ) - ج 10 ص 412.

المبحث الأول: المنافقون بين القعود عن الخروج إلى تبوك والاستئذان عنه

### الوحدة الموضوعية الفرعية الأولى

من الآيات الثانية والأربعين إلى الآية الثانية والخمسين (52/42)

#### المطلب الأول: مسالك المنافقين في التعذر عن الخروج

بيان مسالك المنافقين ومزالقهم وخبايا نفوسهم عند قعودهم عن الخروج واعتذاراتهم الكاذبة وفي تركهم العدة دليل على إرادتهم التخلف، وذلك ليحذرهم المؤمنون.

#### الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الفرعية الأولى

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَفِذُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَفِذُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتُهُنَّ فَلوُئِهِنَّ فَهَمَّ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ائْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَقْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَالْتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ التوبة.

## الفرع الثاني: سبب وظروف نزول الآيات .

أولاً: سبب النزول نزلت في تخلف الجدّ بن قيس واعتذاره:

- فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك قال لجدّ بن قيس: (هل لك في بنات الأصفر) فقال: ائذن لي ولا تفتني فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَدَّٰنَ لِي وَلَا تَقْتُلِي...﴾<sup>1</sup>.

- وروى ابن جرير الطبري بسنده عن محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو في جهازه للجدّ بن قيس أخي بني سلمة: هل لك يا جدّ العامّ في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فو الله لقد عرف قومي ما رجل أشدّ عُجْبًا بالنساء منّي، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن! فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: قد أذنت لك، ففي الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَدَّٰنَ لِي وَلَا تَقْتُلِي...﴾ الآية، أي: إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم)<sup>2</sup>.

## ثانياً: ظروف نزول الآيات

في بعد المسافة ومشقة الخروج وكثرة العدو وانعدام الغنيمة الحاضرة ما جعل المنافقين يسلكون سبل الاعتذارات الكاذبة لئلا يستجيبوا لداعي الخروج (فقد كبر عليهم الأمر وعظم فيهم الخطب وطفقوا ينتحلون الأعذار الواهية، ويستأذنونهم صلى الله عليه وسلم في القعود والتخلف فيأذن لهم، فكان نزول هذه الآيات وما بعدها لبيان تلك الحال وأحكام تلك الوقائع)<sup>3</sup>، (واعتذر المنافقون بأعذار كاذبة فابتدأ تعالى بذكر المنافقين وكشف ضمائرهم)<sup>4</sup> وأحوالهم وكشف دخائل نفوسهم للنبي صلى الله عليه وسلم فقال جلّ جلاله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ

<sup>1</sup> المعجم الكبير للطبراني - باب الجيم - باب من اسمه جابر - جد بن قيس الأنصاري السلمي. وانظر السنن الكبرى للبيهقي - كتاب السير باب من ليس للإمام أن يغزو به بحال. و السيرة النبوية - ابن هشام - ج 2 ص 516.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 287 ، والسيرة النبوية - ابن هشام - ج 2 ص 516.

<sup>3</sup> نفسه - ج 10 ص 400 .

<sup>4</sup> البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأندلسي (ت: 745هـ) - ج 5 ص 424.

وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٤﴾ التوبة، فمن هنا ابتداء الهدي القرآني في بيان أحوال المنافقين وكشف دخائل نفوسهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن هنا كانت البداية لبعثرة أسرارهم وكشف خباياهم (ومن هذه الآيات ابتداء إشعار المنافقين بأن الله أطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على دخائلهم)<sup>1</sup>.

### الفرع الثاني: المناسبات

#### مناسبة آيات الوحدة الفرعية الأولى لما قبلها:

بعد ما عاتب الله تعالى المتشاقلين عن النفر عتاب استنهاض، وهدد المعرضين عن النفر تهديد عذاب واستبدال، وحث المؤمنين على الاستجابة لنداء النفير إلى قتال الروم واستنهاض همهم للقيام بما يوجبه الإيمان عليهم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، ابتداء القرآن الكريم في هذه الوحدة ببيان حال المنافقين عند الدعوة إلى النفير لغزوة تبوك ففيها (استئناف لابتداء الكلام على حال المنافقين قبل وأثناء وبعد وغزوة تبوك حين تخلفوا واستأذن كثير منهم في التخلف واعتلوا بعلل كاذبة، وهذا الاستئناف ناشىء عن قوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ التوبة)<sup>2</sup>.

#### الفرع الثالث: موضوعات الوحدة الفرعية الأولى:

- بيان أحوال المنافقين وكشف دخائل نفوسهم للنبي صلى الله عليه وسلم
- من علامات المنافقين التي يُعرفون بها تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، واستئذانهم بالمعاذير الكاذبة.
- تخلف المنافقين وتبريره بالإيمان الكاذبة وقبول النبي صلى الله عليه وسلم
- من فضائل المؤمنين عدم استئذانهم شأن الجهاد
- من صفات المنافقين أنهم مرتابون متحيرين، غير مطمئنة قلوبهم، مذبدبون في عملهم .
- علامات إرادة القعود عن غزوة تبوك عند المنافقين .
- في قعود المنافقين عن الخروج إلى تبوك راحة للمؤمنين.
- فرح المنافقين بمصاب المؤمنين وحزهم لمغنمهم وسلامتهم

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 208.

<sup>2</sup> نفسه - ج 10 ص 208.

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الفرعية الأولى

## الفرع الأول: المنافقون بين القعود والاستئذان:

لما عاتب الله تعالى المشاقلين عن النفر عتاب استنهاض، وهدد المعرضين عن النفر تهديد عذاب واستبدال، ودكر بنصره عبده صلى الله عليه وسلم من غير حاجة إلى عدتهم وعددهم وبين أن الخير في النفير (نفر الأكثرون طائعين وتخلف الأقلون عاجزين)<sup>1</sup>، خصّ الله تعالى المنافقين<sup>2</sup> بالخطاب لسوء سرائرهم وقبح اعتذارهم فقال في مستهل ذلك: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا<sup>3</sup> وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ<sup>4</sup>﴾، (ولما كان هذا العتاب مؤذناً بأن فيهم من تباطأ عن الجهاد اشتغالاً بنحو الأموال والأولاد، وكان ما اشتملت عليه هذه الآيات من الأوامر والزواجر والمواعظ جديراً بأن يخفف كل متناقل وينشط كل متكاسل، تشوّفت النفوس إلى ما اتفق بعد ذلك، فأعلم سبحانه به في أساليب البلاغة المخبرة عن أحوال القاعدين وأقاصيص الجامدين المفهمة أن هناك من غلب عليه الشقاء فلم ينتفع المواعظ، فالتفت من لطف الإقبال إلى تبيكيت<sup>4</sup> المتناقلين بأسلوب الإعراض المؤذن بالغضب المحقق

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 400.

<sup>2</sup> قال ابن عاشور: وانتقل من الخطاب إلى الغيبة لأن المتحدث عنهم هنا بعض المتناقلين لا محالة بدليل قوله بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتُهُمْ...﴾ التوبة. التحرير والتنوير - ج 10 ص 208. وقال القرطبي: (التقدير: لو كان المدعو إليه عرضاً قريباً وسفراً قاصداً - أي سهلاً معلوم الطرق - لاتبعوك. وهذه الكناية للمنافقين كما ذكرنا، لأنهم داخلون في جملة من خوطب بالنفير). الجامع لأحكام القرآن - ج 8 ص 153. ومفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي (ت: 606هـ) - ج 16 ص 57.

<sup>3</sup> عن قتادة: (لو كان عرضاً قريباً) قال: هي غزوة تبوك. جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 272.

<sup>4</sup> لسان العرب: بكته تبيكيتاً إذا قرعه بالعدل تقيعاً. وفي الحديث: أنه أتى بشارب، فقال: بكتوه؛ التبيكيت: التقيع والتوبيخ، يقال له: يا فاسق، أما استحييت؟ أما اتقيت الله؟. ابن منظور - ج 2 ص 11. والحديث المذكور رواه أبو داود في سننه - كتاب الحدود - باب الحد في الخمر عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب فقال: (اضربوه)، قال أبو هريرة: فمننا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه فلما انصرف قال بعض القوم: أضرأك الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان). و عن ابن الهادي بإسناده ومعناه قال فيه بعد الضرب: ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (بكتوه) فأقبلوا عليه يقولون: ما اتقيت الله، ما خشيت الله، وما استحييت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أرسلوه، وقال في آخره: (ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه)...

للسخط الممين لفضائحهم المبعثر لقبائحهم المخرج لهم مما دخلوا فيه من عموم الدعاء باسم الإيمان<sup>1</sup>. فحالهم عند قعودهم أنهم: لو كان ما دعوا إليه متاعا دنيويا؛ سفره قريب لامشقة فيه وغنيمته سهلة التناول لا عناء في الوصول إليها لكانوا في طليعة المستجيبين للنبي صلى الله عليه وسلم إتباعا لأهوائهم (لأن حبّ المنافع المادية والرغبة فيها لاصقة بطبع الإنسان، وناهيك بها إذا كانت سهلة المآخذ قريبة المنال، وكان الراغب فيها من غير الموقنين بالآخرة وما فيها من الأجر العظيم للمجاهدين كأولئك المنافقين)<sup>2</sup> فلما لم تتوافق عندهم مشقة الخروج إلى تبوك مع منافعهم المادية تعللوا بأعذارهم الكاذبة تفاقماً إلى الأرض إيثاراً للراحة والدعة، وقد (كبر عليهم التعرض لقتال الروم في ديار ملكهم وهم أكبر دول الأرض الحربية، فتخلفوا جنباً وحباً بالراحة والسلامة)<sup>3</sup>، قال تعالى: ﴿... وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾<sup>4</sup> التوبة، (وهذه صفة المنافقين)<sup>4</sup>، ذلك أنهم يستطيعون الخروج، ولكنهم بطّؤوا بالخروج طاعة للشيطان وزهداً في الخير.

ولقد استهمل المنافقون قعودهم عن تبوك وعدم الخروج إليها بالاعتذار وبالأيمن الكاذبة للتخلف (وإنّ الاعتذار هو حجة الضعيف الدليل، ووثقوا الاعتذار بالأيمن الكاذبة)<sup>5</sup> فقبل منهم النبي صلى الله عليه وسلم اعتذاراتهم وأذن لهم بالعودة فعاتبه الله<sup>6</sup> تعالى على إذنه لهم بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾<sup>7</sup> التوبة، وفي هذا (عتاب من الله تعالى ذكره، عاتب به نبيه صلى الله عليه وسلم في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه - حين شخص إلى تبوك لغزو

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 8 ص 479 / 480.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 410 .

<sup>3</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 410 .

<sup>4</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 275.

<sup>5</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 6 ص 3314.

<sup>6</sup> قال أبو جعفر النحاس (ت: 338هـ): ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ في معناه قولان: أحدهما أنه افتتاح الكلام كما تقول: أصلحك الله كان

كذا وكذا، والقول الآخر وهو أولى لأن المعنى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم ويدل على هذا ﴿لِمَ أَذْنَتْ

لَهُمْ﴾... إعراب القرآن - ج 2 ص 120. وانظر: الطبري: ج 14 ص 272 وما بعدها. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم - ج 6

1805. و المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسي المحاربي - ج 3 ص 39. و روح المعاني في تفسير القرآن

العظيم والسبع المثاني - الألوسي - ج 5 ص 298....

الروم - من المنافقين)<sup>1</sup>، وهو عتاب على ترك الأولى<sup>2</sup>، فكان الأولى عدم الاستئذان إلى أن يظهر صدق الصادقين في الاستئذان وكذب الكاذبين منهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَوَعَّرَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿١٢﴾ ليعلم النبي صلى الله عليه وسلم أحوال المستأذنين (فيكون إذنا لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقاً وشكاً في دين الله)<sup>3</sup>.

### الفرع الثاني: المستأذنون:

إن من علامات المنافقين التي يعرفون بها تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، فيلجأون إلى الاستئذان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تركهم الخروج معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة. وقد نوه<sup>4</sup> الله تعالى جلّ وعزّ بفضيلة المؤمنين الذين لا يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الجهاد (ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخالص من المهاجرين والأنصار لا يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم أبداً)<sup>5</sup> بل إنهم كانوا يبادرون فيستجيبون لداعي الجهاد فيجاهدون بأموالهم وأنفسهم وذلك ما يقتضيه إيمانهم بالله واليوم الآخر ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٩١﴾ التوبة، (فالإيمان بالله اعتماد على القوي المتين، والإيمان بالآخرة إيمان بالجزاء والعوض عن الحرمان والشهادة)<sup>6</sup> فما أعظمها من (شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين، وعدة لهم بأجل الثواب)<sup>7</sup>، وما أشده من (تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد من غير عُذر)<sup>8</sup>، ولما كانت بواعث الاستئذان خفية سرية قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 272.

<sup>2</sup> روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - الألوسي - ج 5 ص 298.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 273.

<sup>4</sup> نوه: ناه الشيء ينوه: ارتفع وعلا؛ عن ابن جني، فهو نائه، ونهت بالشيء نوها ونوهت به ونوهته تنويها: رفعت. ونوهت باسمه:

رفعت ذكره. وناه النبات: ارتفع. لسان العرب - ابن منظور (ت: 711هـ) - ج 13 ص 550.

<sup>5</sup> البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأندلسي (ت: 745هـ) - ج 4 ص 427.

<sup>6</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة (ت: 1394هـ) - ج 6 ص 3317.

<sup>7</sup> نفسه - ج 4 ص 427.

<sup>8</sup> عن ابن عباس قوله: (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله)، فهذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد من غير عُذر، وعذر

الله المؤمنين، فقال: ﴿لَمْ يَدْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ سورة النور 62. جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 275.

يَالْمُتَّقِينَ ﴿﴾ (كأنه قيل والله عليم بأنهم كذلك وإشعاراً بأن ما صدر عنهم معلل بالتقوى)<sup>1</sup> وفي هذا تنويه بشأن المؤمنين وتعريض بالمنافقين الذين ظهر نفاقهم وانكشفت سرائرهم في إرادتهم القعود خلف النبي صلى الله عليه وسلم (ولما أخبر بالمتقين عرف بغيرهم على وجه الحصر تأكيداً لتحقيق صفة العلم بما أخبر به سبحانه فصار الاستئذان منفيّاً عن المؤمنين مرتين، فثبت للمنافقين على أبلغ وجه)<sup>2</sup> وقد (أعلمه جلّ وعلا أنّ علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان في التّخفّف عن الجهاد)<sup>3</sup>، وهم باستئذانهم هذا لم يلحقوا الضّرر بأنفسهم فحسب بل إنهم يثبطون العزائم ويزرعون الوهن في صفّ المسلمين.

وأما سبب استئذانهم فلأنهم: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾<sup>4</sup>، فهم لا إيمان لهم ولذلك فهم مرتابون متحيّرون، غير مطمئنة قلوبهم، مذذبون في عملهم (لا يتّجه لهم هدى فتارة يخطر لهم صحّة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتارة يخطر لهم خلاف ذلك)<sup>4</sup>، وهذه صفة المنافقين<sup>5</sup>، (فهم يوافقون المؤمنين فيما يسهل أداءه من عبادات الإسلام، فإذا عرض لهم ما يشقّ عليهم فعلة ضاقت به صدورهم، والتمسوا التفصي منه بما استطاعوا من الحيل والمعاذير الكاذبة)<sup>6</sup>.

### الفرع الثالث: تدليل على إرادة القعود

لما عاتب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم على الإذن للمنافقين بالقعود أخبر أنهم ما كانوا ليخرجوا إلى تبوك وإن لم يأذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بدلالة أنهم لم يعدّوا للخروج عدّته، ولم يظهروا للجهاد أهبتة (لأن عدم إعدادهم العدة للجهاد دلّ على انتفاء إرادتهم الخروج إلى الغزو)<sup>7</sup> ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً...﴾<sup>8</sup> التوبة. (وقد ذكر الله تعالى فيهم أقوالاً ثلاثة كلّها تقعد بهم عن الجهاد بل واحدة منها:

أولها: أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فعدم إيمانهم بالله يجعلهم لا يدعون ولا يجيبون ما فرض

<sup>1</sup> إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود (ت: 982هـ) - ج 4 ص 70.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (ت: 885هـ) - ج 8 ص 489.

<sup>3</sup> معاني القرآن وإعرابه - أبو إسحاق الزجاج - ج 2 ص 450. و التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 456.

<sup>4</sup> البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأندلسي (ت: 745هـ) - ج 4 ص 427. والمحزر الوجيز - ابن عطية - ج 3 ص 39.

<sup>5</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 275.

<sup>6</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 406.

<sup>7</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 214.

عليهم من جهاد، ولا يؤمنون بما فيه من عزة وكرامة، وفوق ذلك لا يريدون العزة للمؤمنين ولا يتغونها لهم ويريدون الذلة لهم، وعدم إيمانهم باليوم الآخر يجعلهم يعتقدون أنه لا تعويض لهم، وأن الدنيا وحدها هي الحياة، ويقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين.

ثانيها: حال الريب، فهم في ريب دائم، والريب لا يوجد معه إيمان بشيء، فأول ما يصاب المنافق يصاب في نفسه، إذ يكون في بلبال مستمر، واضطراب فكري دائم لا يستقرّ معه على حال، ولا يستطيعون عملاً.

ثالثها: أنهم في تردّد دائم نتيجة لريبتهم<sup>1</sup>.

وهم بهذا قد استحقوا كراهية الله خروجهم مع المؤمنين ﴿... وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾<sup>2</sup> فردّهم عن الخروج للجهاد وأشغلهم بأنفسهم فزبن لهم القعود بما حبب إليهم من لذة القعود وطيب الثمار (فغوّقهم عن الخروج بما امتلأت به قلوبهم من النفاق)<sup>3</sup>، وكراهية الله لنزوعهم تجلّت في تشبيطهم وخذلهم وردّهم عن الفعل، وزبن لهم في نفوسهم ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه، فوافقت ما أذن فيه رسول الله في التخلّف)<sup>4</sup>، وقد ذمهم الله تعالى وألحق حالهم في حبّ القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بحال النساء والصبيان والشيوخ والمرضى الذين شأهم القعود فلا قدرة لهم على الخروج ﴿وَقِيلَ أَفَعَدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ وفي هذا (ذمّ لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأهم القعود والجثوم في البيوت، وهم القاعدون والخالفون والخوالف)<sup>5</sup>.

#### الضلع الرابع: أثر قعود المنافقين على المؤمنين

كره الله انبعاث المنافقين فثبّطهم فاستأذنوا فكانوا من القاعدين عن تبوك فكان في ذلك راحة للمؤمنين ففي (إرادة الله سلامة المسلمين من أضرار وجود هؤلاء بينهم، لأنهم كانوا يضمرون المكر للمسلمين

<sup>1</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 6 ص 3318 / 3319.

<sup>2</sup> ثبط: اللئيم؛ ثبّطه عن الشيء وثبّطاً إذا شغله عنه. وفي التنزيل العزيز: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ)؛ قال أبو إسحق: التثبيط ردك الإنسان عن الشيء يفعلُه، أي كره الله أن يخرجوا معكم فردّهم عن الخروج. وثبّطه عن الشيء ثبّطاً وثبّطه: ربيته وثبّته. وثبّطه على الأمر فثبّط: وقفه عليه فتوقّف... التثبيط وهو التعويق والشغل عن المراد... لسان العرب - ابن منظور - ج 7 ص 267.

<sup>3</sup> الموسوعة القرآنية - إبراهيم بن إسماعيل الأبياري - ج 10 ص 22.

<sup>4</sup> تفسير الشعراوي - الخواطر - محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ) - ج 9 ص 5160.

<sup>5</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري - ج 2 ص 276.

فيخرجون مرغمين، ولا فائدة في جيش يغزو بدون اعتقاد أنه على الحق<sup>1</sup> وانتقل الخطاب من مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مخاطبة المؤمنين ليعلموا أنّ ضرر خروج المنافقين إنما يقع على جماعة المؤمنين ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا...﴾، فلوا خرجوا مع المؤمنين لم يزيدوهم بخروجهم (إلا فساداً وضراً)<sup>2</sup> فيصيبهم بخروجهم معهم فتنة من قتل وجراح<sup>3</sup> ويلقون بينهم (اضطراباً في الرأي وفساداً في العمل وضعفاً في القتال وخللاً في النظام)<sup>4</sup>، و(لأسرعوا في السير ذهاباً وإياباً بينكم في تتبع عوراتكم وانتظار زلاتكم ليجدوا منها مدخلاً إلى الفساد بالنميمة وغيرها... فلا شغل لهم إلا بغية فسادكم بعدم وصولكم إلى شيء من مرادكم)<sup>5</sup> وذلك بزرع الفرقة وتشيت الصفّ وتثيبت المجاهدين، وممن معكم من هم سمّاعون لهم (يسمعون حديثكم لهم فيبلغونهم ويؤدونهم إليهم، عيون لهم عليكم)<sup>6</sup> ﴿... وَلَا تَوَضَّعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ...﴾ (الإفساد والتحريض)<sup>7</sup>، والله تعالى عليم بالظالم الذي يجعل استئذانه هروباً من الخروج إلى الجهاد مع رسول صلى الله عليه وسلم (من يوجّه أفعاله إلى غير وجوهها، ويضعها في غير مواضعها)<sup>8</sup>.

#### الفرع الخامس: التذكير بمسالك المنافقين والعبارة منه

وفي التذكير بمسالك المنافقين وابتغائهم الفتنة بيان لما هم عليه من إضمار الشرّ والسعي بالفساد بين المسلمين لتشيت صفّهم ﴿لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 216.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 278.

<sup>3</sup> أساس البلاغة - الزمخشري (المتوفى: 538هـ) - ج 1 ص 230.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 408.

<sup>5</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 8 ص 491.

<sup>6</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 281. وهو المعنى الذي رجحه الطبري قال: (لأن الأغلب من كلام

العرب في قولهم: (سَمَاعٌ) وصف من وصف به أنه سماع للكلام، كما قال الله جل ثناؤه في غير موضع من كتابه: (سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ)

سورة المائدة: 41، واصفاً بذلك قوماً بسماع الكذب من الحديث. وأما إذا وصفوا الرجل بسماع كلام الرجل وأمره ونهيه وقبوله منه

وانتهائه إليه فإنما تصفه بأنه: (له سماع ومطيع)، ولا تكاد تقول: هو له سماع مطيع. ج 14 ص 282.

<sup>7</sup> إعراب القرآن - النَّحَّاس - ج 2 ص 121. قال النحاس: ويقال: (بغيتة كذا أي أعنته على طلبه وبغيتته كذا طلبته له).

<sup>8</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 282.

وَهُمْ كَاهُونَ ﴿١٨٨﴾ التوبة، (أنهم دبّروا الحيل والمكايد، ودوّروا الآراء في كلّ وجه لإبطال دينك)<sup>1</sup>، فما كان قعودهم عن تبوك إلا حلقة من حلقات إرادة الهدم من داخل الصفّ الإسلامي وما رجوع ابن أبي<sup>2</sup> يوم أحد بنتل الجيش في محاولة لإضعاف الجيش وبثّ روح الوهن فيه إلا بداية لمسلك الهدم من الداخل فقد (كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد- في ذلك الظرف الدقيق- أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوّهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو وتعلو همته لرؤية هذا المنظر فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه)<sup>3</sup>، وبسبب قوله وفعله أوشك بنو سلمة من الأوس وبنو حارثة من الخزرج أن يفشلا فعصمهما الله تعالى من الفتنة<sup>4</sup> بفضلته وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ آل عمران، ففيه وفي أمثاله نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ يَوْمَ التَّفَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ بَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٢٧﴾ آل عمران.

وما اعتذار المنافقين يوم الأحزاب بأعذار واهية قصد الفرار من مواجهة الأحزاب إلا وهو سيما من سيماهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣٠﴾ الأحزاب.

<sup>1</sup> تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن - محمد الأمين بن عبد الله الهرري الشافعي - ج 11 ص 313. وانظر لسان العرب

- ابن منظور الأنصاري - ج 1 ص 685.

<sup>2</sup> انظر جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري (ت: 310هـ) ج 14 ص 283.

<sup>3</sup> الرحيق المختوم - المباركفوري (ت: 1427هـ) - ص 229.

<sup>4</sup> عن قتادة قوله: (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) الآية، وذلك يوم أحد، والطائفتان: بنو سلمة وبنو حارثة، حيان من الأنصار،

هُمُا بأمر فعصمهم الله من ذلك. جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 7 ص 166.

وما زال لهؤلاء المنافقين ضلع مع اليهود وضلع مع المشركين<sup>1</sup> حتى أظهر الله دينه وأتم نعمته وهم كارهون ﴿لَقَدْ آتَبَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾<sup>(٤٨)</sup> التوبة.

### الفرع السادس: أنموذج<sup>2</sup> المستأذنين

عرض القرآن الكريم نموذج للمستأذنين من المنافقين ومعاذيرهم الكاذبة (ثم يأخذ السياق في عرض نماذج منهم ومن معاذيرهم المفتراة ثم يكشف عما تنطوي عليه صدورهم من التبرص بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين)<sup>3</sup> وقد تمثل ذلك في جد بن قيس<sup>4</sup> الذي أظهر خشية الافتتان بنساء بني الأصفر وهو غنى قوي فتأخر، فوقع فيما هو أعظم (فإن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله ورسوله والتمرد عن قبول التكليف)<sup>5</sup>. فقد روى عن ابن عباس في قوله تعالى: (اذن لي ولا تفتني) قال: (هو الجد بن قيس قال:

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 410.

<sup>2</sup> نمذج : (التَّمُودَجُ، يَفْتَحُ التُّونَ) وَالذَّالُ الْمُعْجَمَةُ وَالْمِيمُ مَضْمُومَةٌ وَهُوَ (مِثَالُ الشَّيْءِ)، أَي: صُورَةٌ تُتَّخَذُ عَلَى مِثَالِ صُورَةِ الشَّيْءِ لِيُعْرَفَ مِنْهُ حَالُهُ، (مُعَرَّبٌ) مُؤَدَّه، وَالْعَوَامُّ يُقُولُونَ: مُؤَنَةٌ. وَلَمْ تُعَرِّبِ الْعَرَبُ قَدِيمًا، وَلَكِنْ عَرَّبَهُ الْمُجَدِّثُونَ.

قَالَ الْبُحَارِيُّ: أَوْ أُبْلِقُ يَلْقَى الْعَيْونَ إِذَا بَدَأَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُعْجِبٌ بِتَمُودَجٍ.

و(الْأُمُودَجُ) بِصَمِّ الْهَمْزَةِ (لِحْنٌ) كَذَا قَالَ الصَّاعِقِيُّ فِي التَّكْمَلَةِ، وَتَبَعَهُ الْمُصَنِّفُ. قَالَ شَيْخُنَا نَقْلًا عَنِ النَّوَّاحِيِّ فِي تَذَكُّرِهِ: هَذِهِ دَعْوَى لَا تَقُومُ عَلَيْهَا حُجَّةٌ. فَمَا زَالَتْ الْعُلَمَاءُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا يَسْتَعْمَلُونَ هَذَا اللَّفْظَ مِنْ غَيْرِ تَكْرِيرٍ، حَتَّى أَنْ الرَّبَّاعِيَّ وَهُوَ مِنْ أُمَّةِ اللَّغَةِ سَمَّى كِتَابَهُ فِي النَّحْوِ الْأُمُودَجَ، وَكَذَلِكَ الْحَسَنُ بْنُ رَشِيْقِ الْقَيْرَوَانِيِّ وَهُوَ إِمَامٌ الْمَغْرِبِ فِي اللَّغَةِ سَمَّى بِهِ كِتَابَهُ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ، وَكَذَلِكَ الْحَقَّاقِيُّ فِي (شَفَاءِ الْغَلِيلِ) نَقَلَ عِبَارَةَ الْمَصْبَاحِ وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ ادَّعَى فِيهِ اللَّحْنَ: وَمِثْلُهُ عِبَارَةُ الْمَغْرِبِ لِلنَّاصِرِ بْنِ عَبْدِ السَّيِّدِ الْمَطْرِزِيِّ شَارِحِ الْمَقَامَاتِ. تَاجُ الْعُرُوسِ مِنْ جَوَاهِرِ الْقَامُوسِ - الرَّيْدِيِّ - ج 6 ص 250.

<sup>3</sup> في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 3 ص 1663.

<sup>4</sup> جد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي يكنى: أبا عبد الله هو ابن عمّ البراء بن معرور... قد ساد في الجاهلية جميع بني سلمة... وحضر يوم الحديبية، فباع الناس رسول الله ﷺ... إلا الجد بن قيس، فإنه استتر تحت بطن ناقته. عن ابن إسحاق قال: ولم يتخلف عن بيعة رسول الله ﷺ أحد، يعني في الحديبية، من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، قال جابر بن عبد الله لكأني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقه رسول الله ﷺ قد صبا إليها، يستتر بها من الناس، وقيل: إنه تاب وحسنت توبته، وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه. أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير - ج 1 ص 521.

<sup>5</sup> مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي (المتوفى: 606هـ) - ج 16 ص 65.

قد علمت الأنصار أني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالي<sup>1</sup> والإتيان بأداة الاستفتاح في جملة (ألا في الفتنة سقطوا) للتنبية على ما بعدها من عجيب حالهم إذ عاملهم الله بنقيض مقصودهم فهم احتزوا عن فتنة فوقعوا في الفتنة<sup>2</sup> ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَدْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>٤٩</sup> ﴿التوبة﴾.

**الفرع السابع: فرح المنافقين بمصاب المؤمنين ورضى المؤمنين بما قدر الله لهم**

**أ- فرح المنافقين بمصاب المؤمنين وحرزهم لمغنمهم وسلامتهم**

ومن سيما المنافقين وخبث طويتهم أنهم يساءون ويحزنون لما يصيب النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين من الخير من نصر أو فتح أو غنيمة والفرح بما يصيب النبي صلى الله عليه وسلم بما يصيب المؤمنين من فرح وهزيمة ومصيبة من عجيب أحوالهم وفساد طبعهم ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمُ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُوا﴾<sup>٥٠</sup> ﴿التوبة﴾. وفوق ذلك فهم يفتخرون بأنهم أهل رأي سديد وحكمة لأخذهم الحذر ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ وهو (نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم، والإخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية)<sup>3</sup> وهذا شأنهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

**ب - رضى المؤمنين بما قدر الله لهم يبطل فرح المنافقين**

لَقِنَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (جواب لقولهم: (قد أخذنا أمرنا من قبل) التوبة: 50، المنبئ عن فرحهم بما ينال المسلمين من مصيبة بإثبات عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة وانتفاء حرزهم عليها)<sup>4</sup>، فقال جلَّ وعزَّ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>٥١</sup> ﴿التوبة﴾. وفي هذا (تعليم للمسلمين التخلق بهذا الخلق: وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم لئلا يهتو وتذهب قوتهم،

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 287.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - ج 10 ص 221.

<sup>3</sup> فتح القدير - محمد بن علي الشوكاني - ج 2 ص 421.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 223.

كما قال تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) آل عمران: 140/139 ، وأن يرضوا بما قدر الله لهم ويرجوا رضى ربهم لأنهم واثقون بأن الله يريد نصر دينه)<sup>1</sup>، فتكون حال المؤمنين هذه مذهبة لفرح المنافقين (فإذا علموا أن النبيء لا يحزن لما أصابه زال فرحهم)<sup>2</sup>، فالمؤمنون ﴿...وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ على ربهم يتوكلون ويعلمون أنه ناصرهم.

ثم جاء الهدي القرآني ببيان أن المؤمنين لا تنتظرون من تربص المنافقين بهم إلا حسنة عاجلة أو حسنة آجلة ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَاءَ إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ... ﴿٥٢﴾﴾ التوبة، وأما ﴿وَنَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرْتِبُونَ ﴿٥٣﴾﴾ التوبة.

أي: أما (نحن فننتظر من حالكم أن يعذبكم الله في الآخرة بعذاب النار، أو في الدنيا بعذاب على غير أيدينا من عذاب الله في الدنيا: كالجوع والخوف، أو بعذاب بأيدينا، وهو عذاب القتل، إذا أذن الله بحربكم)<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 223.

<sup>2</sup> نفسه - ج 10 ص 223.

<sup>3</sup> نفسه - ج 10 ص 224.

## المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الفرعية الأولى

دلّت آيات هذه الوحدة الموضوعية على الهدايات الآتية:

- 1- في الألفاظ العامة دلالة على أنّ أنموذج المنافق أنموذج إنساني مكرور يستوعبه الزمان والمكان في كلّ مراحل حياة الأمة بل وحياة البشرية، وفي ذلك حكمة بالغة تتمثل في أن يلتفت المؤمنون للنظر في تاريخ نشأة النفاق وأهله ومعرفة سيماهم ومسالكتهم في الحياة ليسلم المجتمع من مكرهم.
- 2- بُعِدَ الشقة وخطورة المهمة وقوّة العدو وكثرته عجّلت بظهور استئذان المنافقين للتخلف عن الخروج للجهاد، (ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ولكنهم تركوه كفرا ونفاقا، وهذا كله في الجملة لا بتعيين شخص ولو عيّن لقتل بالشرع)<sup>1</sup>.
- 3- من سيمّا المنافقين التي يُعرفون بها :
  - أ- الاستئذان بالمعاذير الكاذبة: لترك الأعمال التي فيها بذل المهج والتخلف عنها (فلم يواز ما يحصل لهم بها من التعب ما يرجونه من العرض)<sup>2</sup> ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْآخِرِينَ﴾ .
  - ب- سفول هم المنافقين وتعلقهم بمصالحهم ورضاهم بأن يكونوا مع القاعدين من المرضى والنساء والصبيان و(في استئذانهم إشارة إلى ذمهم بسفول الهمم ودناءة الشيم بالعجز والكسل والنهم والثقل، وإلى أنّ هذا الدّين متين لا يحمله إلا ماضي الهمّ صادق العزم)<sup>3</sup>.
  - ت- كراهيتهم للجهاد والإنفاق في سبيل الله فكره الله انبعاثهم إليه فخارت عزائمهم ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ .
  - ث- التردّد: وتلك (صفة الشّاك المتحيّر في دينه الذي ليس على بصيرة من أمره، لا يجد ثقة الإيمان لما هو عليه من الحيرة والاضطراب حتى زهد في الجهاد، واستأذن في المقام بما لا يجوز من الاعتذار)<sup>4</sup> لأن ديدن المنافق التردّد والحيرة، كما أنّ الثبات والاستقرار ديدن المؤمن المستبصر<sup>5</sup> ﴿... وَأَزَّابَتْ قُلُوبَهُمْ فَهَمُّ فِي رِيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ التوبة.

<sup>1</sup> المحرر الوجيز- ابن عطية - ج3 ص 38.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- البقاعي- ج 8 ص 480.

<sup>3</sup> المصدر نفسه - ج 8 ص 480.

<sup>4</sup> التفسير البسيط- الواحدي النيسابوري- ج10 ص 461/460.

<sup>5</sup> الكشاف- الزمخشري- ج 2 ص 275، بتصرف.

ج- إثارة البلبلة والاضطراب وإشعال نار الفتنة وإفساد ذات البين في الصف الداخلي للجيش لتشتيته

وفي ذلك صرف الهمم في الإصلاح بدل صرفها في مواجهة العدو<sup>1</sup> ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْعُونَكُمُ الْفِتْنَةَ...﴾ ﴿٤٧﴾ التوبة.

ح- فرح المنافقين بمصاب المؤمنين وحزنهم لمغنمهم وسلامتهم ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ وهذا نوع آخر من خبت

ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم.

4- ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾: وجوب الاحتراز عن العجلة ووجوب الثبوت والتأني وترك الاغترار بظواهر الأمور

والمبالغة في التفحص، حتى تمكن من معاملة كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد<sup>2</sup>.

5- وقد استنبط من الآية أنه لا ينبغي الاستئذان في أداء شيء من الواجبات، ولا في الفضائل

والفواضل من العادات كقرى الضيوف وإغاثة الملهوف وسائر عمل المعروف...<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ينظر: التيسير في أحاديث التفسير - محمد المكي الناصري (ت: 1414هـ) - ج 2 ص 390.

<sup>2</sup> مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي في المسألة الثالثة - ج 16 ص 59. بتصرف.

<sup>3</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 405.

## المبحث الثاني

## المال في حياة المنافقين

الوحدة الفرعية الثانية: من الآية الثالثة والخمسين إلى الآية الستين (60/53)

تمهيد:

أراد المنافقون أن يتستروا بالإنفاق عن تقاعسهم عن الجهاد، فاستأذنوا في القعود وعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم الإنفاق في غزوة تبوك، ففضحهم الله جلّ جلاله وبين خبايا نفوسهم فيما يتعلق بإنفاقهم واكتسابهم للمال، والآيات تعرض مقصد المنافقين من الإنفاق والاكتساب.

**المطلب الأول: أحوال المنافقين في مقاصد إنفاقهم وامسآكهم**

**الفرع الأول: آيات الوحدة الفرعية الثانية**

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلَفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَاضًا أَوْ مَدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَبِيِّنَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ التوبة.

**الفرع الثاني: سبب النزول**

سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

خرج البخاري وأحمد والنسائي عن أبي سعيد الخدري<sup>1</sup> قال: بينا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم، جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: (ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل). قال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه، قال: (دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قُدْذِهِ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَصْلِهِ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصَافِهِ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نَضِيهِ فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم، آيْتُهُمْ رجل إحدى يديه، أو قال: ثدييه، مثل ثدي المرأة، أو قال مثل البضعة تَدْرُكُ، يخرجون على حين فرقة من الناس).

قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأشهد أن علياً قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي صلى الله عليه وسلم قال فنزلت فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

### الضرع الثالث : موضوعات الوحدة الضرعية الثانية:

- النفاق مانع من قبول النفقات.
- أنانية المنافقين
- لمز المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم بسبب الصدقات.
- رضا المنافقين وسخطهم متعلقه العطاء أو عدمه.
- لا مطمع ولا مطمح في الصدقات.

<sup>1</sup> صحيح البخاري كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم باب من ترك قتال الخوارج للتألف، السنن الكبرى للنسائي - سورة الأنعام

قوله تعالى : ومنهم من يلمزك في الصدقات، مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

،مصنف عبد الرزاق الصنعاني - كتاب اللقطة باب ما جاء في الحرورية

## المطلب الثالث: التفسير الموضوعي للوحدة

لما اعتذر المنافقون عن الخروج إلى تبوك عرضوا أمواهم<sup>1</sup> لإعانة النبي صلى الله عليه وسلم على قتال الروم، فتجلى بذلك مقصدهم في استعمال المال للتهرب من التكاليف الشرعية، (كانوا يرجون أن يقبل منهم ما ينفقون في الدنيا رجاء أن تتم الخديعة التي أرادوها)<sup>2</sup> وفي هذا مسلك من مسالك التخذيل لغيرهم ومنزع من منازعهم في التفلت وعدم الانضباط بالأوامر الشرعية، وهذا (ابتداء كلام هو جواب عن قول بعض المستأذنين منهم في التخلف: وأنا أعينك بمالي)<sup>3</sup> ففيهم قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتَّكُمْ كُتْمًا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾<sup>4</sup> (قل للمنافقين أنفقوا طوعاً من قبل أنفسكم أو كرها مخافة القتل لن يتقبل الله منكم النفقة)<sup>4</sup>، وما كان الله تعالى ليقبل منهم هذه النفقات، سواء أنفقوها طوعاً للتقية إخفاء لكفرهم أم كرها مخافة العقوبة<sup>5</sup>، مع خبث طويبتهم، وقد فسقوا عن أمر ربهم ومردوا على ذلك، (وهم بالحكم عليهم بأنهم فاسقون يكون محكوماً عليهم بأنهم خارجون عن الجماعة بشعورهم، وإن كانوا فيها بأجسامهم، وذلك مع كفرهم، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك الحكم بعدة مؤكدات، أولها بالجملة الاسمية، وثانيها بـ(إنّ) الحرف الدال على التوكيد، وثالثها بـ(كان) الدالة على استمرارهم في الفسق والخروج عن الجماعة وعدم الشعور بشعورها)<sup>6</sup>.

الضلع الأول: الأسباب المانعة من قبول نفقات المنافقين<sup>7</sup>

وهذا حال المنافقين يظهرون حبّ الإنفاق في سبيل الله ويبطنون حبّ الإمساك والبخل عن الله ورسوله نفاقاً، فمن دلائل الإيمان حبّ الإنفاق في سبيل الله، والشعور بالراحة عند إتيان الصلاة والمحافظة

<sup>1</sup> عن ابن عباس: قال الجّد بن قيس: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفنتن ولكن أعينك بمالي. قال: ففيه نزلت: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ

كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ قال: لقوله: (أعينك بمالي). جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 294.

<sup>2</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 6 ص 332.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 225.

<sup>4</sup> بحر العلوم - أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي - (ت 373هـ) - ج 2 ص 65.

<sup>5</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 416.

<sup>6</sup> زهرة التفاسير - محمد أبو زهرة - ج 6 ص 332.

<sup>7</sup> بعد إتمام الحديث عن الأسباب الثلاثة وقفت على ما قاله الشوكاني في تفسيره فتح القدير: جعل المانع من القبول ثلاثة

أمور... ج 2 ص 422. فالحمد لله على التوفيق للموافقة. وانظر التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص

عليها، وإنما لنجد هذا التلازم<sup>1</sup> بين هذين الركنين من أركان الإسلام في القرآن الكريم- الصلاة والإنفاق- فما كانت نفقاتهم لتقبل لكونهم:

1. متلبسين بالكفر (والأعمال إنما تصح بالإيمان)<sup>2</sup> فما منع قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله ورسوله<sup>3</sup> ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والله جلّ جلاله يتقبل من المتقين.

2. - كسالى متناقلين في قيامهم للصلاة ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ لأنهم يأتونها من غير إيمان بوجوبها فلا تنشط لها أبدانهم، ولا تنشرح لها صدورهم<sup>4</sup> فهم يصلون رياء ولا يتزكون بأدائها فلا تحدث لهم ذكرا، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء.

3. ممتنعين عن الإنفاق في سبيل الله كارهين له يرونه مغرما ويرون تركه مغنما فهم (لا يعطون المال إلا في حال كراهيتهم للإعطاء لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون بتركه عقاباً، فهم يعطون ذلك رياء ونفاقاً)<sup>5</sup> ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (إذ لا يقصدون بها وجه الله ولا محبة المؤمنين)<sup>6</sup> بل سترًا لحالهم وإرادة للفساد.

وبيان أسباب عدم قبول نفقاتهم يهتك ستر آخر من أستارهم التي يستترون بها وهو إظهار الرغبة في الإنفاق وإبطان الكراهية الشديدة لذلك، فقد (ذكر الكفر بيان لذكر الفسوق، وذكر التكاسل عن

<sup>1</sup> مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ البقرة، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ البقرة. ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ النور. ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ المزمّل.

<sup>2</sup> تفسير القرآن العظيم - 1 بن كثير - ج 4 ص 142.

<sup>3</sup> انظر: التفسير البسيط- الواحدي- ج 10 ص 488. ومعاني القرآن- الفراء- ج 1 ص 442، ومعاني القرآن وإعرابه- الزجاج - ج 2 ص 453، وإعراب القرآن- النحاس- ج 2 ص 25، و مشكل إعراب القرآن- لمكي - ص 330. والهداية إلى بلوغ النهاية- مكي بن أبي طالب - ج 4 ص 3028.

<sup>4</sup> تفسير المنار- محمد رشيد رضا- ج 10 ص 417. بتصرف.

<sup>5</sup> البحر المديد في تفسير القرآن المجيد- ابن عجيبة - ج 2 ص 392.

<sup>6</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ابن عطية الأندلسي- ج 3 ص 45.

الصلاة لإظهار أنهم متهاونون بأعظم عبادة فكيف يكون إنفاقهم عن إخلاص ورغبة، وذكر الكراهية في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه الخصلة المتحدث عنها<sup>1</sup>.

### الفرع الثاني: النفاق مهواة الخسار<sup>2</sup>

لما بين الله جلّ جلاله الأسباب المانعة من قبول نفقات المنافقين (تأثره ببيان أنّ ما يظنونه من منافع الدنيا هو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم، فينجلي تمام الانجلاء أن النفاق مهواة الخسار لجلبه آفات الدنيا والآخرة)<sup>3</sup> ومما يهوي به المنافقون:

**السبب الأول:** أنّ أموالهم التي يعتقدون أنها تدخل عليهم السرور وأنها زينة حياتهم وقرّة أعينهم هي سبب عذابهم (بما يحصل معهم من الغمّ والحزن عند أن يغنمها المسلمون ويأخذوها قسرا من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرّة أعينهم)<sup>4</sup> ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾<sup>5</sup>، التوبة<sup>5</sup>، فما ينبغي أن تكون أموال المنافقين وأولادهم محل أعجاب المسلمين<sup>6</sup> لأنها سبب عذابهم وضيق أنفسهم في الدنيا<sup>7</sup>، فالله تعالى: (يريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون، ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة)<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 227.

<sup>2</sup> العنوان من: محاسن التأويل محمد جمال الدين القاسمي - ج 5 ص 434

<sup>3</sup> محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي - ج 5 ص 434، وانظر مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 71.

<sup>4</sup> فتح القدير - الشوكاني - ج 2 ص 422.

<sup>5</sup> الآية نفسها نجدها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾<sup>5</sup> التوبة.

<sup>6</sup> قال ابن عاشور: (فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد تعليم الأمة) - التحرير والتنوير - ج 10 ص 227.

<sup>7</sup> قال الطبري: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معناه: فلا تعجبك، يا محمد، أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقال: معنى ذلك التقديم وهو مؤخر. وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنما يريد الله ليعذبهم بما في الحياة الدنيا، بما ألزمهم فيها من فرائضه. ثم رجح الطبري ما روي عن الحسن: (إنما يريد الله ليعذبهم بما في الحياة الدنيا) قال: بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله. قال: (وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا التأويل الذي ذكرنا عن الحسن لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل، فصرف تأويله إلى ما دلّ عليه ظاهره أولى من صرفه إلى باطن لا دلالة على صحته). جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري ج 14 ص 296/295.

<sup>8</sup> الكشاف - الزمخشري - ج 2 ص 281.

**السبب الثاني:** ومن قبائحهم أنهم (من شدة خوفهم الذي فرق قلوبهم ومزقتها)<sup>1</sup> يصانعون المؤمنين بإظهار المودة لهم ويقدمون على الأيمان الكاذبة ليبينوا لهم أنهم مؤمنون وهي الحال التي مردوا عليها وكشفها الله عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ ﴿١٤﴾ البقرة، وهذا مقام آخر كذب الله تعالى فيه المنافقين في دعواهم أنهم من المؤمنين إذ يقول جلّ جلاله: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ التوبة. يخافون الدوائر وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم، فيخافون إن أظهرها حالهم منكم، ويخافون أن تتبرؤوا منهم، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب، وأما حال قوي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب)<sup>2</sup>.

**السبب الثالث:** ومن قبائح المنافقين أنهم موافقون للمسلمين بطواهرهم مخالفون لهم ببواطنهم: فهم يعيشون مع المسلمين بأجسامهم مفارقين لهم بقلوبهم (لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا إليهم ولفارقوكم)<sup>3</sup>، فما دعوى الإيمان عندهم إلا لحماية أنفسهم من المسلمين لأنهم: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَدْجًا أَوْ مَعْرَتًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ فلو أنهم يجدون مكانا حصينا يتحصنون فيه أو كهوفا يخفون فيها أنفسهم أو أنفاقا في الأرض يندسون فيه، لانصرفوا إليها لا يلوون على أحد لما يعترتهم من بغض الإسلام والمسلمين و(لو يجدون عُصْرَةً<sup>4</sup> أو أمورا مرتبطة مشددة تعصمهم منكم)<sup>5</sup> لولوا إليها مسرعين إسراع الفرس الجموح الذي لا يرده شيء عن وجهته (لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودّوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في همّ وحزن وغم لأنّ الإسلام وأهله لا يزال في عزّ ونصر ورفعة؛ فلهذا كلفنا سرّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودّون ألا يخالطوا المؤمنين)<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 419.

<sup>2</sup> تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ج 1 ص 340.

<sup>3</sup> لباب التأويل في معاني التنزيل - الخازن - ج 2 ص 371.

<sup>4</sup> قال ابن منظور: (وهو من العُصْرَة، وهي المنجاة. والاعتصاؤ: الإلتجاء). لسان العرب - ج 4 ص 580.

<sup>5</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 46.

<sup>6</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 163. وانظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث

الإسلامية بالأزهر - ج 3 ص 1719.

وإنما وصفهم الله بهذه الصفة، لأنهم يقيمون مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم، مع عدم قدرتهم على ترك قومهم ، فصانعوا المؤمنين بالنفاق، وفي أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به والعداوة لهم. فقال الله واصفهم بما في ضمائرهم: (لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ) الآية<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن- ابن جرير الطبري- ج 14 ص 299. بتصرف

## الفرع الثالث: أنموذج المنافق اللماز بسبب الصدقات

ومن دناءة أخلاقهم فيما يخص الحصول على المال:

أ- **المنافق عياب طعان**؛ من أساليب المنافقين في الطعن في الدين والهدم من الداخل للمجتمع المسلم أنهم يتحيتون الفرص للمز المؤمنين بذكر عيوبهم والطعن فيهم، فلم يسلم من لمزهم أحد من المسلمين حتى النبي صلى الله عليه وسلم، (وإذا كان المنافقون يتجرؤون على لمز أشرف الخلق، والطعن في تصرفات خاتم النبيين والمرسلين كما سبقت الإشارة لذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ﴾<sup>1</sup> فإنهم سيكونون أشد جراً وأكثر لمزا لمن دونه من المؤمنين)<sup>1</sup>، فقد استغلوا وقت قسمته صلى الله عليه وسلم للصدقات فظهرت عليهم نزعة النفاق بالتشكيك في عدالته صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ (يعيبك في أمرها ويطعن عليك فيها)<sup>2</sup> وما كان هذا اللمز<sup>3</sup> إلا إلقاء للشبهات ليؤثروا في ضعف الإيمان ولبت حالة التشكيك في المجتمع المسلم.

ب- **أنانية المنافق** : ومن أنانية المنافقين ودناءة أخلاقهم أنهم تواقون لأخذ ما ليس لهم بحق ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ﴾<sup>4</sup> فإن أعطوا من الصدقات فرحوا بها، وإن لم يعطوا منها سخطوا على من لم يعطهم (وأن رضاهم وسخطهم إنما متعلقه العطاء)<sup>4</sup> فالآية بيان عما يوجبه الخلق الدني من الشره إلى الصدقة حتى يعيب ما لا عيب فيه إذا لم يعطه ما يرضيه)<sup>5</sup>.

وقد ذكر في سبب النزول<sup>6</sup> الآية أنموذج المنافق اللماز وهو يعيب قسمة النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي سعيد<sup>1</sup> قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يقسم، جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال:

<sup>1</sup> التيسير في أحاديث التفسير - محمد المكي الناصري - ج 2 ص 419.

<sup>2</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 500.

<sup>3</sup> جاء في اللسان: (رجل لماز ولمزة أي عياب، وكذلك امرأة لمزة، الهاء فيها للمبالغة لا للتأنيث... اللمز العيب والوقوع في الناس، وقيل:

هو العيب في الوجه، والهمز العيب بالغيب). لسان العرب - ابن منظور - ج 5 ص 407.

<sup>4</sup> البحر المحيط في التفسير - أبو حيان - ج 5 ص 439.

<sup>5</sup> المصدر نفسه - ج 10 ص 500.

<sup>6</sup> جاء في: المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية: (الحديث المذكور سبب نزول الآية

الكريمة لصحة إسناده وموافقته لسياق القرآن واحتجاج المفسرين به) - خالد بن سليمان المزيني - ج 1 ص 591.

اعدل يا رسول الله، فقال: (ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل)، قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: (دعه، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في ثدييه، مثل ثدي المرأة، أو قال مثل البضعة، تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس) قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علياً قتلهم، وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فنزلت فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، وهذه نزعة منافق<sup>2</sup> لأن رضا المنافقين وسخطهم على النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو لحظوظ أنفسهم وحبهم الاستئثار بالصدقات دون غيرهم.

وفي الآية والحديث دلالة على جرأة المنافقين على لمز النبي صلى الله عليه وسلم والطعن في عدالته، وهم بهذا يطعنون في كل عدالة بعد عدالته صلى الله عليه وسلم فيجدون المنفذ للتفلسف من سلطة الشرع، فيحدثون بذلك زعرة للمجتمع المسلم (وإذا كان المنافقون يتجرؤون على لمز أشرف الخلق، والطعن في تصرفات خاتم النبيين والمرسلين كما سبقت الإشارة لذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾<sup>3</sup> التوبة فإنهم سيكونون أشد جرأة وأكثر لمزا لمن دونه من المؤمنين<sup>3</sup>، وفعلا فقد كان المنافقون ينتهزون كل فرصة للمز المؤمنين والطعن فيهم)<sup>4</sup>.

(وساعة يعرض الحق سبحانه لنا الداء في المجتمع الإيماني فهو جلّ وعلا يعطي الدواء الذي يحمي

<sup>1</sup> صحيح البخاري- كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم-باب من ترك قتال الخوارج للتألف. والسنن الكبرى للنسائي- سورة الأنعام - قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ - ومسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم - مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

<sup>2</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 46.

<sup>3</sup> سبأئي لمز المنافقين للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْمُرُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>3</sup> التوبة.

<sup>4</sup> التيسير في أحاديث التفسير - محمد المكي الناصري - ج 2 ص 419.

المجتمع من هذا الداء)<sup>1</sup> فجاء التنبيه للمنافقين إلى ما كان يجب عليهم أن يفعلوه؛ بأن ترضى قلوبهم بما آتاهم الله ورسوله فيظهر ذلك على ألسنتهم احتسابا وعلى سلوكهم رغبة لعلهم يتخلصون من داء النفاق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾<sup>2</sup>، وفي هذا توجيه للمؤمنين لئلا يقعوا في هذا المهوى الذي هوى إليه المنافقون فيهلكون كما هلكوا، (وفي ذلك إيماء إلى أنّ المؤمن يجب أن يكون قانعا بكسبه وما يناله بحق من صدقة ونحوها مع توجيه قلبه إلى ربه، ولا يرغب إلا إليه في الحصول على رغائبه التي وراء كسبه وحقوقه الشرعية)<sup>3</sup>.

وحتى لا يبقى للناس مطمع ولا مطمح في الصدقات ولا مجال لهم فيها للمز بين الله تعالى المستحقين لها تفصيلا (فجاءت الآية تبين أن التوزيع من الله سبحانه وتعالى، فلم يتركها لنبي ولا لغيره، تولاها هو سبحانه بالبيان فمن غاب التقسيم فإنما يعيب تقسيم الله تعالى فليعلم مكانه في الإيمان)<sup>3</sup>، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَامِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>4</sup> (أي والله عليم بأحوال الناس ومقدار حاجتهم، حكيم فيما يشرعه لهم تطهيرا لأنفسهم وتركية لها، وشكرا لخالقهم على ما أنعم به عليهم)<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> تفسير الشعراوي - ج 9 ص 5216.

<sup>2</sup> تفسير المراغي - ج 10 ص 142.

<sup>3</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 6 ص 3343.

<sup>4</sup> لم أذكر الأصناف المستحقة للصدقات لأن المقام لا يتحمل ذكرها، فلترجع في مظانها من كتب التفسير والفقه.

<sup>5</sup> تفسير المراغي ج 10 ص 146.

## المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الثانية

دلت هذه الآيات على الهدايات الآتية:

1- من مقاصد الإنفاق عند المنافقين تخذيل غيرهم عن الإقبال على الجهاد في سبيل الله والنزوع بهم للتفلت من الانضباط بالأوامر الشرعية ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾<sup>٥٣</sup>.

2- لا يقبل الله تعالى النفقة من منافقين كارهين للإنفاق متكاسلين عن الصلاة مع خبث طويبتهم، وقد فسقوا عن أمر ربهم و مردوا على ذلك ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَيُرْسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾<sup>٥٤</sup>.

3- بعدم قبول نفقات المنافقين يهتك ستر آخر من أستارهم التي يستترون بها وهو إظهار الرغبة في الإنفاق وإبطان الكراهية الشديدة له.

4- كشف سر من أسرار نفسية المنافقين: فهم بشحهم وحرصهم على جمع المال والإشفاق من ضياعه، في عناء وعذاب خوفا عليه من النقصان وفي ألم من إنفاق ما يلجئهم الحال إلى إنفاقه منها، فجاءهم العذاب بما من شأنه أن يكون سبب نعيم وراحة<sup>1</sup>.

5- التفاق مهواة الخسار لجلبه آفات الدنيا والآخرة:

أ- فأموالهم التي يعتقدون أنها زينة حياتهم وقرة أعينهم إنما هي سبب عذابهم.

ب- والأيمان الكاذبة التي يصنعون المؤمنين لإظهار المودة لهم هي سبب هلاكهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾<sup>٥٦</sup> فقد فرق الخوف قلوبهم ومزقها، فقد خلعت عليهم خلعة الجبن وحلوا بجلية الكذب.

ت- كشف الله عليهم مستورهم وكذبهم في دعواهم أنهم من المؤمنين ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾.

ث- وأتتهم يعيشون غربة اجتماعية لموافقتهم المسلمين بطواهرهم ومخالفتهم لهم ببواطنهم، وفي ذلك من العذاب النفسي ما هو بلاء مبين لهم، فلو أنهم يجدون مكانا حصينا يتحصنون فيه أو كهوفا يخفون فيها أنفسهم أو أنفاقا في الأرض يندسون فيه، لانصرفوا إليها لا يلوون على أحد لما يعتريهم من بغض الإسلام والمسلمين ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾<sup>٥٧</sup>.

<sup>1</sup> ينظر: التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 228.

6- المنافقون كائن غريب ومرض فتاك في جسم الأمة؛ فهم مفارقون لجماعة المسلمين بعتيقتهم وقلوبهم وشعورهم، وإن كانوا فيها بأجسامهم ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكَتَهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥١﴾﴾ التوبة.

7- الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾<sup>1</sup> وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو لتعليم المسلمين درسين:

**الدرس الأول:** عدم الافتتان بأموال المنافقين وما يفتح عليهم به من الخير فذلك من باب سنة الإماء ليزدادوا إثماً إلى إثمهم و(المراد الاستدراج بالنعم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾<sup>2</sup> آل عمران).

**والدرس الثاني:** الحذر من الوقوع فيما وقع فيه المنافقون من استعمال المال للتهرب من التكليف الشرعية، والركون إلى الدنيا والتهالك في حبها والافتخار بها<sup>3</sup>.

8- من خصائص المنافقين البارزة والتي لا ينفكون عنها بحال: خبيصة الطمع والاستغلال والروح الانتفاعية المهيمنة عليهم في جميع الظروف والأحوال، فهم راضون مستبشرون ما استغلوا وانتفعوا، وحققوا مصالحهم الخاصة، وهم ساخطون متبرمون ما توقفت عجلة الاستغلال والانتفاع عنهم، وتعطلت أبسط مصلحة من مصالحهم الخاصة<sup>4</sup> ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِن أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِن لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾<sup>٥٨</sup>

9- المنافق عياب طعان حرب على الإسلام والمسلمين لا يرضيه شيء إلا أن يرى تصدع أركان الدين والمجتمع: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِن أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِن لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾<sup>٥٨</sup>

﴿٥٨﴾

<sup>1</sup> انظر مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 71.

<sup>2</sup> الكشف- الزمخشري - ج 2 ص 281.

<sup>3</sup> انظر مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 71.

<sup>4</sup> التيسير في أحاديث التفسير-محمد المكي الناصري (المتوفى: 1414هـ)- ج 2 ص 395. بتصرف.

10- بين الله مصارف الصدقات تفصيلا قطعا للمطامع والمطامح ودفعا لطعن المنافقين وقطعا

لشغبتهم ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرِيْمِ

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ التوبة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الثالث

إيذاء المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم بالطعن في أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة

الوحدة الموضوعية الفرعية الثالثة:

من الآية الواحدة والستين إلى الآية السادسة والستين (66/61)

تمهيد:

هذا حُلُقٍ آخر من الأخلاق الذميمة للمنافقين وهو إيذاء<sup>1</sup> النبي صلى الله عليه وسلم بالطعن في أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة، والتي أثنى عليه بها ربّه تبارك وتعالى فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ حُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾ القلم، (وناهيك بكفر من يصغرون ما عظمه ربّ العالمين)<sup>2</sup> فقد وصفوه صلى الله عليه وسلم بأنه (أذن) يسمع من كل أحدٍ ما يقول فيقبله ويصدّقه، وقد علموا من قبل أنّ الذي يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحقّ اللعنة ففي سورة الأحزاب قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ٥٧﴾.

المطلب الأول: بيان أساليب المنافقين في ضرب استقرار المجتمع الإسلامي.

الفرع الأول: الوحدة الفرعية الثالثة

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ٦٣ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ٦٤ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ٦٦﴾ التوبة.

<sup>1</sup> قال الطبري: و(الأذى) قد يقع لكل مكروه نال الإنسان من قول سيئ باللسان أو فعل. جامع البيان في تأويل القرآن - ج 8 ص

## الفرع الثاني: سبب نزول الآيات

توافقت الروايات على أنّ الآية نزلت في نبتل بن الحارث أخو بني عمرو بن عوف: فعن ابن إسحاق قال: ذكر الله غشّهم، يعني - المنافقين - وأذاهم للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآية، وكان الذي يقول تلك المقالة، فيما بلغني، نبتل بن الحارث أخو بني عمرو بن عوف، وفيه نزلت هذه الآية، وذلك أنه قال: إنما محمد أُذُنٌّ من حدّته شيئاً صدّقه، يقول الله: ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: يسمع الخير ويصدّق به <sup>1</sup>.

## الفرع الثالث : ظروف نزول الآيات

استغلّ المنافقون رحمة النبي صلى الله عليه وسلّم ورفقه بهم وحسن خلقه، فقد كان يعاملهم بالحكم على ظواهرهم فهو صلى الله عليه وسلّم (يعامل المنافقين بأحكام الشريعة وآدابها التي يعامل بها عامة المسلمين ، كما أمره الله تعالى ببناء المعاملة على الظواهر، فظنوا أنه يصدّق كلّ ما يقال له)<sup>2</sup>، فأذوه في مجالسهم بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ فقد اجتمع ناس من المنافقين <sup>3</sup> وفيهم: جِلاسُ بنُ سُوَيْدِ بنِ صَامِتٍ وَخَشِيٍّ بنِ حَمِيرٍ وَوَدِيعَةُ بنُ ثَابِتٍ فأرادوا أن يقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم فنهى بعضهم بعضاً وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس فحقره فتكلموا وقالوا: (لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن شرّ من الحمير)، فسمعها الغلام فغضب وقال: والله إنّ محمدا لصادق، وإتكم لشرّ من الحمير، ثم ذهب فبلغها النبي صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فحلفوا بالله إنّ عامرا لكاذب، وحلف عامر إنهم لكذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر: اللهم لا تفرّق بيننا حتى تبين صدق الصادق من كذب الكاذب، وقد كان محشي بن حمير قال في ذلك المجلس: ويحكم يا معشر المنافقين، والله إني لأرى أنا

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - محمد بن جرير - ج 14 ص 325 والمغازي للواقدي (ت 207هـ) - ج 3 ص 1066. والسيرة النبوية لابن هشام - ج 2 ص 121. و تفسير القرآن العظيم - ابن أبي حاتم - ج 6 ص 1826. و معالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي - ج 4 ص 67. التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 520. والتحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 241.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 446.

<sup>3</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن أبي حاتم (ت 327هـ) - ج 6 ص 1826.

شرّ خلق الله وخليقته، والله لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة، وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا فعند ذلك قالوا: والله إن كان محمد صادقا، وقالوا: ﴿هُوَ أَذُنٌ قُلٌّ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ .

#### الفرع الرابع: موضوعات الوحدة الفرعية الثالثة:

- شأن المنافقين مقابلة الحلم بالأذى
- الاستهانة بمقام النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاؤه، والاستهزاء بالمؤمنين
- الأيمان الكاذبة يدين المنافقين
- تكذيب الله للمنافقين
- تهديد المنافقين بفضحهم وإخراج أضغانهم

عبد القادر للعطوم الإسلامية

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي الوحدة الفرعية الثالثة:

اختلفت أساليب المنافقين في إلحاق الأذى بالنبي صلى الله عليه وسلم واتفق مقصدهم ببث الفرقة والهدم من الداخل في المجتمع الإيماني، فبعد أن عابوا على النبي صلى الله عليه وسلم قسمة الصدقات واتخذوها ذريعة للمزح عليه صلى الله عليه وسلم إذ قال الله فيهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... ﴾<sup>1</sup> والتوبة، ها هم أولاء يؤذونه بوصفهم إياه صلى الله عليه وسلم بأنه (أذن<sup>2</sup>)<sup>1</sup> وقد (قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة<sup>3</sup>)<sup>2</sup> ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ ... ﴾<sup>4</sup> التوبة، فهو صلى الله عليه وسلم عندهم غرّ سماع لكل ما يقال له من غير تمييز (بين ما يليق بالقبول، لمساعدة أمارات الصدق له، وبين ما لا يليق به)<sup>5</sup>.

### الفرع الأول: المنافقون يبادلون الحلم بالأذى

اغترّ المنافقون بحلم النبي صلى الله عليه وسلم وحسن خلقه لأنه (كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفح عنهم حلماً وكرماً فحملوه على سلامة القلب وقالوا ما قالوا)<sup>6</sup>، فقد قالوا: ﴿هُوَ أذُنٌ﴾، ولذلك تجدهم لا يباليون بالتنقص منه صلى الله عليه وسلم وإلحاق الأذى به اعتماداً على أنه صلى الله عليه وسلم سيستمع إليهم وسيقبل معاذيرهم لأنه سماع لكل ما يقال فهو عندهم، وهو (سريع الغتار بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ويميّز بين ما هو جدير بالقبول، لوجود أمارات الصدق فيه، وما لا ينبغي

<sup>1</sup> قال ابن منظور: (وَرَجُلٌ أذُنٌ وَأُذُنٌ: مُسْتَمِعٌ لِمَا يُقَالُ لَهُ قَابِلٌ لَهُ... وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ بِاسْمِ الْعَضْوِ تَهْوِيلاً وَتَشْبِيحاً). لسان العرب - ج 13 ص 11.

<sup>2</sup> قال ابن منظور: (الغُرُّ الَّذِي لَا يَفْطَنُ لِلشَّرِّ وَيَغْفُلُ عَنْهُ... وَاعْتَرَّ بِالشَّيْءِ: حُدِعَ بِهِ). لسان العرب - ج 5 ص 16.

<sup>3</sup> الكشاف - الزمخشري - ج 2 ص 284.

<sup>4</sup> قرأ عاصم في رواية الأعشى والبرجمي عن أبي بكر (قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ) بالرفع والتنوين فيهما؛ وهو قراءة الحسن وقتادة والأشهب وعيسى بن عمر وطلحة وعمرو ابن عبيد وغيرهم. وقرأ الباقر (قُلْ أذُنٌ) غير منون (خَيْرٌ لَّكُمْ) بالخفض على الإضافة. وقرأ نافع (أذُنٌ) ساكنة الذال كل القرآن وقد ذكرته المبسوط في القراءات العشر - أبو بكر ابن مهران النيسابوري (ت: 381هـ) - ص 227.

قال ابن مجاهد: (فَقَرَأَ نَافِعٌ وَحْدَهُ (هُوَ أذُنٌ قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ) بِإِسْكَانِ الذَّالِّ فِيهِمَا). كتاب السبعة في القراءات ص 315.

- ومعنى قراءة من نَوَّنَ، (قل أذن) يسمع ما تقولون ويصدقكم في قولكم خير لكم من أن يكذبكم في قولكم، فالتقدير: إن كان

الأمر كما تقولون فهو خير لكم يقبل اعتذاركم. المصدر: الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب - ج 4 ص 3050.

<sup>5</sup> إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود (ت 982هـ) - ج 4 ص 77.

<sup>6</sup> المصدر نفسه - ج 4 ص 77.

قبوله<sup>1</sup> فهذا تنقّص بقلة الحزامة الانخداع<sup>2</sup>، ومقصدهم من إحقاق الأذى بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبثّ روح الجرأة على المقدّسات: إضعاف الصفّ الإسلامي وإشاعة ما يفرق الأمة ويضعفها. وقد شهد الله جلّ جلاله لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بأنه مستمع خير وصلاح ومصغ إليه، لا مستمع شرّ وفساد)<sup>3</sup> بقوله جلّ جلاله: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ<sup>4</sup> وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾، ففي عدم مؤاخذته للمنافقين بعد سماعه ما يبلغه عنهم وسماع معاذيرهم وقبولها منهم خير لهم، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير للبشرية كلها مؤمنها ومنافقها وكافرها (فالخيرية فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شملت المنافقين؛ لأنّ خُلِقَ الكريم أبي أن يفضحهم أمام الناس، أما الكفار قد شملتهم الخيرية أيضاً؛ لأنّ دعوته لهم إلى الإسلام، وإصراره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه الدعوة، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن)<sup>5</sup> وفي ذلك خير لهم، فبطل مقصدهم من قولهم ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (وهذا تكذيب من الله للمنافقين الذين قالوا: محمد أذن)<sup>6</sup>، وفي الأمر ب (قل) تعليم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيفية التعامل مع أساليب المنافقين في الإساءة والردّ عليهم وإبطال مقاتلتهم؛ فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يبلغهم ما هو إبطال لزعمهم من أصله بصرف مقاتلتهم إلى معنى لائق بالرسول، حتى لا يبقى للمحكي أثر وهذا من لطائف القرآن<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن - محمد الأمين المرري الشافعي - ج 11 ص 319.

<sup>2</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 52. وقد ذكر ابن عطية معنى ثان عن ابن عباس وجماعة معه: (أنهم أرادوا بقولهم (هُوَ أَذُنٌ) أي يسمع كل ما ينقل إليه عنّا ويصغي إليه ويقبله، فهذا تشكّ منه ووصف بأنه يسوغ عنده الأباطيل والنمائم) - ج 3 ص 52.

<sup>3</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 524.

<sup>4</sup> فائدة: قال الزنجشيري: (فإن قلت: لم عدّ فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين باللام؟ قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به، فعُدّى بالباء وقصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدّقه لكوهم صادقين عنده، فعُدّى باللام ألا ترى إلى قوله (وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كُنَّا صادقين) ما أنبأه عن الباء، ونحوه: (فَمَا أَمَرَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ)، (أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَزْدَلُونَ)، (أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدَّ لَكُمْ). الكشاف - ج 2 ص 285. ومعنى: ما أنبأه عن الباء أي: ما أبعدته. الهامش (2).

<sup>5</sup> تفسير الشعراوي - ج 9 ص 5249.

<sup>6</sup> جامع البيان - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 327.

<sup>7</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 242.

والمعنى اللائق به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أنه سَمَّاعٌ لأمر ربه، ومن مظاهر كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنه ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ فلا يعامل الناس إلا بما أمره الله به؛ من السماحة والحلم والإعراض عن الجاهلين، وأنه لا يؤاخذ أحدا إلا ببينة، (فالناس في أمن من جانبه فيما يبلغ إليه لأنه لا يعامل إلا بالوجه المعروف فكونه يؤمن بالله وازع له عن المؤاخذة بالظنة والتهمة)<sup>1</sup>، ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه به ﴿وَيُؤْمِنُ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ إيمانهم مانع لهم من الكذب، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾، (وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم)<sup>2</sup>، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التوبة، وفي وصفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رسول الله إعلاءً لشأنه وتنويه بإعظام قدره، وتنبية على أن إيذائه موجب لسخط الله تعالى<sup>3</sup>.

### الضرع الثاني: الأيمان الكاذبة دين المنافقين

اختلفت أساليب المنافقين في إيذاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتفقت مسالكهم في تبرير مواقفهم المختلفة بالأيمان الكاذبة لتبرئة أنفسهم وإرضاء المؤمنين فيما يبلغهم عنهم من إيذائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ لِيُرْضَوْكُمْ...﴾ وهم بهذا المسلك يحاولون التلبس على المؤمنين ليشعروهم أنهم معهم على دينهم وأنهم براء من الإساءة للرسل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويؤكدون ذلك بالأيمان الكاذبة، ولكن كان عليهم - إن كانوا مؤمنين - أن تكون وجهتهم إرضاء الله ورسوله؛ (إرضاء الله بالإيمان به وبرسوله وتعظيم رسوله، وإرضاء الرسول بتصديقه ومحبته وإكرامه)<sup>4</sup> ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، لأنَّ المؤمن لا يقدم شيئا على رضا ربه ورضا رسوله<sup>5</sup> صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه بمعاودة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقدهم وطعنهم في رسالته يعصون الله

<sup>1</sup> نفسه - ج 10 ص 243.

<sup>2</sup> الكشاف - الزمخشري - ج 2 ص 284. وهو المعنى الراجح وفق قاعدة: القول الذي يؤيده السياق القرآني مرجح على ما خالفه. قواعد التفسير عند مفسري الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ص 128. قال الطبري: (وهو رحمة للذين آمنوا منكم. وجعله الله رحمة لمن اتبعه واهتدى بهداه، وصدق بما جاء به من عند ربه، لأنَّ الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتباعه جناته). جامع البيان - ج 14 ص 327.

<sup>3</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 3 ص 1723. بتصرف.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 245.

<sup>5</sup> تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ص 342.

ويخالفون أمره فقد صاروا (في حدّ غير حدّ أولياء الله بالمخالفة)<sup>1</sup> وهم بذلك يستحقون الخزي العظيم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبَّاءَ إِذَا يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (التوبة: 125) وأغاب عنهم أنّ لهم (الدّلّ والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهي ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخالد بهم)<sup>2</sup>.

### الفرع الثالث: يستهزئون والله مخرج ما يحذرون

سبب النزول<sup>3</sup> : عن مجاهد<sup>4</sup>: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ قال: يقولون القول بينهم ثم يقولون: (عسى الله أن لا يفشي سرنا علينا)<sup>5</sup>.

هذه حال أخرى من الأحوال العامة للمنافقين وهي أنهم يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين كما قال الله جلّ جلاله عنهم ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون<sup>6</sup>) ﴿البقرة، وقد كشفت غزوة تبوك ما استتر مما تكرر صدورهم؛ فقد كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويؤذون المسلمين ويقولون: (عسى الله أن لا يفشي سرنا علينا) ففضحتهم الفاضحة<sup>6</sup> وبعثت ما في صدورهم من عداوة وبغضاء للمسلمين، وجاءهم التهديد بإخراج ما كانوا يحذرون خروجه فقال تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا بِرَبِّ اللَّهِ

<sup>1</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 530. وهو من قول الزجاج: (معناه من يعادي الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله، واشتقاقه من اللغة كقولك من يجانب الله ورسوله، أي من يكون في حدّ، والله ورسوله في حدّ). معاني القرآن وإعرابه ج 2 ص 458.

<sup>2</sup> إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود - ج 4 ص 79.

<sup>3</sup> قال ابن الجوزي: قوله تعالى: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ) في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المنافقين كانوا يعيبون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم، ويقولون: عسى الله أن لا يفشي سرنا فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. والثاني: أن بعض المنافقين قال: لوددت أني جلدت مائة جلدة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فنزلت هذه الآية، قاله السدي. والثالث: أن جماعة من المنافقين وقفوا للنبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به، فأخبره جبريل عليه السلام، ونزلت هذه الآية، قاله ابن كيسان. زاد المسير في علم التفسير - ج 2 ص 274.

<sup>4</sup> أخرجه الطبري بسنده الصحيح - موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور - أ د/ حكمت بن بشير بن ياسين ج 2 ص 470.

<sup>5</sup> جامع البيان - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 331. وتفسير مجاهد - مجاهد بن جبر (المتوفى: 104هـ) - ص 371.

<sup>6</sup> أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قال: كانت تسمى هذه السورة: (الفاضحة) فاضحة المنافقين. المصدر: موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور - أ د/ حكمت بن بشير بن ياسين - ج 2 ص 470.

مُخْرِجٌ مَا تَحَدَّرُونَ ﴿١٦﴾ فهم شديداً والمبالغة في الحذر لئلا يظهر استهزاؤهم بالمسلمين (كأنهم دفنوه فأخرج من دفين نفوسهم)<sup>1</sup>.

### الضرع الرابع: أنموذج الاستهزاء بالمؤمنين

إذا كان للمنافقين الجرأة على الإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم فإن جرأتهم على الإساءة للمؤمنين أشدّ، فقد امتدّت السنة المنافقين للقراء استهزاء وطعنا في المؤمنين، المهاجرين منهم والأنصار، الذين اتبعوا نبيهم صلى الله عليه وسلم في ساعة العسرة، وهذا مسلك آخر للهدم من الداخل إذ تعرّضوا بالإساءة للقراء، فعن زيد بن أسلم: أنّ رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك<sup>2</sup> في غزوة تبوك: ما لقرائنا هؤلاء أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنةً، أجبنا عند اللقاء! فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب عوف إلى رسول الله ليخبره فوجد القرآن قد سبقه. قال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلّقا بحقّب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبّه الحجارة<sup>3</sup>، يقول: (إنما كنا نحوض ونلعب) فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون)؟ ما يزيده<sup>4</sup>.

فمع كبر جرمهم يحسبونه هينا، وهذا حال المنافقين يستهزئون بالله ورسوله وبالمؤمنين ثم يتعلّلون بأنهم يخوضون بما فيه الكذب والباطل كما يخوض الركب ليقتصر بعضه على بعض السفر، يستهزئون، ويلعبون استخفاً وحسبوا أنّ يخرج الله أضغانهم ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ محمد، (واللعب من الفعل أو القول الذي لا يكون لغاية، بل لمجرد العبث أو الاستهزاء والسخرية)<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 6 ص 3358.

<sup>2</sup> هو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغطفاني صحابي جليل، شهد موقعة مع خالد بن الوليد والأمرأة قبله، وشهد الفتح وكانت معه راية قومه يؤمّده، وشهد فتح الشام، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث، وروى عنه جماعة من التابعين وأبو هريرة، وقد مات قبله، وقال الواقدي... غير واحد: توفّي سنة ثلاث وسبعين بالشام - البداية والنهاية - ابن كثير - ج 8 ص 346.

<sup>3</sup> الحقب (بفتحتين): جبل يشدّ به الرجل في بطن البعير مما يلي ثيله، لئلا يؤذيه التصدير، أو يجتذبه التصدير فيقدمه. ونكبتة الحجرة، لثمت الحجرة رجله وظهره، أي نالته وآذته وأصابته. الهامش (2).

<sup>4</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 333. قال المحقق أحمد محمد شاكر: وهذا إسناد صحيح. الهامش (3).

<sup>5</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 6 ص 3360.

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ<sup>1</sup> وَنَلْعَبُ ﴿١﴾ ألم يبق للمنافقين إلا الاستهزاء بالله جلّ جلاله وبآياته الموصلة إلى رضوانه، وبرسوله المبعوث رحمة للعالمين، ولكنّ الله قطع عليهم سبيل المجادلة والاعتذار، ولقن نبيّه صلى الله عليه وسلّم الإجابة فقال: ﴿قُلْ أَيْدِي اللَّهِ<sup>2</sup> وَأَيْدِيهِ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...﴾ أي: (لا تشغلوا أنفسكم بتلمس المعاذير وانتحالها، رغبة في دفع اللوم والعتاب عنكم، لتحقق كذبها وظهور بطلانها، فإنكم قد كفرتم بالاجترار على الله والاستهزاء به وبآياته وبرسوله، بعد أن أعلنتم الإيمان وأظهرتم الإسلام)<sup>3</sup>، ومن رحمة الله جلّ جلاله أنه يعفو عن المستهزئين إن تابوا وأنابوا بعد خوضهم مع الخائضين، ويعاقب المصريين على الكفر والنفاق والماضون في السخرية والاستهزاء قال تعالى: ﴿... إِنْ نَعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١﴾﴾ التوبة.

<sup>1</sup> والخوض من الكلام: ما فيه الكذب والباطل. كتاب العين - الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) - ج 4 ص 283.

<sup>2</sup> قال محمد الطاهر بن عاشور: والاستهزاء إنكاري تويخي، وتقديم المعمول وهو (أبالله) على فعله العامل فيه لقصد قصر التعيين، لأنهم لما أتوا في اعتذارهم بصيغة قصر تعيين جيء في الرد عليهم بصيغة قصر تعيين لإبطال مغالطتهم في الجواب، فأعلمهم بأن لعبهم الذي اعترفوا به ما كان إلا استهزاء بالله وآياته ورسوله لا بغير أولئك، فقصر الاستهزاء على تعلقه بمن ذكر اقتضى أن الاستهزاء واقع لا محالة لأن القصر قيد في الخبر الفعلي، فيقتضي وقوع الفعل... التحرير والتنوير - ج 10 ص 251.

<sup>3</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 3 ص 1726.

## المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الثالثة

دلت هذه الآيات على الهدايات القرآنية الآتية :

1- دناءة أخلاق المنافقين وذلك:

أ- أنهم يسيئون لمن أحسن إليهم -صلى الله عليه وسلم - بالطعن في أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة التي أشنى الله بها عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ١٠١﴾ القلم، وحسبهم نفاقاً أنهم يستصغرون ما عظم رب العالمين.

ب- وأنهم يقابلون الحلم بالأذى مع عدم الاكتراث بذلك.

ت- وأنهم يقدحون في عقله صلى الله عليه وسلم بأنه سريع الاغترار بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ويميز بين ما هو جدير بالقبول وما هو جدير بالرد. في حدّ غير حدّ أولياء الله بالمخالفة.

ث- وأنّ الأيمان الكاذبة ديدنهم للتلبس على المؤمنين ومخادعتهم ليشعروهم أنهم معهم على دينهم وأنهم براء من الإساءة للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ لِيُرْضُوكُمْ... ١٠٢﴾ التوبة، (والتعبير بالمضارع لأنهم يخلفون في الحال لا في الماضي وفيه إشارة إلى أن الحلف شأنهم وهو متجدد، وكلما كذبوا حلفوا، وكلما تخلفوا بأعداء غير صادقة حلفوا، فالحلف ديدنهم)<sup>1</sup>.

ج- وأنّ الاستهزاء دفين نفوسهم فأخرجه الله وفضحهم وهو(تحذير لغيرهم من سائر مضمري السوء وكاتميه)<sup>2</sup>.

ح- وأنهم يرضون الناس بسخط الله<sup>3</sup>، من أرضى الناس بسخط الله أسخطهم عليه وسخط عليه، ومن أسخط الناس في رضي الله أرضاهم عليه ورضي عنه: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ التوبة.

خ- وأنهم كاذبون جنباء يخلفون للمؤمنين أنهم ما طعنوا في الرسول صلى الله عليه وسلم ليدفعوا غضب المؤمنين خشية الانتقام منهم ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ١٠٤﴾ التوبة.

<sup>1</sup> زهرة التفاسير- أبو زهرة - ج 6 ص 3354.

<sup>2</sup> أحكام القرآن- الجصاص الحنفي (المتوفى: 370هـ)- ج 4 ص 348.

<sup>3</sup> البحر المديد في تفسير القرآن المجيد- ابن عجيبة ج 2 ص 399.

- 2- تكذيب الله المنافقين القائلين ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فبطل مقصدهم، وفي وصفه صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله إعلاء لشأنه وتنويه بإعظام قدره، وتنبية على أن إيذائه موجب لسخط الله تعالى.
- 3- المنافقون يبتون روح الجرأة على المقدسات بين ضعاف الإيمان لإضعاف الصف الإسلامي، وإشاعة ما يفرق الأمة ويضعفها.
- 4- المنهج النبوي في التعامل مع الآخر قائم على: السماحة والحلم والإعراض عن الجاهلين، ومراعاة الظاهر في الأحكام فلا مؤاخذة بالظنة والتهمة بل بالبيينة، فلا فضح ولا كشف للأسرار.
- 5- المنافق دائما حذر من أن ينكشف أمره، ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي ويخبره بكشف أمر المنافقين، فكانوا يخشون إذا نزلت سورة أن يكون فيها كشف لأمر من أمورهم<sup>1</sup>.
- 6- فمع كبر جرمهم يحسبونه هينا، وهذا حال المنافقين يستهزئون بالله ورسوله وبالمؤمنين ثم يتعللون بأنهم يخوضون لتسليية بعضهم بعضا ويلعبون استخفافا ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>2</sup> التوبة، ليتعلم المؤمنون<sup>2</sup> ويحذون غضب الله ورسوله.
- 7- إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بالقول أو بالفعل<sup>3</sup> فيما يتعلق بنبوته ورسالته كفر لأنه يتنافى والإيمان، قَالَ تَعَالَى: ﴿... وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>3</sup> التوبة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾<sup>3</sup> الأحزاب، وحصرهم ما

<sup>1</sup> ينظر: زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 6 ص 3356. بتصرف.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 245.

<sup>3</sup> إيذائه صلى الله عليه وسلم في شتمونه البشرية والعادات النبوية حرام من أكبر الذنوب والمعاصي، كطول المكث في بيوته بعد الطعام ﴿... فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثِ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤَدَّى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ الْحَقِّ ...﴾<sup>3</sup> الأحزاب. والجهر له بالقول ونداؤه باسمه كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾<sup>3</sup> الحجرات. وإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته كإيذائه في حال حياته...

قالوا في الخوض واللعب في قولهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ التوبة<sup>1</sup>، (لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدًّا أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر، لا خلف فيه بين الأمة، فإنَّ التَّحقيق أخو الحقِّ والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل)<sup>2</sup>.

8- الاستهزاء بالله تعالى وآياته ورسوله كفر وردة عن الإسلام؛ واللاعب والخائض سواء في إظهار كلمة الكفر، على غير وجه الإكراه، لأن المنافقين ذكروا أنهم قالوا ما قالوه لعباً، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾﴾ التوبة، فأخبر الله تعالى عن كفرهم باللعب بذلك،<sup>3</sup> (إن من تاب من كفره ونفاقه عفي عنه، ومن أصرَّ عليه وأظهره عوقب به)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> قال المراغي: (ويدخل في عموم الآية المبتدعون في الدين، والذين يخوضون في الدّاعين إلى الكتاب والسنة ويستَهزئون بهم لاعتصامهم بهما). تفسير المراغي - ج 10 ص 153.

<sup>2</sup> أحكام القرآن - ابن العربي المالكي (ت 543هـ) ج 2 ص 543.

<sup>3</sup> انظر: أحكام القرآن - الكيا الهراسي الشافعي (ت 504هـ) - ج 4 ص 214. و تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي - ج 10 ص 152. و أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي (ت 1393هـ) ج 7 ص 404.

<sup>4</sup> تفسير المراغي - ج 10 ص 153.

## المبحث الرابع

رجال المنافقين ونسأؤهم سواء في مسلك الهدم الاجتماعي من الداخل

الوحدة الموضوعية الفرعية الرابعة:

من الآية السابعة والستين إلى الآية الرابعة والسبعين (74/67)

تمهيد:

ما زال القرآن الكريم يخرج مكنونات صدور المنافقين، ويخرج مكائدهم ومخططاتهم التي تواطأ عليها رجالهم ونسأؤهم في مسالك الهدم الاجتماعي من داخل المجتمع المسلم، فهم كالجسد الواحد في العمل على هدم المجتمع يشكلون عصبه متجانسة لتجانسهم في الصفات والأخلاق والأعمال.

**المطلب الأول: المنافقون والمنافقات شركاء في النفاق رجالهم ونسأؤهم سواء بعضهم من بعض في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.**

الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الرابعة

قَالَ تَعَالَى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَعَنْهُمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضُّمٌ كَالَّذِي حَاضُوا أُولِيكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرٰهِيمَ وَأَصْحٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنٰتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَسَكَنَ طَيْبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جٰهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوٰهُمُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَمٰنَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَن أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِن يَتُوبُوا يَعِدْبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ التوبة.

## الفرع الثاني : المناسبات

لما قال الله تعالى في الآيات السابقة ﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿١﴾ التوبة، كذبهم<sup>1</sup> وقال هنا: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ... ﴾ ﴿٢﴾ ولما تقدم قبل ﴿ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ ﴾ ﴿٣﴾ حسن هذا الإخبار<sup>2</sup>، فالمنافقون والمنافقات ليسوا من المؤمنين فهم شركاء في النفاق رجالهم ونساءهم سواء بعضهم من بعض ف(هم صنف واحد وأمرهم واحد في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر)<sup>3</sup>، ثم وصفهم الله تعالى بما هو مصادد لحال أهل الإيمان، وتوعدهم وضرب لهم المثل بحال من سبقهم من الأمم، (هذا بيان عام لحال جميع المنافقين ذكراهم وإناثهم، مقرون بالوعيد الشديد على ما أعد لهم من الجزاء مع إخوانهم الكفار على فسادهم وإفسادهم، يتلوه ضرب المثل لهم بحال أمثالهم في الأمم قبلهم، فاتصالها بما قبلها من بيان شؤون المنافقين المتعلقة بغزوة تبوك هو من قبيل التناسب بين القواعد العلمية في الأخلاق، والسنن العامة في روابط الاجتماع، وبين الوقائع الخاصة التي تعدد من الشواهد على هذه القواعد والسنن)<sup>4</sup>.

## الفرع الثالث: موضوعات الوحدة الفرعية الرابعة:

- تعاون المنافقين على الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف
- القابضون أيديهم نسوا الله فنسيهم
- سنة الله في المنافقين
- سنة الله في الظالمين تحذيرا للمنافقين وتنبیها للمؤمنين
- سنة الله إكرام المؤمنين و تلطفه تعالى بهم
- الغلظة في مجاهدة المنافقين

<sup>1</sup> انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب- ج 4 ص3060. و إعراب القرآن- أبو جعفر النحاس- ج 2 ص 127.

<sup>2</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ابن عطية - ج 3 ص 56.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن- الطبري - ج 14 ص 338.

<sup>4</sup> تفسير المنار- محمد رشيد رضا- ج 10 ص 460.

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الفرعية الرابعة

تشابهت قلوب المنافقين والمنافقات في إضمار الكفر، وتشابهت ظواهرهم في إبداء الإيمان والصلاح؛ رجالهم ونساؤهم في ذلك سواء؛ في أعمالهم المنكرة وأخلاقهم السيئة وقبائحهم الاجتماعية، بالاجتماع على النفاق ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾ (بعضهم يلبس بعضا ويوالي بعضا)<sup>1</sup> فهم كالجسد الواحد في العمل على هدم المجتمع من الداخل، وهم يشكلون عصابة متجانسة لتجانسهم في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم (هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين)<sup>2</sup> والعمل على إخراج الناس منه، و(لم يقتصر سوء خلق المنافقين على أنفسهم وتكوينهم القبيح، وإنما تعدى ضررهم وقبح أخلاقهم إلى المجتمع، بقصد هدم بنيته وتقويض وجوده من طريق ترويح الرذيلة والمنكر، ومحاربة الفضيلة والمعروف... ولا شك بأن الضرر العام أسوأ أثرا من الضرر الخاص، قال الله تعالى مبينا تحركات المنافقين في هدم القيم الإنسانية: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾...﴾<sup>3</sup>.

## الفرع الأول: تعاون المنافقين على الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف

يدّعي المنافقون الإيمان والصلاح وأقوالهم وأعمالهم تضادّ حال أهل الإيمان<sup>4</sup> إذ أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ فهم الآمرون بهدم قيم المجتمع (بالنفاق والتشبيط عن الجهاد في سبيل الله، والتكذيب برسول الله صلى الله عليه وسلم)<sup>5</sup> القاصدون الفتنة، (والآية متصلة بجميع ما ذكر من قبائحهم...والجملة استئناف مقرر لمضمون ما سبق مفصح عن مضادة حال المؤمنين)<sup>6</sup> فقد سبق ذكر منكراتهم التي كانوا متلبّسين بها: كالأيمان الكاذبة لتبرير تخلفهم عن الخروج إلى تبوك، وادّعاؤهم الإيمان وهم كاذبون، وتبرئة أنفسهم من إبداء النبي صلى الله عليه وسلم... وكذبهم في الاستئذان عن الخروج إلى تبوك، وجراؤهم على لمز النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات، واتهامه بأنه أذن سماع

<sup>1</sup> الحجة للقراء السبعة - أبو علي الفارسي (ت 377هـ) - ج 1 ص 172.

<sup>2</sup> الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج 8 ص 199.

<sup>3</sup> التفسير الوسيط - د/ وهبة الزحيلي - ج 1 ص 883.

<sup>4</sup> انظر: الكشاف - الزمخشري - ج 2 ص 287.

<sup>5</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 541.

<sup>6</sup> روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - الألوسي - ج 5 ص 322/ 323.

لا يفرق بين ما هو حق وما هو باطل، وكسلهم عن أداء الصلاة... فمن أحوالهم العامة (أنهم ينشرون الفساد في الفكر والعمل، فلهم رأى عام يخصهم يسوده الفساد في النفوس والأخلاق، يشجع الرذيلة ويتهكم على الفضيلة، وعبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَهْتَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ يشجعون كل ما هو شرّ، ويمنعون كل ما هو خير، معروفهم منكر ومنكرهم هو المعروف، وهكذا يقضى الله على بعض الجماعات الإنسانية بالشر، كما نرى الآن من منافقي عصرنا، فعدلهم ظلم وحرمتهم اعتداء وشوراهم استبداد)<sup>1</sup>، وإنّ أوّل ما دخل النقص على بني إسرائيل فاستحقوا اللعن ذلك أنّهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكرات كما قال الله تعالى في شأنهم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ المائدة، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فقال<sup>2</sup>: (إنّ أوّل ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحلّ لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ إلى قوله: ﴿فَلَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾<sup>3</sup> ثم قال: (كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يدي الظالم، ولتأطرنّه على الحقّ أطراً ولتقصرنّه على الحقّ قصراً). أقول: فإذا استحقّ بنو إسرائيل اللعن لأنهم لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكرات فقد: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ المائدة، فكيف بمن يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف من المنافقين فهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَهْتَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾؟

### الفرع الثاني: هم القابضون أيديهم نسوا الله فنسيهم

المنافقون يقبضون أيديهم عن كل خير فقد تألفت قلوب المنافقين على البخل وقد ذكر الله تعالى

<sup>1</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 7 ص 3363.

<sup>2</sup> سنن أبي داود - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي - عن عبد الله بن مسعود - ج 4 ص 121.

<sup>3</sup> والآيات كاملة هي قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا قَدَّمُوا هَذِهِ أَوْلِيَاءَ وَلَا يَكُنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ المائدة.

قبائحهم المالية: فقد استولى الشح على نفوسهم فتراهم ﴿ وَيَقْضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فلا ينفقون إلا بقصد استعمال المال للتهرب من التكاليف الشرعية لتخذيل غيرهم عن الجهاد والصدقات، وأنهم يظهرون حبّ الإنفاق في سبيل الله ويبطنون حبّ الإمساك والبخل عن الله ورسوله، فالأموال زينة حياتهم وقرّة أعينهم، وأنّ رضاهم وسخطهم متعلقه العطاء، وينفقون في الشرّ لتأييد الفاسدين، و(من علامات المنافقين أنهم كلما دعوا إلى البذل في سبيل الله والإنفاق في وجوه الخير شحوا وبخلوا، وكلما دعوا إلى مدّ يد المساعدة لمشروع من مشاريع النفع العام كان موقفهم منه سلبيا، ولم يمدّوا أيديهم إليه)<sup>1</sup>.

**وهم الناسون ربّهم جلّ جلاله:** فلما تركوا<sup>2</sup> أمر ربهم حتى صار بمنزلة المنسيّ بالسّهو عنه جازاهم بأن صيّرهم بمنزلة المنسيّ من ثوابه ورحمتهم لم يهدم ولا كفاهم عذاب النار<sup>3</sup> و(أنهم لرسوخهم في الكفر لم يعد يخطر ببالهم أنّ له تعالى عليهم حقّ الطاعة والشكر، فهم لا يذكرونه بشيء من أعمالهم، وإنما يتبعون فيها أهواءهم من الرياء ووسوسة الشيطان...)<sup>4</sup>.

فلما استحكمت فيهم هذه الطباع من الأمر بالمنكر لهدم قيم المجتمع والنهي عن كلّ ما هو خير(اختصّوا بكمال الفسق)<sup>5</sup> فكانه لا فاسق إلا المنافقون ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴾ فهم العصاة الله جلّ جلاله وهم الخارجون عن أمره تعالى وطاعته، وهم الخارجون عن هداية التوحيد وسلامة الفطرة إلى الشرك والمعصية، ولذلك بشرهم الله تعالى بما وعدهم به بما يكفيهم من العذاب المقيم في نار جهنّم وبالطرد من رحمته هم وقرناءهم من الكفار ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ، (وتقرير كونهم ليسوا بدعا في الأمم لا في كثرة المال

<sup>1</sup> التيسير في أحاديث التفسير - محمد المكي الناصري - ج 2 ص 406.

<sup>2</sup> قال الطبري: (أن يكون بمعنى(الترك) من قول الله جلّ ثناؤه: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ التوبة: 67 يعني به: تركوا الله فتركهم)-

جامع لبيان في تأويل القرآن - ج 14 ص 339 .

<sup>3</sup> انظر: التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 543. وجامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 339. والهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب - ج 4 ص 3061. والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 56. ومعالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي - ج 2 ص 367. معاني القرآن وإعرابه - أبو إسحاق الزجاج (ت 311هـ) - ج 2 ص 460. وتيسير الكريم الرحمن - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ص 343.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 460.

<sup>5</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 8 ص 520.

والولد، ولا في متاع الدنيا والتمكّن منها، ولا في ما كان منهم من كيد وخبث ومكر وكفر وخوض وتكذيب، ولقد حلّ بسابقيهم من أمثالهم الذين كانوا أشدّ منهم قوّة وأكثر أموالاً وأولاداً غضب الله وليسوا ليعجزوه، فقد حبّطت أعمالهم وخسروا في الدنيا والآخرة ولهم النار مع الكفار خالدين فيها، وعليهم اللعنة<sup>1</sup>.

### الفرع الثالث : سنّة الله في المنافقين

لله جلّ جلاله سنّة في أخذ المنافقين ما لم ينتهوا قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ<sup>2</sup> الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٣﴾﴾ الأحزاب، كما أخذ الذين كفروا من قبلهم و(هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين)<sup>3</sup>، فقد بيّن الله تعالى مآل المنافقين والكافرين الذي حادوا الله ورسوله، ولا تبديل لسنته فقد مضت في الأولين، ولا تبديل لها مع الحاضرين زمن النبوة ولا تبديل لها مع اللاحقين إلى قيام الساعة و(أنّ العذاب حائق بالمنافقين وأتباعهم إن لم ينتهوا عمّا هم فيه، وأنّ الله لا يخالف سنته لأنّها مقتضى حكمته وعلمه فلا تجري متعلقاتها إلا على سنن واحد)<sup>4</sup> لا محاباة فيها ولا ظلم ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فالمنافقون في إفسادهم وهدمهم من الداخل سائرون على هدي من كان قبلهم (بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهاثم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة)<sup>5</sup>، فاستمتعوا وخاضوا كما خاض من قبلهم وقد ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فكان عاقبتهم الخسران؛ فما استطاع الأولون دفع عذاب الله

<sup>1</sup> التفسير الحديث - دروزة محمد عزت - ج 9 ص 492.

<sup>2</sup> فائدة: جاء في التحرير والتنوير: (وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعه منها لأنّ إصلاح الفاسد يكسب الأمة فردا صالحا أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده).

محمد الطاهر بن عاشور - ج 22 ص 110 .

<sup>3</sup> مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي (ت 606هـ) - ج 25 ص 184.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 22 ص 112.

<sup>5</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الرخشي - ج 2 ص 288.

تعالى عن أنفسهم ليستطيع المنافقون زمن التوبة وبعدها دفع العذاب عن أنفسهم (وأولئك هم المغبونون صفقتهم، بيعهم نعيم الآخرة بخلافتهم من الدنيا اليسير الزهيد)<sup>1</sup> فانتفعوا بنصيبتهم من الدنيا كما فعل الذين من قبلهم<sup>2</sup>.

وبعد أن ذكر الله قبائح المنافقين وتوعدهم بالخلود في النار، ذكّرهم بما حلّ بأقوام خالفوا أمر ربهم وعصوا رسله وقد جاءتهم الرسل بالآيات لعلهم يذكرون أو يحدث لهم ذكرا، فقد مضت فيهم سنة الأولين، وقد (انتقل في هذه الآية إلى توبيخهم على عدم اعتبارهم بإهلاك من قبلهم حين كذبوا برسلمهم)<sup>3</sup> فقال جلّ جلاله: ﴿الْمَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ وما كان الله تعالى ليعذب قوما حتى يبعث فيهم رسولا منهم ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿٧٦﴾﴾ الإسرائ، هؤلاء ستة أقوام أهلكهم الله ذكروا في مقام توبيخ المنافقين لعدم اعتبارهم بمن سبقهم (والأمم المعاقبة أكثر من هذه الست، ولكنه تعالى اقتصر عليها لأن آثارهم وبلادهم بالشام والعراق واليمن وهي قريبة من أرض العرب فكانوا يمرّون عليها ويعرفون أهلها)<sup>4</sup>. و(علاقة العرب بإبراهيم وقومه وقوم نوح: شرك العرب متحد النوع بشرك قوم نوح، حتى إن أوثان أولئك وقعت إلى هؤلاء، وسبب ابتداء الشركين واحد عند الفريقين، وللعرب اتصال بالكلدانيين، فإنّ الجميع أبناء سام ولغاتهم متحدة الأصل ولهم علاقة خاصة بإبراهيم؛ فهو جد العدنانيين، ومن بني عمومة القحطانيين، ثم هو الذي رفع قواعد البيت معقد عزهم ومنتهى فخرهم وترك بينهم ابنه إسماعيل ظهيره في مأثرة بناء الكعبة، ينشر فيهم الحنيفية، وينثر عليهم مما في صحف إبراهيم الذي وفي، وكانوا يعرفون تلك الرابطة النسبية، ويعترفون له بتلك المأثرة التاريخية، ويزعمون أنهم حنفاء على ملته، فلم ينكر القرآن عليهم إلا زعمهم

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 344 .

<sup>2</sup> انظر: إعراب القرآن - أبو جعفر النحاس - ج 2 ص 127. و جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 344. و تفسير

المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 465.

<sup>3</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 3 ص 1730.

<sup>4</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 3 ص 1730.

هذا، إذ جاء فيه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران) <sup>1</sup>.

- فأما قوم نوح عليه السلام فقد أنعم الله عليهم بطول أعمارهم وبعثة نوح عليه السلام فيهم فما أقام دهرًا طويلاً ينصحهم ويذكرهم بآيات الله، ويدعوهم إلى الحق، فما استجاب له إلا قليل منهم ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هود)، فكان نوح أول رسول من الله لمقاومة الشرك وإقامة الحجّة على المشركين؛ بتذكيرهم بنعم الله ووجوب شكرها، ودلائلهم على سوء مغبة الشرك ولزوم التبرّي منه، ولكن القوم غلب عليهم هوى الشرك، ففقدوا رشدهم، ولم يفقهوا جدال نبيهم، وأنوا في الدفاع عن وثنيتهم بما هو خارج عن موضوع النزاع <sup>2</sup>. فأغرقهم الله بالطوفان و(غسل الأرض الطوفان من ضرر الشرك والعصيان، فلم يبق يومئذ على وجهها إلا ناصع الإيمان، ثم تعاقبت الأجيال، حتى حنت الطباع إلى معتاد الضلال، ففاء الشرك بعد الزوال، وأرسل الله المرسلين مبشرين ومنذرين) ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف) <sup>3</sup>.

- وأما عاد قوم هود فقد(ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً... ﴾ (١٥) فصلت، (فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها ترينا أن عاداً بلغت من القوة والعظمة مبلغاً لم تبلغه أمة من أمم الأرض في زمنها حتى أن الله جل شأنه لم يتحدّ قولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ إلا بقوته الإلهية التي يدعن إليها كل مخلوق، ولو كانت في أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها، وإنّ أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها هي أمة معتدّة بقوتها وعظمتها) <sup>4</sup>، ومع هذه القوة أهلكتهم بريح صرصر عاتية، فاعتبروا أيها المنافقون.

<sup>1</sup> رسالة الشرك ومظاهره - مبارك الميلي - ص 124.

<sup>2</sup> نفسه - ص 111.

<sup>3</sup> نفسه - ص 111.

<sup>4</sup> آثار ابن باديس - دكتور عمار طالبي - ج 4 ص 66.

- وأما ثمود فقد كذبوا واغترابوا بقوتهم وكفروا بأنعم الله عليهم قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَهْتُمْ ءَامِنِينَ ﴾<sup>1</sup> في جَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿١٧٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعُهَا هَضِيرٌ ﴿١٧٨﴾ وَتَنْحُوتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٧٩﴾ الشعراء، و(أما المغزى الذي سيقى هذه الآية لأجله فهو النفي عليهم، كيف يستعينون بنعم الله التي يسرها لهم على الكفر به، وإنذارهم أن الكفر بها وممؤتيها سيكون سببا في زوالها وفي ضمن هذا عرفنا حالتهم التي كانوا عليها في تعمير الأرض)<sup>1</sup>، فأهلكهم الله بالرجفة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ الحجر.

- وأما قوم إبراهيم فقد أنعم الله عليهم بنعم منها عظم الملك ف(أصر الكلدانيون<sup>2</sup> على وثنيهم مع قيام الحجة عليهم، ولجؤوا بعد هذا العناد إلى القوة شأن أهل البغي والاستبداد، ولم يقطع إبراهيم، أمام تصلبهم دعوته ولا خفف لتوعدهم إياه، لهجته بل استمر يقرع بآيات التوحيد آذانهم حتى غصوا به على انفراده واجتماعهم، وكون السلطان سلطانهم، وإذا لم ينتفعوا برجاحة حجته وصراحة كلمته - فما أضيع البرهان عند المقلد - وإذا هو لم يخضع لطغيانهم ولم يبال بتهديدهم، فإن سلطان الله فوق سلطانهم، ووعدده أصدق من وعيدهم؛ فقد جعله في سلام من الحريق الأليم، وبشره بغلام حلِيم، وتلك عاقبة المصلحين التي وعدهم بها رب العالمين إذ قال: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَتَهُمْ بِظُلْمٍ ءُولَئِكَ لَهُمُ ءَلْمَنٌ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ الأنعام)<sup>3</sup>. فسلبهم النعمة وأهلك ملكهم فرود.

- وأما قوم شعيب فقد أنعم الله عليهم بنعم منها: كثرة الأموال ورواج التجارة فظلموا بها و ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ ءَصَلَوْتِكَ نَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي ءَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ ءِ إِنَّكَ لَأَنْتَ ءَلْحَلِيمُ ﴾ ﴿٨٧﴾ هود، (وهذا نبي الله شعيب عليه السلام يحمل المثل لقومه ويستعرض مشاهد الدمار والبلاء التي نزلت بمن سبقوهم في تحدى الرسل وإعناتهم ﴿ وَيَقْوِرَ لَآ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا ءَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِّنْكُمْ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٨٨﴾ هود، فهذه المهلكات التي رمى بها أولئك الأغبياء المعاندون لم تكن إلا مثلا تخيف من حولهم ومن بعدهم، وتدعوهم إلى الانصياع

<sup>1</sup> نفسه - ج 4 ص 70.

<sup>2</sup> الكلدانيون هم الذين بعث الله إليهم خليله إبراهيم عليه السلام... رسالة الشرك ومظاهره - مبارك الميلي - ص 120.

<sup>3</sup> رسالة الشرك ومظاهره - مبارك الميلي - ص 121.

والتسليم للهداة الراشدين الذين يدعونهم إلى الصراط المستقيم...<sup>1</sup> فأخذتهم صيحة من السماء أخرجت أرواحهم فأصبحوا خامدين في ديارهم كأن لم يعيشوا فيها فأهلكهم الله، كما هلكت ثمود<sup>2</sup> ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثَمِينَ ﴿١٤﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿١٥﴾ هود.

- وأما المؤتفكات فقد استنكر عليهم نبيهم لوط عليه السلام الوقوع في الانحراف والشذوذ بإتيانهم الرجال شهوة من دون النساء ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ الأعراف، فلما دعاهم إلى ترك الشذوذ والرجوع إلى الفطرة قالوا: ﴿أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ النمل، فجاءتهم سنة الله بالعقاب ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُنْتَوِسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ الحجر.

فهل ينتظر المنافقون وهم يكذبون محمدًا صلى الله عليه وسلم وقد جاءهم بالبينات إلا أن يفعل بهم مثل ما فعل بهؤلاء الأقسام ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٥﴾﴾، فما أهلك الله هذه الأمم التي ذكر أنه أهلكها إلا بإجرامها وظلمها نفسها، واستحقاقها من الله عظيم العقاب، لا ظلمًا من الله لهم، ولا وضعًا منه جل ثناؤه عقوبةً في غير من هو لها أهل، لأن الله حكيم لا خلل في تدبيره، ولا خطأ في تقديره، ولكن القوم الذين أهلكهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله، حتى أسخطوا عليهم ربهم، فحقت عليهم كلمة العذاب فعذبوا<sup>3</sup>، فما ذكر هؤلاء الأقسام ﴿...قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ... ﴿٧٥﴾﴾ إلا ليعتبر المنافقون ويعلموا أنّ الله تعالى سنة لا تتخلف وأنها لا تحابي أحدا (وقد ضرب هذا المثل للكافرين برسالته صلى الله عليه وسلم والمنافقين، ليبين لهم أنّ سنة الله في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة، فلا بد أن يحلّ بهم من العذاب مثل ما حلّ بأمتثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> كتاب التوحيد المسمى ب:التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد- عمر العرابوي الحملاوي (المتوفى: 1405هـ)- ص 170.

<sup>2</sup> انظر الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) - ج 5 ص 3458.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن- الطبري - ج 14 ص 346. ومحاسن التأويل- محمد جمال الدين القاسمي - ج 5 ص 453.

<sup>4</sup> تفسير المراغي- أحمد بن مصطفى المراغي - ج 10 ص 158.

## الفرع الرابع: ستّة الله إكرام المؤمنين وتلطفه تعالى بهم

أخبر الله جلّ جلاله بأنّ المنافقين والمنافقات ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ فقد تشابحت قلوبهم في البعد عن الإيمان، وتشابحت أحوالهم بسوء أخلاقهم وقبح أعمالهم؛ ذلك أنّ ديدنهم الأمر بما يهدم قيم المجتمع والنهي عمّا يصلحه (فكأنّ بعضهم ناشيء من بعض في مذاقهم)<sup>1</sup>، ثم أخبر في هذه الآيات عمّن يقابلهم من المؤمنين الذين تربطهم آصرة أخوة الإسلام (وهم يد على من سواهم)<sup>2</sup>؛ فشأنهم الأمر بما يعلي قيم الاجتماع والعمل بمقتضى ذلك والنهي عمّا يفسدها والحيلولة دون ذلك، لأنّ الفضائل لا تحفظ إلا إذا أحيطت بسياج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمؤمنون مترابطون بأخوة الإسلام وولايته، فهم متناصرون متوادّون متراحمون و(ولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض في هذه الآية تعم ولاية النصره وولاية الأخوة والمودة)<sup>3</sup> ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾<sup>4</sup> وبذلك نالوا رحمة ربهم وكان عاقبة أمرهم خيرا ﴿... أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>5</sup>، فهو جلّ جلاله (عزيز لا يمتنع عليه شيء من وعده ولا وعيده حكيم لا يضع شيئا منهما في غير موضعه)<sup>4</sup>.

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلّم حال المجتمع المسلم المتراحم إذ يرحم بعضهم بعضا بأخوة الإيمان، والمتوادّ الذي يتواصل أفراداه بعضهم مع بعض لتعميق الألفة والمحبة بالتزاور والتهادي، والمتعاطف فيعين بعضهم بعضا ليقوى ضعيفهم<sup>5</sup>، فهم كالجسد الواحد ببيان النبي صلى الله عليه وسلّم لذلك: (مثل

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 263.

<sup>2</sup> انظر صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة - جماع أبواب صدقة المواشي من الإبل والبقر والغنم - باب النهي عن الجلب عند أخذ الصدقة من المواشي والمستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب قسم الفياء - والأصل من كتاب الله عز وجل. وسنن أبي داود - كتاب الديات - باب أيقاد المسلم بالكافر. وسنن ابن ماجه - كتاب الديات - باب المسلمون تتكافأ دماؤهم. ومسند أحمد بن حنبل - مسند العشرة المبشرين بالجنة - مسند الخلفاء الراشدين - مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه

<sup>3</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 466.

<sup>4</sup> تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي - ج 10 ص 161.

<sup>5</sup> فتح المنعم شرح صحيح مسلم - الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين - ج 10 ص 61.

المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى<sup>1</sup>.

ولما كانت بغية المؤمن رضا ربه لا ما يطلبه المنافق من التمتع بطيبات الدنيا، فقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>2</sup> التوبة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة،جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)، فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشّر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة)<sup>2</sup>، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ﴾<sup>3</sup> وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأنّ رضاه هو سبب كلّ فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأنّ العبد إذا علم أنّ مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه ولم يجد لها لذّة وإن عظمت<sup>3</sup>، ومصداق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربّنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يا ربّ، وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> صحيح مسلم- كتاب البر والصلة والآداب-باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم. ورواه البخاري في كتاب الأدب-باب رحمة

الناس والبهائم، عن النعمان بن بشير: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم...).

<sup>2</sup> صحيح البخاري- كتاب الجهاد والسير- باب درجات المجاهدين في سبيل الله.

<sup>3</sup> الكشاف- الزمخشري - ج 2 ص 290.

<sup>4</sup> صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب صفة الجنة والنار.

## الفرع الخامس: الغلظة في مجاهدة المنافقين

هذا بيان للهدى القرآني في معاملة المنافقين وذلك بجهادهم (باللسان وشدة الزجر والتغليظ)<sup>1</sup> عليهم، وقد قرن الله جلّ جلاله جهاد المنافقين بجهاد الكفار (وفائدة القرن بين الكفار والمنافقين في الجهاد إلقاء الرعب في قلوبهم، فإنّ كلّ واحد منهم يخشى أن يظهر أمره فيعامل معاملة الكفار المحاربين فيكون ذلك خاضدا شوكتهم)<sup>2</sup>، وانظر إلى هذا الخطاب الرباني وما فيه من الأمر بالغلظة والشدة عليهم: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴿٧٦﴾﴾ التوبة<sup>3</sup>، وهذه الآية مثيل لها في سورة الأحزاب قوله جلّ وعزّ: ﴿لَيْن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُخْذُوا وَقِيلُوا تُقْتَلُونَ ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٣﴾﴾ الأحزاب.

فالمنافقون أعداء ولكنهم أعداء غير محاربين لقول الله تعالى فيهم: ﴿... هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾<sup>4</sup> المنافقون، فهم يشتركون مع الكفار في كفرهم وعداوتهم لله ورسوله ولكنهم لا يظهرون ذلك كما يظهره الكفار، فكان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في معاملة المنافقين أخذهم بما أظهروا مع علمه بهم وإطلاع الله إياه على ما تكنه صدورهم ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَ كَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ محمد، ولذلك فمن أظهر منهم الكفر قوتل ومن أخفى نفاقه يعامل بما دلّ عليه ظاهر إسلامه تحقيقا لمصلحة الإسلام بانتظار أن يفنى إلى الحق ويوكل سرّه إلى ربه جلّ جلاله (إن الله تعالى ذكره إنما أمر بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر، ثم أقام على إظهاره ما أظهر من ذلك. وأما من إذا اطلع عليه منهم أنه تكلم بكلمة الكفر وأخذ بها، أنكرها ورجع عنها وقال: إني مسلم، فإن حكم الله

<sup>1</sup> الجامع لأحكام القرآن- القرطبي- ج 8 ص 204.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 10 ص 266.

<sup>3</sup> وقد وردت الآية نفسها في سورة التحريم في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴿١﴾﴾ التحريم.

<sup>4</sup> قال الطبري: (هم العدو يا محمد فاحذرهم، فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم)

جامع البيان في تأويل القرآن- ج 23 ص 396.

في كل من أظهر الإسلام بلسانه، أن يحقن بذلك له دمه وماله، وإن كان معتقداً غير ذلك، وتوكل هو جلّ ثناؤه بسرائرهم، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر<sup>1</sup>.

وفي مسلك الغلظة والشدّة في معاملة المنافقين تربية لهم عساهم يرجعون عما هم فيه من النفاق ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْطَىٰ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾<sup>(١٣)</sup> التوبة، وهذه الغلظة الإرادية (أي غير الطبيعية) تربية للمنافقين وعقوبة يرجى أن تكون سببا لهداية من لم يطبع الكفر على قلبه، وتحيط به خطايا نفاقه، فإن أكفهراره صلى الله عليه وسلم في وجوههم تحقير لهم يتبعه فيه المؤمنون، وبما سيأتي يفقدون جميع منافع إظهار الإسلام الأدبية ومظاهر أخوة الإيمان وعطفه، فمن رأى أنه محتقر بين قومه وأبناء جنسه، من الرئيس والإمام الأعظم وغيره يضيق صدره، ويرجع إلى نفسه بالمحاسبة، فيراها إذا أنصف وتدبر مليمة مذنبه فلا يزال ينحي عليها باللائمة، حتى تعرف ذنبها وتثوب إلى رشدها فتثوب إلى ربها، وهي سياسة حكمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين، وإسلام ألوف الألوفا من الكافرين<sup>2</sup>.

**والخلاصة:** أن المنافقين يشبه بعضهم بعضا في شكهم وارتياحهم وكوهم معاول هدم للمجتمع بأقوالهم وأعمالهم، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض في الولاية العامة من أخوة ومودة وتعاون وتراحم، حتى شبه النبي صلى الله عليه وسلم جماعتهم بالجسد الواحد، وبالبنيان يشدّ بعضه بعضا، فعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)<sup>3</sup>، (واعلم أنه تعالى لما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض، ذكر بعده ما يجري مجرى التفسير والشرح له فقال: يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله فذكر هذه الأمور الخمسة التي بها

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن- ابن جرير الطبري - ج 14 ص 360. وانظر المحرر الوجيز- ابن عطية الأندلسي ج 3 ص 59،

أحكام القرآن- أبو بكر بن العربي- ج 2 ص 544.

<sup>2</sup> تفسير المنار- محمد رشيد رضا- ج 10 ص 475.

<sup>3</sup> صحيح البخاري- كتاب الأدب - باب رحمة الناس والبهائم.

يتميز المؤمن من المنافق، فللمنافق على ما وصفه الله تعالى في الآية المتقدمة يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف<sup>1</sup>.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

<sup>1</sup> التفسير الكبير - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 100.

### المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الرابعة

تضمنت هذه الوحدة هدايات ربانية في بيان بعض سمات المنافقين الذين شأهم العمل على هدم المجتمع من الداخل وبيان كيفية معاملتهم على هذا المستوى، ويمكن إجمالها فيما يلي:

#### أولاً: من السمات الاجتماعية للمنافقين في هذه الوحدة:

- 1- أنّ رجالهم ونساءهم سواء؛ فقد تشابحت قلوبهم في إضمار الكفر وتشابحت ظواهرهم في إبداء الإيمان والصلاح، وأعمالهم المنكرة وأخلاقهم السيئة وقبائحهم الاجتماعية في العمل تدلّ على سوء صنيعهم في هدم المجتمع من الداخل ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ...﴾
- 2- السّمة الفارقة بين المؤمنين والمنافقين هي مفهوم المعروف ومفهوم المنكر عند الفريقين لذلك فلا ولاية بين المؤمنين والمنافقين والمقابلة بين الفريقين تدلّ على ذلك.
- 3- وأنه لا ولاية بين المنافقين؛ ذلك لأنّ قلوبهم مريضة ومذاهبهم في الحياة شتى يجمعهم النفاق وتفرقهم الأهواء، فلا وجود لما يؤلف بينهم فيجعلهم متحابين متآلفين.
- 4- من سيما المنافقين: دعوتهم إلى المنكر فيشجعون كل ما هو شرّ، وصدّهم عن المعروف فيمنعون كل ما هو خير، فلا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا إلا ما أشرب من أهوائهم.

#### ثانياً: من سمات المنافقين: القبائح المالية:

- 1- فتراهم ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ فيظهرون حبّ الإنفاق في سبيل الله ويبطنون حبّ الإمساك والبخل فلا ينفقون إلا بقصد التهرب من التكاليف الشرعية لتخذيل غيرهم عن الجهاد والصدقات.
- 2- ويقبضون أيديهم لأنّ المال زينة حياتهم وقرّة أعينهم، رضاهم وسخطهم متعلّقه العطاء، (واقترصر من منكراتهم الفعلية على الامتناع عن البذل، لأنه شرّها وأضرّها وأقواها دلالة على النفاق كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى دلائل الإيمان)<sup>1</sup>.
- 3- وهم لا يستجيبون لداعي البذل في سبيل الله والإنفاق في وجوه البر العام بل تجدهم يسارعون للإنفاق لإشاعة المنكر وتأييد الفساد.

<sup>1</sup> تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي - ج 10 ص 156.

## ثالثا: الترهيب من التلبس بهذه السمات:

- من استحکم فيه الأمر بالمنکر لهدم قيم المجتمع والنهي عن كل ما هو خير ونسي حق الطاعة والشكر لله تعالى، فلم يذكر ربه بشيء من أعماله:
- اختصَّ بكمال الفسق ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾.
  - وقرن مع الكفار: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنٰفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ...﴾ (٦٨) ﴿
  - وحقَّ عليه الوعيد بالخلود في جهنم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنٰفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ...﴾ (٦٨) ﴿ التوبة.
  - واستحق اللعنة والعذاب المقيم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنٰفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٦٨) ﴿ التوبة.

## رابعا: الهدي القرآني في معاملة المنافقين في هذه الوحدة

- 1- قرن المنافقون بالكفار في مجاهدتهم والغلظة عليهم ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاَعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣) ﴿ التوبة، ليكون ذلك إلقاء الرعب في قلوبهم، فيكفوا عن الكيد للمسلمين خشية افتضاح أمرهم.
- 2- الهدي النبوي من سيرته صلى الله عليه وسلم وسنته: مجاهدة الكفار المحاربين بالسيف، ومجاهدة المنافقين ومعاملتهم - مع علمه بهم - بظاهر إسلامهم وتوكل سرائرهم إلى الله، فلا يقاتلون إلا إذا أظهروا ردة أو بغيا على المسلمين أو امتناعا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه<sup>1</sup>، و(مع ما ذكر الله سبحانه به المنافقين، فلم يجعل لنبية قتلهم إذا أظهروا الإيمان، ولم يمنعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مناكحة المسلمين ولا موارثتهم)<sup>2</sup>.
- 3- ومن مقاصد هذا الهدي القرآني في معاملة المنافقين بالظاهر من أحوالهم: فتح باب التوبة لهم (وانتظار الفيئة إلى الحق بهم، وإبقاء على قومهم، لئلا تثور نفوسهم عند قتلهم، وحذرا من سوء

<sup>1</sup> أحكام القرآن - أبو بكر بن العربي - ج 2 ص 544 وتفسير المراغي ج 10 ص 163 وتفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10

ص 474 والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج - د/ وهبة الزحيلي - ج 10 ص 312.

<sup>2</sup> تفسير الإمام الشافعي - أبو عبد الله محمد بن إدريس - ج 2 ص 938.

الشنعة في أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه<sup>1</sup>. وفي هذا سدّ لذريعة الأخذ بما انطوت عليه النفوس.

4- من مآلات هذا الهدي القرآني أن (أدت سياسة الإسلام الحكيمة بأمر الله وحكمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعاملة المنافقين معاملة المسلمين في الظاهر، إلى توبة أكثرهم وإسلام الألوفا منهم)<sup>2</sup>.  
5- ومن الهدي القرآني الغلظة على المنافقين ذوي القلوب المريضة والمواقف المؤيدة لأعداء الأمة وفي ذلك (تلقي قوي مستمر المدى بوجود الوقوف من المنافقين وذوي القلوب المريضة في تصرفاتهم الدينية والاجتماعية والوطنية الشاذة المنحرفة عن الحق القويم موقف الشدة والتكليف في حدود مصلحة الإسلام والمسلمين)<sup>3</sup>.

#### خامسا: من سنن الله الجارية

1- سنّته تبارك وتعالى: في أخذ الظالمين وإهلاكهم، تحذيرا للمنافقين وتنبیها للمؤمنين ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ التوبة.

2- سنّته تبارك وتعالى: إكرام المؤمنين وتلطّفه تعالى بهم: ﴿...أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ... ﴿٧١﴾﴾ التوبة، ووعدهم رضوانه ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ التوبة، وفي هذا ترغيب للمنافقين في ترك النفاق.

3- سنّته تبارك وتعالى: أن الفضائل لا تحفظ إلا إذا أحيطت بسياج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو واجب جماعي واجتماعي إن تحقّق دلّ على حياة الأمة وحيويتها.

<sup>1</sup> أحكام القرآن- أبو بكر بن العربي - ج 2 ص 544

<sup>2</sup> التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج- د وهبة بن مصطفى الزحيلي - ج 10 ص 313.

<sup>3</sup> التفسير الحديث- دروزة محمد عزت- ج 9 ص 497.

## المبحث الخامس

## نقض المنافقين للعهود

الوحدة الموضوعية الفرعية الخامسة:

من الآيات الخامسة والسبعين إلى الآية الثمانين (80/75)

تمهيد:

وهذا مسلك آخر من مسالك المنافقين إذ بين الوفاء بالعهود ونقضها إيماناً ونفاقاً، وبين الإنفاق والإمساك إيماناً ونفاقاً.

## المطلب الأول: مآلات نقض العهود وتحذير المؤمنين من الوقوع في نقضها

## الفرع الأول: آيات الوحدة الفرعية الخامسة

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ التوبة.

## الفرع الثاني: سبب النزول

- لم يرد سبب نزول صحيح لآيات الوحدة إلا ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ فقد أخرج البخاري<sup>1</sup> ومسلم<sup>2</sup> والنسائي<sup>3</sup> وابن خزيمة<sup>4</sup> وابن حبان<sup>5</sup> عن أبي مسعود رضي الله عنه قال:

<sup>1</sup> صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة البقرة - باب قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ...﴾ (٧٩) وكتاب الزكاة - باب: اتقوا النار ولو بشق تمره والقليل من الصدقة.  
<sup>2</sup> صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب الحمل أجرة يتصدق بها. واللفظ له.  
<sup>3</sup> السنن الكبرى للنسائي - كتاب الزكاة - صدقة جهد المقل. والسنن الصغرى - كتاب الزكاة جهد المقل.  
<sup>4</sup> صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة - جماع أبواب صدقة التطوع - باب الزجر عن عيب المتصدق المقل بالقليل من الصدقة.  
<sup>5</sup> صحيح ابن حبان - كتاب الزكاة - باب صدقة التطوع - ذكر الإباحة للمتصدق أن يخرج اليسير من الصدقة على حسب جهده.

لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل<sup>1</sup>، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رثاءً فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾ الآية.

- وأما ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ التوبة.

وأُثِّمَتْ نَزَلَتْ فِي ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ<sup>2</sup> فَعَنَّ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَقَتَادَةُ: (أَتَى ثَعْلَبَةَ بْنُ حَاطِبٍ مَجْلِسًا

<sup>1</sup> قال القسطلاني: (كنا نتحامل) أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة. وقال البرماوي الكرمانى أي: تتكلف في الحمل من حطب... ومعناه نؤاجر أنفسنا في الحمل. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري- القسطلاني (ت 923هـ) - ج 7 ص 152.

<sup>2</sup> هو: ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف الأوسي الأنصاري صحابي جليل شهد بدرًا وأحدًا، واختلف في وفاته فقيل: إنه قتل يوم أحد، وقيل: يوم خيبر، وقيل: مات بعد ذلك، وهو بريء من هذه القصة المفتراة، وللعلماء في تبرئته منها طريقتان:

الأولى: بيان زيف هذه القصة، وهذا دليل على براءة هذا الصحابي البدرى منها، وسيأتي بيان ذلك.

الثانية: أن صاحب هذه القصة رجل آخر غير البدرى موافق له في الاسم، وهذا رأي الحافظ ابن حجر حيث ذكر في الإصابة /1 198، رجلين بهذا الاسم، أحدهما البدرى، والآخر صحاب القصة وهو ممن شارك في بناء مسجد الضرار، ثم قال: (وفي كون صاحب القصة إن صح الخبر ولا أظنه يصح هو البدرى قبله نظر، وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبي: (إن البدرى استشهد بأحد، ويقوي ذلك أيضًا أن ابن مردويه روى في تفسيره من طريق عطية عن ابن عباس في الآية المذكورة، قال: وذلك أن رجلاً يقال له ثعلبة بن أبي حاطب من الأنصار أتى مجلسًا فأشهدهم فقال: (لئن آتانا من فضله) الآية، فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبي حاطب، والبدرى اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية)، وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر: (اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم) فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه، وينزل فيه ما نزل؟ فالظاهر أنه غيره). ومحاولة الحافظ ابن حجر إثبات شخصية تلصق بها القصة إنما هو لتبرئة البدرى، وهو بريء منها دون هذه المحاولة التي لم تستند إلى برهان علمي لما يأتي:

أ- أن الحافظ ابن حجر قال في الكلام السابق: (إن صح الخبر وما أظنه يصح)، وجزم بعدم صحته في "تخريج أحاديث الكشاف" فقال: (هذا إسناد ضعيف جدًا) اهـ. والخبر الضعيف جدًا لا يثبت شيئًا.

ب- أن حديث ابن عباس الذي ذكره باطل كما سيأتي، فكيف يؤكد المغايرة بين الشخصين.

ج- أن ابن الكلبي- وهو هشام بن محمد المؤرخ النسابة- متروك. انظر: المغني في الضعفاء- 2 / 711، بل متهم بالوضع والاختلاق، كما في كتاب التنبيه على حدوث التصحيف- ص 118، 119، فخير مثله لا يؤكد شيئًا ولا يقويه.

وهذا يتأكد أنه لا يوجد إلا شخص واحد بهذا الاسم، وقد جزم بذلك الإمام الذهبي فلم يذكر في كتابه- تجريد أسماء الصحابة- 66 / 1 سوى البدرى، ونسبة القصة إليه محض اختلاق كما سيأتي بيان ذلك.

- مصدر هذا التحقيق هو: التفسير البسيط- الواحدى النيسابورى- ج 10 ص 558.

من الأنصار فأشهدهم وقال: (لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حقّ حقه، وتصدّقت منه، ووصلت منه القرابة، فابتلاه الله فلم يف بما قال) ولم يصحّ منه شيء<sup>1</sup>. والظاهر أنها عامة في المنافقين.

<sup>1</sup> الأثر عن ابن عباس رواه ابن جرير في تفسيره- 189 / 10، وابن أبي حاتم في تفسيره- 1847 / 6، بسند مسلسل بالضعفاء وبعضهم أشدّ ضعفاً من بعض، ومنهم:

أ- الحسين بن الحسن بن عطية العوفي، قال ابن معين والنسائي وأبو حاتم: ضعيف، وقال ابن حبان: يروي أشياء لا يتابع عليها.. لا يجوز الاحتجاج بخبره، وقال الجوزجاني: واهي الحديث، وقال ابن سعد: كان ضعيفاً في الحديث.

انظر: تاريخ بغداد- 29 / 8، وضعفاء العقيلي- 250 / 1، و المروحين لابن حبان- 246 / 1، و الكامل- 237 / 3 (492)، وطبقات ابن سعد - 331 / 7، ولسان الميزان- 278 / 2.

ب- الحسن بن عطية بن سعد العوفي، قال ابن حبان في كتاب المروحين- 234 / 1: (منكر الحديث، فلا أدري البلية في أحاديثه منه أو من أبيه أو منهما معاً؟ لأن أباه ليس بشيء في الحديث، وأكثر روايته عن أبيه، فمن هنا اشتبه أمره، ووجب تركه). وقال البخاري في التاريخ الكبير- 301 / 2: (ليس بذلك).

وقال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب- ص 162 (1256): ضعيف.

ج- عطية بن سعد العوفي قال ابن حبان في كتاب المروحين- 176 / 2: (لا يجل الاحتجاج به، ولا كتابة حديثه إلا على جهة التعجب) اهـ.

ومن عجائبه أنه كنى الكلبي المتهم بالكذب أبا سعيد، ثم حدث عنه بهذه الكنية فيتوهم من يسمعه أنه يحدث عن أبي سعيد الحذري، ذكر ذلك عنه الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب- 114 / 3، ثم ذكر من ضعفه ومنهم علي بن المديني وأحمد وأبو داود والساجي وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي وابن عدي، وشذ ابن سعد فقال: (ثقة إن شاء الله، وله أحاديث صالحة ومن الناس من لا يحتج به). وبهذا يتبين أن خبر ابن عباس هذا ضعيف جداً.

- وأما أثر سعيد بن جبير فقد ذكره الثعلبي في تفسيره- 130 / 6 ب بغير سند، إذ أن الثعلبي ذكر أسانيد في المقدمة ولم يذكر سنده إلى سعيد بن جبير.

- وأما أثر قتادة فقد رواه ابن جرير 190 / 10 بلفظ: (ذكر لنا أن رجلاً من الأنصار أتى على مجلس من الأنصار فقال: لئن آتاه الله مالا ليؤدين إلى كل ذي حق حقه، فأتاه الله مالا فصنع فيه ما تسمعون). وفي هذا الأثر مجهول، إذ لم يسم قتادة من حدثه به، ثم إنه ليس في هذا الأثر ذكر لثعلبة ولا لغيره.

- مصدر هذا التحقيق هو: التفسير البسيط- الواحدي النيسابوري- ج 10 ص 560 / 559.

- والعواصم والقواصم في الذبّ عن سنة أبي القاسم- ابن الوزير اليماني (ت 840هـ) - ج 9 ص 163.

- جاء في تفسير المنار: (وفي الحديث إشكالات تتعلق بسبب نزول الآيات، وظاهر سياق القرآن أنه كان في سفر غزوة تبوك، وظهره أنها نزلت عقب فرضية الزكاة، والمشهور أنها فرضت في السنة الثانية، وفيه خلاف تقدم في تفسير قسمة الصدقات - وبعدهم قبول توبة ثعلبة وظاهر الحديث ولاسيما بكائه أنها توبة صادقة، وكان العمل جارياً على معاملة المنافقين بطواهرهم، وظاهر الآيات أنه يموت على نفاقه، ولا يتوب عن بخله وإعراضه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وخليفته عاملاه بذلك لا بظاهر الشريعة، وهذا لا نظير له في الإسلام). ج 10 ص 484.

## الفرع الثالث: المناسبة:

لما قال الله تعالى في الآيات السابقة: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ...﴾ فهم ليسوا من المؤمنين فهم شركاء في النفاق رجالهم ونسأؤهم سواء بعضهم من بعض ثم وصفهم الله تعالى بما هو مضافاً لحال أهل الإيمان، فهم بهذه الصفة يعيرون المؤمنين الباذلين للخير (ولما أخبر تعالى أنه لم يكفهم كفران نعمة الغنى من غير معاهدة حتى ارتكبوا الكفران بمنع الواجب مع المعاهدة، أخبر أنه لم يكفهم أيضاً ذلك حتى تعدوه إلى عيب الكرماء الباذلين بصفة حبهم لرحمهم ما لم يوجبهم عليهم، فقال تعالى معبراً بصيغة تصليح لجميع ما مضى من أقسامهم إلهاماً لأنهم كلهم كانوا متخلفين بذلك وإن لم يقله إلا بعضهم: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾<sup>1</sup>.

## الفرع الرابع: موضوعات الوحدة الفرعية الخامسة:

- القرآن مكيه ومدنيه يأمر بالوفاء بالعهد
- المنافقون ينقضون العهود والمواثيق
- المنافقون يعيرون المطّوعين بالنفقة
- تغييس المنافقين وتنبية المؤمنين

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - إبراهيم بن عمر البقاعي - ج 8 ص 555.

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الفرعية الخامسة

من القيم التي أرسى القرآن الكريم دعائمها: الوفاء بالعهود والمواثيق، إذ الوفاء بالعهد من أصول الهداية الإسلامية (فالعباد فطروا على استحسان الوفاء، ومطالبة بعضهم بعضاً به، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهم)<sup>1</sup>.

### الفرع الأول: القرآن المكي والمدني يأمر بالوفاء بالعهد:

أ- القرآن المكي: ففي القرآن المكي أمر الله تعالى بالوفاء بالعهود:

- كما في سورة الإسراء إذ يقول الله تعالى: ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ٣٤﴾ ﴿٣٤﴾ فقد أظهر لفظ (العهد) في مقام إضماره لعلو شأنه، (وأظهر العهد إذ قال: (إنَّ الْعَهْدَ) ولم يقل إنه - لكمال العناية بشأنه والحث على الوفاء به)<sup>2</sup>.

- وفي سورة النحل أمر بالوفاء بالعهود ونهى عن نقضها بقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اللَّهَ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا...﴾ ﴿٩١﴾، لأن المعاهد الحالف بالله تعالى (كأنه أكفل الله تعالى بالوفاء بما حلف عليه)<sup>3</sup>، وختمت الآية بـ ﴿... إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٩١﴾ ﴿٩١﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأحوال الخفية للمعاهدين .

- وقد عدّ الوفاء بالعهد من أسباب فلاح المؤمنين كما في سورة المؤمنون فمطلعها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ ﴿١﴾ ومن صفات الفلاح ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨﴾ ﴿٨﴾ المؤمنون، كما عدّ الوفاء بالعهد من صفات المصلين المنجية مما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٦﴾ ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ١١﴾ ﴿١١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ٢٢﴾ ﴿٢٢﴾: فقد وصفهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٢٢﴾ ﴿٢٢﴾ المعارج.

ف(الوفاء بالعهد شرط ضروري لحصول السعادتين: عهد الله تعالى لعباده هو ما شرعه لهم من دينه، فوفؤاؤهم بعهده قيام بأعباء ذلك الدين الكريم، وانتظام شؤونهم في هذه الحياة - أفراداً وجماعات وأماً -

<sup>1</sup> مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير - عبد الحميد بن باديس - ص 97.

<sup>2</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 5 ص 755.

<sup>3</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 13 ص 178.

متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود؛ فالوفاء ضروري لنجاة العباد مع خالقهم؛ ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن، وضروري - إذن - لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة<sup>1</sup>.

- وقد حذر القرآن المكي من نقض العهود بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٥٥﴾ الرعد.

### ب- القرآن المدني:

وأما القرآن المدني فقد أثبت الأمر بالوفاء بالعهود كما في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ... ١٦﴾ المائدة، وقد عدّ الوفاء بها من صفات الأبرار الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿... وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا... ٧٧﴾ البقرة، ورتب الخسارة لكل ناقض للعهد بعد توثيقه فقال جلّ جلاله ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٢٧﴾ البقرة.

### الفرع الثاني: المنافقون ينقضون العهود والمواثيق

من قبائح الصفات التي وصف الله تعالى المنافقين بها نقضهم للعهود والمواثيق وكذبهم في إبرامها، ولذلك قال في سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ٧٥﴾، وفي (هذا بيان لحال طائفة أخرى من أولئك المنافقين الذين أغناهم الله ورسوله من فضله بعد الفقر والإملاق. ويوجد مثلهم في كل زمان، وهم الذين يلجئون إلى الله تعالى في وقت العسرة والفقر، أو الشدة والضرر، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له، والطاعة لشرعه، إذا هو كشف ضرهم، وأغنى فقرهم، فإذا استجاب لهم نكسوا على رؤوسهم، ونكسوا على أعقابهم، وكفروا النعمة، وبتروا الحق، وهضموا حقوق الخلق، وهذا مثل من شر أمثالهم)<sup>2</sup>.

فلما ذكر الله عزّ وجلّ قبائح المنافقين الاجتماعية أعقبها بذكر قبائح أخرى متصلة بالاجتماع البشري، ومنها: قبح نقض العهود وأشدّها قبحا نقض العهد مع الله، ويعدّ نقض العهود عامة من خصال النفاق، وقد أمر الله تعالى بالوفاء بعهده في القرآن المكي فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا

<sup>1</sup> مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير - عبد الحميد بن باديس - ص 97.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 481.

عَاهَدْتُمْ وَلَا تَقْضُوا الْآيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ النحل، وقد أثنى الله تعالى على أولي الألباب المحافظين على عهودهم ومواثيقهم المبرمة ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ﴿٩٢﴾ الرعد.

كما دلّت السنة النبوية على أنّ نقض العهود من صفات المنافقين الخالصة وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أوتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)<sup>1</sup>، وفي الحديث الآخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أوتمن خان)<sup>2</sup>، ففي الحديثين ذكرّ لخصال النفاق لئلا يتلبس بها المؤمن (وفي الأحاديث مقاييس بليغة للمنافقين، ومن الحكمة المنطوية فيها كما هو المتبادر تقبيح هذه الصفات والتحذير منها وتقدير كونها لا يمكن أن تكون في مؤمن مخلص)<sup>3</sup>، هذا قبح.

<sup>1</sup> صحيح البخاري- كتاب الإيمان- باب علامة المنافق، وصحيح مسلم- كتاب الإيمان- باب بيان خصال المنافق، وقد جاء في الهامش الثالث في: التفسير البسيط- للواحي النيسابوري - ج10 ص 566 و 567. للعلماء في توجيه الحديث عدة أجوبة منها:

- أولاً: قال النووي في شرح صحيح مسلم، 2/ 47: (هذا الحديث ليس فيه بحمد الله إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثر هو الصحيح المختار: إن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعد واثمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر).

- ثانياً: ذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحديث من أحاديث الوعيد التي قصد بها الترهيب، وظاهرها غير مراد، وهذا ما ارتضاه الخطابي كما في فتح الباري، 1/ 90.

- ثالثاً: أن النفاق قسمان، نفاق العمل، وهو المذكور في الحديث، وهو غير مخرج من الإسلام، ونفاق الاعتقاد وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر وهو مخرج من الإسلام، وهذا الوجه عليه كثير من المحققين، قال الترمذي في "سننه" 5/ 20 بعد إيراد الحديث: (وإنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل، وإنما كان نفاق التكذيب على عهد رسول الله ﷺ هكذا روي عن الحسن البصري شيئاً من هذا أنه قال: النفاق نفاقان: نفاق العمل ونفاق التكذيب) اهـ. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام - 11/ 140، 28/ 435، وفتح الباري- 1/ 90.

<sup>2</sup> صحيح البخاري- كتاب الإيمان- باب علامة المنافق. وصحيح مسلم- كتاب الإيمان- باب بيان خصال المنافق.

<sup>3</sup> التفسير الحديث - دروزة محمد عزت - ج9 ص 503.

وأما القبح الآخر: فقبح قبض اليد والإمساك عن الإنفاق فإذا ما كان البخل بعد العهد مع الله على البذل والعطاء كان ذلك أشد قبحاً: ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾<sup>٧٦</sup> التوبة، فقد (ارتكبوا الكفران بمنع الواجب مع المعاهدة)<sup>1</sup>، وقد وصفوا قبل هذا الموضوع في نفس السورة بقوله تعالى: ﴿... وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ...﴾<sup>٧٧</sup> التوبة، (وحسن تعقيبها بها أيضاً أنّ في الأولى كفران نعمة الغني من غير عهد، وفي هذه كفرانها مع العهد فهو ترقّ من الأدنى إلى الأعلى، ودلّ عظيم شأن العهد بتعظيم الجزاء على خيانتها)<sup>2</sup>.

ولعظم شأن الوفاء بالعهود عند الله وخطر نقضها والغدر فيها جعلها الله تعالى سبباً في رسوخ النفاق في قلوب المنافقين الذين يعاهدون الله ثم ينقضون عهودهم ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾<sup>٧٦</sup> فكان عاقبة أمرهم نفاقاً راسخاً في قلوبهم إلى يوم يلقون ربهم (ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لكن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكوننّ من الصالحين. فما وثقّ بما قال، ولا صدق فيما ادّعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله، عز وجل، يوم القيامة، عيادا بالله من ذلك)<sup>3</sup>، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَحَلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾<sup>٧٧</sup> وفي ذلك عقوبة لهم بسبب بخلهم ونقضهم لعهدهم مع الله تعالى (وفعل ذلك بهم عقوبة لبخلهم، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه)<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- إبراهيم بن عمر البقاعي - ج 8 ص 555.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- إبراهيم بن عمر البقاعي - ج 8 ص 552.

<sup>3</sup> تفسير القرآن العظيم- ابن كثير- ج 4 ص 183.

<sup>4</sup> قال ابن الجوزي: وفي الضمير في (أعقبهم) قولان:

- أحدهما: أنها ترجع إلى الله، فالمعنى: جازاهم الله بالنفاق، وهذا قول ابن عباس ومجاهد.

- والثاني: أنها ترجع إلى البخل، فالمعنى: أعقبهم بخلهم بما نذروا نفاقاً، قاله الحسن- زاد المسير في علم التفسير- ج 2 ص 283.

وانظر: فتح القدير- الشوكاني- ج 2 ص 438 وأنوار التنزيل وأسرار التأويل- البيضاوي - ج 3 ص 90. وتفسير المنار- رشيد رضا

- جاء في تفسير المنار: (وإسناد إعقابهم النفاق إلى الله تعالى أو إلى البخل والتولي عن الطاعة قولان للمفسرين مألهاً واحداً، إلا أن

الثاني أدب، وذلك أن سنته تعالى في البشر أن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق ويقويه في القلب، كما أن العمل بمقتضى الإيمان

يزيده قوة ورسوخاً في النفس، وهكذا جميع صفات النفس وأخلاقها وعقائدها، تقوي وترسخ العمل الذي يصدر عنها، فإسنادها إلى

العمل يكون صحيحاً بهذا الاعتبار لا بالمعنى الذي تقوله المعتزلة القدريّة، كما أن إسنادها إلى الله تعالى يكون صحيحاً؛ لأنها مقتضى

سنته وتقديره، لا بالمعنى الذي تقوله الجبرية والصفوية، فالمراد من التقديرين (واحد)- رشيد رضا- ج 10 ص 482

ولما كان مسلك المنافقين هو إخفاؤهم ما يظنون من الكذب وإخلافهم الوعد حذرهم الله تعالى وذكرهم بأنه جلّ جلاله محيط علمه بما يسرون وما يعلنون وبما يتناجون به فيما بينهم (فإن من يعلم هذا علماً صحيحاً فلا بدّ أن يستحي من الله، ويخاف عقابه إن كان يؤمن بالبعث والجزاء، ولكنهم لا يعلمون ذلك ولا يؤمنون بهذا)<sup>2</sup>: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبَ﴾<sup>٧٨</sup>، فناسبت الآية (ولما كانت المعاهدة سبباً للإغناء في الظاهر، وكان ذلك ربما كان مظنة لأن يتوهم من لا علم له أن ذلك لخفاء أمر البواطن عليه سبحانه، وكان الحكم هنا وارداً على القلب بالإنفاق الذي هو أقبح الأخلاق مع عدم القدرة لصاحبه على التخلص منه، كان ذلك أدلّ دليل على أنه تعالى أعلم بما في كل قلب من صاحب ذلك القلب، فعقب ذلك بالإنكار على من لا يعلم ذلك والتويخ له والتقريع فقال: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ وهو ما أخفته صدورهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: ما فاوض فيه بعضهم بعضاً، لا يخفى عليه شيء منه ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿عَلَّمَهُ الْغَيْبَ﴾ أي: كلها، أي ألم يعلموا أنه تعالى لا يخادع لعلمه بالعواقب فيخشوا عاقبته فيوفوا بعهده، وفائدة الإعطاء مع علمه بالخيانة إقامة الحجة)<sup>3</sup>.

### الفرع الثالث: المنافقون يعيبون المطوعين بالنفقة

لقد تجرأ المنافقون على لمز النبي صلى الله عليه وسلم وإيذائه في شأن قسمة الصدقات كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾<sup>٥٨</sup> التوبة، فكيف لا يكونون أشدّ جرأة على لمز وإيذاء من هم دونه من المؤمنين حال تطوّعهم بالإنفاق الذي هو أظهر الآيات على صدق الإيمان (والصدقة برهان)<sup>4</sup>، (ولما أخبر تعالى أنه لم

<sup>1</sup> الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب - ج 4 ص 3076.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 485.

<sup>3</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 8 ص 554.

<sup>4</sup> صحيح مسلم - كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء - وتمام الحديث النبوي: عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها).

يكفهم كفران نعمة الغنى من غير معاهدة حتى ارتكبوا الكفران بمنع الواجب مع المعاهدة، أخبر أنه لم يكفهم أيضاً ذلك حتى تعدوه إلى عيب الكرماء الباذلين بصفة حبهم لربهم ما لم يوجبه عليهم<sup>1</sup>.

فمن صفات المنافقين المتأصلة فيهم والمتصلة بالصدقات أنهم عيابون لمازون ولذلك قال الله تعالى فيهم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾ التوبة، فهم: زيادة على قبض أيديهم وإمساكهم عن الإنفاق، بعد معاهدتهم الله على الصدقات، يتخافتون فيما بينهم بلمز المطَّوعين من المؤمنين في الصدقات، مكثرتهم ومقلَّتهم عندهم سواء؛ فيلمزون المكثر في الصدقة بأنه مرءٍ فيما أنفق (فكان الرجل يجيء بالصدقة العظيمة فيقال: مرئي)<sup>2</sup>، ويلمزون المقل الذي لا يجد إلا جهده باستغناء الله عن صدقته (ويجيء الرجل بنصف صاع فيقال: إنَّ الله لغني عن هذا)<sup>3</sup>، وهم بهذا يريدون الاستهزاء بالمنفقين والسخرية منهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فجازاهم الله جلَّ جلاله جزاء سخريتهم من جنس عملهم فحل بهم من المقت والذل في نفوسهم إذ ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (فجاءهم بمثل ذنبهم فجعلهم سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين، بفضيحتهم لهم في هذه السورة ببيان هذا الخزي وغيره من محازيهم وعيوبهم، ولهم فوقه عذاب أليم)<sup>4</sup>.

#### الضرع الرابع: تبييس المنافقين وتنبية المؤمنين

ما اشدَّ عقوبة التبييس من مغفرة الله تعالى وما أقساها على المنافقين ذلك أنه مهما استكثر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم من الاستغفار لهم أو ترك الاستغفار<sup>5</sup> لهم ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فلن يغفر الله لهم وذلك (لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها)<sup>1</sup>، ولكي يقطع الله جلَّ وعزَّ أطماع المنافقين

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 8 ص 555.

<sup>2</sup> صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة - جماع أبواب صدقة التطوع - باب الزجر عن عيب المتصدق المقل بالقليل من الصدقة.

وتمام الحديث: عن أبي مسعود قال: (كنا نتحامل فكان الرجل يجيء بالصدقة العظيمة فيقال مرئي، ويجيء الرجل بنصف صاع فيقال: إنَّ الله لغني عن هذا، فنزلت: (الذين يلمزون المطَّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم) .

وصحيح ابن حبان - كتاب الزكاة باب صدقة التطوع - ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم ترك استقلال الصدقة

<sup>3</sup> صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة - جماع أبواب صدقة التطوع - باب الزجر عن عيب المتصدق المقل بالقليل من الصدقة.

وصحيح ابن حبان - كتاب الزكاة باب صدقة التطوع - ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم ترك استقلال الصدقة

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 487.

<sup>5</sup> رجح ابن عطية معنى التخيير قال: (والمعنى الثاني الذي يحتمله اللفظ أن يكون تخييراً، كأنه قال له: إن شئت فاستغفر وإن شئت لا تستغفر ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر (سبعين مرَّةً)، وهذا هو الصحيح لقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وتبيينه ذلك.

عن المغفرة قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...﴾ (٨٠) التوبة، وقوله: (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ، يقول: إن تسأل لهم أن تُستر عليهم ذنوبهم بالعمو منه لهم عنها، وترك فضيحتهم بها، فلن يستر الله عليهم، ولن يعفو لهم عنها، ولكنه يفضحهم بها على رءوس الأشهاد يوم القيامة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهذا التئیس من ترك عفوهِ جل حاله لهم عن ذنوبهم) من أجل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠) يقول: والله لا يوفق للإيمان به ورسوله، من أثر الكفر به والخروج عن طاعته، على الإيمان به ورسوله<sup>2</sup>، ولذلك فقد (جرت سنته تعالى في الراسخين في فسوقهم وتمردهم، المصّرین على نفاقهم، الذين أحاطت بهم خطاياهم، أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان فلا يهتدون إليهما سيلا...) <sup>3</sup> ، وهم بهذا يستحقون ألا تغفر خطاياهم.

ومع هذا، ولرحمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفقته عليهم، اختار الاستغفار لهم (وفي إظهار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرأفة والرحمة: لطف لأمته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض)<sup>4</sup>؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: لما توفي عبد الله بن أبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاه قميصه وأمره أن يكفنه فيه ثم قام يصلي عليه، فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه فقال:

الحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ابن عطية - ج 3 ص 64. وهو الذي ذهب إليه ابن العربي قال: المسألة الثانية: اختلف الناس في قوله: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) التوبة 80، هل هو إياس أو تخيير؟ فقال قوم: هو إياس بدليل ثلاثة أشياء: أحدها: أنه قال: (فلن يغفر الله لهم) التوبة 80. الثاني: أنه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم مبالغة، كقول القائل: لو سألتني مائة مرة ما أجبتك. الثالث: أنه علل ذلك بقوله: (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) التوبة 80 وهذه العلة موجودة بعد الزيادة على السبعين، وحيث توجد العلة يوجد الحكم.

وقال قوم: هو تخيير من الله لنبيه، والدليل عليه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر: (إني خيرت فاخترت؛ قد قيل لي: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، لو أعلم أي لو زدت على السبعين غفر له لزدت).

وهذا أقوى؛ لأن هذا نص صريح صحيح من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التخيير، وتلك استنباطات، والنص الصريح أقوى من الاستنباط.

<sup>1</sup> أنوار التنزيل وأسرار التأويل- البيضاوي (المتوفى: 685هـ)- ج 3 ص 91.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن- ابن جرير الطبري - ج 14 ص 395/394.

<sup>3</sup> تفسير المنار- محمد رشيد رضا- ج 10 ص 489.

<sup>4</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- الزمخشري- ج 2 ص 296.

تصلي عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟ قال: (إنما خيرني الله - أو أخبرني الله - فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فقال سأزيده على سبعين، قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلينا معه، ثم أنزل الله عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ التوبة<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة البقرة - باب قوله: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا). و صحيح مسلم - كتاب

فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه.

## المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الخامسة

## دلت الآيات على الهدايات الآتية :

- 1- عهود المنافقين ووعودهم بألسنتهم لإظهار الصلاح والرغبة في الإنفاق مخالفة لما انطوت عليه نفوسهم المريضة من نقض العهود وقبض اليد عن الإنفاق: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ التوبة، وفي هذا هداية وتنبيه للمؤمنين لئلا يتصفوا بنقض العهود وقبض اليد عن الإنفاق.
- 2- ومن الحكمة المنطوية فيها- الآية- كما هو المتبادر: تقبيح هذه الصفات والتحذير منها وتقرير كونها لا يمكن أن تكون في مؤمن مخلص<sup>1</sup>.
- 3- وفائدة الإعطاء مع علمه بالخيانة إقامة للحجة<sup>2</sup>.
- 4- العمل بمقتضيات النفاق يمكنه في القلب ويقويه، ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ... ﴾ (٧٧)؛ فما كان في القلب كان كفرا، وما كان في الأعمال فهو معصية<sup>3</sup>، و(النفاق نفاقان: نفاق الكذب ونفاق العمل؛ فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة)<sup>4</sup>.
- 5- تدل كلمة ﴿... وَيَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٧٧) على أنّ الكذب كائن فيهم ومتمكّن منهم، ويدل الفعل المضارع (يكذبون) على تكرر الكذب وتجده فيهم (وفي هذا دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة فإنها تفسد الأخلاق الصالحة ويزداد الفساد تمكنا من النفس بطبيعة التولد الذي هو ناموس الوجود)<sup>5</sup>.
- 6- من الهدى القرآني في التعامل مع المنافقين: أن يعاملوا بالظاهر من أحوالهم (لأنّ الأمور

<sup>1</sup> التفسير الحديث - دروة محمد عزت- ج 9 ص 503.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- البقاعي- ج 8 ص 554.

<sup>3</sup> أحكام القرآن- أبو بكر بن العربي- ج 2 ص 505، بتصرف.

<sup>4</sup> نفسه - ج 2 ص 545.

<sup>5</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 10 ص 273.

التي فيما بين الخلق إنما ينظر إلى ظواهرها، وإن كان في الباطن على خلاف الظاهر)<sup>1</sup> وحكمة الله اقتضت أن يظل باب التوبة مفتوحا للمنافقين وإن قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم ما لم يذيعوا بها، ولم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتلهم أو قتلهم (وهو أن من ظاهره الإسلام كالمنافقين لا يحكم بكفره إلا بوحي من الله تعالى، أو صدور ما يدل على الكفر دلالة قطعية، ولمز المطوعين ليس منه على أن طلبهم الاستغفار إظهار للتوبة)<sup>2</sup>.

7- من أخلاق المنافقين أنهم: لمازون- مع بخلهم ونقضهم لعهودهم مع الله بالتصدق- يعيرون المتبرعين الأغنياء ويتهمونهم بالرياء، ويعيرون الفقراء- الذين لا يجدون إلا جهدهم- بأن الله غني عن صدقاتهم.

8- من خبث طوية المنافقين أنهم يتخافتون بينهم بالسخرية من المطوعين بالإنفاق (فيسخرون منهم) ولما كان لا شيء أعظم للشخص من أن يتولى العظیم الانتقام له من ظالمه، قال: (سخر الله منهم) ، وزادهم قوله: (ولهم عذاب أليم) بما كانوا يؤلمون قلوب المنفقين.<sup>3</sup>

9- تئيس المنافقين من المغفرة: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ؛ بأنه لو طلبها طلب المأمور بها، أو تركها ترك المنهي عنها لكان ذلك سواء في أن الله لا يوقعها<sup>4</sup> ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٥﴾ ، وهذا عموم في الذي نزلت الآية بسببه، وفي كل منافق مثله.

10- في كثرة استغفار النبي صلى الله عليه وسلم للمنافقين مع إيدائهم له بيان لشدة رحمته وشفقته صلى الله عليه وسلم بأمته، وحرصه على هدايتها، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة (وفي إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة: لطف لأمته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض)<sup>5</sup>.

11- وقوله تعالى: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴿٧٨﴾ التوبة، هذا بيان عما يوجب الكذب مع إخلاف الوعد من النفاق، فمن أخلف في المواثيق مع الله فقد تعرض

<sup>1</sup> تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)- الماتريدي(المتوفى: 333هـ)- ج 5 ص 435.

<sup>2</sup> تفسير المنار- محمد رشيد رضا- ج 10 ص 489.

<sup>3</sup> - ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- البقاعي - ج 8 ص 556.

<sup>4</sup> ينظر: التفسير البسيط- الواحدي- ج 10 ص 570. بتصرف.

<sup>5</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- الزمخشري - ج 2 ص 294 و 295.

للفنفاق، وكان جزاؤه من الله إفساد قلبه بما يكسبه النفاق: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ التوبة. وفائدة الإعطاء مع علمه بالخيانة إقامة للحجة<sup>1</sup>.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

<sup>1</sup> ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - إبراهيم بن عمر البقاعي - ج 8 ص 555. وينظر التفسير البسيط - الواحدي - ج

## المبحث السادس

المنافقون بين الضح بالتخلف عن الجهاد واستحقاق الطبع على قلوبهم.

الوحدة الموضوعية الفرعية السادسة

من الآية الواحدة والثمانين إلى الآية السادسة والتسعين (96/81)

تمهيد :

ظلّ المنافقون بالمدينة وقد تخلفوا عن رسول الله وعن الجهاد، وهم فرحون مرتاحون بهذا التخلف، فقد

(جمعوا - أعني المنافقين - جميع خصال الشرّ التي فعلوا:

أحدها: ما ذكر من فرحهم بالتخلف عن رسول الله.

والثاني: كراهيتهم الجهاد مع رسول الله وبخلهم بأموالهم.

والثالث: صدهم الناس عن الجهاد والخروج في سبيل الله بقولهم: (لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ).

جمع الله جميع خصال المنافقين في هذه الآية<sup>1</sup>.

**المطلب الأول: فرح المخلفين بمقعدهم .**

الفرع الأول: آيات الوحدة الفرعية السادسة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ

تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا

تُضِلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ

وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ

الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

<sup>1</sup> تأويلات أهل السنة - الماتريدي (ت 333هـ) - ج 5 ص 437.

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتِحْمَلَهُمْ قُلْتَ لَا أُحِبُّكُمْ عَلَيْهِ تَوْلَاؤُهُمْ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُؤْتِرُدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ التوبة.

### الفرع الثاني: أسباب النزول

وردت أسباب لنزول آيات من هذه الوحدة الفرعية أذكرها مرتبة كما يلي:

1- سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ فَلْيَسِقُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾ التوبة، جاء في صحيح البخاري<sup>1</sup> ومسلم<sup>2</sup> عن ابن عباس وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي بن سلول، دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، قال: أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (آخر عني يا عمر) فلما أكثرت عليه قال: (إني خيَّرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها)، قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف، فلم يمكث

<sup>1</sup> صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة البقرة - باب قوله: ﴿ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ... ﴾ ﴿٨٥﴾

<sup>2</sup> صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه.

إلا يسيرا، حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فَلَيْسُقُونَ﴾<sup>٨٤</sup>، قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم. والله ورسوله أعلم. وقد اعتمد عامة المفسرين على هذا الحديث لدلالته على سبب النزول وذلك في قول عمر رضي الله عنه (فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة) فالعبارة دالة دلالة صريحة على سبب النزول، (وقد أورد جمهور المفسرين هذا الحديث وجعلوه سبب نزولها منهم: الطبري والبخاري وابن العربي وابن عطية والقرطبي وابن كثير وابن عاشور)<sup>1</sup>.

و(النتيجة: أن سبب نزول الآيات الكريمة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، على رأس المنافقين وذلك لصحة سنده، وموافقته للفظ الآية، وتعويل المفسرين عليه وتصريحه بالنزول. والله أعلم)<sup>2</sup>.

2- سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَئِرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُنْمِئُ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>٩٤</sup> سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَاؤَلِيهِمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ التوبة.

وقد روى الطبري بسنده إلى عن عبد الله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يقول: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله، وصدقته حديثي، فقال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسك من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله: قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد: سيحلفون

<sup>1</sup> المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية- خالد بن سليمان المزني-

ج 1 ص 596.

<sup>2</sup> المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية- خالد بن سليمان المزني-

ج 1 ص 597.

بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . . إلى قوله : فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين<sup>1</sup>.

### الضلع الثالث: القراءات

- قال ابن زنجلة<sup>2</sup>: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ...﴾

قرأ الكسائي في رواية قتيبة و(جاء المعذرون) بالتخفيف، أي: الذين أعذروا وجاءوا بعذر، وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ويقول هم أهل العذر، أي: جاؤوا معذرين ولهم عذر والمعذر الذي قد بلغ أقصى العذر والعرب تقول أعذر من أنذر أي بالغ في العذر.

وقرأ الباقر: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتشديد أي: المعتذرون إلا أن التاء أدغمت في الذال لقرب المخرجين، قال الزجاج: ومعنى المعتذرين الذين يعتذرون كان لهم عذر أو لم يكن لهم عذر وهو ها هنا أشبه بأن يكون لهم عذر وأنشدوا:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن بيك حولاً كاملاً فقد اعتذر

يريد قد أعذر وقد يكون لا عذر له قال الله تعالى: (يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم) ثم قال: (لا تعتذروا) أي: لا عذر لكم.

وكان ابن عباس يقول: رحم الله المعذرين ولعن الله المعذرين ذهب إلى من يعتذر بغير عذر وقال آخرون المعذرون المقصرون، أي: الذين يوهمون أن لهم عذراً ولا عذر لهم.

### الضلع الرابع: مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى بعض سوءات المنافقين وخفايا نفوسهم بتخلفهم عن رسول الله باعتذارهم عن الخروج للجهاد، ولمزهم في قسمة الصدقات، ذكر ههنا حالة فرحهم حينما قعدوا عن الخروج للقتال في عزوة تبوك وظلوا في المدينة، فتحقق فيه ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ...﴾ (التوبة، ومناسبة وقوعها في هذا الموضع أن فرحهم بتخلفهم قد قوي لما استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم

<sup>1</sup> جامع البيان - للطبري - سورة التوبة - القول في تأويل قوله تعالى: (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم) - ج 14 ص 427.

وهو طرف من حديث صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك.

وطرف من حديث صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>2</sup> حجة القراءات - ابن زنجلة - ص 312.

وظنوا أنهم استغفروه فقتضوا مأربهم ثم حصلوا الاستغفار ظنا منهم بأن معاملة الله إياهم تجري على ظواهر الأمور<sup>1</sup>.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 280 .

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي الوحدة الفرعية السادسة

### الفرع الأول: فرح المنافقين بالعودة عن الخروج وكراهيتهم الجهاد

ما زال القرآن الكريم يعدّد قبائح المنافقين ويخرج دخائل نفوسهم ويبعثرها، ويخرج أضغاثهم، ويهتك أستارهم ليحذرها المؤمنون، إذ قال الله جلّ وعزّ يصف حالهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾<sup>(٨١)</sup> التوبة، فكان مقعدهم (على الخلاف منهم لرسول الله عليها السلام، لأنه أمرهم بالخروج معه فتخلفوا عنه، وفرحوا بتخلفهم، وكرهوا الخروج في الحر)<sup>1</sup> وقعدوا فيبيوتهم مخالفين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، (وإنما فرحوا لأنهم لا يؤمنون بما في الخروج معه من الأجر العظيم الذي لا تذكر بجانبه راحة القعود في البيوت شيئاً)<sup>2</sup> ولذلك فقد أثمرت محبتهم القعود عن الجهاد فرحاً- الشعور بارتياح النفس وسرورها ورضاها- به، فانشرحت بذلك صدورهم، وتخلصوا مما ثقل عليهم من الجهاد بالأموال والأنفس إثاراً للدعة والراحة، (وكراهيتهم الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله خصلة أخرى من خصال النفاق لأن الله أمر بذلك في الآية المتقدمة) ﴿... وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾<sup>(٨٢)</sup> التوبة: 41 الآية<sup>3</sup>، ولكونها خصلة أخرى جعلت جملتها معطوبة ولم تجعل مقترنة بلام التعليل مع أن فرحهم بالعودة سببه هو الكراهية للجهاد.<sup>4</sup>، وشتان بين من كان لعوده عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحاً ورضى، ومن كان تخلفه ضيقاً ونكداً عليه كما حدث للثلاثة الذين خلفوا إذ قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَىٰ إِلَهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٨٣)</sup> التوبة.

<sup>1</sup> الهداية إلى بلوغ النهاية - أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي المالكي (ت 437هـ) ج 4 ص 3085.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 491.

<sup>3</sup> وتام الآية: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٨٤)</sup>.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 281.

وكما حدث للبكائين الذين فاضت دموعهم ألما وحسرة (وعزيرٌ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقةً ولا محملاً)<sup>1</sup> قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيِبُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾<sup>(٩٢)</sup> التوبة.

### الفرع الثاني: تشبيط المخلفين لغيرهم

ولم يكتف هؤلاء المنافقون برضاهم بالتخلف وانسراح صدورهم به وبكراهيتهم للجهاد بل اتخذوا ذريعة الحرّ وبعد الشقة ليبتطوا الخارجين للجهاد ويحبّونهم عنه، إن من المؤمنين أو من أمثالهم من المنافقين قال جلّ وعزّ: ﴿... وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ...﴾<sup>(٨١)</sup> التوبة، فجاءهم الوعيد الزاجر من الله عزّ وجلّ تلقينا للنبي صلّى الله عليه وسلّم ل(قرع أسماعهم بهذا الكلام)<sup>2</sup> ﴿... قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...﴾<sup>(٨١)</sup> التوبة، إذ شدة نار جهنم تفضل نار الدنيا بأضعاف كثيرة فقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم)، فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: (إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا)<sup>3</sup>.

وفي هذا تعريض القرآن الكريم بجهلهم (لأن من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصوّن في مشقة الأبد، كان أجهل من كل جاهل ولبعضهم:

- مَسْرَةٌ أَحْقَابٍ تَلْقَيْتُ بَعْدَهَا ... مَسَاءَ ةَ يَوْمٍ أَرْيَاهَا شِبْهَ الصَّابِ<sup>4</sup>

- فَكَيْفَ بَانَ تَلْقَى مَسْرَةَ سَاعَةٍ ... وَرَاءَ تَقْضِيهَا مَسَاءَ ةَ أَحْقَابِ<sup>5</sup>

لأنهم (حذروا من حرّ قليل وأفحموا أنفسهم فيما يصير بهم إلى حرّ أشد)<sup>6</sup> ولجهلهم وتماديهم في

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 420.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 281.

<sup>3</sup> موطأ مالك - كتاب جهنم - باب ما جاء في صفة جهنم، ومسند أحمد - ومن مسند بني هاشم مسند أبي هريرة رضي الله عنه

<sup>4</sup> (الأحقاب) الأزمان الكثيرة المتتابعة، جمع حقب بالضم بمعنى الدهر. و(الأرى) العسل، و(الشبه) المثل. و(الصاب) نبت مر

الطعم. وقيل: هو الحنظل يقول إن مسرة أزمان كثيرة ترى بعدها مساء يوم واحد، حالها الشبيه بالعسل هو في الحقيقة شبيه

الحنظل، فكيف الحال بعكس ذلك؟. الهامش (1) الكشاف - الزمخشري - ج 2 ص 296.

<sup>5</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري - ج 2 ص 296.

<sup>6</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 281.

نفاقهم لا ينفعهم تذكير ولا موعظة لأنهم لا يفقهون أنهم إلى النار صائرون ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾<sup>(٨١)</sup> التوبة، ولو فقهوا لاعتبروا.

ما أشدّه من إنذار للمنافقين بانقلاب حالهم من الفرح بالتخلف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكراهية الجهاد - وذلك قليل ينقضي برجوع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك - إلى البكاء الكثير الدائم: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٨٢)</sup> التوبة، (أنّ هذا هو الأجدر بهم، بل الواجب عليهم بحسب ما تقتضيه حالهم، وتستوجبه جرماتهم، لو كانوا يفقهون ما فاتهم بالتخلف والخلاف من أجر، وما سيعملون في الآخرة من وزر، وما يلاقون في الدنيا من خزي وضرر...) <sup>1</sup>، وقد جاء هذا الإنذار على (لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره) <sup>2</sup>.

### الفرع الثالث: عقوبة المنافقين لتخلفهم

ما كان فرح المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك وتثيبتهم لغيرهم عن الجهاد بالأمر الهين بل كان سببا كافيا لاستحقاقهم الإنذار الشديد جزاء كسبهم التخلف والتثيبت لغيرهم، فقد (بيّن تعالى ما يجب من الجزاء الذي يعاملون به في الدنيا قبل الآخرة، مما يقتضي انقضاء عهد فرحهم وغبطتهم في دنياهم بالتمتع بأحكام الإسلام الصورية والمعنوية) <sup>3</sup> ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٨٢)</sup> التوبة، فكانت عاقبتهم أن عوقبوا عقوبة قاسية شديدة وذلك بـ:

**العقوبة الأولى:** حرمانهم من شرف صحبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لَِّلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا...﴾<sup>(٨٥)</sup> ذلك لأنهم رضوا بالعودة وآثروه على صحبة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخروجهم معه فعوقبوا بحرمانهم من شرف الصحبة وفضلها، وقد جاء في فضل أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلمف عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) <sup>4</sup>.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 491 .

<sup>2</sup> الكشف عن حقائق غوامض التنزيل - الرمخشري - ج 2 ص 296.

<sup>3</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 492.

<sup>4</sup> صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب قول النبي ﷺ : لو كنت ...

**العقوبة الثانية:** وحرمانهم من شرف القتال تحت إمرة النبي صلى الله عليه وسلم... ﴿... وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا...﴾ ﴿٨٥﴾ لأَنَّهُمْ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَعُوقِبُوا بِحُرْمَانِهِمْ مِنْ شَرَفِ الْجِهَادِ وَقَدْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٩٦﴾ النساء.

**العقوبة الثالثة:** حرمانهم من شرف الصلاة عليهم بعد الموت والدعاء لهم عند قبورهم لأنهم تلبسوا بالإيمان ثم فسقوا عنه، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿...وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِيكَ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ...﴾ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي بن سلول، دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت إليه فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (أخر عني يا عمر) فلما أكثرت عليه قال: (إني خيرت فاخترت، لو أعلم أي إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها) قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿...وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِيكَ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ...﴾ إلى قوله: ﴿...وَهُمْ فَلْيَرْثُوا...﴾ ﴿٨٤﴾ التوبة، قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، والله ورسوله أعلم<sup>1</sup>.

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره، فقد (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا دعي إلى جنازة سأل عنها، فإن أتني عليها خيرا قام فصلي، وإن أتني عليها شرا قال لأهلها: (شأنكم بها) ولم يصلي عليها. قال أبو حاتم: (ترك المصطفى صلى الله عليه وسلم على من وصفنا نعته، كان ذلك قصد التأديب منه صلى الله

<sup>1</sup> صحيح البخاري- كتاب الجنائز- باب ما يكره من الصلاة على المنافقين. وسنن الترمذي الجامع الصحيح- الذبائح- أبواب

تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب : ومن سورة التوبة. والسنن الكبرى للنسائي - قوله تعالى: ولا تصل على

أحد منهم مات أبدا. ومسند أحمد بن حنبل - مسند العشرة المبشرين بالجنة - مسند الخلفاء الراشدين - أول مسند عمر بن الخطاب

رضي الله عنه.

عليه وسلّم لأتمته كيلا يرتكبوا مثل ذلك الفعل، لا أن الصلاة غير جائزة على من أتى مثل ما أتى من لم يصل عليه صلى الله عليه وسلّم.<sup>1</sup>

**العقوبة الرابعة:** وحرمانهم من لذة التمتع بالمال والأولاد في الحياة الدنيا فتكون مصدر عذاب لهم (التعب في تحصيلها والحزن عند فقدانها وهلاكها... وسوء مصيرهم في الآخرة)<sup>2</sup> ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ التوبة<sup>3</sup>، فأموالهم وأولادهم وإن كانت في صورة النعمة فهي لهم نقمة وعذاب، فقد سلبوا الطمأنينة عليها أذ باكتسابهم عداوة الرسول صلى الله عليه وسلّم كانوا حذرين (أن يغري الله رسوله بهم فيستأصلهم، كما قال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ الأحزاب، ثم جعل ذلك مستمرا إلى موتهم على الكفر الذي يصيرون به إلى العذاب الأبدي)<sup>4</sup>.

#### الفرع الرابع: معاذير المنافقين للتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم

لما فرح المنافقون بقعودهم خلاف رسول الله وآثروا حياة الدعة، وكرهوا الجهاد بأنفسهم وأموالهم معه صلى الله عليه وسلّم، ذكر الله تعالى سوءة معاذير أولي الطول منهم - الذين صحّت أبدانهم وكثرت أموالهم - بعد إنزال الآيات الأمرة بالخروج للجهاد (وقد فضح الله عز وجل المنافقين بهذه الصفات التي ذكرهم بها أشدّ الفضيحة)<sup>5</sup>: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَلْعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلّم بقولهم ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَلْعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فقد رضوا لأنفسهم أن يكونوا في منازلهم مع الفاسدين من الرجال أو (كالنساء<sup>6</sup> اللواتي ليس عليهنّ فرض الجهاد، فهنّ قعود في منازلهنّ ويوتهنّ)<sup>1</sup>، ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا

<sup>1</sup> صحيح ابن حبان - كتاب الجنائز وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرا - فصل في الصلاة على الجنائز

<sup>2</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - محمد سيد طنطاوي - ج 6 ص 373.

<sup>3</sup> سبق ذكر هذه الآية وهي الآية 55 من سورة التوبة.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 286 .

<sup>5</sup> التفسير البسيط - الواحدي النيسابوري - ج 10 ص 585.

<sup>6</sup> قال ابن منظور: (والخلف والخالف والخالفة: الفاسد من الناس، الهاء للمبالغة. والحوالف: النساء المتخلفات في البيوت) -

مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ التوبة، وهذا (استئناف قصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلة رجلتهم بأنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعاً للنساء، وفي اختيار فعل رضوا إشعار بأن ما تلبسوا به من الحال من شأنه أن يتردد العاقل في قبوله، كما تقدّم في قوله تعالى: (أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة) التوبة 38 ، وقوله: (إنكم رضيتم بالقعود أول مرة) التوبة 83)<sup>2</sup>.

ومن الهدى الرباني للمؤمنين مقابلة حال المنافقين الذين اطمأنت قلوبهم بالتخلف فتخلفوا وثبطوا غيرهم لكي يتخلفوا عن ركب المجاهدين في سبيل الله، ورضوا لأنفسهم منزلة الخوالف من النساء ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ التوبة، (وختم الله على قلوبهم بخاتم أغلقها دون الخير لسوء اختيارهم، فهم بسبب ذلك لا يدركون ما في الإيمان بالله تعالى وإتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم - من خير وسعادة، وما في الجهاد من رفعة وشرف، وما في التخلف عنه من هوان وهلاك)<sup>3</sup>، فقد قابل الله جلّ وعزّ هذه الحال - حال المنافقين - بحال الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول فخرجوا - على شدة الحر وبعد الشقة وطيب المقام - ليجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، طيبة بذلك نفوسهم، (إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة)<sup>4</sup> ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ فاستحقوا بجهادهم الخيرات والفلاح وقد ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ التوبة.

ولما ذكر الله جلّ وعزّ فرح منافقي المدينة بقعودهم خلاف رسول الله وإيثارهم حياة الدعة، وكرهيتهم الجهاد بأنفسهم وأموالهم، وذكر جلّ جلاله سوءة معاذير أولي الطول منهم، ذكر ههنا أحوال

لسان العرب - ج 9 ص 91.

1 جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 413.

2 التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 289.

3 التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 3 ص 1744.

4 البحر المديد في تفسير القرآن المجيد - ابن عجيبة - ج 2 ص 414.

المنافقين من الأعراب ومعاذيرهم فقال جلّ وعزّ: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾<sup>١</sup> التوبة، والأعراب قسمان:

**القسم الأول: المعذرون<sup>1</sup>**: وهم الأعراب الذين تكلفوا الاعتذار بالباطل وظنوا أنّ لهم عذرا ولا عذر

لهم<sup>2</sup> من أجل القعود وترك الجهاد، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ... ﴾<sup>١</sup>.

- **و القسم الثاني: القاعدون**: وهم الأعراب الذين تخلفوا مكابرة من غير أن يكلفوا أنفسهم الاعتذار وأظهروا جرأة على الله ورسوله، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾<sup>١</sup> التوبة، (قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئًا، جاء قوم فعذروا وجلح<sup>3</sup> آخرون فقعدوا)، يريد أن قوماً تكلفوا عذراً بالباطل، فهم الذين عناهم الله بقوله: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾<sup>١</sup> وتخلف آخرون من غير تكلف عذر وإظهار علة جرأة على الله ورسوله، وهو معنى قوله: وجلح آخرون فقعدوا<sup>4</sup>، ﴿... سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾<sup>١</sup> وهم الذين تكلفوا الاعتذار بالباطل من أجل القعود وترك الجهاد، والذين تخلفوا من غير تكلف عذر وإظهار جرأة على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>١</sup>.

ولما عاب الحق سبحانه وتعالى معاذير الأعراب الذين أرادوا التخلف عن الخروج إلى تبوك استجابة للنفي العام، بيّن سبحانه الأسباب المبيحة للاعتذار عن الخروج إلى غزوة تبوك، فقد رفع الله

<sup>1</sup> اختلف في المراد ب(المعذرين) فعن ابن عباس، ومجاهد أهم أهل العذر، وخالفهم قتادة فجعلهم المعتذرين كذبا ومَن ذهب إلى هذا المعنى: صاحب: التفسير البسيط - الواحدي - ج 10 ص 592. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود (ت 982هـ) - ج 4 ص 91. ومعالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي الشافعي (ت 510هـ) - ج 2 ص 378. وتفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن - محمد الأمين بن عبد الله الهري - ج 11 ص 396.

<sup>2</sup> قال الفراء: (وأما المعذّر على جهة المفعّل فهو الذي يعتذر بغير عذر). معاني القرآن - ج 1 ص 448.

<sup>3</sup> ومعنى جلح: قال ابن فارس: (ومما يحمل عليه قولهم فلان مجلح، إذا صمم ومضى في الأمر مثل تجليح الذئب، وهذا لا يكون إلا بكشف قناع الحياء) - معجم مقاييس اللغة - ج 1 ص 470. وقال ابن منظور: (وجلح في الأمر: ركب رأسه، والتجليح:

الإقدام الشديد والتصميم في الأمر والمضي) - لسان العرب - جلح - ج 2 ص 425.

<sup>4</sup> التفسير البسيط - الواحدي (المتنوي: 468هـ) - ج 10 ص 592.

تعالى عن أصحاب الأعدار ضيق التكليف واكتساب الإثم ما كانوا لله ورسوله ناصحين، فليس عليهم ﴿حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، إذ أخلصوا للهوسلمت صدورهم من الغشّ وذلك بـ(الإيمان والسعي في مرضاة الله ورسوله والامتثال والسعي لما ينفع المسلمين)<sup>1</sup>، فعن تميم الداري أن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلّم قال: (الدين النصيحة) قلنا: لمن؟ قال: (الله وكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)<sup>2</sup>.

وأما الأعدار المبيحة للتخلف عن الجهاد فهي:

**العذر الأول: الضعف**<sup>3</sup>؛ وهو الحالة لا يقوى معها صاحبها على الجهاد من غير مرض كالعمى والعرج والمهرم والعجز والنساء والصبيان...، وقد رفع عنهم الحرج وجميع من ضعف عن الخروج ولم يقو عليها لأن عذرهم دائم لا يزول، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ فالضعف (لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما...)<sup>4</sup>.

**و العذر الثاني: المرض**<sup>5</sup>؛ وهو حالة عارضة من السقم ونقص القوة، يعجز صاحبها عن الخروج للجهاد، فرفع الحرج عن المرضى مراعاة لحالهم، وجاز لهم الاعتذار عن الخروج مع النبي ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾، وينتهي عذرهم بالشفاء من المرض، وهذه الآية من سورة التوبة كآية الفتح: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ...﴾ (٧) الفتح، فقد ذكر الله تعالى العمى والعرج مقابل المرض فذلك على أنّ المرض حالة غير العمى والعرج.

**و العذر الثالث: الفقر**؛ وهي الحالة التي لا يجد فيها الفقير المال الذي ينفقه على نفسه من أجل الخروج للجهاد، فرفع الحرج عن الفقراء مراعاة لحالهم، وحقّ لهم الاعتذار عن الخروج مع النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلّم قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾ هذا إذا كان الإنفاق على الجهاد في

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 10 ص 294.

<sup>2</sup> صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان أن الدين النصيحة.

<sup>3</sup> ضعف: الضَعْفُ والضُّعْفُ: خلافُ القُوَّة. لسان العرب - ابن منظور - ج 9 ص 203.

<sup>4</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 198.

<sup>5</sup> المرض: السُّمُّ تَقْيِضُ الصِّحَّةِ... ابن الأعرابي: أصل المرض التُّفْصَانُ، وَهُوَ بَدَنٌ مَرِيضٌ نَاقِصُ القُوَّة. لسان العرب - ابن

منظور - ج 7 ص 231 / 232.

سبيل الله من وسع المجاهدين (وهذا العذر خاص بالمال، ويذول إذا كان للأمة في بيت المال ما ينفقون منه)<sup>1</sup>.

### الفرع الخامس: ثواب الناصحين من أصحاب الأعذار

فما على أصحاب هذه الأعذار من سبيل إلى عقاب أو عتاب إذا أخلصوا النصح لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأحسنوا في أعمالهم وأقوالهم<sup>2</sup>، ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾<sup>٩١</sup> بل لما حبسهم العذر عن الخروج شاركوا المجاهدين في الأجر، وكانوا معهم في مسيرهم، فعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: (إن بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم)، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة حبسهم العذر)<sup>3</sup>، (فقد جعل المعذورين مع المستطيعين وعليه قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... ﴾<sup>٩٥</sup> النساء، فإنه استثنى أولى الضرر وجعلهم كالمجاهدين)<sup>4</sup>.

### الفرع السادس: شرف البكائين وعلو مكانتهم عند الله<sup>5</sup>

البكؤون رجال من خيار المسلمين ممن حبسهم العذر بالمدينة، ذكر الله جلّ وعزّ عذرهم قرآنا يتلى، ووصف بكاءهم حزنا وهم يتخلفون عن الجهاد في غزوة تبوك لأنهم استحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجد ما يحملهم عليه (لأن الشقة بعيدة، والرجل يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه وبعير يحمل عليه ماء وزاده)<sup>6</sup>، ولم يجدوا هم ما ينفقون ليخرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فاضطروا للبقاء بالمدينة

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 10 ص 507.

<sup>2</sup> ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 3 ص 1747.

<sup>3</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب نزول النبي ﷺ الحجر. وفي صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب ثواب من حبسه عن

الغزو مرض أو عذر آخر - عن جابر قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال: (إن بالمدينة لرجالا ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، حبسهم المرض).

<sup>4</sup> التَّنْوِير شرح الجامع الصغير - الصنعاني - ج 5 ص 165.

<sup>5</sup> البكؤون وهم سبعة: أبو ليلى المازني وسلمة بن صخر المازني وثعلبة بن غنمة الأسلمي وعلبة بن زيد الحارثي والعرباض بن

سارية السلمى من بني سليم وعبد الله بن عمرو المزني وسالم بن عمير العمري. المغازي - الواقدي (ت 207هـ) - ج 3 ص

1024. وقيل غيرهم.

<sup>6</sup> التفسير الكبير - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 123.

فأنزل الله عذرهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عن أبي موسى رضي الله عنه قال<sup>1</sup>: أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك فقلت يا نبي الله، إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: (والله لا أحملكم على شيء) ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزينا من منع النبي صلى الله عليه وسلم، ومن مخافة أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه عليّ، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم، فلم ألبث إلا سويعة، إذ سمعت بلالا ينادي: أي عبد الله بن قيس، فأجبتة، فقال: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك، فلما أتته قال: (خذ هذين القرينين، وهذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهنّ حينئذ من سعد-) فانطلق بهن إلى أصحابك فقل: إنّ الله، أو قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء فاركبوهنّ). فانطلقت إليهم بهن فقلت: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء، ولكي والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تظنّوا أنّي حدثتكم شيئا لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق، ولننعلنّ ما أحببت، فانطلق أبو موسى بنفر منهم، حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم منعه إياهم، ثم إعطاءهم بعد فحدثوهم بمثل ما حدثهم به أبو موسى).

فظهر حزنهم عيونا تفيض دمعا ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة، ٩٢) (فحزنهم في الحقيقة على فوات مرافقتك والكون في حزيك، وهذه قصة الكباين صرح بها وإن كانوا داخلين في (الذين لا يجدون) إظهاراً لشرفهم وتقريباً لأنّ الناصح - وإن اجتهد - لا غنى له عن العفو حيث بيّن أنهم - مع اجتهادهم في تحصيل الأسباب وتحسّرهم عند فواتها بما أفاض أعينهم - ممن لا سبيل عليه أو ممن لا حرج عليه المغفور له)<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة. وصحيح مسلم - كتاب الأيمان - باب ندب من

حلف بمينا فرأى غيرها خيرا منها.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (المتوفى: 885هـ) - ج 8 ص 570.

## الفرع السابع : هؤلاء هم المؤاخذون : يعتذرون وهم أغنياء

لما بين الله جلّ وعزّ أولئك المحسنين الذين ما عليهم من سبيل وبين أعدارهم، قابلهم بمن هم أغنياء ولا عذر لهم البتة في التخلف عن الجهاد، وقد حقّ عليهم الإثم والعقوبة باعتذارهم (ما السبيل بالعقوبة على أهل العذر، يا محمد، ولكنها على الذين يستأذنونك في التخلف خلافك، وترك الجهاد معك، وهم أهل غنى وقوّة وطاقّة للجهاد والغزو، نفاقاً وشكاً في وعد الله ووعيده)<sup>1</sup>، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءٌ... ﴾<sup>٩٣</sup> ﴿ إِنَّهُمْ مَعَ غَنَاهُمْ وَقَدَرْتُمْ اسْتَنْكَفُوا عَنِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ فاطمأت نفوسهم وارتاحوا بذلك و(رضوا بالدناءة والضعفة والانتظام في جملة الخوالف)<sup>2</sup>، حتى لا (كأنه جبلة لهم)<sup>3</sup> أن يكونوا مع النساء والصبيان والمرضى، فاستحقوا من الله الطبع على قلوبهم.

إنّ استنكاف المنافقين عن الجهاد مع رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم واطمئنائهم بذلك إنّما صدر من نفوس طبعها أصحابها على الكذب على الله ورسوله صَلَّى الله عليه وسلّم ، فاستحقوا بذلك من الله الطبع على قلوبهم بما كسبوا، جزاء وفاقاً، قال تعالى: ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾، (وأسند الطبع على قلوبهم إلى الله في هذه الآية بخلاف ما في الآية السابقة (وطبع على قلوبهم) التوبة 87، لعله للإشارة إلى أنه طبع غير الطبع الذي جبلوا عليه بل هو طبع على طبع أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم فحرمهم النجاة من الطبع الأصلي وزادهم عماية، ولأجل هذا المعنى فرع عليه فهم لا يعلمون لنفي أصل العلم عنهم، أي يكادون أن يساوا العجماءات)<sup>4</sup>، فقد منعهم الطبع على قلوبهم - بسبب نفاقهم - العلم بما في طاعة الله ورسوله صَلَّى الله عليه وسلّم وما (في الجهاد من منافع الدنيا والدين وما في التخلف عنه من وخامة العاقبة وسوء الحساب)<sup>5</sup>، ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>٩٣</sup> ﴿ نفى عنهم العلم ب(سوء

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 423.

<sup>2</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري (ت 538هـ) - ج 2 ص 301. وقد نقل الفخر الرازي العبارة كما هي. وأنظر التفسير الكبير - ج 16 ص 123.

<sup>3</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (المتوفى: 885هـ) - ج 8 ص 570.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 6.

<sup>5</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 4 ص 1.

عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الثناء في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة<sup>1</sup>.

### الضلع الثامن: ديدن<sup>2</sup> المنافقين الظهور بمظهر المعتذر<sup>3</sup>

لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم ما كانوا يتوقعون أن يعود النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه منصورين، فلما (وهذا إخبار بما سيلاقي به المنافقون المسلمون قبل وقوعه وبعد رجوع المسلمين من الغزو)<sup>4</sup>، وفي طريق العودة من تبوك وقبل الوصول إلى المدينة أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما سيكون عليه حال المنافقين عند رجوعهم إليهم لأن غرض المعتذر أن يصير عذره مقبولاً يثبتون الأعذار لأنفسهم (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله...)<sup>5</sup> فقد بين الله مسلك المنافقين بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم وعدّد أحوالهم:

**الحالة الأولى:** ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾<sup>ع</sup> فهم يظهرون الحجج التي يعتذرون بها

لعلهم يخرجون من مؤاخذه وتوبيخ المؤمنين لهم... يعتذرون كاذبين كما اعتذروا عن التخلف كاذبين ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ...﴾<sup>٩٣</sup> التوبة، (ف) سيعتذر إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وهم أغنياء أصحاء لا

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن- ابن جرير الطبري- ج 14 ص 424.

<sup>2</sup> قال ابن منظور: ( والدَّيْدُنُ: الدُّبُّ وَالْعَادَةُ، وَهِيَ الدَّيْدَانُ؛ عَنِ ابْنِ جَنِّي؛ قَالَ الرَّاجِزُ:

وَلَا يَزَالُ عِنْدَهُمْ حَفَائُهُ، ... دَيْدَانُهُمْ ذَلِكَ، وَذَا دَيْدَانُهُ - لسان العرب- ج 13 ص 152.

<sup>3</sup> جاء في: لسان العرب عذر: العُذْرُ: الحُجَّةُ التي يُعْتَذَرُ بِهَا... وَلي فِي هَذَا الأَمْرِ عُذْرٌ وَعُذْرِي وَمَعْدْرَةٌ أَي: خَرُوجٌ مِنَ

الدَّنْبِ.. ابن منظور ج 4 ص 545. وفي تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي: عذر: (العُذْرُ، بِالضَّمِّ: م)، معروفٌ، وَهُوَ

الحُجَّةُ الَّتِي يُعْتَذَرُ بِهَا. وَفِي البَصَائِرِ للمصنِّف: العُذْرُ: تَحْرِيي الإنسانِ مَا يَمْحُو بِهِ ذُنُوبَهُ، وَذَلِكَ ثَلَاثَةٌ أَضْرَبُ: أَنْ تَقُولَ: لَمْ أَفْعَلْ.

أَوْ تَقُولَ: فَعَلْتُ لِأَجْلِ كَذَا، فَيَذْكُرُ مَا يُجْرِجُهُ عَن كونه مُذْنِباً. أَوْ تَقُولَ: فَعَلْتُ وَلَا أَعُودُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَهَذَا الثَّالِثُ هُوَ التَّوْبَةُ.

فكُلُّ تَوْبَةٍ عُذْرٌ، وَليس كُلُّ عُذْرٍ تَوْبَةٌ. ج 12 ص 540.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 9.

<sup>5</sup> جامع البيان- الطبري- سورة التوبة- القول في تأويل قوله تعالى: (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم)- ج 14 ص 427.

عذر لهم عن التخلف عن الغزو وغيره من سيئاتهم عند رجوعكم من السفر)<sup>1</sup> وهذا عند رجوع المؤمنين من تبوك.

**والحالة الثانية :** ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُخَالِفُوا عَنْهُمْ ﴾ لم يكتف المنافقون بالاعتذار عن تخلفهم دون عذر بل أكدوا ذلك بالقسم لئلا يؤاخذهم المؤمنون وليتجاوزوا عنهم، والآية (معناها ناشئ عن مضمون جملة ﴿... لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ...﴾<sup>٩٤</sup> التوبة، تنبيها على أنهم لا يراعون عن الكذب ومخادعة المسلمين، فإذا قيل لهم ﴿... لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ...﴾<sup>٩٤</sup>، حلفوا على أنهم صادقون ترويحاً لخداعهم)<sup>2</sup>، ونظير هذه الآية حلف المنافقين بالكذب كذلك قبل الخروج إلى تبوك وذلك في قوله تعالى: ﴿... وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾<sup>٩٤</sup> التوبة.

**والحالة الثالثة :** ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ ولم يكتف المنافقون بالاعتذار عن تخلفهم دون عذر، كما لم يكتفوا بالقسم لينالوا عدم المؤاخذه واللوم من المؤمنين، بل راموا القسم كذلك لينالوا رضا المؤمنين واطمئنان نفوسهم إليهم، فقد (أفادت هذه الآية أنهم لا يقصدون بحلفهم الإعراض عن لومهم والصفح عنهم فحسب بل يحلفون لكم لترضوا عنهم وتطمئنوا إليهم بعد الصبح عنهم)<sup>3</sup>.

يتجلى الهدى القرآني في معاملة المنافقين المعتذرين للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بعد الرجوع من غزوة تبوك في ما يلي:

#### أولاً: الهدى القرآني للمؤمنين في مقابلة اعتذار المنافقين من الأعراب

- بتعليم الله جلّ وعزّ لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ هدى التعامل مع المنافقين والردّ عليهم فعلمهم:

- ما يقولون ردّاً على الاعتذارات الكاذبة في التخلف عن القتال بغير عذر: لن نصدقكم فيما

<sup>1</sup> تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي - ج 11 ص 4.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 8.

<sup>3</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 4 ص 4.

- تقولون ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾<sup>١</sup>، فلا جدوى للاعتذار فلن يتحقق لكم ما تريدون، وصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾<sup>٢</sup> تدل على أن الاعتذارهم للجميع يقتضي أن يعلموا أن الجميع عالمون بما فضحهم الله به)<sup>1</sup>.
- كما علمهم ردّ أمر تكذيبهم للنبا الحق الذي جاءهم من الله جلّ جلاله ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾<sup>٣</sup> فقد (أعلمنا بالوحي بعض أخباركم المنافية للتصديق مما باشرتموه من الشرّ والفساد...)<sup>2</sup>.
- كما علمهم أن يتركوا أمرهم إلى الله ورسوله فيما سيأتي من أعمالهم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾<sup>٤</sup> وذلك (فيما سيأتي أتنبئون إليه تعالى مما أنتم فيه من النفاق أم تثبتون وكأنه استتابة وإمهال للتوبة)<sup>3</sup>. وأنه جلّ وعزّ مطلع على ما في نفوس المنافقين من الكذب والخيانة لتخويفهم من اقتراف السيئات ﴿ثُمَّ تَرْدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>٥</sup> (هذا وعيد جديد من الله تعالى للمنافقين بأنهم مهما كادوا ومكروا، ودبروا من السوء ما دبروا، فإن مصيرهم في النهاية إلى الله الذي يعلم سرّهم ونجواهم، وإذ ذاك سيتولى حسابهم على النقيير والقطمير، وجزاءهم على الصغير والكبير)<sup>4</sup>.

### ثانياً: الهدى القرآني للمؤمنين في مقابلة أيّمان المنافقين من الأعراب الكاذبة

رام الأعراب المنافقون القسم الكاذب لينالوا رضا المؤمنين واطمئنان نفوسهم إليهم لئلا يؤاخذوهم، وليتجاوزوا عنهم، فجاء الهدى القرآني بغير ما رامه الأعراب المنافقون إذ قال الله جلّ وعزّ: ﴿... فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوِلُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>٦</sup> التوبة، فإذا الأمر الإلهي يأتي على خلاف ما أراد المنافقون ﴿... فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ...﴾ فكان الإعراض من المؤمنين إعراض إهانة لا إعراض صفح وعفو باجتناح مجالستهم وعدم الاطمئنان لهم، وتركهم وما

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 4.

<sup>2</sup> إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود (المتوفى: 982هـ) - ج 4 ص 93.

<sup>3</sup> نفسه - ج 4 ص 93.

<sup>4</sup> التيسير في أحاديث التفسير - محمد المكي الناصري - ج 3 ص 12.

يفترون، (فأعرضوا عنهم، أي فإذا كانوا يرومون الإعراض عنهم فأعرضوا عنهم تماما، وهذا ضرب من التفرغ فيه إطماع للمغضوب عليه الطالب بأنه أجيبته طلبته حتى إذا تأمل وجد ما طمع فيه قد انقلب عكس المطلوب فصار يأسا لأنهم أرادوا الإعراض عن المعاتبة بالإمسك عنها واستدامة معاملتهم معاملة المسلمين، فإذا بهم يواجهون بالإعراض عن مكاملتهم ومخالطتهم وذلك أشد مما حلفوا للتفادي عنه، فهم من تأكيد الشيء بما يشبه ضده أو من القول بالموجب)<sup>1</sup>.

### ثالثا: الهدي القرآني للمؤمنين في عدم الرضا عن منافقي الأعراب

ولما كان مقصد منافقي الأعراب من أيمانهم الكاذبة إرضاء المؤمنين بعد الصفح عنهم دون إرضاء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء الهدي القرآني للمؤمنين معلما وللمنافقين ميّسا؛ بأن الله لا يرضى عمّن خرج عن طاعته وتنكب عن صراطه وذلك (لئلا يتوهم متوهم أنّ رضي المؤمنين عنهم يقتضي أن يرضى الله تعالى عنهم، فجاء على اليأس من هذا)<sup>2</sup> قال الله تعالى: ﴿... فَإِنَّ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ التوبة. (ولكن الله ينهاكم عن الرضا عنهم، فإن رضوا عنهم فقد خالفتكم ربكم لأن الله تعالى لا يرضى عن القوم الفاسقين فكيف ترضون عنهم)<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 9.

<sup>2</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 10.

<sup>3</sup> لتفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 4 ص 4.

## المطلب الثالث : هدايات الوحدة الموضوعية الفرعية السادسة

دلت آيات هذه الوحدة الفرعية الموضوعية على جملة من الهدايات :

### 1- جمع الله الخصال القبيحة التي اتصف بها المنافقون في هذه الآية<sup>1</sup> :

- **الخصلة الأولى**؛ فرحهم بالعود لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتخلف عنه: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فرحهم بذلك علامة نفاقهم.

- **والخصلة الثانية**؛ كراهِيتهم الجهاد بأنفسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخلهم بأموالهم ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذه خصلة أخرى من خصال نفاقهم.

- **والخصلة الثالثة**؛ صدّهم الناس وتثيبتهم عن النفي في سبيل الله بقولهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فظاهر قولهم الشفقة على المؤمنين وباطنه تثيبتهم عن النفي.

- **والخصلة الرابعة**؛ جهلهم بمآلات أعمالهم المهلكة فهم لا يفقهون فلا تجدي فيهم الذكرى والموعظة، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ التوبة، وفي (هذا استجهال لهم لأن من تصوّن من مشقة ساعة، فوقع بسبب ذلك التصوّن في مشقة الأبد، كان أجهل من كل جاهل)<sup>2</sup>.

### 2- الهدى القرآني في بيان العقوبات الربانية المترتبة على قبائح المنافقين

أ / الضحك القليل لانقطاعه بانقضاء الدنيا والبكاء الكثير لدوامه بدوام الآخرة جزاء لفرح

المنافقين بالتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكراهِيتهم الجهاد ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ب / لما فرحوا بالتخلف عن تبوك عوقبوا بجرمانهم من شرف صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وفضلها قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا...﴾

<sup>1</sup> الآية هي قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ التوبة. وانظر: تأويلات أهل السنة - الماتريدي - ج 5 ص 437 / 438. بتصرف

<sup>2</sup> الأساس في التفسير - سعيد حوى - ج 4 ص 2338.

ج/ لما كرهوا الجهاد بالنفس والمال عوقبوا بجرماهم من شرف الجهاد في سبيل الله وقد فضل الله

المجاهدين على القاعدین أجرا عظيما: ﴿... وَلَنْ تُقْتَلُوا مَعِيَ عَدُوًّا...﴾ (٨٥).

د/ لما آثروا مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم عوقبوا بجرماهم شرف صلاته صلى الله عليه وسلم عليهم

بعد الموت والدعاء لهم عند قبورهم: ﴿...وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ...﴾.

هـ/ لما اكتسبوا عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم حرموا طمأنينة التمتع بالمال والولد كونهم حذرين أن

يغري الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بهم فيستأصلهم ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ

اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

### 3- الهدى القرآني في المعاذير بين القبول والرد:

أولا: ومن الهدى القرآني في التعامل مع أصحاب المعاذير من المنافقين:

أ/ فضح أساليب المنافقين الكاذبة؛ فضح الله عز وجل أهل الغنى والسعة من المنافقين

المستأذنين في التخلف أشد الفضيحة، فقد طلبوا القعود عن الجهاد راضين بالبقاء مع من أقعدهم العذر

وقد أنزلوا أنفسهم الدينئة منزلة الهوان والمذلة ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ

أَسْتَدْنَكَ أَوْ لَوْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨١) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ

وَطِيعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧) التوبة، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا

نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ

إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْنَمِ...﴾ (٩٠) محمد، (وفي هذا تصريح بجنهم ورضاهم لأنفسهم بالمذلة والهوان)<sup>1</sup>.

### ب/ ومن الهدى القرآني الثناء على المجاهدين في سبيل الله

بذكر فلاحهم بنيل الخيرات وفوزهم العظيم، في مقابل حال المنافقين الذين لا يفقهون شرف الجهاد

بالمال والنفس ولا يفقهون دناءة القعود عنه، وفي هذا تعزيز لثباتهم وإقدامهم لينالوا شرف معية رسول الله

صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

<sup>1</sup> تفسير المراغي - ج 10 ص 179.

وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ التوبة.

### ج/ ومن الهدي القرآني بيان معاذير الأعراب الكاذبة

بعد ذكر معاذير منافقي المدينة، ذكر الله جلّ وعزّ معاذير الأعراب الكاذبة، فقد تشابحت قلوبهم واتّحدت مسالكهم في الإعتدار، قال جلّ وعزّ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ...﴾ ﴿٩٠﴾ التوبة.

### ثانياً: الهدي القرآني في بيان المعاذير المقبولة والمردودة

الهدي القرآني في بيان الأعدار المسقطة للتكليف بالجهاد في سبيل الله، فليس عليهم ﴿حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وإذ أخلصوا لله وسلمت صدورهم من الغش: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ التوبة.

### المعتذرون قسماً<sup>1</sup>:

**القسم الأول:** قسم يغتنم عذره من أجل التهرب من التكليف، فهؤلاء ليسوا ممن نصح الله ورسوله. **والقسم الثاني:** قسم يتمنى ألا يكن له عذر ليتمكن من الجهاد، فهؤلاء هم الذين نصحوا الله ورسوله، وهم الذين أرادهم الله بقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

### ١/ المعاذير المقبولة للتخلف عن الجهاد

الهدي القرآني في بيان المعاذير المقبولة ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ التوبة:

<sup>1</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 4 ص 593/594. بتصرف

- 1- **عذر الضعف** : وهو عذر دائم لا يزول ولا يقوى صاحبه معه على الجهاد
- 2- **عذر المرض**؛ وهو حالة عارضة من السقم ونقص القوة، يعجز صاحبها عن الخروج للجهاد، وينتهي عذر المريض بالشفاء من مرضه.
- 3- **عذر الفقر**؛ وهي الحالة التي لا يجد فيها الفقير المال الذي ينفقه على نفسه من أجل الخروج للجهاد، مراعاة لحاله، ويزول هذا العذر بتمكين المجاهد من وسائل الجهاد من المال العام.
- 4- **حُصَّ البكَّاءون بالذکر لشرفهم وعلوِّ مكانتهم:** ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيِبُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿٩٢﴾ التوبة.

#### ب/ معاذير المنافقين المردودة

الهدى القرآني في بيان التعامل مع معاذير المنافقين المردودة بـ:

- 1- **مؤاخاة وعتاب المنافقين الذين استنكفوا الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم** واطمأنوا بذلك (ولا عذر لهم يخولهم التخلف)<sup>1</sup>؛ لأنّ نفوسهم طبعت على الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فاستحقوا بذلك من الله الطبع على قلوبهم بما كسبوا، جزاء وفاقا، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٩٣﴾ التوبة.
- 2- **فضح مسالك المنافقين الذين يظهرون الحجج التي يعتذرون بها لعلهم يخرجون من مؤاخاة وتوبيخ المؤمنين لهم**، لأنّ ديدنهم الظهور بمظهر المعتذر قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ... ﴾ ﴿٩٤﴾ التوبة.
- 3- **رفض اعتذار المنافقين** ﴿... قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ وهذا تعليم من الله جلّ وعزّ للمؤمنين، وتأسيس للمنافقين من الإعتذار، ذلك بأنّ مردّه للنبا الحقّ الذي جاءهم من الله جلّ جلاله: ﴿ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 6.



## المبحث السابع

المنافقون الأعراب<sup>1</sup> وأثرهم على وحدة الأمة.

الوحدة الموضوعية الفرعية السابعة

من الآية السابعة والتسعين إلى الآية العاشرة بعد المائة (97/ 110).

### تمهيد:

بعدهما بين القرآن الكري أوصاف منافقي المدينة في الوحدة الفرعية السابقة، وصل بنا القرآن الكريم إلى توصيف حال جماعات أخرى من المنافقين؛ إنها جماعات المنافقين الأعراب ودورها في الهدم الإجتماعي من الداخل، وخطرها على وحدة الصف الإسلامي والأمن الاجتماعي بانحازهم مسجد الضرار، ثم قابل بينهم وبين المؤمنين منهم، ثم جاء الهدي القرآني لكيفية التعامل فيبين أن كفرهم ونفاقهم أشد، وجهلهم بحدود ما أنزل الله أكمل، فصفاتهم التي وصفوا بها إنا هي لتنبية المسلمين لأحوال الأعراب لأنهم لبعدهم عن الاحتكاك بهم والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم ويظنون بجمعهم خيرا.

**المطلب الأول: الأعراب المنافقون دورهم وخطره في الإخلال بتماسك المجتمع**

**الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية السابعة**

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْمُرُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَنْهَا قُرْبَةً لَهُمْ سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ

<sup>1</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 10 / 11: (قال العلماء من أهل اللغة: (يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب ثابتاً، وجمعه العرب، كما يقال: مجوسي ويهودي، ثم تحذف ياء النسبة في الجمع فيقال: المجوس واليهود، ورجل أعراي - بالألف - إذا كان بدويًا صاحب نجعة وانتواء، وارتباد للكلاء، وتتبع لمساقط الغيث، وسواء كان من العرب أو من مواليهم، ويجمع الأعراي على الأعراب والأعرايب، والأعراي إذا قيل له: يا عربي فرح بذلك، والعربي إذا قيل له يا أعراي غضب له، فمن نزل البادية أو جاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب، ومن استوطن القرى العربية فهم عرب). جاء في الهامش: (1) انظر: تهذيب اللغة (عرب) 3/ 2381 والنص منقول منه، وانظر أيضًا: مجمل اللغة (عرب) 3/ 664، ومختار الصحاح (عرب) ص 421، ولسان العرب (عرب) - 5/ 2864.

عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَذَبَاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٣﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١٤﴾ وَعَاخِرُونَ آخِرُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ وَعَاخِرُونَ مَرْحُومُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٩﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِّمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢٠﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٢١﴾ أَلَمْ نَقُومْ فِيهِ بِنِيَّةٍ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ يَتَّبِعُونَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٢﴾

### الضلع الثاني: أسباب النزول:

أ- سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ ﴿١٢١﴾.

1- عن أبي أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك: أن هذه الآية نزلت ﴿... فِيهِ

رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(يا معشر الأنصار، إنّ الله قد أتى عليكم في الطهور، فما طهروكم؟)، قالوا: نتوضأ للصلاة،

ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء. قال: (فهو ذاك، فعليكموه)<sup>1</sup>.

2- عن ابن عباس<sup>2</sup>: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ قال: لما نزلت هذه الآية بعث رسول

الله صَلَّى الله عليه وسلّم إلى عويم بن ساعدة فقال: (ما هذا الطهور الذي أتى الله عليكم به)، فقالوا: يا نبي الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل دبره أو قال: مقعده، فقال النبي صَلَّى الله عليه وسلّم: (ففي هذا).

3- وعن أبي هريرة<sup>3</sup> عن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم قال: (نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ

يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾، قال: (كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية).

**النتيجة<sup>4</sup>:** أنّ سبب نزول الآية - والله أعلم - عناية أهل قباء بالطهارة بالماء وعدم اقتصارهم على الاستجمار بالحجارة، ذلك لموافقته لسياق القرآن، وإجماع المفسرين عليه. والله أعلم.

### الفرع الثالث: القراءات

(واختلفوا)<sup>5</sup> في: دائرة السوء هنا والفتح فقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين في الموضعين، وقرأ الباقون بفتحها فيهما وورش من طريق الأزرق على أصله في مد الواو.

(واتفقوا) على فتح السين في قوله تعالى: ما كان أبوك امرأ سوء، وأمطرت مطر السوء، والظانين بالله ظن السوء لأن المراد به المصدر، وصف به للمبالغة كما تقول هو رجل سوء في ضد قولك رجل صدق.

(واتفقوا) على ضمها في قوله تعالى: وما مسني السوء. وإن النفس لأمارة بالسوء. وإن أراد بكم

سوء لأن المراد به المكروه والبلاء، ولما صلح كل من ذلك في الموضعين المذكورين اختلف فيهما - والله أعلم -

<sup>1</sup> سنن ابن ماجه - كتاب الطهارة وسننها - باب الاستنجاء بالماء.

<sup>2</sup> المستدرک علی الصحیحین - الحاكم - كتاب الطهارة - والسنن الكبرى للبيهقي كتاب الطهارة جماع أبواب الاستطابة باب الاستنجاء بالماء.

<sup>3</sup> سنن أبي داود كتاب الطهارة باب في الاستنجاء بالماء - وسنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها باب الاستنجاء بالماء

- وسنن الترمذي - الجامع الصحيح - الذبائح أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب: ومن سورة التوبة.

<sup>4</sup> المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية - خالد بن سليمان المزني - ج 1 ص 607.

<sup>5</sup> النشر في القراءات العشر - ابن الجزري - ج 2 ص 280.

جاء في الحجة في القراءات السبع لا بن خالويه :

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ يقرأ بإثبات الواو وحذفها فالحجة لمن أثبتها أنه رد بها الكلام على قوله: ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ...﴾<sup>(١٦)</sup> أو على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ والحجة لمن حذفها أنه جعل (الذين) بدلا من قوله: (وأخرون) أو من قوله: (وممن حولكم) وهي في مصاحف أهل الشام بغير واو.

قوله تعالى: (ضارا وكفرا وتفريقا وإرصادا) ينتصب على أنه مفعول له معناه اتخذه لهذا أو ينتصب على أنه مصدرا أضمر فعله.

- قوله تعالى (غلظة) يقرأ بكسر الغين وفتحها وهما لغتان والكسر أكثر وأشهر.

قال ابن زنجلة: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ...﴾<sup>(١٨)</sup> التوبة، بضم السين وحثتهما قوله تعالى<sup>1</sup>: ﴿وَالسَّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ النحل، وقرأ الباقون بالفتح وحثتهم قوله تعالى<sup>2</sup>: ﴿وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الفتح.

(السَّوْءِ) بالضم الاسم مثل البؤس والشؤم، و(السَّوْءِ) بالفتح المصدر كذا قال الفراء سؤته سوءا أو مساءة، وقال آخرون (السَّوْءِ) بالضم: الشرّ والعذاب، و(السَّوْءِ) بالفتح الفساد والهلاك، قال الخليل: قوله (عليهم دائرة السوء) الفساد والهلاك وقال آخرون هما لغتان مثل الضَّرّ والضَّر.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١٩)</sup> لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٢٠)</sup> التوبة.

حجة القراءات - ابن زنجلة قرأ نافع وابن عامر ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ بضم الألف وكسر السين بنيانه برفع النون وكذلك ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ على ما لم يسم فاعله وحثتهما قوله قبلها ﴿لَمَسَّجِدٍ أُسِّسَ عَلَىٰ

<sup>1</sup> وتام الآية قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسَّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ سورة النحل.

<sup>2</sup> وتام الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبُّنَا ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ سورة الفتح

التَّقْوَى ﴿ قالوا: وإنما كان يحسن تسمية الفاعل لو كان للفاعل ذكر فأما إذا لم يكن للفاعل ذكر وقد تقدمه ﴿ لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ على ترك تسمية الفاعل فترك التسمية أيضا في هذا أقرب وأولى على أن المسجد الذي أسس على التقوى هو المسجد الذي بنيانه على تقوى من الله وهو مسجد الرسول صلى الله عليه وقرأ الباقون ﴿ أُسِّسَ ﴾ بفتح الهمز ونصب بنيانه في الحرفين وحجتهم في ذلك أن صدر هذه القصة هو مبني على تسمية الفاعل وهو قوله ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ﴾ فجعل الاتخاذ لهم فكذلك التأسيس يجعل لهم ليكون الكلام واحدا ثم قال بعد ذلك ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً ﴾ هم الذين أسسوا فلذلك آثروا تسمية الفاعل.

حجة القراءات - ابن زنجلة ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قرأ ابن عامر وحفص إلا أن تقطع بفتح التاء أي إلا أن تقطع قلوبهم ندما و أسفا على تفریطهم و القلوب رفع بفعالها وقرأ الباقون إلا أن تقطع بضم التاء على ما لم يسم فاعله أي إلا أن يفعل ذلك بها وهما في المعنى شيء واحد

#### الفرع الرابع : المناسبات

لما ذكر الله سبحانه وتعالى بعض محازي وسوءات منافقي المدينة وخفايا نفوسهم واعتذارهم عن الخروج إلى تبوك، وقعوده خلاف رسول الله ورجعوا بأنفسه عن نفسه ولزهم المؤمن في قسمة الصدقات، وفرحهم حال قعودهم بالمدينة ذكر القرآن الكريم ههنا، في الوحدة الفرعية السابعة حالة الوحدة الفرعية السابعة، أحوال منافقي الأعراب وأصحاب البوادي، وأهم أشد كفرا ونفاقا ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة، ففيهم زيادته عما عليه المنافقون بالمدينة، وفي هذا (تنبيه المسلمين لأحوال الأعراب لأنهم لبعدهم عن الاحتكاك بهم والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم ويظنون بجمعهم خيرا)<sup>1</sup>. فهؤلاء المنافقين فريقان: فريق عرفوا بأقوال قالوها وأعمال عملوها، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى صار أملس ناعما لا يكاد يشعر أحد بشيء يستنكره منه فيظهر عليه.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 11 .

## الفرع الخامس: موضوعات هذه الوحدة

- من صفات الأعراب المنافقين
- مقابلة حال المنافقين من الأعراب بحال المؤمنين منهم:
- مكانة السابقين الأولين محلّ القدوة الصالحة لهذه الأمة
- مردة المنافقين والهدي القرآني في معاملتهم:
- توبة الله على المعترفين بذنوبهم من مردة المنافقين
- من مكاييد مردة المنافقين: مسجد الضرار .

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة السابعة

## الفرع الأول: من صفات الأعراب المنافقين

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين؛ ووصف الله جلّ وعزّ المنافقين من الأعراب بصفات خصّهم بها بعدما وصف منافقي المدينة بأمثالها، و(إنما أعاد هذه الأحكام، لأنّ المقصود منها مخاطبة منافقي الأعراب، ولهذا السبب بيّن أنّ كفرهم ونفاقهم أشدّ، وجهلهم بحدود ما أنزل الله أكمل)<sup>1</sup>، فصفاتهم التي وصفوا بها ل(تنبيه المسلمين لأحوال الأعراب لأنهم لبعدهم عن الاحتكاك بهم والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم ويظنون بجمعهم خيرا)<sup>2</sup>:

**الصفة الأولى:** شدّة كفر الأعراب وشدّة نفاقهم<sup>3</sup>؛ فإن كانوا كفارا كان كفرهم أشدّ من كفر غيرهم من أهل الحضر، وإن نافقوا كانوا أشدّ نفاقا من غيرهم من أهل الحضر ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾<sup>4</sup>، وذلك لجفاء طباعهم (من سكن البادية جفا...)<sup>4</sup>، وقسوتهم وغلظ قلوبهم (ألا إنّ القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين<sup>5</sup>)<sup>6</sup>، وبطبيعتهم البدوية فإنهم يجافون كلّ ما يأتيهم مخالفا لما ألقوه

<sup>1</sup> مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 124.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 11/10.

<sup>3</sup> قال الواحدي: (هذه الآية دليل على أنّ اللفظ العام يرد للخاص؛ لأنّ الأعراب لفظ عام وليس المراد به جميع الأعراب). التفسير

البيسط - ج 11 ص 13

<sup>4</sup> وتام الحديث: عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: (من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن)، سنن أبي

داود - كتاب الصيد - باب في إتباع الصيد. وسنن الترمذي - الذبائح - أبواب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم. ومسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم - مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. والسنن الكبرى للنسائي - كتاب الصيد - إتباع الصيد. والسنن الكبرى للبيهقي - كتاب آداب القاضي - باب كراهية طلب الإمارة والقضاء وما يكره من الحرص عليهما والتسرع.

<sup>5</sup> الفدّادون (يفسر على وجهين أن يكون جمعا للفدّاد وهو الشديد الصوت وذلك من دأب أصحاب الإبل، والوجه الآخر أنه جمع الفدان وهو آلة الحرث، وذلك إذا رويته بالتخفيف ويريد أهل الحرث، وإنما ذمهم لأنه يشغل عن أمر الدين ويلهي عن الآخرة. أنظر الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري - محمد بن يوسف شمس الدين الكرمانى - ج 16 ص 201.

<sup>6</sup> وتام الحديث: عن عقبه بن عمرو أبي مسعود، قال: أشار رسول الله صلى الله عليه وسلّم بيده نحو اليمن فقال: (الإيمان يمان، ها هنا، ألا إنّ القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين، عند أصول أذنان الإبل، حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر)، صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق - باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، وصحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تفاضل أهل الإيمان فيه.

من عقائد وعادات، (ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى... ﴾ (يوسف) <sup>1</sup>.

ومن الأمثلة على شدة الأعراب وغلظتهم في السنة النبوية نذكر ما يلي:

- فعن أبي سعيد، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسما، إذ جاء ابن أبي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله، قال: (ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل) <sup>2</sup>...  
- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعتاء) <sup>3</sup>.

#### والصفة الثانية: الجهل بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ ... وَأَجْدُرُ إِلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ... ﴾ التوبة، ذلك أنهم منشغلون عن مشاهدة نزول الوحي ومجالس الذكر بتتبع مظان الماء والكأ فكانوا أجدر بعدم العلم بما ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (وإنما كانوا أجدر بعدم العلم بالشريعة لأنهم يبعدون عن مجالس التذكير ومنازل الوحي، ولقلة مخالطتهم أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) <sup>4</sup>.

<sup>1</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 177.

<sup>2</sup> السنن الكبرى للنسائي - سورة الأنعام - قوله تعالى: (ومنهم من يلمزك في الصدقات). عن أبي سعيد، قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسما، إذ جاء ابن أبي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، قال: (ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل)، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرب عنقه، قال: (دعه، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يبرقون من الدين كما يبرق السهم من الرمية، فينظر في قُدَّه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصيبه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نضله فلا يوجد فيه شيء، سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود في إحدى يده - أو إحدى يديه - مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فترة من الناس)...

<sup>3</sup> صحيح البخاري - كتاب فرض الخمس - باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفه قلوبهم.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 10 و 11.

ولكن هذه الصفة - الجهل بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم - لا تدلّ على بلاهة عقولهم وسفاهة أحلامهم وقلة فهمهم (فالأعراب أجدر بالجهل من الحضرة بطبيعة البداوة لا بضعف أفهامهم، أو بلاهة أذهانهم أو ضيق نطاق بياضهم، فقد كانوا مضرب الأمثال في قوة الجنان، ولودعية<sup>1</sup> الأذهان، وذراية<sup>2</sup> اللسان وسعة بيدااء البيان، وعنهم أخذ رواة العربية أكثر مفردات العربية وأساليها)<sup>3</sup>.

وقد ظهر جهل بعض المؤمنين من الأعراب بما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ناهيك عن المنافقين منهم والكفار ومن ذلك:

### - قصة بول الأعرابي في ناحية من نواحي المسجد

فقد جهل الأعرابي أنّ المساجد منزهة عن ذلك؛ فعن أنس بن مالك قال<sup>4</sup>: بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه مه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا ترموه، دعوه) فتركوه حتى بال، ثم إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له: (إنّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القدر إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن) أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشبهه عليه.

### - وجهل أعرابي آخر سعة رحمة الله فضيقت واسعاً في دعائه

فعن أبي هريرة قال<sup>5</sup>: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال للأعرابي: (لقد حجرت واسعاً) يريد رحمة الله.

<sup>1</sup> قال ابن منظور: لدغ: اللدغ: حُرْفَةٌ كَحُرْفَةِ النَّارِ، وَقِيلَ: هُوَ مَسُّ النَّارِ وَجِدَّتْهَا. لَدَعَهُ يَلْدَعُهُ لَدَعًا وَلَدَعَتْهُ النَّارُ لَدَعًا: لَفَحَتْهُ وَأَحْرَقَتْهُ... وَالتَّلْدَغُ: التَّوَقُّدُ. وَتَلْدَغَ الرَّجُلُ: تَوَقَّدَ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ. وَاللُّوْدَعِيُّ: الْحَدِيدُ الْفُوَادِ وَاللِّسَانِ الظَّرِيفُ كَأَنَّهُ يَلْدَغُ مِنْ ذِكَايِهِ. لسان العرب- ج 8 ص 317.

<sup>2</sup> قال ابن منظور: دَرَبَ الرَّجُلُ إِذَا فَضَّحَ لِسَانَهُ بَعْدَ حَصْرِهِ. لسان العرب- ج 1 ص 385.

<sup>3</sup> تفسير المنار- محمد رشيد رضا - ج 11 ص 8/7.

<sup>4</sup> صحيح مسلم- كتاب الطهارة- باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد. و صحيح البخاري- كتاب الوضوء- باب صب الماء على البول في المسجد.

<sup>5</sup> صحيح البخاري- كتاب الأدب- باب رحمة الناس والبهائم.

**- وجعل أعرابي آخر بوجوب التأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم فرداً بشارته**

فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة، ومعه بلال فأتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: (أبشر) فقال: قد أكثرت علي من أبشر، فأقبل على أبي موسى وبلال كهيفة الغضبان فقال: (ردّ البشري، فأقبلا أنتما) قالوا: قبلنا، ثم دعا بقدر فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه، ثم قال: (اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا) فأخذا القدر ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر: أن أفضلا لأمتكما، فأفضلا لها منه طائفة<sup>1</sup>.

**- وجعل أعرابي آخر ستّة النبي صلى الله عليه وسلم فرمى ابن عباس رضي الله عنهما بالحاجة أو البخل:**

فعن بكر بن عبد الله المزني، قال: كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة، فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمّكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ؟ أمن حاجة بكم أم من بخل؟ فقال ابن عباس: الحمد لله، ما بنا من حاجة ولا بخل؛ قدم النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة، وقال: (أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا) فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>2</sup>.

**والصفة الثالثة: اتخاذهم الإنفاق مغرما**

يعتبر المنافق ما ينفقه غرامة وخسرانا (وإنما يعتقد ذلك لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله وابتغاء ثوابه)<sup>3</sup>؛ فلا ينفق المنافقون إلا وهم كارهون للنفقة أو مكروهون عليها، لأنهم يعتبرون النفقة أخذاً لأموالهم قهرا وظلما، سواء أكانت النفقة مما أوجبه الله تعالى على عباده أم مما رغبهم فيه من النفقات، (وإنما يفعلون ذلك تقيّة وخوفا من الغزو أو حبّا للمحمدة وسلوكا في مسلك الجماعة)<sup>4</sup> قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا...﴾ ﴿٩٨﴾ التوبة، هذا مقصده من الإنفاق

<sup>1</sup> صحيح البخاري- كتاب المغازي- باب غزوة الطائف.

<sup>2</sup> صحيح مسلم- كتاب الحج - باب وجوب المبيت بمبنى ليالي أيام التشريق.

<sup>3</sup> مفاتيح الغيب- فخر الدين الرازي- ج 16 ص 126.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 13.

فيجعله (غرمًا لزمه، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا)<sup>1</sup>، فلما سرح الوقت لبعض هؤلاء الأعراب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم امتنعوا عن إخراج الزكاة.

هذا شأن منافقي الأعراب، وأما منافقو المدينة فقد قال الله عز وجل في شأنهم ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَلْسِقِينَ ﴾<sup>٥٢</sup> وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾<sup>٥٣</sup> التوبة.

**والصفة الرابعة:** التريص<sup>2</sup> بالمؤمنين: ﴿...وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾<sup>٩٨</sup> التوبة، فمن صفات المنافقين الأعراب أن يكلفوا أنفسهم التريص بالمؤمنين؛ فيسكنوا ويصبروا وابتظروا أن تحلّ بالمؤمنين الدواهي والمكاره التي تدور بصاحبها فلا يتخلص منها فيضعف أو ينهزم، وذلك ليستريحوا من الإنفاق وغيره مما ألزمهم به الدين<sup>3</sup>، (وقد أنبا الله بحالهم التي ظهرت عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهم أهل الردة من العرب)<sup>4</sup>، والتريص بالمؤمنين وانتظار حال ضعفهم للانتقام منهم؛ كما هو شأن منافقي الأعراب فهو كذلك شأن منافقي المدينة، فهم الذين قال تعالى في شأنهم: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾<sup>٥٤</sup> التوبة.

ولما كان شأن المنافقين التريص بالمؤمنين دعا<sup>5</sup> عليهم رب العزة تبارك وتعالى بمثل تريصهم، لتكون دائرة السوء عليهم وملازمة لهم، فقال جل جلاله: ﴿...عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ... ﴾<sup>٩٩</sup> التوبة، (أي دائماً لا تنفك؛ إما بإذلال الإسلام وإما بعذاب الاصطلام<sup>1</sup>، فهم فيما أرادوه بكم على الدوام)<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 430.

<sup>2</sup> قال ابن منظور: ربص: التريص؛ الانتظار. ربص بالشيء رصباً وتريص به: انتظر به خيراً أو شراً، وتريص به الشيء: كذلك. الليث:

التريص بالشيء أن تنتظر به يوماً ما، وألفعل تریصت به... التريص: المكث والانتظار. لسان العرب - ج 7 ص 39.

<sup>3</sup> أنظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - إبراهيم بن عمر البقاعي - ج 9 ص 5. بتصرف.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 14.

<sup>5</sup> قال ابن عاشور: والدعاء من الله على خلقه: تكوين وتقدير مشوب بإهانة لأنه لا يعجزه شيء فلا يحتاج إلى تمني ما يريد. التحرير

والتنوير - ج 11 ص 14. وقال ابن عطية: وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء، لأن الله

**الفرع الثاني: مقابلة حال المنافقين من الأعراب بحال المؤمنين منهم:**

وكعادة القرآن الكريم في مقابلة حال المنافقين بحال المؤمنين، لعلمهم يرجعون أو يحدث لهم ذكرا؛ فقد قابل الله جلّ وعزّ حال منافقي الأعراب بحال المؤمنين الصادقين من الأعراب، الذين ذكر محاسنهم فاستثناهم من جملة الأعراب الذين ذمهم بقوله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾<sup>١٧</sup> ﴿التوبة، فوصف الله جلّ وعزّ المؤمنين من الأعراب بـ:

**1- أعظم ما يوصف به إنسان**

الإيمان بالله واليوم الآخر، (والإيمان هو الأصل الذي يترتب عليه الإنفاق عن طيب نفس لما يرجى من ثوابه في اليوم الآخر الذي لولا هو انتفت الحكمة من هذا الخلق...)،<sup>3</sup> في مقابل شدة كفر وشدة نفاق الآخرين من الأعراب الذين يظهرون الأيمان ويبطنون النفاق، وهذه منقبة لهم شهد لهم بها رب العزة تبارك وتعالى فقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾<sup>١٩</sup> (والمقصود التنبيه على أنه لا بدّ في جميع الطاعات من تقدم الإيمان...)،<sup>4</sup>

**2- اتخاذهم الإنفاق وسيلة لتحقيق مقصد ساميين:**

**المقصد الأول:** الزلفى عند الله تعالى: فهم يبتغون القرب من الله بما ينفقونه من أموالهم، مخلصين له في إنفاقهم، لينالوا رضاه، فقال الله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ...﴾<sup>١٩</sup> .  
**والمقصد الثاني:** دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم (ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله لهم)<sup>5</sup> ﴿وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ...﴾<sup>١٩</sup> لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمنفقين بالخير والبركة ويستغفر لهم؛ فعن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما: كان النبي صلى الله عليه

لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته ومن هذا، (وَيَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْزَةً) و(للمطففين)، فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره

تعالى. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ج 3 ص 74.

<sup>1</sup> سلم: الصَّلْمُ: قَطْعُ الْأَنْفِ مِنْ أَصْلِهِ، وَاصْطَلَمَ الْقَوْمُ إِذَا أُبِيدُوا مِنْ أَصْلِهِمْ. كتاب العين - الخليل بن أحمد الفراهيدي - ج 7 ص 129.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - إبراهيم بن عمر البقاعي - ج 9 ص 5.

<sup>3</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 9 ص 6.

<sup>4</sup> مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 126.

<sup>5</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 74.

وسلم إذا أتاه رجل بصدقة قال: (اللهم صل على آل فلان)، فأتاه أبي فقال: (اللهم صل على آل أبي أوفى)<sup>1</sup>.

وأما منافقو الأعراب فإنهم يقرّون بألسنتهم من غير إذعان ويتخذون الصدقات مغرماً، فاختلف القصد، ونال مؤمنو الأعراب ما رجوه بـ:

- شهادة الله لهم بقبول نفقاتهم ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ...﴾<sup>(٩٩)</sup> وفي ذلك بشارة لهم، (وجملة: (ألا إنها قربة لهم) مستأنفة مسوقة مساق البشارة لهم بقبول ما رجوه)<sup>2</sup>، (أي قربة عظيمة جامعة لأنواع القربات، يكملها الله بدعوة الرسول، ويزيد على مقتضاها بما أشار إليه بقوله: ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي جنته (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) يستر عيب المخلل (رَحِيمٌ) يقبل جهد المقل)<sup>3</sup>.

- ووعدهم بالدخول في رحمة ربهم جل شأنه: ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ...﴾<sup>(٩٩)</sup>

**الفرع الثالث: التنبيه على مكانة السابقين الأولين<sup>4</sup> محل القدوة الصالحة لهذه الأمة:**

ولما نوه الله تعالى بفضل مؤمني الأعراب الذين يقصدون بنفقاتهم القرب من الله ودعوات الرسول صلى الله عليه وسلم، أتبع ذلك (بذكر القدوة الصالحة والمثل الكامل في الإيمان والفضائل والنصرة في سبيل الله ليحتذي متطلب الصلاح حذوهم، ولئلا يخلو تقسيم القبائل الساكنة بالمدينة وحواليها وبواديها، عن ذكر أفضل الأقسام تنويها به)<sup>5</sup>، فهم فوقهم بمنازل من الفضيلة والكرامة، وفي ذلك تنبيه اللاحقين لمقام الرضا الذي حازه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعون لهم بإحسان، ليكونوا لهم وللمؤمنين

<sup>1</sup> صحيح البخاري- كتاب الدعوات- باب قول الله تعالى: (وصل عليهم) ومن خصّ أخاه بالدعاء.

وصحيح مسلم- كتاب الزكاة- باب الدعاء لمن أتى بصدقته.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 16.

<sup>3</sup> محاسن التأويل- محمد جمال الدين القاسمي- ج 5 ص 484.

<sup>4</sup> اختلف في معنى السابقين الأولين على أقوال: الأول: الذين شهدوا بيعة الرضوان. والثاني: الذين صلوا القبليتين جميعاً. والثالث: أنهم

أهل بدر. أنظر: جامع البيان في تأويل القرآن- ابن جرير الطبري- ج 14 ص 437/434. التفسير البسيط- الواحدي- ج 11

ص 23. معالم التنزيل في تفسير القرآن- البغوي- ج 2 ص 381. موسوعة التفسير المأثور- مركز الدراسات والمعلومات القرآنية -

المشرف العلمي أ.د/مسعود بن سليمان الطيار- المجلد 10 ص 599/597.

<sup>5</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 17.

القدوة الصالحة والمثل المتبع، (واعلم أنه تعالى لما ذكر فضائل الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وصلوات الرسول، وما أعد لهم من الثواب، بين أن فوق منزلتهم منازل أعلى وأعظم منها، وهي منازل السابقين الأولين)<sup>1</sup>، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١١٠﴾ التوبة، وعليه فإن: **السابقين الأولين محل القدوة الصالحة**: ثلاثة طبقات<sup>2</sup> هي خير هذه الأمة التي في جملتها خير أمة أخرجت للناس<sup>3</sup> (السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدورها إلى الإيمان والهجرة والجهاد، وإقامة دين الله)<sup>4</sup>.

**الطبقة الأولى: السابقون الأولون من المهاجرين**: هم الذين سبقوا بالإيمان استجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فحازوا قصب - بعد ذلك - السبق بالهجرة، فجمعوا بين النصر والهجرة، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ فسمّاهم الله تعالى: مهاجرين، (ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان)<sup>5</sup>، فقد أخرجوا من ديارهم وفارقوا منازلهم وأوطانهم، هاجروا قومهم وعشيرتهم، فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله ونصرة لدينه فشهد الله لهم بالصدق، وخصّ فقراءهم بالفداء فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ

<sup>1</sup> مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 126.

<sup>2</sup> وقد ذكر العلماء للصحابة ترتيباً على طبقات، وقسمهم الحاكم في كتاب: معرفة علوم الحديث، إلى اثنتي عشرة طبقة - ص 27/22. وكوثر المعاني الدزاري في كشف خبايا صحيح البخاري - محمد الحضر الشنقيطي - ج 1 ص 17. وتفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 13/12. التفسير الوسيط للقرآن الكريم - محمد سيد طنطاوي - ج 6 ص 390.

<sup>3</sup> قال الطبري: (... وأن السابق كان من الفريقين جميعاً، من المهاجرين والأنصار وإنما قصد الخبر عن السابق من الفريقين، دون الخبر عن الجميع وإلحاق (الواو) في (الذين اتبعوهم بإحسان)، لأن ذلك كذلك في مصاحف المسلمين جميعاً، على أن (التابعين بإحسان)، غير (المهاجرين والأنصار)، وأما (السابقون)، فإنهم مرفوعون بالعائد من ذكرهم في قوله: (رضي الله عنهم ورضوا عنه). جامع البيان في تأويل القرآن - ص 14 ج 439، وانظر تفسير المنار - ج 11 ص 12.

<sup>4</sup> تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ص 349.

<sup>5</sup> الرحيق المختوم - المباركفوري - ص 140.

وَرَسُولُهُ أَوْلَىٰ بِكُمُ اللَّاحِقِينَ ﴿٨﴾ الحشر، (قال ابن عباس: ابتغوا فضل الله واختاروا رضوان الله على الدور والأموال فقبل الله ذلك منهم، وشكر سعيهم وسمّاهم الصادقين)<sup>1</sup>، فحازوا بذلك رضوان الله تعالى.

### والطبقة الثانية: السابقون الأولون من الأنصار<sup>2</sup>: فالسابقون إلى الإيمان<sup>3</sup> هم الذين حازوا

سبق بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ونصرته دون غيرهم فنالوا شرف التسمية من الله جلّ وعزّ ب: الأنصار، فنالوا بسببهم هذا حبّ الله عزّ وجلّ وحبّ نبيه صلى الله عليه وسلم الذي جعلهم أحبّ الناس إليه إذ قال: (والذي نفسي بيده إنكم أحبّ الناس إليّ)<sup>4</sup>؛ فمن أحبّهم أحبّه الله ومن أبغضهم أبغضه الله، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الأنصار لا يحبّهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبّهم أحبّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)<sup>5</sup>، وقد جعل حبّهم آية الإيمان وبُغض آية النفاق لقوله صلى الله عليه وسلم: (آية الإيمان حبّ الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار)<sup>6</sup>، لأنهم آووا ونصروا وآثروا فنالوا رضا الله تعالى، وهذه فضائلهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

<sup>1</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 21 ص 379.

<sup>2</sup> فقد روى البخاري في كتاب المناقب في باب مناقب الأنصار عن غيلان بن جرير، قال: قلت لأنس: أرايت اسم الأنصار، كنتم تسمون به أم سماكم الله؟ قال: بل سمانا الله عز وجل.

<sup>3</sup> هم أهل بيعة العقبة الأولى: أسلم ستة منه في موسم الحج سنة 11 من النبوة، وأسلم سبعة آخرون سنة 12 من النبوة، وبهم تمت بيعة العقبة الأولى. ثم ما كان من نزول مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة بعد البيعة، وما كان من دعوتهما حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا قلة تخلفوا. وأهل بيعة العقبة الثانية: في موسم الحج في السنة الثالثة عشر من النبوة حضر ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم. أنظر: الرحيق المختوم - المباركفوري - ص 135. ومسنند أحمد بن حنبل - مسند المكين - بقية حديث كعب بن مالك الأنصاري. وصحيح ابن حبان - كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة - ذكر أسعد بن زرارة بن عدس رضوان الله عليه.

<sup>4</sup> وتام الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها صبي لها، فكلّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (والذي نفسي بيده إنكم أحبّ الناس إليّ) مرتين. البخاري - كتاب المناقب - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: أنتم...

<sup>5</sup> صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب حبّ الأنصار، وصحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على أنّ حبّ الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان.

<sup>6</sup> صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب حبّ الأنصار.

هَاجَرِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ  
وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴿الحشر.

**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أصحاب الشجرة<sup>1</sup>**؛ هاتان الطبقتان الفاضلتان (هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين)<sup>2</sup> هم الذين شهدوا بيعة الرضوان قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ الفتح، وقد كانوا يومئذ (خير أهل الأرض)<sup>3</sup>، وهم الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالألَّا يدخل النار منهم أحد، وهي منقبة عظيمة لأصحاب شجرة الرضوان، فعن جابر بن عبد الله قال: أخبرني أم مبشر، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول عند حفصة: (لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها)، قالت: بلى، يا رسول الله فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا... ﴿٧١﴾﴾ مريم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قد قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ مريم)<sup>4</sup>.

**وهو أهل بدر:** الذين رجا النبي صلى الله عليه وسلم ألا يدخل أحد منهم النار بقوله: (إني لأرجو أن لا يدخل النار، إن شاء الله ، أحد شهد بدرًا والحديبية)<sup>5</sup>، وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة في غزوة الفتح

<sup>1</sup> عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: (كان أصحاب الشجرة ألفا وثلاث مائة، وكانت أسلم ثمن المهاجرين)، صحيح مسلم- كتاب

الإمارة- باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. وصحيح البخاري- كتاب المغازي- باب غزوة الحديبية.

<sup>2</sup> تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان- عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ص 850.

<sup>3</sup> عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: (أنتم خير أهل الأرض)- صحيح البخاري- كتاب المغازي- باب غزوة الحديبية.

<sup>4</sup> صحيح مسلم- كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم.

<sup>5</sup> مسند أحمد بن حنبل- مسند الأنصار- مسند النساء - حديث حفصة أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب مبرزا منقبة البدرين: (إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعلّ الله اطلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)<sup>1</sup>.

**والطبقة الثالثة: الذين اتبعوه بإحسان؛** وهم الذين سلكوا مسالك المهاجرين والأنصار بإحسان في: الإيمان بالله تعالى، ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم والسير على هدايته ومناصرتة، والذبّ عن سنته ابتغاء رضوان الله (وأما الذين اتبعوا المهاجرين الأولين والأنصار بإحسان، فهم الذين أسلموا لله إسلامهم، وسلكوا منهاجهم في الهجرة والنصرة وأعمال الخير)<sup>2</sup>، فكلّ من سلك هذا المسلك فأخلص وأحسن من التابعين للمهاجرين والأنصار وسائر الأمة يشملها لفظ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ التوبة، (ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأمة لكن بشرطية الإحسان)<sup>3</sup>.

ولما كان شأنهم السبق إلى الإيمان والهجرة والنصرة والعمل الصالح ابتغاء مرضاة الله، أثابهم الله تعالى وأجزل لهم الثواب وأعلى شأنهم ورفع مكانتهم وأبان فضلهم بالرضا عنهم فقال: ﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (رضي الله عنهم لأعمالهم وكثرة طاعاتهم، ورضوا عنه لما أفاض عليهم من نعمه الجليلة في الدّين والدنيا)<sup>4</sup>، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا ربّ، وأيّ شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا)<sup>5</sup>، (ورضى الله عنهم عنايته بهم وإكرامه إياهم ودفاعه أعداءهم، وأما رضاهم عنه فهو كناية عن كثرة إحسانه إليهم حتى رضيت نفوسهم لما أعطاهم رُحْم)<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> صحيح البخاري- كتاب المغازي- باب غزوة الفتح.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن- ابن جرير الطبري- ج 14 ص 437.

<sup>3</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ابن عطية - ج 3 ص 75.

<sup>4</sup> مفاتيح الغيب- فخر الدين الرازي - ج 16 ص 130.

<sup>5</sup> صحيح البخاري- كتاب التوحيد- باب كلام الرب مع أهل الجنة. وصحيح مسلم- كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا.

<sup>6</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 17.

ومن تمام إكرام السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان والعناية بشأنهم أن هيا لهم الله جلّ وعزّ جنات: ﴿... وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

﴿التوبة﴾

جمعية الأمير عبد القادر للعطوم الإسلامية

الضلع الرابع: مردة<sup>1</sup> المنافقين والهدي القرآني في معاملتهم:

لما ذكر الله تعالى الأعراب ذكر منهم: من هم أشدّ كفرا ونفاقا وبين مسلّكهم في اتخاذ الإنفاق مغرما والترتبص بالمؤمنين وإرادة الشرّ لهم، وقابلهم بالمؤمنين منهم الذين يتقربون إلى الله بنفقاتهم ودعوات الرسول صلّى الله عليه وسلّم ثمّ تبه الله جلّ وعزّ اللاحقين على مقام الرضا الذي حازه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعون لهم بإحسان، ليكونوا لهم وللمؤمنين القدوة الصالحة والمثل المتبع، فلما (بيّن تعالى حال كملة المؤمنين كلهم ققى عليه بذكر مردة المنافقين من أهل البدو والحضر، وعطفهم عليهم من باب عطف الضدّ على الضدّ)<sup>2</sup>، لئلا يغترب المسلمون بمن يظهر لهم المودة من أعراب القبائل المحيطة بالمدينة، وبقية مردة المنافقين في المدينة، فقد(كانت الأعراب الذين حول المدينة قد خلصوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأطاعوه وهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعصية، فأعلم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أنّ في هؤلاء منافقين لئلا يغترب بكل من يظهر له المودة.

وكانت المدينة قد خلص أهلها للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأطاعوه فأعلمه الله أنّ فيهم بقية مردوا على النفاق، لأنه تأصل فيهم من وقت دخول الإسلام بينهم)<sup>3</sup>.

فلما بيّن الله جلّ وعزّ كمال إيمان الطبقات الثلاث ورضاه عنهم ليستشرف حالهم فيقتدى بهم، ناسب أن يُذكر حال من مرد على النفاق من منافقي الأعراب ومنافقي المدينة لئلا يغترب بظواهرهم وليحتاط في

<sup>1</sup> جاء في لسان العرب: مرد: المارد؛ العاري. مُرد على الأمر، بالصّم، يَمُرُّ مُرُوداً ومُرَادَةً، فَهُوَ مَارِدٌ ومَرِيدٌ، وَمَرَدٌ: أَقْبَلَ وَعَتَا؛ وتَأْوِيلُ المُرُودِ أَنْ يَبْلُغَ العَايَةَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ جُمْلَةِ مَا عَلَيْهِ ذَلِكَ الصَّنْفُ... وفي حَدِيثِ العَرَبِيَّاتِ: (وَكَانَ صَاحِبُ حَيِّرٍ رَجُلًا مَارِدًا مُنْكَرًا)؛ المَارِدُ مِنَ الرِّجَالِ: العَايَةُ الشَّدِيدُ، وَأَصْلُهُ مِنَ مَرَدَةِ الحَيِّ وَالشَّيَاطِينِ؛ وَمِنْهُ حَدِيثُ رَمَضَانَ: وَتُصَفُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، جَمْعُ مَارِدٍ. والمُرُودُ عَلَى الشَّيْءِ: المُرُودُ عَلَيْهِ. وَمَرَدٌ عَلَى الكَلَامِ أَي مَرَنَ عَلَيْهِ لَا يَغْبَأُ بِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَمَنْ أَهْلَ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ)؛ قَالَ الفَرَّاءُ: يُرِيدُ مَرَدُوا عَلَيْهِ وَجَرُّوا كَقَوْلِكَ تَمَرَّدُوا. وَقَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: المُرْدُ التَّطَاوُلُ بِالكِبَرِ وَالْمَعَاصِي؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ: مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ أَي تَطَاوَلُوا. والمرادة: مَصْدَرُ المَارِدِ، والمَرِيدُ: مِنَ شَيَاطِينِ الإنْسِ وَالجِنِّ. ... والمَرِيدُ: الحَبِيبُ المُتَمَرِّدُ الشَّيْئِرُ... لسان العرب- ابن منظور- ج 3 ص 400.

\* حَدِيثُ العَرَبِيَّاتِ: رواه أبو داود - كتاب الخراج والإمارة والفيء- باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات. قال الألباني: قلت: هذا إسناد حسن؛ رجاله ثقات غير أشعث بن شعبة فإنه وسط، قال أبو زرعة: لئن وذكره ابن حبان في الثقات (8/129). وقال الحافظ في التتريب: مقبول. صحيح سنن أبي داود- محمد ناصر الدين الألباني- ج 8 ص 378.

<sup>2</sup> تفسير المنار- رشيد رضا - ج 11 ص 15.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 17.

التعامل معهم ولذلك قال الله جلّ وعزّ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾ وَعَاخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَاخِرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٢﴾﴾ التوبة، فمردة المنافقين فريقان:

### الفريق الأول: مردة<sup>1</sup> المنافقين المتخلفون عن غزوة تبوك:

وهم من منافقي الأعراب<sup>2</sup> ومن منافقي المدينة الذين دربوا على النفاق ومهروا فيه وحذقوه حتى صار سجية فيهم وخلقاً لهم، وبلغوا فيه الغاية القصوى؛ فخبثت بذلك نفوسهم وتأصل شرّ النفاق فيهم فبلغوا منتهاه، فقد صار لهم به دربة عظيمة وضراوة حتى ذلت لهم فيه جميع أعضائهم الظاهرة والباطنة وصار لهم خلقاً، ﴿عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي استعلوا على هذا الوصف بحيث صاروا في غاية المكنة منه<sup>3</sup>، حتى قال جلّ وعزّ في شأنهم ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ... ﴿١١١﴾﴾ التوبة، فلم يبق لهم للتوبة مسلك؛ لأنهم لم يتوبوا كما تاب غيرهم ممن تخلف عن غزوة تبوك (فجأوا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم)<sup>4</sup>. فلما بلغوا في النفاق مبلغ المهارة والدرية، وصار لهم خلقاً وذلت له ظواهرهم وبواطنهم، وعزّ اكتشاف أمر نفاقهم قال جلّ وعزّ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلمهم (بأعيانهم مع ما لك من عظيم الفطنة وصدق

<sup>1</sup> اختلف المفسرون في جملة ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ على قولين: الأول: أنها صفة لمنافقي الأعراب ومنافقي المدينة، والثاني: أنها صفة لمنافقي المدينة خاصة، والاختيار هو القول الأول؛ قال الزجاج: (مقدّم ومؤخر، مرَدُوا) متصل بقوله منافقون) أنظر: معاني القرآن وإعرابه - الزجاج (المتوفى: 311هـ) - ج 2 ص 467. وقال النحاس: (في الكلام تقديم وتأخير، المعنى: وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق ومن أهل المدينة أي من أهل المدينة مثلهم). معاني القرآن - أبو جعفر النحاس (ت 338هـ) - ج 3 ص 248.

<sup>2</sup> قال ابن عطية: (والإشارة بقوله ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ هي إلى جهينة ومزينة وأسلم وغفار وعصية ولحيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة، فأخبر الله عن منافقيهم. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسي - ج 3 ص 75.

<sup>3</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (المتوفى: 885هـ) - ج 9 ص 9.

<sup>4</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - بن عطية الأندلسي - ج 3 ص 76.

الفراسة لفرط توقيهم وتحامي ما يشكل من أمره<sup>1</sup>، فإن غيره من المسلمين أجدر ألا يعلموا من حال هؤلاء المنافقين شيئا<sup>2</sup>.

**حذق مردة المنافقين طرق التخفي**؛ لما كان النفاق يمكن إضماره فيكون من خفايا النفوس وأسرارها، وبخاصة عندما يكون ممن مرن عليه وحذقة فلم تظهر على صاحبه سمائه ولا دلائله، خفي حينها على المسلمين أن يعلموا المنافقين بأعيانهم، أخبر الله جلّ وعزّ أنه العالم بدخائل نفوسهم المطلع على سرائرهم، ليكون هذا هو الهدي في التعامل مع مردة المنافقين فقال جلّ شأنه: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾<sup>3</sup> لئلا يتكلف المسلمون البحث في شؤون الناس وتتبع عوراتهم ولكن عليهم الانشغال بتهديب نفوسهم وتركيتها، فعن قتادة<sup>3</sup> في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، قال: فما بال أقوام يتكلفون علم الناس؟ فلان في الجنة وفلان في النار! فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لعمرى أنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفته الأنبياء قبلك! قال نبيّ الله نوح عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>4</sup> الشعراء، وقال نبيّ الله شعيب عليه السلام: ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾<sup>5</sup> هود، وقال الله لنبيه عليه السلام: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

فما أعظمها من تربية قرآنية ربانية؛ ليلتفت المسلم إلى نفسه ويقبل عليها ليستكمل فضائلها ويترك شأن الآخرين لمن يعلم السرّ وأخفى.

وفي جعل العلم بأحوال المنافقين من خصائصه جلّ وعزّ: تبيّس للمؤمنين من معرفة مردة المنافقين بأعيانهم، وتهديد للمنافقين أن يستمرّوا على نفاقهم خشية أن ينزل عليهم عذاب الله، قال تعالى: ﴿لَا

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (المتوفى: 885هـ) - ج 9 ص 9.

<sup>2</sup> هؤلاء المنافقون لمرودهم على النفاق ولشدة توقيهم الحذر من أن تظهر عليهم سمائه ليسوا هم من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 441.

تَعْلَمُهُمْ مِّنْ نَّعْلَمُهُمْ سَعْدِيهِمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾ التوبة<sup>1</sup>، (واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب، ولا خلاف بين المتأولين أنّ (العذاب العظيم) الذي يردون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أنّ العذاب المتوسط هو عذاب القبر، واختلف في عذاب المرة الأولى)<sup>2</sup> وأما عذاب في الدنيا<sup>3</sup> فهو تعيظهم بظهور الإسلام وعلو كلمته، وعذاب فضيحتهم في الدنيا وإظهار سرائرهم وكشف دسائسهم، وعذابهم بما يؤخذ من أموالهم وهم غير راضين عن إنفاقه، وعذابهم بالمصائب في أموالهم وأولادهم، وعذابهم بإحراق مسجد الضرار... ﴿ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾ وهو عذاب الآخرة.

### الضيق الثاني: المقرّون بذنوبهم من مردة المنافقين<sup>4</sup> :

<sup>1</sup> قوله تعالى: ﴿سَعْدِيهِمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ هل يحمل على حقيقة العدد؟ قال ابن جرير الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلاً يوصل به إلى علم صفة ذنوب العذابين، وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أثبتنا عنهم. وليس عندنا علم بأيّ ذلك من أيّ. غير أنّ في قوله جلّ ثناؤه: (ثم يردون إلى عذاب عظيم)، دلالة على أن العذاب في المرّتين كليهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرّتين أنّها في القبر) - جامع البيان في تأويل القرآن - ج 14 ص 445.

وأما محمد الطاهر بن عاشور فقد ذهب إلى أن العدد قد جعل مجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد قال: (وقد تحير المفسرون في تعيين المراد من المرّتين. وحملوه كلهم على حقيقة العدد. وذكروا وجوها لا ينشرح لها الصدر. والظاهر عندي أن العدد مستعمل مجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد كقوله تعالى: (ثم ارجع البصر كرتين) الملك:4، أي تأمل تأملاً متكرراً. ومنه قول العرب: لبيك وسعديك، فاسم التثنية نائب مناب إعادة اللفظ. والمعنى: سنعذبهم عذاباً شديداً متكرراً مضاعفاً، كقوله تعالى: (يضاعف لها العذاب ضعفين) الأحزاب:30. وهذا التكرار يختلف أبعاده باختلاف أحوال المنافقين واختلاف أزمان عذابهم) - التحرير والتنوير - ج 11 ص 20.

<sup>2</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية (المتوفى: 542هـ) - ج 3 ص 76.

<sup>3</sup> أنظر: الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) - ج 4 ص 3136. والتفسير البسيط - الواحدي (ت 468هـ) - ج 11 ص 28/30. ومعالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي (ت 510هـ) - ج 2 ص 383. والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب

العزيز - ابن عطية الأندلسي - ج 3 ص 76. ومفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي (ت 606هـ) - ج 16 ص 131.

<sup>4</sup> أنظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 446. و الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) - ج 4 ص 3137. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود (ت 982هـ) - ج 4 ص 98.

هذا فريق آخر من منافقي الأعراب ومنافقي المدينة<sup>1</sup> ﴿وَعَاخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَاخِرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>2</sup> التوبة، وهم ممن أقروا بما اقترفوه من ذنوب: ﴿وَعَاخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ...﴾<sup>3</sup>، وهم باعترافهم هذا يضعون أقدامهم في ركاب التوبة والإنابة والإقلاع عن النفاق ذلك بأنهم: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَاخِرَ سَيِّئًا﴾<sup>4</sup>؛ فقد أساءوا بنفاقهم وبتخلّفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصلحوا باعترافهم بذنوبهم وتوبتهم من نفاقهم، (يعني جلّ ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمال السيئ: اعترافهم بذنوبهم، وتوبتهم منها، والآخر السيئ: هو تخلّفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خرج غازيًا، وتركهم الجهاد مع المسلمين)<sup>5</sup>.

### الضلع الخامس: توبة الله على المعترفين بذنوبهم من مردة المنافقين؛

فتح الله جلّ وعزّ باب الرجاء للمقرّين بذنوبهم والمعترفين بخطاياهم بذلّ وانقياد<sup>6</sup>، ممن رجا رحمة ربّه ومغفرته منهم، فقال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾<sup>7</sup>؛ بشارة للتائبين ورحمة بهم، ووعدا

<sup>1</sup> هذا هو المعنى الذي ظهر لي رجحانه وفق القاعدة التفسيرية: الكلمة إذا احتملت وجوهًا لم يكن لأحد صرف معناها إلى بعض وجوهها دون بعض إلا بحجة (مختصر في قواعد التفسير - خالد السبت - ص 29)، وحجة المعنى المختار هي أنّ القول الذي يؤيده السياق القرآني مرجّح على ما خالفه. (قواعد التفسير عند مفسري الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري - ص 391). وللوقوف على الاختلاف في تفسير الآية انظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 447. والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية (المتوفى: 542هـ) - ج 3 ص 77. ومفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي (ت 606هـ) - ج 16 ص 131/132....

<sup>2</sup> قال الواحدي: (والعرب تقول: خلطت الماء باللبن، وخلطت الماء واللبن. قال أهل المعاني: (من قال بالواو فلأنه أراد معنى الجمع كأنه يقول: جمعت بينهما، كما تقول: جمعت زيدًا وعمراً، والواو في الآية أحسن من الباء؛ لأنه أريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط، ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيئ كما يختلط الماء باللبن، ولكن قد يجمع بينهما). التفسير البسيط - ج 11 ص 32.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 446.

<sup>4</sup> جاء في لسان العرب: (اعترف فلان إذا ذلّ وانقاد) - ابن منظور - ج 9 ص 239.

<sup>5</sup> ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال الواحدي: (لفظ (عسى) هاهنا بيان عن أنه ينبغي أن يكونوا على الطمع والإشفاق؛ لأنه أبعد من الاتكال والإهمال). التفسير البسيط - ج 11 ص 32.

<sup>6</sup> تاب الله عليك - فصيحة - تاب الله عنك: صحيحة. التعليق: الفعل (تاب) بمعنى (وَفَّقَ إلى التوبة) يتعدى ب (على)، كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ...﴾<sup>7</sup> التوبة، أما بمعنى (أقلع عن الذنب) فيتعدى ب (عن) و (من)، فنقول: تاب عن الذنب،

منه جلّ وعزّ بالتجاوز عنهم كما دلّت على ذلك الآية وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (...أما القوم الذين كانوا شطرّ منهم حسنّ وشرّّ منهم قبيحٌ فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، تجاوز الله عنهم)<sup>1</sup>، وهذا الوعد لكلّ مسلم ارتكب ذنبًا لم يخرجه من الإيمان، ثم ندم على ذلك وتاب<sup>2</sup>، وقد ناسب ختام الآية ﴿...إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٠٤﴾ أولها بتأكيد كونه جلّ وعزّ كثير المغفرة للتائبين، وواسع الرحمة بالمحسنين منهم (وهذا فيه بشارة للتائبين وأنّ التوبة تنزل الشرور)<sup>3</sup>.

قلت: فاتّضح الهدي القرآنيّ في التعامل مع هذا الفريق وذلك بتصديق ظواهر اعترافهم في إقرارهم بالذنب، وحسن الظنّ بهم وعدم التشكيك في حالهم، والمقصد مساعدتهم على التخلص مما هم فيه من النفاق وسوء الحال ومرافقتهم للخروج من حال إلى حال، وذلك وفق وسائل التطهير من النفاق والترقي في سلّم التوبة ومسالك القرآن الكريم في التخلية من النفاق والشرور، والتخلية بالفضائل والمكرّمات كثيرة ومتنوعة، ومن هذه المسالك في مقام التطهير من النفاق والآثام:

#### المسالك الأولى: مسالك التطهير بالصدق - مسالك التخلية والتخلية:-

للمال سلطان على النفس لأنهمحبّ إليها بالطبع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ﴿١٠٤﴾ الفجر، فكان إنفاقه من التكاليف الشاقّة على العبد لأنه (إذا استغرق القلب في حبّ المال... اشتغل به عن حبّ الله عزّ وجلّ، وعن الاشتغال بالطاعات المقربة إلى الله عزّ وجلّ، فاقترضت الحكمة الإلهية إيجاب الزكاة في ذلك المال، الذي هو سبب البعد عن الله، فيصير سببًا للقرب من الله عزّ وجلّ،

وتاب من الذنب، ولكن أجاز اللغويون نيابة حروف الجر بعضها عن بعض... المرجع: معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي-

الدكتور أحمد مختار عمر - ج 1 ص 203.

<sup>1</sup> وتام الحديث: كما رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن-سورة براءة- باب قوله: (وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا)؛ عن سمرة بن جندب- رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا: (أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتبهنا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشرّ كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا، قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهناك منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشرّ منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، تجاوز الله عنهم).

<sup>2</sup> تأويلات أهل السنة - الماتريدي (ت 333هـ) - ج 5 ص 463.

<sup>3</sup> الحلل الإبريزية من التعليقات البازية على صحيح البخاري - عبد العزيز بن باز - ج 3 ص 378 الهامش 2.

بإخراج الزكاة منه)<sup>1</sup>، فتكون (الصدقة برهان)<sup>2</sup> على صدق إيمان صاحبها لأنها شاقّة، وبخاصّة على المنافقين فهم كما قال الله تعالى في شأن كرههم للإنفاق: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾<sup>3</sup> التوبة، فالإنفاق يخلي القلب من الأثرة والبخل فيتطهر، ولذلك أمر الله جلّ وعزّ نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ من أموالهم لأنّ الصدقة مطهرة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ...﴾<sup>3</sup>، والإنفاق تزكية لصاحبه ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾<sup>4</sup> ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية؛ فالمعنى: أنّ هذه الصدقة كفّارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم)<sup>4</sup> والذي هو مقام المخلصين (ترفّعهم بهذه الصدقة من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين)<sup>5</sup>.

#### المسلك الثاني: مسلك التطهير بالدعاء:

والهدى القرآني - المقصد القرآن - في مسلك التطهير: إظهار اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بشأن المعترفين بذنوبهم والمقرّين بخطاياهم إذ يقول الله جلّ وعزّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ...﴾<sup>6</sup> وفي هذا تشرّيف لهم بالدعاء والاستغفار لتكون (دعواتك التي تصلّهم بها موصلة لهم إلى الله)<sup>6</sup> فتهدأ بها نفوسهم وتسكن بعد اضطرابها و(بعد قلق الخوف من عاقبة الذنب لما يعلمون من أن القبول لا يكون إلاّ ممّن حصل له الرضى عنهم)<sup>7</sup>. وقد كان من هدى النبي صلى الله عليه وسلم أنه يخصّ المتصدقين بالدعاء ل(أنّ من يدعو له النبي صلى الله عليه وسلم فإنه تطيب نفسه

<sup>1</sup> تفسير حدائق الروح والريحان - محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهجري - ج 11 ص 303.

<sup>2</sup> صحيح مسلم - كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء. وتماهه: عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (الطهور شرط الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها).

<sup>3</sup> قال أبو إسحاق الزجاج: (يصلح أن تكون تطهرهم بما نعتاً للصدقة، كأنه قال: خذ من أموالهم صدقة مطهرة، والأجود أن يكون تطهرهم للنبي صلى الله عليه وسلم. المعنى خذ من أموالهم صدقة فإنك تطهرهم بها...)-معاني القرآن وإعراجه - ج 2 ص 467.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 23.

<sup>5</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 35.

<sup>6</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (ت 885هـ) - ج 9 ص 12.

<sup>7</sup> المصدر نفسه - ج 9 ص 12.

ويقوى رجاؤه...<sup>1</sup> في عفو الله ومغفرته؛ فعن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه رجل بصدقة قال: (اللهم صلّ على آل فلان) فأثاه أبي فقال: (اللهم صلّ على آل أبي أوفى)<sup>2</sup>، فالدعاء تطهير قولي، يدفع صاحبه لمزيد تقرب من الله تعالى، والإنسان يحب سماعه (هذه هي التزكية القولية التي يحب كلّ مسلم أن يسمعها فيعطى، ويجدّ ويجتهد من ليس عنده؛ لسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم)<sup>3</sup>، وفي تذييل الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>4</sup> إشعار بقبول الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم وقبول الطاعات والجزاء عليها<sup>4</sup>، والتجاوز عمّن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

### المسلك الثالث: مسلك التطهير بالتوبة :

ومسلك التطهير بالتوبة يظهر في الهدى القرآني بتوجيه المنافقين وتحضيضهم على أن يتوجهوا بالتوبة إلى ربهم دون محمد صلى الله عليه وسلم ، لتركو سرائرهم وتستقيم ظواهرهم، فالله جلّ وعزّ هو من يقبل توبة عباده وصدقاتهم أو يردها وفي هذا (توطين لقلوبهم على التوبة ببيان أنّ المتولي لقبول توبتهم، وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه)<sup>5</sup> إذ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ...﴾<sup>6</sup>، والله جلّ شأنه يفرح بتوبة عبده الرّاجع إليه والمقلع عن معاصيه والفرع إلى التوبة، فقد أنبأنا رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: (لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى إذا اشتد عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده)<sup>6</sup>، فهذا الذي أنبأنا به رسوله صلى الله عليه وسلم من فرح الله بتوبة عبده (دليل كرمه، وآية جوده، وأنه يسرّه سبحانه وتعالى أوبة عبده حتى يبلغ ذلك السرور مقداراً لا يمكن أن تنتهي المعرفة إليه إلا بأن لا يزال العبد تائباً إلى الله تعالى راجعاً إليه مقلعاً عن كل ما لا يصلح في معاملته إلى ما يصلح من مقتضى أمره

<sup>1</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 78.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ، ومن خصّ أخاه بالدعاء.

<sup>3</sup> تفسير الشعراوي - محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ) - ج 9 ص 5474.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 20.

<sup>5</sup> محاسن التأويل - جمال الدين القاسمي - ج 5 ص 495. بتصرف

<sup>6</sup> صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب التوبة.

وكريم وصاياه، فإنه تتوالى عنده المسار بالعبادات، وتتتابع إليه الأفراح بالطاعات؛ كما يسرّ ربّه سبحانه بتتابع توباته وموالاة إنابته، وهذا في حقّ من يتوب مقبلا بعد إعراض فكيف إذا من يتوالى إقباله ويتتابع إحسانه؟<sup>1</sup>، وختمت الآية الكريمة ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٤﴾ التوبة، فهو المتفرد سبحانه يقبول توبة التائبين الرحيم بهم وإن كثرت ذنوبهم فهو تعالى (لم يزل التجاوز والإكرام من شأنه وصفته)<sup>2</sup> وفي هذا أعظم البشرى للتائبين (ولا شك أن قبول التوبة من الرحمة فتعقيب التواب بالرحيم في غاية المناسبة)<sup>3</sup>، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٤﴾ التوبة.

ومن الهدى القرآني في هذا المقام: الفرح بتوبة العبد الراجع إلى مولاه مقلعاً عن معاصيه (وعلى هذا فينبغي للمؤمنين أن يفرحوا لأخيهم التائب وبه ولأجله فإنه مقام سرور)<sup>4</sup>.

#### المسلك الرابع: مسلك التطهير بالعمل :

وهذا مسلك للتطهير بالترغيب في العمل الصالح والتحضيض عليه، فهو مناط السعادة، لأولئك الذين اعترفوا بذنوبهم فخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ليظهر عملهم الصالح لقوله جلّ وعزّ: ﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْعَلِيِّمِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ (فإنما العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير، ولا بدعوى الجدد والتشمير، وخير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل)<sup>5</sup>، والعمل الصالح هو برهان التوبة الظاهر لقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا﴾ ﴿١١٥﴾ فلهدي القرآني للتائبين من المنافقين هدايتهم للإقبال على العمل الصالح لجر ما انصرم من أوقات قضوها بعيداً عن هدي ربهم (فإنّ التوبة إنما ترفع المؤاخذة بما مضى فوجب على المؤمن الراغب في الكمال بعد توبته أن يزيد من الأعمال الصالحة ليحجر ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقة بأن يعمرها بالحسنات فعمرها بالسيئات فإذا وردت عليها التوبة زالت السيئات وأصبحت تلك المدّة فارغة من

<sup>1</sup> الإفصاح عن معاني الصحاح - يحيى بن هُبَيْرَة، أبو المظفر، عون الدين (المتوفى: 560هـ) - ج 2 ص 43.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 9 ص 13.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 25.

<sup>4</sup> الإفصاح عن معاني الصحاح - يحيى بن هُبَيْرَة أبو المظفر، عون الدين (المتوفى: 560هـ) - ج 6 ص 48.

<sup>5</sup> تفسير المنار - رشيد رضا - ج 11 ص 27.

العمل الصالح، فلذلك أمروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم لأنهم لما قبلت توبتهم كان حقاً عليهم أن يدلوا على صدق توبتهم وفرط رغبتهم في الارتقاء إلى مراتب الكمال حتى يلحقوا بالذين سبقوهم)<sup>1</sup>.

### وسائل التطهير بالعمل :

ومّا يطهر ظاهر التائب وباطنه :

**أولاً :** اعتقاده أنّ الله مطلع على أعماله ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ...﴾<sup>١٥٠</sup>، وأنّه جلّ وعزّ عليه بنيته ومقاصده، فيلتمس رضا ربّه بالتقرّب إليه، فيرسخ عنده: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، فيقبل على إخلاص عمله وإتقانه لإرضاء ربه (وجدير بمن يؤمن برؤية الله لعمله أن يتقنه، وأن يخلص له النية فيه، فيقف فيه عند حدود شرعه، ويتحرى به تزكية نفسه والخير لخلقها، ولا يكتفي فيه بترك معاصيه واجتناب مناهيه)<sup>2</sup>.

**ثانياً :** مراقبة التائب لأعماله فيلتمس مرضاة نبيّه صلى الله عليه وسلم، لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يرى أعماله الظاهرة فيقرّه على ما حسن منها، وينبّهه وينهاه عما قبح منها ليتجنبها ويقلع عنها.

**ثالثاً :** مراقبة التائب لأعماله فيلتمس مرضاة المؤمنين لأنهم (شهداء الله في الأرض)<sup>3</sup> لتحسن عشرتهم له؛ فإنّ عمل عملاً ظاهره الصلاح عاونوه وأقرّوه عليه دون أن ينخدعوا له (قالت عائشة-رضي الله عنها- : إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: ﴿أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾<sup>١٥٠</sup>، ولا يستخفّنك أحد)<sup>4</sup>، وإن عمل غير ذلك أنكروا عليه ونصحوه ثم اجتنبوه (ولأن هؤلاء لما تابوا

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 25.

<sup>2</sup> تفسير المنار - رشيد رضا - ج 11 ص 28 / 27.

<sup>3</sup> صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب ثناء الناس على الميت - وقام الحديث: عن عبد العزيز بن صهيب، قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: مروا بجنّاة، فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وجبت)، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: (وجبت)، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: (هذا أثنتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض).

<sup>4</sup> قال ابن بطال: (ولا يستخفّنك أحد) أي: لا يستخفّنك بعمله، فنظن به الخير، لكن حتى تراه عاملاً على ما شرع الله، ورسوله على ما سنّ، والمؤمنون على ما عملوا. شرح صحيح البخاري - ج 10 ص 532.

<sup>5</sup> صحيح البخاري - كتاب التوحيد - باب قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾<sup>١٧٠</sup> المائدة.

قد رجعوا إلى حضيرة جماعة الصحابة فإن عملوا مثلهم كانوا بمحل الكرامة منهم وإلا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار<sup>1</sup>.

وفي الإخبار بتحقيق الرجوع يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة... ﴿... وَسَتَرْدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ ...﴾ (١٠٥) ﴿...﴾ الإنباء بالأعمال صالحها وسيئها... ﴿... فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ...﴾ (١٠٥) ﴿...﴾ تربية للمهابة في قلوب المؤمنين من يوم يجد فيه العبد ما عمل من خير أو شر محضاً فيجازى به ﴿... يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣١) ﴿...﴾ آل عمران، وحينئذ لا تخفى منهم خافية عنه جلّ وعزّ فقد قال تعالى: ﴿... يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (١٨) ﴿...﴾ الحاقة.

### الفريق الثالث: منافقون أبهموا توبتهم فأبهم الله ما لهم:

﴿...﴾ وَعَآخِرُونَ مُّرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿...﴾ (١١٦) ﴿...﴾ التوبة. هذا فريق ثالث من المنافقين ﴿...﴾ وَعَآخِرُونَ مُّرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ... ﴿...﴾ (١١٦) ﴿...﴾ يختلف حالهم عمّن سبقهم ف(من أهل المدينة منافقون ومنهم آخرون ﴿...﴾ مُرْجُونَ ﴿...﴾)<sup>2</sup>، فقد أبهم ما لهم تخويفا لهم من العذاب ﴿...﴾ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴿...﴾، ليبادروا إلى التوبة، ﴿...﴾ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴿...﴾ رجاء قبول توبتهم، فهم لا يدرون أيعذبون أم يرحمون بتفضل الله عليهم بقبول توبتهم عما مضى منهم؟ (تخويفاً لهم حملاً على المبادرة إلى التوبة وتصفيتها والإخلاص فيها وحثاً على أن يكون الخوف ما دام الإنسان صحيحاً...وثنى بقوله: ﴿...﴾ وَإِمَّا

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 25.

<sup>2</sup> اختلف المفسرون في: من هو المقصود بقوله تعالى: ﴿...﴾ وَعَآخِرُونَ مُّرْجُونَ... ﴿...﴾؟ أم هم المنافقون، أم أمهم الثلاثة الذين خلفوا ولم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار عن تخلفهم في غزوة تبوك وهم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية رضي الله عنهم. والمختار: ما ذهب إليه الزجاج لدلالة السياق على عطف كلمة (وآخرون) على (ومن حولكم من الأعراب) قال: (وآخرون) عطف على قوله: ﴿...﴾ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ... ﴿...﴾ (٣١) ﴿...﴾ التوبة معاني القرآن وإعرابه - ج 2 ص

يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴿١﴾ أي: إن تابوا، ترجية لهم وترقيقاً لقلوبهم بالتذكير بمنزل الأنس الذي أخرجوا أنفسهم منه منعوها من حلوله وطيب مستقره ومقبله وحلي أوقاته وعلي مقاماته وشهي أوقاته<sup>1</sup>.

والهدي القرآني في إبهام حالهم بين التعذيب والتوبة - والله عز وجل عالم بما يصير إليه أمرهم - (إثارة الغم والحزن في قلوبهم لتصح توبتهم)<sup>2</sup>، وعظة وترية للمؤمنين (ومن آثار علمه وحكمته إرجاء النص على توبتهم في كتابه، ومن هذه الحكمة تكرار تأثير تلاوة المؤمنين للآيات في ذلك في الأوقات المتفرقة، فإنها من أعظم آيات القرآن ترهيباً وتخويفاً، وعظة وتهدياً)<sup>3</sup>.

وتذليل الآية بقوله جل وعز: ﴿... وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿١٣٦﴾﴾ التوبة، (تذليل مناسب لإبهام أمرهم على الناس، أي: والله عليهم بما يليق بهم من الأمرين، محكم تقديره حين تتعلّق به إرادته)<sup>4</sup>.

#### الفرع السادس: من مكاييد مردة المنافقين: مسجد الضرار:

هذا فريق رابع من مردة المنافقين<sup>5</sup> الأعراب الذين تعددت مسالكهم في محاولات الهدم من داخل المجتمع الإسلامي فهم (العدو الداخلي الذي ظاهره معنا وهو يعمل ضمن مخططات الأعداء ولصالحهم، وما ينبغي فعله بهؤلاء وبمخططاتهم من خلال قصة مسجد الضرار)<sup>6</sup> ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا<sup>7</sup> وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ...﴾<sup>١٣٧</sup> ومن أعمالهم ومخططاتهم العمل على التفريق بين المؤمنين وتشتيت جماعتهم، لإضعاف صف المؤمنين وتقوية صف المنافقين؛ فبنوا مسجد النفاق واتخذوه مرصداً لإلحاق الضرر بجماعة المؤمنين، وأعدوه ليكون مكاناً

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (المتوفى: 885هـ) - ج 9 ص 14 / 15

<sup>2</sup> تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ) - ج 11 ص 23.

<sup>3</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 30.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 28.

<sup>5</sup> قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير: (هؤلاء كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين بنوا مسجداً يضارون به مسجد قباء) أنظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 468. وتفسير القرآن العظيم - ابن أبي حاتم (ت 327هـ) - ج 6 ص 1880. والتفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 44. وموسوعة التفسير المأثور - إعداد مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي - ج 10 ص 633.

<sup>6</sup> الأساس في التفسير - سعيد حوى - ج 4 ص 2348.

<sup>7</sup> ورد لفظ (الضرار) في القرآن الكريم مرتين: الأولى: في سورة البقرة ﴿... وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَعْتَدُوا...﴾<sup>١٣٧</sup> البقرة. والثانية: في التوبة.

يترقّبون فيه من يكون لهم معينا على تحقيق مآربهم، وقد بين الله تعالى مقاصدهم الأربعة من هذا البناء<sup>1</sup> :

**القصد الأول:** القصد من البناء انتحال صفة المسجد ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾ (١٧) ﴿

ولم يكن في الأصل كذلك فقد اتخذه مسجدا لمضارة أهل مسجد قُباء ومشاققتهم.

**والقصد الثاني:** اتخذهم المسجد (كفراً بالله، لمخادعتهم النبي عليه السلام)<sup>2</sup> وإرادتهم جعل مسجد

الضرار داعية لصرف المؤمنين عن مسجد قباء ليسهل عليهم صرفهم عن الإيمان ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا...﴾ (١٧) ﴿.

**والقصد الثالث:** جمع المنافقين في مسجدهم وتفريق المؤمنين ﴿... وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ (١٧) ﴿.

فيؤدّي ذلك إلى اختلاف الكلمة وبطلان الألفة، وذلك مخالف لمقصد الاجتماع والاتلاف الذي دعا إليه القرآن الكريم ، (فأرادوا أن يفرّقوا عن النبي صلى الله عليه وسلم من يصلي معه من المؤمنين فاتخذوا مسجداً يقطعون به المؤمنين والنبي صلى الله عليه وسلم عن مسجد قُباء)<sup>4</sup>.

**والقصد الرابع:** من بناء مسجد النفاق إعداده وتهيمته ليكون موضع ترقّب بالعداوة للمؤمنين ﴿...

وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ (١٧) ﴿ يتصلون منه بأعداء الله تعالى<sup>5</sup> فيكون لهم ملجأ يأوون إليه ويكون لهم فيه قيادة يتجمعون عليها، محاربة لله ورسوله، فيزيدهم ذلك قوة على نفاقهم، فهم في الانتظار والترقّب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محارباً، فيجد مكاناً مرصداً له، وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك)<sup>6</sup>.

وقد جاء الهدي القرآني مبيناً مسلك التعامل لردّ كيد مردة منافقي مسجد الضرار بما يلي:

<sup>1</sup> أنظر: مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 146. و زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 7 ص 3442. وتفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 31.

<sup>2</sup> الهداية إلى بلوغ النهاية - مكي بن أبي طالب (المتوفى: 437هـ) - ج 4 ص 3152.

<sup>3</sup> جاء في تفسير المنار: والكفر يطلق على الاعتقاد وعلى العمل المنافين للإيمان - رشيد رضا - ج 11 ص 32.

<sup>4</sup> معاني القرآن وإعرابه - الزجاج (المتوفى: 311هـ) - ج 2 ص 468.

<sup>5</sup> قال الطبري: (وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل) يقول: وإعداداً له، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله وكفر بهما، وقاتل رسول الله (من قبل) يعني: من قبل بنائهم ذلك المسجد. جامع البيان في تأويل القرآن ج 14 ص 469.

<sup>6</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 32.

## 1- تكذيبهم وكشف سرائرهم وإبطال كيدهم :

لما أضرر المنافقون وأسروا بينهم مقاصدهم من بناء مسجد النفاق، والتي هي الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، وأطلع الله نبيه على ما أسروا، ولأن شأنهم الأيمان الكاذبة، سارع المنافقون إلى القسم على أنهم أرادوا خيرا ببناء مسجد الضرار... ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَٰى...﴾ ﴿١٧﴾ ولكن الله هتك سرائر المنافقين وكشف ضمائرهم وشهد بكذبهم فقال: ﴿... وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾، وفي فضح الله لهم دلالة واضحة على خطورة جرمهم (وقد بان بهذا كله أن سبب فضيحتهم ما تضمنته فعلهم من عظيم الضرر للإسلام وأهله)<sup>1</sup>.

## 2- حرمانهم من بركة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم فيه :

أراد المنافقون أن ينالوا اليمن والبركة بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم في مسجدهم، ويضيفوا الشرعية على بنائهم، فيضاهون بمسجد الضرار مسجد قباء، (فلما كانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم فيهمفضية إلى ترويح مقصدهم الفاسد صار ذلك وسيلة إلى مفسدة فتوجه النهي إليه)<sup>2</sup> فأبطل الله جلّ وعزّ كيدهم بنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾<sup>3</sup>... ﴿١٨﴾، وفي نهي النبي صلى الله عليه وسلم نهي للمسلمين بالتبع أن يصلوا فيه لأنه فقد صفة المسجديّة، فبطلت بذلك الصلّة فيه أبداً، (وهذا النهي يعمّ جميع المسلمين لأنه لما نُهي النبي عن الصلّة فيه علم أنّ الله سلب عنه وصف المسجديّة فصارت الصلّة فيه باطلة)<sup>4</sup>.

## 3- نفي وصف التقوى في بناء مسجد الضرار :

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (المتوفى: 885هـ) - ج 9 ص 18.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 31.

<sup>3</sup> قال القرطبي: قوله تعالى: (أبدا) ظرف زمان، وظرف الزمان على قسمين: ظرف مقدر كالיום، وظرف مبهم كالحين والوقت، والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر. وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهي أنّ (أبدا) وإن كانت ظرفا مبهما لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم، فلو قال: لا تقم، لكفى في الانكفاف المطلق. فإذا قال: (أبدا) فكأنه قال في وقت من الأوقات ولا في حين من الأحيان... الجامع لأحكام القرآن - ج 8 ص 258.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 31.

وفي إثبات القصد الحسن والغرض النبيل في تأسيس مسجد - مسجد قباء ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم - (على قاعدة راسخة ثابتة وطيدة هي التقوى من الله)<sup>1</sup> نفى لوصف التقوى في تأسيس مسجد الضرار، وفي هذا كشف لخبايا نفوس المنافقين وهم يبنون مسجدهم، (وفيه أيضا دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع)<sup>2</sup>: ﴿... لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ...﴾<sup>3</sup>.

- عن حميد الخراط، قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: مرّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نساءه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفا من حصباء، فضرب به الأرض ثم قال: (هو مسجدكم هذا) لمسجد المدينة، قال: فقلت: أشهد أنني سمعت أباك هكذا يذكره<sup>4</sup>.

- عن ابن أبي سعيد، عن أبيه، قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال آخر: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: (هو مسجدي هذا)<sup>5</sup>.

#### 4- التعريض بأهل مسجد الضرار بأنهم ليسوا أهل طهارة :

<sup>1</sup> إعراب القرآن وبيانه - محيي الدين درويش - ج 4 ص 176.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 31.

<sup>3</sup> قال أبو حيان: (واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى فقال ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وابن المسيب: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة). وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (هو مسجدي) رواه الخدري وأبي بن كعب، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وقال في رواية الوالي والعوئي: هو مسجد قباء، وهو قول الحسن وابن زيد وعروة بن الزبير واختيار الزجاج. التفسير البسيط - ج 11 ص 50. وجمع ابن عاشور بين الحديثين فقال: (ووجه الجمع بين هذين عندي أن يكون المراد بقوله تعالى: لمسجد أسس على التقوى من أول يوم المسجد الذي هذه صفته لا مسجدا واحدا معنا...). التحرير والتنوير - ج 11 ص 32.

<sup>4</sup> صحيح مسلم - كتاب الحج - باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

<sup>5</sup> قال أحمد محمد شاكر محقق جامع البيان في تأويل القرآن: هذا حديث صحيح، رواه الترمذي في كتاب التفسير، ورواه أحمد في مسنده 3: 8، 89، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح). وقد روى هذا عن أبي سعيد من غير هذا الوجه، رواه أنيس

بن أبي يحيى عن أبيه عن أبي سعيد... - جامع البيان في تأويل القرآن: الهامش: 2 - ج 14 ص 480.

في ثناء الله على أهل مسجد التقوى بحب الطهارة القلبية والبدنية، ظاهرا وباطنا، تعريض بمنافقي مسجد الضرار بحيث يواطئهم بالتفاق وظواهرهم بالتجاسات فقال جلّ جلاله: ﴿... فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا...﴾ (١٧٨) ﴿...﴾ (فقصد التنويه بهم بأنهم يتطهرون تقربا إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم إياها، بحيث صارت الطهارة خلقا لهم فلولم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم)<sup>1</sup>، فنالوا بذلك حبّ الله جلّ وعزّ لأنه: ﴿... وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٧٨) ﴿...﴾ (لأنّ نفوسهم وافقت خلقا يحبه الله تعالى، وكفى بذلك تنويها بزكاء أنفسهم)<sup>2</sup>، أما المنافقون فملوثة نفوسهم بالنفاق ولهذا استحقوا التعريض بحالهم.

### الفرع السابع: شتان بين مسجد أسس على التقوى وآخر للضرار:

قابل القرآن الكريم بين تأسيس مسجدين<sup>3</sup>:

**الأول:** التأسيس المبني على مقصد تقوى الله وطلب رضاه، فيتحقق للباني مراده ويدوم بناؤه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ...﴾ (١٧٩) ﴿...﴾ (وهذا يدل على أنّ كلّ شيء ابتدئ بنية تقوى الله، والقصد لوجهه الكريم، فهو الذي يبقى، ويسعد به صاحبه، ويصعد إلى الله ويُرفع إليه)<sup>4</sup>.

**والثاني:** التأسيس على مقصد المضارة والتفريق بين المؤمنين، وتدمير المكائد للمسلمين فيه، فبانيه غير متق لله ولا خاش له، فينهار بناؤه، ويستحقّ الباني له الوعيد الشديد: ﴿... أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...﴾ (١٨٠) ﴿...﴾ (لم يحصل غرض بانيه وهو الضرار والتفريق فخابوا فيما قصده فلم يثبت المقصد، وكان عدم ثباته مفضيا بهم إلى النار كما يفضي

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 32 / 33.

<sup>2</sup> نفسه - ج 11 ص 32 / 33.

<sup>3</sup> قال أبو علي الفارسي: (والقول في ذلك أنه يجوز أن تكون المعادلة وقعت بين البنائين، ويجوز أن يكون بين البانيين، فإذا عادلّت بين البانيين، كان المعنى: المؤسس بنيانه متقيا خيرا أم المؤسس بنيانه غير متق؟ لأنّ قوله: على شفا جرف يدلّ على أن بانيه غير متق لله ولا خاش له، ويجوز أن يقدر حذف المضاف كأنّه: أبناء من أسس بنيانه متقيا خيرا أم بناء من أسس بنيانه على شفا جرف؟). الحجة للقراء السبعة - ج 4 ص 222.

<sup>4</sup> أحكام القرآن - أبو بكر بن العربي - ج 2 ص 588.

البناء المنهار بساكنه إلى الهلاك)<sup>1</sup>.

ولما بنى المنافقون مسجد الضرار وجعلوه لغير عبادة الله، وكانوا ظالمين، لم يستحقوا الهداية: ﴿...وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>١١٩</sup> التوبة، فقد جرت سنة الله جلّ وعزّ أنه لا يوفق الظالمين للرشاد في أقوالهم وأفعالهم (وجملة: والله لا يهدي القوم الظالمين تذييل، وهو عامّ يشمل هؤلاء الظالمين الذين بنوا مسجد الضرار وغيرهم)<sup>2</sup>.

وقد بنى المنافقون بناء الضرار ليجعلوه حسرة على المؤمنين، وتقرّ أعينهم بتفريقهم، فجعله الله جلّ وعزّ حسرة في قلوبهم في الدنيا والآخرة، لأنهم (لما بنوه لغرض فاسد فقد جعله الله سببا لبقاء النفاق في قلوبهم ما دامت قلوبهم في أجسادهم)<sup>3</sup>: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ...﴾<sup>١١٠</sup> التوبة، فهم مع اضطراب نفوسهم وترددهم في الوهم والحيرة، ثابتون على النفاق (إلا أن تقطع قلوبهم بالموت والبلاء، لا يخلص لهم إيمان ولا ينزعون عن النفاق... ولا تتلج قلوبهم بالإيمان أبداً، ولا يندمون على الخطيئة التي كانت منهم في بناء المسجد)<sup>4</sup> ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾<sup>5</sup> فألزموا الضلال بنفاقهم وإقدامهم على بناء مسجد الضرار (وجائز أن يكون الله جلّ ثناؤه جعل عقوبتهم أن ألزمهم الضلال بركوبهم هذا الأمر الغليظ)<sup>6</sup>.

وختمت الآية الكريمة بما يناسب ما انطوت عليه قلوب المنافقين من مقصد بنائهم وشكّهم في دينهم فقال جلّ وعزّ: ﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>١١٠</sup> وفي ذلك تحذير للمنافقين وتنبية للمؤمنين.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 35.

<sup>2</sup> نفسه - ج 11 ص 35.

<sup>3</sup> نفسه - ج 11 ص 36.

<sup>4</sup> الحجة للقراء السبعة - أبو علي الفارسي - ج 4 ص 230.

<sup>5</sup> ويرى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في قوله تعالى: (إلا أن تقطع قلوبهم) استثناءً تحكيمي، وهو من قبيل تأكيد الشيء بما يشبه

ضده كقوله تعالى: (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الأعراف: 40، أي: يبقى ريبة أبداً إلا أن تقطع قلوبهم

منهم وما هي بمقطعة. - التحرير والتنوير - ج 11 ص 36. وقال الزجاج: (وجائز أن يكون الله جل ثناؤه جعل عقوبتهم أن

ألزمهم الضلال بركوبهم هذا الأمر الغليظ). ويجوز: (إلا أن يقطع قلوبهم) معناه إلا أن يموتوا. وقال بعضهم: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع

بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم) - معاني القرآن وإعرابه - ج 2 ص 470.

<sup>6</sup> معاني القرآن وإعرابه - الزجاج - ج 2 ص 470.

### المطلب الثالث: هدايات آيات الوحدة الموضوعية الفرعية السابعة

تضمنت هذه الوحدة هدايات ربانية في بيان بعض سمات مردة منافقي الأعراب ومنافقي المدينة العاملون على هدم المجتمع من الداخل وبيان كيفية معاملتهم على هذا المستوى، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: الهدى القرآني في بيان صفات الأعراب المنافقين<sup>1</sup>:

الصفة الأولى: **شدة كفر الأعراب وشدة نفاقهم**: وذلك لجفاء طباعهم وقسوتهم وغلظة قلوبهم، وهم بطبيعتهم البدوية يجافون كل ما يأتيهم مخالفا لما ألقوه من عقائد وعادات: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾<sup>2</sup> التوبة.

<sup>1</sup> ومن تنزيلات أبي زهرة رحمه الله قوله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾<sup>(٩٧)</sup> التوبة، لقد تم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، والكلام على هذه الآية يدل على أن القرآن من عند الله تعالى علام الغيوب؛ لأنه يدل على أمرين وقعا بعد وفاة الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه:

الأمر الأول: أن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، ولذا ارتدوا أو أكثرهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحاطوا بالمدينة... الأمر الثاني: أنه عندما قويت دولة الإيمان عليهم، وهزموا هزيمة منكرة، رضوا بالصلاة دون الزكاة لأنهم اتخذوها مغرماً، ولم يتخذوها قربات عند الله وتعاونوا بين المؤمنين... ولقد تربص أولئك الأعراب الدوائر بالمؤمنين فانتهزوا فرصة وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وارتدوا فدارت عليهم دائرة السوء. وإن ذلك كله دلائل على أن القرآن من عند الله تعالى العزيز الحكيم. زهرة التفاسير - ج 7 ص 3421.

<sup>2</sup> قال ابن عاشور: (و(أشد) و(أجدر) اسما تفضيل ولم يذكر معهما ما يدل على مفضل عليه، فيجوز أن يكونا على ظاهرهما فيكون المفضل عليه أهل الحضرة، أي كفار ومنافقي المدينة. وهذا هو الذي تواطأ عليه جميع المفسرين؛ وازديادهم في الكفر والنفاق هو بالنسبة لكفار ومنافقي المدينة. ومنافقوهم أشد نفاقاً من منافقي المدينة. وهذا الازدياد راجع إلى تمكن الوصفين من نفوسهم، أي كفرهم أمكن في النفوس من كفر كفار المدينة، ونفاقهم أمكن من نفوسهم كذلك، أي أمكن في جانب الكفر منه والبعد عن الإقلاع عنه وظهور بوادر الشر منهم، وذلك أن غلظ القلوب وجلافة الطبع تزيد النفوس السيئة وحشة ونفوراً. ويجوز أن يكون (أشد) و(أجدر) مسلوبا المفاضلة مستعملين لقوة الوصفين في الموصوفين بهما على طريقة قوله تعالى: (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) يوسف: 33. فالعنى أن كفرهم شديد التمكن من نفوسهم ونفاقهم كذلك، من غير إرادة أنهم أشد كفراً ونفاقاً من كفار أهل المدينة ومنافقيها.

وعلى كلا الوجهين فإن كفراً ونفاقاً منصوبان على التمييز لبيان الإبهام الذي في وصف أشد، سلك مسلك الإجمال ثم التفصيل ليتمكن المعنى أكمل تمكن. التحرير والتنوير - ج 11 ص 12.

**والصفة الثانية: الجهل بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :** وذلك لعدم حضورهم مجالس الذكر، ولقلة مخالطتهم لأهل الخير، ولقلة تلاوتهم القرآن وقلة سماعهم السنن، فهم لذلك أقلّ علماً بحقوق الله عليهم، ﴿...وَأَجْدُرُ الْأَيْعَامُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ...﴾ التوبة.

**والصفة الثالثة: اتخاذهم الإنفاق مغرماً:** فه لا يرجون ثوابا عند الله ولا مجازاة على ما ينفقون، وإنما ينفقون أموالهم كرها، قال الله جلّ وعزّ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا...﴾ ﴿٩٨﴾ التوبة، هذا مقصدهم من الإنفاق فلزم بيان ذلك ليكون مدعاة لاستقامة مقاصد المؤمنين في نفقاتهم.

**والصفة الرابعة: تربص المنافقين الأعراب بالمؤمنين:** بانتظار حلول نوائب الدهر وأحداثه بهم، حتى إذا ضعفوا انتقموا منهم ﴿...وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرُ...﴾ ﴿٩٨﴾ التوبة، والهدي القرآني في ردّ كيد تربص المنافقين بالمؤمنين ﴿...عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾ التوبة، الدعاء عليهم بمثل تربصهم لتكون دائرة السوء عليهم .

**ثانياً: ومن الهدي القرآني: مقابلة حال المنافقين من الأعراب بحال المؤمنين منهم:** بذكر محاسن المؤمنين من الأعراب والثناء عليهم بقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخَلُوهَا اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ﴾ ﴿٩٦﴾ التوبة.

**ومن الهدي القرآني في هذا المقام تبصير المنافقين بأحوال الأعراب المؤمنين الذين ذكر مناقبهم ونالوا شرف شهادة الله لهم ب :**

1- الإيمان بالله وباليوم الآخر ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ ﴿٩٦﴾ في مقابل شدة كفر وشدة نفاق الآخرين من الأعراب.

2- التقرب إلى الله جلّ وعزّ بإنفاقهم ﴿...وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ...﴾ ﴿٩٦﴾ ليحققوا مقصدين:

**الأول:** ابتغاء الزلفى عند الله جلّ وعزّ طلباً لمرضاته.

**والثاني:** رجاء بركات دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم لهم لينالوا خيري الدنيا والآخرة.

3- نالوا البشارة ابتداء بقبول قرباتهم لإيمانهم وإخلاصهم في نفقاتهم: ﴿... أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ...﴾ ﴿٩٦﴾

4- ونالوا البشارة انتهاء بالجنة ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ..﴾ (١١) وما أدل هذا الكلام على رضى الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها.

**ثالثا: في مقام التنويه بشأن المؤمنين من الأعراب نبه القرآن الكريم إلى: أن فوق منزلتهم منازل أعلى وأعظم، وهي منازل السابقين الأولين قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَىٰ آلِ الْبَيْتِ الْمَكِينِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠) التوبة، والهدي القرآني هنا حفظ اللاحقين لمقام السابقين والتنويه بشأنهم ومكانتهم، ليكونوا لهم وللمؤمنين القدوة الصالحة والمثل المتبع.**

**رابعا: الهدي القرآني في بيان أحوال مردة المنافقين وكيفية التعامل معهم:**

حذق مردة المنافقين طرق التخفي فلا يكاد أحد يشعر بنفاقهم ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فلما بلغوا في النفاق مبلغ المهارة والدرية، وصار لهم النفاق خلقا، وذلت له ظواهرهم وبواطنهم، وعزّ اكتشاف أمر نفاقهم قال جلّ وعزّ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلمهم فإن غيره من المسلمين أجدر ألا يعلموا من حال هؤلاء المنافقين شيئا، فكيف يكون التعامل معهم؟.

**أولا: مردة المنافقين المصرون على نفاقهم:** لما كان مردة المنافقين يحسنون إخفاء نفاقهم ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ﴾ وأن الله جلّ وعزّ هو العالم بدخائل نفوسهم المطلع على سرائرهم، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، فيكون الهدي القرآني في التعامل مع مردة المنافقين عدم تكلف المسلمين البحث في شؤونهم وتتبع عوراتهم، ولكن عليهم الانشغال بتهديب نفوسهم وتركيتها. وفي جعل العلم بأحوال المنافقين من خصائصه جلّ وعزّ وفي ذلك: تيسيس للمؤمنين من معرفة مردة المنافقين بأعيانهم، وتهديد للمنافقين أن يستمرّوا على نفاقهم خشية أن ينزل عليهم عذاب الله، قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١١) التوبة.

**ثانيا: مردة المنافقين المعترفون بذنوبهم ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا:**

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا...﴾ (١١٢) ﴿التوبة، فالهدي القرآني بتصديق ظواهر اعترافهم في إقرارهم بالذنب، وحسن الظن بهم، وعدم التشكيك في حالهم، والمقصد مساعدتهم على التخلص مما هم فيه من النفاق وسوء الحال ومرافقتهم للخروج من حال إلى حال قال جلّ وعزّ: ﴿...عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ...﴾ (١١٢) ﴿التوبة.

- ومن الهدي القرآني في هذا المقام تبشير التائبين والرحمة بهم ﴿...إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٢) ﴿، ووعدهم منه جلّ وعزّ بالتجاوز عنهم، وأنّ التوبة تزيل الشرور.

**وللتلقي في سلم التوبة مسالك متنوعة في التخليّة من النفاق والشرور، والتخليّة بالفضائل والمكرّمات، منها:**

1- **مسلك التطهير<sup>1</sup> بالصدقة** : لما كان الانشغال بالمال جمعا واكتنازا من أسباب البعد عن الله، كان الهدي القرآني بالتكليف بالإنفاق لتطهير القلب من الأثرة والبخل، فيكون الإنفاق وسيلة للقرب من الله عز وجل، ليرتفع به صاحبه من منازل المنافقين إلى منازل المؤمنين المخلصين ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾ (١١٣) ﴿التوبة.

2- **مسلك التطهير بالدعاء** : وفي مسلك التطهير بالدعاء ﴿...وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ...﴾ (١١٣) ﴿التوبة. تطهير قولي، يدفع صاحبه لمزيد تقرب من الله تعالى، لأنّ الإنسان يحب أن

<sup>1</sup> جاء في تفسير المنار: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ والتزكية للأنفس بالفعل تسند إلى الله تعالى؛ لأنه هو الخالق المقدر الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١) ﴿النور.

- وتسند إلى الرسول ﷺ لأنه هو المرئي للمؤمنين على ما تزكو به أنفسهم، ويعلو قدرها بسنته العملية والقولية في بيان كتاب الله، وما لهم فيه من الأسوة الحسنة ومنه هذه الآية، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا يُنَبِّئُهُمْ بِتِلْكَ آيَاتِهِ وَتُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الجمعة، فتزكيتهم ﷺ للأمة من مقاصد البعثة.

- وتسند إلى العبد لكونه هو الفاعل لما جعله الله سببا لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات وغيرها من أعمال البر ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (٢) ﴿الشمس. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٣) ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (٤) ﴿

﴿الأعلى... تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 20.

يسمعه فيعطي، ويجدّ ويجتهد، والهدي القرآني إظهار الاهتمام بشأن المعترفين بذنوبهم والمقرّين بخطاياهم بالدعاء لهم فتطيب بذلك نفوسهم ويقوى رجاؤهم في قبول الله منهم فتحسن توبتهم.

- من الهدي القرآني في معاملة المعترفين بذنوبهم والمقرّين بخطاياهم صلّتهم بالدعاء والاستغفار لهم ليكون ذلك عوناً لهم على دوام صلّتهم بالله جلّ وعزّ وسكون نفوسهم من بعد قلق الخوف من عاقبة الذنب.

**2- مسلك التطهير بالتوبة:** ومسلك التطهير بالتوبة يظهر في الهدي القرآني بتوجيه المنافقين وتحضيضهم على أن يتوجهوا بالتوبة إلى ربّهم، فهو المتفرد سبحانه بقبول توبة التائبين، الرّحيم بهم وإن كثرت ذنوبهم فهو تعالى لم يزل التجاوز والإكرام من شأنه وصفته، وفي ذلك توطين لقلوبهم على التوبة، لتزكو سرائرهم وتستقيم ظواهرهم، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ...﴾ (١١٤) التوبة.

- ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٤) وهذه الجملة الاسمية المؤكدة ب(أَنَّ) وبضمير الفصل، الدالة على الحصر، وما فيها من صيغة المبالغة بمعنى الكثرة من التوبة، ومبالغة الصفة الراسخة من الرّحمة تفيد أعظم البشرى للتائبين، وأبلغ الترغيب في التوبة للمذنبين، كما لا يخفى على المتدبرين<sup>1</sup>.

- ومن الهدي القرآني في هذا المقام: فرح المؤمنين بتوبة العبد<sup>2</sup> الرّاجع إلى مولاه المقلع عن معاصيه فإنّه مقام سرور، لأنّ الله جلّ شأنه يفرح بتوبة عبده.

### 3- مسلك التطهير بالعمل الصالح :

الهدي القرآني في معاملة التائبين وحثّهم على العمل الصالح : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ وفي هذا هداية قرآنية للمؤمنين كي يعملوا الصالحات ويحتّوا غيرهم عليها والعمل الصّالح هو برهان التوبة الظاهر ولتحقيق ذلك وسائل:

<sup>1</sup> تفسير المنار - رشيد رضا - ج 11 ص 27.

<sup>2</sup> وهو المعنى الموجود في تبويب البخاري: (ومن خصّ أخاه بالدعاء) - صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ، ومن خصّ أخاه بالدعاء.

**الوسيلة الأولى:** اعتقاد العامل أن الله مطلع على أعماله ﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ...﴾ (١٠٥)

﴿، وأنه جلّ وعزّ عليم بنيته ومقاصده، فيلتبس رضى ربه بالتقرب إليه وحري بمن يؤمن برؤية الله لعمله أن يخلصه ويتقنه.

**والثانية:** مراقبة التائب لأعماله فيلتبس مرضاة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ليدعو له: ﴿وَقُلِ

أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ...﴾ (١٠٥)

**والثالثة:** مراقبة التائب لأعماله فيلتبس مرضاة المؤمنين فهم شهداء الله في الأرض، فيستقيم عمله

الاجتماعي ﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾ (١٠٥).

**ومن الهدي القرآني في هذا المقام:** تربية المهابة في قلوب المؤمنين بالإخبار بتحقيق الرجوع يوم

القيامة إلى عالم الغيب والشهادة ﴿...وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...﴾ (١٠٥) ﴿والإنباء بالأعمال

صالحها وسيبها: ﴿فَيَنْتَكِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ...﴾ (١٠٥).

### ثالثا: منافقون أبهموا حال توبتهم فألبهم مآلهم

والهدي القرآني في إبهام حال من أبهموا توبتهم من المنافقين بين التعذيب والتوبة - والله عزّ وجلّ عالم بما

يصير إليه أمرهم - ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ﴾ (١١٦) التوبة، تخويفا لهم و (إثارة الغمّ والحزن في قلوبهم لتصحّ توبتهم)<sup>1</sup>، وهي عظة وتربية

للمؤمنين.

### رابعا: من مكاييد مردة المنافقين: بناء مسجد الضرار

- تنوع كيد مردة المنافقين في العمل على محاولات الهدم من داخل المجتمع الإسلامي فهم في

ظاهرهم أنهم مع المؤمنين وفي حقيقتهم يعملون ضمن مخططات الأعداء ولصالحهم.

فأرادوا كيدا ب:

1- انتحال صفة المسجدية لبنائهم لتحقيق مآربهم، لمضاورة أهل مسجد قُباء ومشاققتهم، فأبطل الله

كيدهم وسماه (ضرارا): ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾ (١١٧) التوبة.

<sup>1</sup> تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ) - ج 11 ص 23.

2- انتحال صفة المسجدية لبنائهم لمخادعة النبي صلى الله عليه وسلم ولجعل مسجدهم داعية لصرف المؤمنين عن الإيمان: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا...﴾<sup>(١٧)</sup>.

3- انتحال صفة المسجدية لبنائهم لجمع المنافقين وتفريق المؤمنين ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١٧)</sup> التوبة.

4- انتحال صفة المسجدية لبنائهم ليكون موضع ترقب بالعداوة للمؤمنين، ويكون للمنافقين ملجأ يأوون إليه لإعداد المكائد والدسائس محاربة لله ورسوله ﴿... وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾<sup>(١٧)</sup> التوبة.

### الهدى القرآني في معاملة أهل مسجد الضرار

والهدى القرآني في التعامل مع كيد المنافقين ومخططاتهم التي تلحق الضرر بالإسلام والمسلمين:

أ - عدم الانخداع بأعمالهم وإن كانت في ظاهرها تبدو صالحة - مسجد الضرار - ، مع الكشف والبيان والتحذير منها، والشهادة على خطرها لإبطالها.

ب - عدم الانخداع بأقوالهم وإن كانت أيمانا؛ لأن شأهم الأيمان الكاذبة ﴿...وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ...﴾<sup>(١٧)</sup>، فالمنافقون يسارعون دائما إلى القسم على أنهم يريدون الخير.

ج - تكذيبهم بشهادة الله عليهم بالكذب ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾<sup>(١٧)</sup> التوبة.

### سوء عواقب بناء مسجد الضرار والعقوبات الربانية لأهله :

سوء الباعث على بناء مسجد الضرار فمال المنافقون سوء العاقبة:

**الأولى:** لما كانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد الضرار مفضية إلى ترويج مقاصد المنافقين صار ذلك وسيلة إلى مفسدة؛ فأبطل الله جلّ وعزّ كيدهم بنهي رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا<sup>1</sup>...﴾<sup>(١٨)</sup> التوبة، وفي نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن القيام فيه، نهي لجميع المسلمين لأنه فقد صفة المسجدية.

<sup>1</sup> قال القرطبي: قوله تعالى: (أبدا) ظرف زمان، وظرف الزمان على قسمين: ظرف مقدر كاليوم، وظرف مبهم كالحين والوقت، والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر. وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهي أنّ (أبدا) وإن كانت ظرفا مبهما لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا

**والثانية:** إبطال دعوى المنافقين ﴿... إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ...﴾ (١٧٧) ﴿التوبة﴾؛ ففي إثبات القصد الحسن والغرض النبيل في تأسيس مسجد قباء ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفياً لوصف التقوى في تأسيس مسجد الضرار ﴿... لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ...﴾ (١٧٨) ﴿التوبة﴾.

**والثالثة:** امتداح أهل مسجد التقوى ﴿... فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا...﴾ (١٧٨) ﴿التوبة﴾، فنالوا بذلك حبَّ الله جلَّ وعزَّ لهم لأنه: ﴿... وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٧٨) ﴿التوبة﴾، والتعريض بالمنافقين لعدم أهليتهم للطاهرة الروحية والبدنية، لأنَّ نفوسهم ملوثة بالنفاق فاستحقوا التعريض بحالهم.

**والرابعة:** إثبات سوء قصد المنافقين ببناء مسجد الضرار وبيان سوء مآله ﴿... أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأْتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...﴾ (١٧٩) ﴿التوبة﴾<sup>2</sup>.

**والخامسة:** حرمان المنافقين من الهداية بسبب ظلمهم لأنهم وضعوا التفاف موضع الإيمان، وقد جرت سنة الله جلَّ وعزَّ أنه لا يوفق الظالمين للرشد في أقوالهم وأفعالهم ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٨٠) ﴿التوبة﴾.

- ومن الهدي القرآني في هذا المقام أنَّ أساس قبول العمل بحسب مقصد صاحبه فإنه مهما كان العمل في ظاهره طاعة وعبادة، وأدى هذا العمل إلى التفريق بين المؤمنين وإلحاق الضرر بهم فإنَّ صاحبه ظالم وإن أظهر الصَّلاح والخير.

النافية أفاد العموم، فلو قال: لا تقم، لكفى في الانكفاف المطلق. فإذا قال: (أبدا) فكأنه قال في وقت من الأوقات ولا في حين من الأحيان... الجامع لأحكام القرآن - ج 8 ص 258.

<sup>1</sup> قال ابن العربي في المسألة السادسة: (قوله تعالى: (أحق) التوبة: 108: هو أفعل من الحق، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين، لأحدهما في المعنى الذي اشتركا فيه مزية على الآخر، فيحلى بأفعل، وأحد المسجدين وهو مسجد الضرار باطل لا حظَّ للحقَّ فيه، ولكن خرج هذا على اعتقاد بانيه أنه حق، واعتقاد أهل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أو قباء أنه حق، فقد اشتركا في الحق من جهة الاعتقاد، لكن أحد الاعتقادين باطل عند الله، والآخر حق باطنا وظاهرا). أحكام القرآن - ج 2 ص 587.

<sup>2</sup> قال ابن العربي: قوله تعالى (فاتحار به في نار جهنم) التوبة: 109: قيل: إنه حقيقة، (وإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إليه فهدم رأي الدخان يخرج منه)، من رواية سعيد بن جبير وغيره: حتى رأي الدخان في زمان أبي جعفر المنصور. وقيل: هذا مجاز، المعنى أنَّ مآله إلى نار جهنم، فكأنَّه اتَّحار إليه، وهوى فيه. أحكام القرآن - ج 2 ص 588.

**والسادسة:** أُلْزِمُوا الضَّلَّالَ بِنِفَاقِهِمْ وَإِقْدَامِهِمْ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ الضَّرَّارِ، فَثَبَّتَتْ حَسْرَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿لَا يَزَالُ بُنِيَ لَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ...﴾ (التوبة).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الفصل الخامس

### قاعدة استقرار المجتمع الإسلامي وأسس بنائها

#### الوحدة الموضوعية الرابعة

من الآية: الحادية عشرة بعد المائة إلى الآية التاسعة عشرة بعد المائة (111/ 119).

المطلب الأول: قاعدة الاستقرار في المجتمع الإسلامي وأسس بنائها

المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الرابعة

المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الرابعة

## الفصل الخامس

## قاعدة استقرار المجتمع الإسلامي وأسس بنائها.

## الوحدة الموضوعية الرابعة

من الآية: الحادية عشرة بعد المائة إلى الآية التاسعة عشرة بعد المائة (111/ 119).

تمهيد:

بعد أن بيّن القرآني الكريم عداوة الشركين للسلمين ونقضه للعهود والمواثيق هدى لبيان علاقة المسلمين مع المشركين والكفار، ثم بين حقيقة عقيدة اليهود والنصارى وحقيقة عبادتهم هدى القرآن الكريم إلى بيان علاقة السليين بأهل الكتاب اليهود والنصارى، ثم بيّن القرآن حقيقة الفئة الأخطر على المجتمع المسلم إنها فئة المنافقين وهدى العلاقة بالنافقين بعد بيان صفاتهم وصفات المردة منهم ، ومسالكتهم في الهدم من داخل المجتمع الإسلامي، وفضح كيدهم في العمل على التفريق بين المؤمنين لإضعاف صفهم وتقوية صفّ المنافقين، لما ذكر ذلك كلّ، جاء الحديث القرآني على القاعدة التي يبنى عليها الاستقرار في المجتمع الإسلامي وأساس بنائها الصّفقة الرابعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴾ ﴿ ١١١ ﴾ التوبة، التي تؤهل المسلمين ليكونوا من المؤمنين حقّ الإيمان، البالغين فيه ما هو غاية له من الكمال، فيصلح الفرد ويعلو شأنه في المجتمع الإسلامي، وتصلح الجماعة ويعلو شأنها بالجهاد في سبيل الله.

المطلب الأول: قاعدة استقرار المجتمع الإسلامي وأسس بنائها.

الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الرابعة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿ ١١١ ﴾ التَّيْبُوتِ الْعِيدُونَ الْحِمْدُونَ السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ ١١٢ ﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿ ١١٣ ﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ ﴿ ١١٤ ﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ

قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ التوبة.

### الفرع الثاني : أسباب النزول

قال الطبري: واختلف أهل التأويل في السبب الذي نزلت هذه الآية فيه<sup>1</sup>.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾ عن ابن شهاب قال<sup>2</sup>: أخبرني سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره: أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله). فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك) فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ ﴿١١٣﴾ الآية<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> جامع البيان عن تأويل آي القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 509..

<sup>2</sup> صحيح البخاري- كتاب الجنائز- باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله. وصحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله بزيادة: وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَا تَكُنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ القصص.

<sup>3</sup> وتام الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾.

وهذه العبارة (...فأنزل الله تعالى فيه...)، الواردة في رواية البخاري، والعبارة الواردة في رواية مسلم: (فأنزل الله عز وجل)، نصّ في كون: استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمّه سبب نزول هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾<sup>1</sup> التوبة، ولذلك ف: (إِنَّ استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمّه أبي طالب هو سبب نزول الآيتين الكريمتين، لصحة سنده، وموافقته لسياق القرآن، وميل جمهور العلماء إليه وتصريحه بالنزول)<sup>1</sup>.

إشكال: إن سبب نزول هذه الآية مشكل من جهة: كون أبي طالب مات قبل الهجرة بثلاث سنوات<sup>2</sup> وسورة التوبة من أواخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد نزلت في السنة التاسعة للهجرة في أعقاب غزوة تبوك، ووقعت (غزوة تبوك في رجب سنة تسع)<sup>3</sup>.

والسؤال<sup>4</sup>: هل نزلت الآية بسبب استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمّه بمكة، ثم وضعت الآية في موضعها في سورة التوبة بالمدينة؟.

أم أنها نزلت مع غيرها من الآيات في سورة براءة مبينة لحكم الاستغفار للمشركين؟ أم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم استمرّ في الاستغفار لعمّه حتى نزلت عليه الآية في المدينة، فيكون حكم استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لعمّه مما تشمله الآية الكريمة؟. ولعلّ هذا يرفع الإشكال، وهو ما مال إليه القاسمي في تفسيره حيث قال: (ساق المفسرون ها هنا روايات عديدة في نزول الآية، ولما رآها بعضهم متنافية، حاول الجمع بينها بتعدّد النزول، ولا تنافي، لما قدمناه من أنّ قولهم (نزلت في كذا) قد يراد به أنّ حكم الآية يشمل ما وقع من كذا بمعنى أنّ نزولها يتناولها)<sup>5</sup>، وهو الذي

<sup>1</sup> المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة، دراسة الأسباب رواية ودراية - خالد بن سليمان المزيني - ج 1 ص 614.

<sup>2</sup> جاء في الرحيق المختوم: (وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر. وقيل: توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام). الرحيق المختوم - المباركفوري - ص 103.

<sup>3</sup> سيرة ابن هشام (ت 218 هـ) - ج 2 ص 515.

<sup>4</sup> أنظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 509. التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 74. المحرر الوجيز - ابن عطية - ج 3 ص 90. وتفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 46. و تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن - محمد الأمين الهرري الشافعي - ج 12 ص 67.

<sup>5</sup> محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي - ج 5 ص 516. وانظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن - محمد الأمين الهرري الشافعي - ج 12 ص 67. والتفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 74.

تطمئن إليه النفس .

### الفرع الثالث: المناسبات

بعد أن ذكر الله جلّ وعزّ صفات مردة المنافقين من الأعراب ومن أهل المدينة، ومسالكهم في الهدم من داخل المجتمع الإسلامي، وبين لهم مسالك التطهر من رجس النفاق، وفضح كيدهم في بنائهم لمسجد الضرار؛ للعمل على التفريق بين المؤمنين وتشتيت جماعتهم، لإضعاف صفّهم وتقوية صفّ المنافقين، لما ذكر ذلك، قابله بالصفقة الرابحة التي تؤهل صاحبها ليكون من أهل الجنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴾<sup>1</sup> التوبة، لإخراج المنافق من داعية هواه وإغرائه لبيع نفسه وماله لربّه لينال الخلود في الجنة، و(هاتان الآيتان<sup>1</sup> في بيان حال المؤمنين حقّ الإيمان، البالغين فيه ما هو غاية له من الكمال، وضعتا بعد بيان حال المنافقين، وأصناف المؤمنين المقصرين، ومنهما تعرف جميع درجات المسلمين، ولا سيما المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله)<sup>2</sup>.

### الفرع الرابع: موضوعات الوحدة الموضوعية الرابعة:

- أساس الاستقرار: الصفقة الرابحة بالجهاد في سبيل الله
- صفات المؤمنين البائعين أنفسهم وأموالهم لله
- البراءة من أموات المشركين ومن المنافقين
- سنّة الله في الهداية والإضلال
- التسامح أساس آخر للاستقرار
- أساس آخر للاستقرار صلاح علاقة المؤمنين برّبهم صلاح علاقة المؤمنين بغيرهم
- القدوة بالأنبياء أساس الاستقرار - ذكر علاقة إبراهيم بأبيه -
- أساس آخر للاستقرار: توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا

<sup>1</sup> الآيتان 111 و 112 من سورة التوبة.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 39.

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الخامسة.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِّبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ التوبة.

### الفرع الأول: الصفة الرابعة :

في شراء الله جلّ وعزّ أنفس المؤمنين وأموالهم بالجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ... ﴿١١١﴾﴾ التوبة، ترغيب لهم في الجهاد بالنفس والمال، فقد (ثامنتهم الله، فأغلى لهم الثمن)<sup>1</sup>، فقد أعطاهم أكثر مما يستحقون، (وأنّ الربح لم يأت على مقدار الشراء، بل زاد عليه وأربى)<sup>2</sup>. وقال ابن عباس في قوله: (وَأَمْوَالَهُمْ): (يريد التي ينفقونها في سبيل الله، وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالاتهم فتفنى، اشترى الجنة التي لا تفنى ولا تبيد ولا تذهب)<sup>3</sup>.

وإنّ (المتأمل لا يرى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية الكريمة)<sup>4</sup>، وفيها إغراء للمنافقين للإقبال على الصدق مع الله في إيمانهم ليكونوا مع المؤمنين مجاهدين لإعلاء دين الله ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ... ﴿١١١﴾﴾ التوبة، في سبيل الله لينالوا الخلود في الجنة، (وحقيقة هذا أنّ المؤمن متى ما قاتل في سبيل الله حتى يقتل فتذهب روحه، أو أنفق ماله في سبيل الله، أخذ من الله في الآخرة الجنة جزاءً لما فعل، فجعل هذا استبدالاً واشتراء، هذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ... ﴿١١١﴾﴾ التوبة)<sup>5</sup> (أنهم يقاتلون في سبيل الله، فمنهم من يقتل أعداء الله، ومنهم من يقتل على أيدي هؤلاء الأعداء، وكلا الفريقين القتال والمقتول جزاؤه الجنة)<sup>6</sup>، (يقتلون) المبني للفاعل وحمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول، فدلّت القراءتان على أن الواقع هو أن

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 499.

<sup>2</sup> التيسير في أحاديث التفسير - محمد المكي الناصري - ج 3 ص 23.

<sup>3</sup> تفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 66.

<sup>4</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 4 ص 21.

<sup>5</sup> نفسه - ج 11 ص 64.

<sup>6</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 6 ص 409.

يقتل بعضهم ويسلم بعض، وأنه لا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل، والمثوبة عند الله عز وجل، إذ كل منهما في سبيله لا حبا في سفك الدماء، ولا رغبة في اغتنام الأموال، ولا توسلا إلى ظلم العباد...<sup>1</sup>، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَكْفُلُ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَتَصَدِّقُ بِكَلِمَاتِهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ)<sup>2</sup>.

ومما يزيد المؤمنين المجاهدين ترغيبا والمنافقين إغراء؛ كون الوعد الحقّ بالجنة من الله جلّ وعزّ ثابت في التوراة والإنجيل وفي القرآن ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ...﴾<sup>3</sup> التوبة، وهذا (يعني أنّ وعد الله للمجاهدين بأنّ لهم الجنة، هو وعد حقّ ثابت في التوراة والإنجيل وفيه دليل على أنّ الجهاد موجود في جميع الشرائع، ومكتوب على الجميع الملل السماوية)<sup>4</sup>.

ومما يزيد المؤمنين المجاهدين ترغيبا والمنافقين إغراء كون الوعد من الله تعالى القائل: ﴿... وَمَنْ أَوْفَا بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ...﴾<sup>5</sup> التوبة، فلا يوجد أحد أشدّ وفاءً بالعهد من الله تعالى<sup>5</sup>.

ثم زادهم ترغيبا فأمرهم أن يفرحوا وأن تظهر عليهم علامات الاستبشار ﴿... فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعَاكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ...﴾<sup>6</sup> التوبة. (وهل يستبشر الإنسان بالبيع؟ نعم؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغني عنه عادة، ويشترى ما يحتاج إليه، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء، فالؤمن هنا يبيع فانياً بياق)<sup>6</sup>.

ثم زادهم ترغيبا فأخبر المؤمنين بأنه لا فوز أعظم من فوزهم ذلك بأنهم باعوا فانياً بياق ﴿... وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>7</sup> التوبة. (إذن فهناك: فوز، وهناك: فوز عظيم، والفوز في الدنيا أن يتمتع الإنسان

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 40.

<sup>2</sup> سنن الدارمي - كتاب الجهاد - باب فضل الجهاد.

<sup>3</sup> ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ...﴾<sup>3</sup> التوبة، فيها معنيان: الأول: أنّ كل أهل ملّة أمروا بالقتال ووعدوا عليه

الجنة، وهو رأي الزجاج. والثاني: أنّ الله تعالى بين في الكتابين أنه اشترى من أمة محمد ﷺ أنفسهم وأموالهم بالجنة، كما بين في القرآن، وهو مروى عن ابن عباس، وهو الذي رجحه الواحدي في تفسيره البسيط - ج 11 ص 65. وانظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي - ج 2 ص 391. ولا تعارض بين المعنيين. والله أعلم.

<sup>4</sup> التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ج 4 ص 21.

<sup>5</sup> قال الواحدي: وهذا استفهام معناه الإنكار، أي: لا أحد أوفى بما وعد من الله تعالى. التفسير البسيط - ج 11 ص 66.

<sup>6</sup> تفسير الشعراوي - محمد متولي الشعراوي (ت 1418هـ) - ج 9 ص 5520.

بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التي تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه)<sup>1</sup>.

وبهذا فقد (أعلى الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين في سبيله فجعلهم بفضلهم مالكين معه، ومبايعين له، ومستحقين للثمن الذي بايعهم به، وأكد لهم أمر الوفاء به وإنجازه)<sup>2</sup> وهم أهل لذلك لأنهم قبلوا البيع فلم يقلوا ولم تستقبلوا؛ فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...﴾ التوبة، إلى آخر الآية، فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي رداؤه على أحد عاتقيه فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ فقال: (نعم)، فقال الأنصاري: بيع ربيع لا نقيلا ولا نستقيلا)<sup>3</sup>. (ترغيب المؤمنين في الجهاد ببيان فضيلته إثر بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء)<sup>4</sup>.

### الفرع الثاني: صفات<sup>5</sup> المؤمنين البائعين أنفسهم وأموالهم لله

وبما أن الله تعالى قد رغب المؤمنين في الجهاد بالنفس والمال فقد بين لهم الصفات الحسنة التي تؤهلهم ليكونوا أهلا للبشارة الكبرى من ربهم جلّ وعزّ... ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة، فقد جادوا

<sup>1</sup> تفسير الشعراوي - محمد متولي الشعراوي - ج 9 ص 5521.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 40.

<sup>3</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن أبي حاتم (ت 327هـ) - سورة التوبة - قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) - ج 6 ص 1886.

<sup>4</sup> إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود - ج 4 ص 104.

<sup>5</sup> قال ابن عاشور: أسماء الفاعلين هنا أوصاف للمؤمنين من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ التوبة، فكان أصلها الجر، ولكنها قطعت عن الوصفية وجعلت أخبارا لمبتدأ محذوف هو ضمير الجمع اهتماما بهذه النعوت اهتماما أخرجها عن الوصفية إلى الخبرية، ويسمى هذا الاستعمال نعتا مقطوعا، وما هو نعت اصطلاحى ولكنه نعت في المعنى. التحرير والتنوير - ج 11 ص 40. وفي الهامش (3) في التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 67 ... قال النحاس في "إعراب القرآن" 43/2: (التائبون) رفع على إضمار مبتدأ عند أكثر النحويين، أي: (هم التائبون)، وهذا ما اعتمده أبو البقاء العكبري في "التبيان" ص 431، وابن جني في "المحتسب" 305/1، والزحشر ي في "الكشاف" 216/2، وقد ذكر المذهب المذكور بصيغة التمريض (قيل) الزحشر في الموضوع السابق، وأبو حيان في "البحر المحيط" 103/5.

بأنفسهم وأموالهم فجاد الله عليهم بالبشارة بالجنة ل(أن المؤمنين الكاملين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى هم المتصفون بالصفات السبع، والحافظون مع ذلك لجميع حدود الله في كل أمر ونهي)<sup>1</sup>.

وإنما حاز هؤلاء هذا الفضل لأنهم اتصفوا بصفات المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم:

أ- فهم ﴿التَّائِبُونَ...﴾ (١١٢) التوبة، الراجعون عن حال النفاق<sup>2</sup> والمعاصي إلى حال إخلاص الإيمان لله جلّ وعزّ فهم (الراجعون مما كرهه الله وسخطه إلى ما يحبّه ويرضاه)<sup>3</sup>، وقد بُدئت (أوصافهم بالتوبة التي هي أساس العمل الصالح)<sup>4</sup>.

ب - وهم ﴿الْعَبِيدُونَ...﴾ (١١٣) التوبة، الذين صفت نفوسهم فذلت جوارحهم بالطاعة لله فخلصت عبادتهم لربهم جلّ وعزّ (فهم الذين ذلوا خشيةً لله وتواضعاً له، فجدّوا في خدمته)<sup>5</sup>.  
(والعابد هو المحسن الذي فسّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله، (أن تعبد الله كأنك تراه) الحديث<sup>6</sup>، وبأدنى عبادة يؤديها المرء المسلم يقع عليه اسم عابد ويحصل في أدنى رتبته وعلى قدر زيادته في العبادة يحصل الوصف)<sup>7</sup>، مع ملازمة ذلك والمداومة عليه.

ج - وهم ﴿الْحَامِدُونَ...﴾ (١١٤) التوبة، الراضون بقضاء الله، الذين يحمدون ربهم في السراء وفي الضراء،(الراضون بقضائه المصروفون نعمته في طاعته، الذين يحمدون الله على كل حال)<sup>8</sup> فيذكرونه (بأوصافه الحسنى في كل حال وعلى السراء والضراء وحمده لأنه أهل لذلك)<sup>9</sup>، وعلى هذا جاء الهدي النبوي فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا أتاه الأمر

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 45.

<sup>2</sup> أنظر الآثار التي ساقها ابن جرير الطبري لمعاني ﴿التَّائِبُونَ...﴾ (١١٢) - جامع البيان في تأويل القرآن - ج 14 ص 501 .

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 500.

<sup>4</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (المتوفى: 885هـ) - ج 6 ص 26.

<sup>5</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 501.

<sup>6</sup> رواه البخاري - كتاب الإيمان - باب سؤال جبريل النبي صلّى الله عليه وسلّم عن الإيمان. ومسلم - كتاب الإيمان - باب معرفة الإيمان.

(قال : ما الإحسان ؟ قال : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " )

<sup>7</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 88.

<sup>8</sup> الجامع لأحكام القرآن - القرطبي (المتوفى: 671هـ) - ج 8 ص 269.

<sup>9</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 89.

يسره قال: (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات)، وإذا أتاه الأمر يكرهه، قال: (الحمد لله على كل حال)<sup>1</sup>.

د - وهم ﴿السَّائِحُونَ...﴾<sup>(١١٢)</sup> التوبة، المنقطعون عن الشهوات الممتنعون عنها بالجهاد أو بالصيام<sup>2</sup>.

هـ - وهم ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ...﴾<sup>(١١٣)</sup> التوبة، في صلاتهم، وهم بركوعهم وسجودهم يبتغون رضوان الله وفضله، وقد أثنى الله تعالى على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ الفتح.

وهذه الصفات إنما هي صفات يكتسبها المؤمن لتصلح نفسه وتزكو، ويزداد بها قربا من ربه لينال رضاه، (فمقصود الآية العروج من الحضيض الجسماني إلى الشرف الروحاني)<sup>3</sup>، والمؤمن حينما تصلح نفسه يسعى من أجل إصلاح الجماعة المؤمنة بدعوة غيره إلى الهدى فيكون من (الذين يدعون الناس إلى الهدى والرشاد وينهونهم عما ينكره الشرع ويأباه)<sup>4</sup>.

وإنما تستقيم حياة الجماعة إذا كان أفرادها هم :

أ- ﴿الْأَمْرُوتَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُوتَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾<sup>(١١٤)</sup> التوبة، وإنما نالت الأمة الإسلامية مرتبة الخيرية بكونها أمرة بالمعروف وناهية عن المنكر ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ آل عمران، وهي خاصة تكسب الفرد فعالية التغيير، فإذا رضي المجتمع بشيوع المنكر وانحصار الخير فيه كان ذلك أدعى لتحلله

<sup>1</sup> المستدرك على الصحيحين للحاكم - بسم الله الرحمن الرحيم أول كتاب المناسك - كتاب الدعاء .وسنن ابن ماجه - كتاب الأدب - باب فضل الحامدين.

<sup>2</sup> استحسّن ابن عطية القول القائل: (السَّائِحُونَ هم الجائلون بأفكارهم في قدرة الله وملكوته) قال: (وهذا قول حسن وهي من أفضل العبادات) - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ج 3 ص 89.

ويرى الشيخ ابن عاشور أنّ: السفر للجهاد أنسب بالمقام وأشمل للمؤمنين المأمورين بالجهاد، قال: (السائحون: مشتق من السياحة. وهي السير في الأرض. والمراد به سير خاص محمود شرعا، وهو السفر الذي فيه قربة لله وامتنال لأمره، مثل سفر الهجرة من دار الكفر أو السفر للحج أو السفر للجهاد. وحمله هنا على السفر للجهاد أنسب بالمقام وأشمل للمؤمنين المأمورين بالجهاد بخلاف الهجرة والحج).التحرير والتنوير - ج 11 ص 41.

<sup>3</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي (ت 885هـ) - ج 9 ص 28.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 41.

واختياره وذلك ما حصل لبني إسرائيل كما أخبر الله تعالى عنهم، ذلك لأنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ  
عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ المائدة.

ب- ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ... ﴿١١٢﴾﴾ التوبة، القائمون على حفظ ما افترضه الله عليهم الملازمون للعمل به، (المؤدّون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيهِ، الذين لا يضيعون شيئاً ألزمهم العمل به، ولا يرتكبون شيئاً نهاهم عن ارتكابه)<sup>1</sup>.

والمقصد من ذكر هذه الأوصاف لتشتاق نفوس المؤمنين إليها وتتعلق بها قلوبهم لينالوا أعلى المقامات و(أنها أوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى رتبة)<sup>2</sup> والضامن لنيل هذا المقام هو الإخلاص ف(كلّ من أخلص هذه الصفات مما يحبطها استحق إطلاق هذه الأوصاف عليه)<sup>3</sup>، ومن الهدي القرآني أن تُرفّ البشارات للمؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأمواهم لله فقد تميزوا بصفات تؤهلهم ليشترهم ربهم ويشترهم المؤمنون.

### الفرع الثالث: البراءة من أموات المشركين والمنافقين

لما بين الله جلّ وعزّ صفات الفرد المسلم الصالح وصفات الجماعة الصالحة المصلحة جاء الهدي القرآني لبيان قطع الموالاتة عمّن من مات على الشرك ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا  
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ التوبة<sup>4</sup>، فاعلم أنه تعالى لما بيّن من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه بين في هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم، وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب)<sup>5</sup> فقال جلّ وعزّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 507.

<sup>2</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 88.

<sup>3</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 68.

<sup>4</sup> اختلف المفسرون في السبب الذي نزلت هذه الآية فيه، أنظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص

509. و المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 90. والتفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 73

وما بعدها. و معالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي (المتوفى : 510هـ) - ج 2 ص 392 وما بعدها.

<sup>5</sup> مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - ج 16 ص 157.

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ... ﴿١١٣﴾<sup>1</sup>، فحقيق بالنبى صلى الله عليه وسلم وبالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَبَرَّؤُوا مِمَّنْ مات على الشرك، على غرار البراءة من الأحياء منهم، ولو كان لهؤلاء وشائج قرابة ورحم تربطهم بهم ل (أَنَّ الْقِرَابَةَ الْمَوْجِبَةَ لِلشَّفَقَةِ جَبَلَةٌ)<sup>2</sup> ﴿... وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ...﴾ ﴿١١٣﴾ ولا تكون البراءة منهم إلا إذا تبيّن موثّم على محادّة الله ورسوله ﴿... مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾ التوبة، وأما الدّعاء للأحياء منهم والاستغفار لهم رجاء إيمانهم فهو من الهدى القرآني.

**براءة إبراهيم عليه السلام من أبيه:** ومن ذلك براءة إبراهيم عليه السلام من أبيه المشرك إذ لما منع الله النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الاستغفار للمشركين ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ ﴿١١٣﴾ وذلك لقطع الصّلات بهم، وكان إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيسَاءً<sup>3</sup>...﴾ ﴿١١٤﴾ التوبة، جاء الهدى القرآني لبيان سياق استغفار إبراهيم لأبيه (فلا جرم كان ما ورد من استغفار إبراهيم قد يثير تعارضا بين الآيتين<sup>4</sup>، فلذلك تصدّى القرآن للجواب عنه)<sup>5</sup>، فلا حجّة بالمتابعة لإبراهيم في استغفاره لأبيه (وكان الخليل عليه السلام المأمور بالافتداء به وال لزوم بملّته قد استغفر لأبيه، بين أنّه كان أيضاً قبل العلم بما في نفس الأمر من استحقاقه للتأييد في النار)<sup>6</sup>، فلما تبيّن له أنه عدوّ لله كانت براءته منه (وأنه لما تبيّن له أنّ أباه لله عدوّ، يبرأ منه، وذلك حال علمه ويقينه أنه لله عدوّ، وهو به مشرك، وهو حال

<sup>1</sup> قال ابن عاشور: (وجاءت صيغة النهي بطريق نفي الكون مع لام الجحود مبالغة في التّنزه عن هذا الاستغفار) - التحرير والتنوير -

ج 11 ص 44.

<sup>2</sup> أحكام القرآن - أبو بكر بن العربي - ج 2 ص 593.

<sup>3</sup> الموعدة التي وعدها إبراهيم أباه هي قوله جلّ وعزّ: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّيًّا﴾ ﴿١١٣﴾ مريم. وذلك بعد أن توعدّه بقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَن ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَتَكَ وَأَهْرَجْتَنِي مَلِيًّا﴾ ﴿١١٤﴾ مريم.

<sup>4</sup> الآيتان هما: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾ و﴿مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيسَاءً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿١١٤﴾ التوبة

<sup>5</sup> التحرير والتنوير - ابن عاشور - ج 11 ص 45.

<sup>6</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 9 ص 30.

موته على شركه)<sup>1</sup>، ﴿... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...﴾ (١١٤) التوبة، وإن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه هو: شدة إشفاقه وفرط رحمته ورقة قلبه عليه وصبره وشدة تحمله لإيذائه له: ﴿... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ<sup>2</sup> حَلِيمٌ﴾ (١١٤) التوبة، فهو عليه السلام (متضرع شفقاً وفرقاً ولزوما لطاعة ربه)<sup>3</sup>، ومن الهدى القرآني وصف إبراهيم عليه السلام ﴿... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤) التوبة، فهو (دعاء لربه، حليم عمن سفه عليه).

وفي الآية تأكيد لوجوب الاجتناب بعد التبين، بأنه صلى الله عليه وسلم تبرأ من أبيه بعد التبين، وهو في كمال رقة القلب والحلم، فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً.

### الفرع الرابع: ستّم الله في الهداية والإضلال

جرت سنة الله جلّ وعزّ أنه: لا تضليل بعد الهداية إلا ببيان ما يتقى من الباطل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ...﴾ (١١٤) التوبة، فلم يؤخذ الله جلّ وعزّ النبي صلى الله عليه وسلم ولا المؤمنين ولا إبراهيم عليه السلام في استغفارهم للمشركين قبل البيان (وما كان من شأن الله تعالى في حلمه ورحمته ولا من سننه في خلقه التي هي مظهر عدله وحكمته أن يصف قوماً بالضلال، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب، بعد إذ هداهم إلى الإيمان، وشرح صدورهم بالإسلام، بمجرد قول أو عمل صدر عنهم بخطأ الاجتهاد)<sup>4</sup>، (والآية بيان عما توجه حال من لم يدلّ على ما يجب أن يجتنب من الأمر السمعي من أنه لا يطالب باجتنابه ولا يضل بإتيانه حتى يبين له أمره وتقرر عنده منزلته، فحينئذ يجازى به)<sup>5</sup>، ومن الهدى القرآني في هذا المقام التماس الأعذار لمن لا يعلم

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 523.

<sup>2</sup> ذكر الطبري معان لكلمة (أواه) ثم رجح منها (دعاء)، قال: (وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القول الذي قاله عبد الله بن مسعود، الذي رواه عنه زرّ: أنه الدعاء). أنظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ج 14 ص 532 / 536.

وقال ابن منظور: وَرَجُلٌ أَوَّاهٌ: كَثِيرُ الْحُزْنِ، وَقِيلَ: هُوَ الدَّعَاءُ إِلَى الْحَيْرِ، وَقِيلَ: الْفَقِيهُ، وَقِيلَ: الْمُؤْمِنُ بِلُغَةِ الْحَبَشَةِ، وَقِيلَ: الرَّجِيمُ الرَّقِيقُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (١١٤) هود، وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ هُنَا الْمَتَأَوُّهُ شَفَقًا وَفَرَقًا، وَقِيلَ: الْمُتَضَرِّعُ يَقِينًا أَيْ إِيفَانًا بِالْإِجَابَةِ وَتُرُومًا لِلطَّاعَةِ؛ هَذَا قَوْلُ الرَّجَّاحِ، وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ الْمُسْتَبِخُ، وَقِيلَ: هُوَ الْكَثِيرُ التَّنَائِي. لسان العرب - ج 13 ص 473. وكتاب العين - الخليل بن أحمد الفراهيدي - ج 4 ص 104.

<sup>3</sup> مجاز القرآن - أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 209هـ) - ج 1 ص 270.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 49.

<sup>5</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 80.

ما يتجنب ويتقى حتى يعلم، وفي هذا (تأنيس للمؤمنين)<sup>1</sup>، ﴿... إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ وزاد الله جلّ وعزّ المؤمنين تأنيساباً أكد لهم أنه المتصرف والمدبّر لشأن السموات والأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴿١١٦﴾﴾ التوبة، وأنه جلّ وعزّ المتصرف بالإحياء والإماتة، وفي ذلك زيادة يقين للمؤمنين للإقبال على الجهاد في سبيله والبراءة من المشركين: ﴿... يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ... ﴿١١٦﴾﴾ التوبة، ومن الهدى القرآني تحرير المؤمنين من الجزع من الأعداء وإن ظهر بأسهم وكثر عددهم وعددهم، ويربي فيهم الإقبال غير هيبين من أحد لأنّ الموت الذي يخشى والحياة التي تحبّ إنما بيد الله تعالى.

وزادهم إلى تأنيسهم هذا تأنيسا آخر بهدايتهم إلى أن الله جلّ وعزّ هو وليّ المؤمنين وناصرهم ﴿... وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ (وعطف جملة: ﴿... وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ لتأييد المسلمين بأنهم منصورون في سائر الأحوال لأن الله وليهم فهو نصير لهم، وإعلامهم بأنهم لا يخشون الكفار لأن الكافرين لا مولى لهم لأن الله غاضب عليهم فهو لا ينصرهم. وذلك مناسب لغرض الكلام المتعلق باستغفارهم للمشركين بأنه لا يفيدهم)<sup>2</sup>.

ولما كان الله جلّ وعزّ هو وليّ المؤمنين ونصيره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ التوبة، ناسب أن تكون التوبة منه تعالى لأوليائه فالآية: تذييل لما سبق فهي بهذا المعنى (معقبة على الآيات السابقة فيكون معناها إيجاب عدم تعلّق المسلمين بذوي قرباهم المشركين واستغفارهم لهم نتيجة لهذا التعلّق لأنهم ليس لأحد منهم نصير ولا ولي غير الله)<sup>3</sup>.

ومقدّمة لما سيأتي بعدها من الآيات و(التي قررت إعلان توبة الله على النبي والمسلمين فيكون معناها أن الله وحده هو ناصرهم ووليهم)<sup>4</sup> (انتقال من التحريض على الجهاد والتحذير من التقاعس والتوبيخ على التخلف، وما طرأ على ذلك التحريض من بيان أحوال الناس تجاه ذلك التحريض وما عقبه من أعمال

<sup>1</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية - ج 3 ص 92.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 48.

<sup>3</sup> التفسير الحديث - دروزة محمد عزت - ج 9 ص 546.

<sup>4</sup> التفسير الحديث - دروزة محمد عزت - ج 9 ص 546.

المنافقين والضعفاء والجنباء إلى بيان فضيلة الذين انتدبوا للغزو واقتحموا شدائده، فالجملة استئناف ابتدائي<sup>1</sup>.

### الضرع الخامس: من الهدي القرآني التسامح: التوبة من الله والتوبة من العباد :

ففي تأكيد توبة الله<sup>2</sup> على النبي صلى الله عليه وسلم<sup>3</sup> والمهاجرين والأنصار بيان لفضله جلّ وعزّ عليهم وذلك برأفته بهم ورحمته لهم ورفع لشأهم، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ...﴾ (١٧) التوبة، لأنهم أهل لذلك، وهذا (يؤذن بالبخارة لرضى الله على المؤمنين الذين غزوا تبوك)<sup>4</sup> نظير ما كابده من الشدائد في غزوهم للروم يوم غزوة العسرة مع كثرة العدو وبعد في المسافة وشدّة الحرّ، ومع قلة الزاد والماء والظهر، وهي كلها دواع ليؤثروا التخلف عن الخروج، غير أنهم آثروا الخروج على القعود، واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على التخلف. (والذي كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد، وكان الناس في عسرة وجدب من البلاغ وقلة من الظهر، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال، من الزمان الذي هم فيه، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة)<sup>5</sup>.

### من العوامل التي دعت بعض الصحابة لإيثار التخلف على الخروج لغزوة العسرة:

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - ابن عاشور - ج 11 ص 49.

<sup>2</sup> والتوبة من الله تعالى تخرج على وجوه:

أحدها: التوفيق؛ وفقهم للتوبة وأكرمهم بها؛ كقوله: (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) أي: وفقهم للتوبة فتابوا.

والثاني: التوبة منه قبولها منهم، أي: يقبل منهم التوبة؛ كقوله: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

والثالث: (تَابَ عَلَيْهِمْ)، أي: تجاوز عنهم وعفا وصفح عنهم. على هذه الوجوه الثلاثة تخرج إضافة التوبة إلى الله تعالى. تأويلات أهل السنة - الماتريدي (ت 333هـ) - ج 5 ص 504.

<sup>3</sup> توبة الله على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب إذنه للمنافقين بالتخلف عنه ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ...﴾ (١٧) التوبة.

وقيل: افتتح الكلام بالنبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم كقوله تعالى: ﴿... فَإِنَّ لِلَّهِ حُسْبُهُ

وَالرُّسُولُ...﴾ (١٧) الأنفال، ونحوه. أنظر: التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 80. معالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي -

ج 2 ص 397. لباب التأويل في معاني التنزيل - الخازن - ج 2 ص 414. تأويلات أهل السنة - الماتريدي - ج 5 ص

502.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 49.

<sup>5</sup> الرحيق المختوم - صفي الرحمن المباركفوري - ص 366.

**العامل الأول:** شدة الحرّ وطيب الثمار (وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال)<sup>1</sup>: ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة).

**العامل الثاني:** بُعد المسافة<sup>2</sup> واتساع شقّة السفر: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَآتَبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ... ﴾ (التوبة).

**العامل الثالث:** قلة ذات اليد (فكان ثمانية عشر رجلا يعتقدون بعيرا واحدا وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير - مع قتلها - ليشربوا ما في كرشه من الماء)<sup>3</sup>، وقد قال الله جلّ ثناؤه مبينا قلة ذات اليد ممن أراد الخروج ولم يجدوا ما ينفقون رافعا الحرج عنهم: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (التوبة).

**العامل الرابع:** كثرة العدو وقوته: فقد ترامى إلى أسماع المسلمين كثرة جيش الروم عددا وعدّة و (أنّ هرقل قد هيا جيشا عرمرما قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجنب معهم قبائل لحم وجدام وغيرها من متنصرة العرب)<sup>4</sup>.

فأوشكت قلوب بعض الصحابة رضي الله عنهم تميل إلى التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>5</sup> - وقد تخلف بعضهم - ﴿ ... مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ... ﴾ (التوبة، ولكنّ الله جلّ وعزّ تجاوز عنهم وارتقى بهم من حمأة الميل إلى التخلف عن الجهاد إلى نور الطاعة والإتباع للنبي صلى الله عليه وسلم لما عهد عليهم من المسارعة إلى الاستجابة لله تعالى ولنبيه صلى الله عليه وسلم (وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي غيرها، لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء

<sup>1</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك.

<sup>2</sup> المسافة بين المدينة المنورة وتبوك 669 كلم.

<sup>3</sup> الرحيق المختوم - صفى الرحمن المباركفوري - ص 368/369.

<sup>4</sup> نفسه - ص 366.

<sup>5</sup> قال الزجاج: من بعد ما كادوا ينصرفون عن غزوتهم للشدة، ليس أنه زائغ عن الإيمان. الوسيط في تفسير القرآن المجيد - الواحدي - ج

2 ص 529. والبحر المحيظ في التفسير - أبو حيان الأندلسي - ج 5 ص 518.

منها، وإنما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية واجتهاد الرأي فيما لم يبينه الله تعالى بيانا قطعيا يعدّ مخالفه عاصيا)<sup>1</sup>.

ثم تجلّت عناية الله جلّ وعزّ بالمهاجرين والأنصارالذين اتبعوا نبيّه صلى الله عليه وسلم في ساعة العسرة بتفضّله عليهم بقبول توبتهم ﴿... ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ...﴾<sup>(١١٧)</sup> التوبة، ذلك لـ ﴿... إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١١٧)</sup> التوبة، فقد أدركتهم رحمة الله ( لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التي حصلت لهم في ذلك السفر، غفر الله لهم وتاب عليهم لأجل ما تحملوه من الشدائد العظيمة في تلك الغزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم)<sup>2</sup>، فتجلّت عليهم رأفتهم وجلّ وعزّ بإزالة الضّرّ عنهم، ورحمته بإيصال النفع لهم فهو جلّ وعزّ (يرحمهم أعلى الرحمة بإسباغ جلائل النعم ودفع جلائل النقم، ويرحمهم أيضاً بإسباغ دقائق النعم ودفع دقائق النقم)<sup>3</sup>.

ومن الهدى القرآني في توبة الله على النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار إثارة الرأفة والرحمة في قلوب المؤمنين ليغفروا زلات غيرهم اعتمادا على كثرة حسناتهم.

#### الفرع السادس: التوبة على الثلاثة الذين خلفوا

عظفت توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا على توبة الله على النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار لسمو مكانتهم وصدقهم الله ورسوله فبان بذلك شرف ذكرهم في آية مستقلة ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا...﴾<sup>(١١٨)</sup> (وهؤلاء فريق له حالة خاصة من بين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك غير الذين ذكروا في قوله: ﴿فِرَاحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ...﴾<sup>(١١٩)</sup> التوبة، الآية، والذين ذكروا في قوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ...﴾<sup>(١٢٠)</sup> التوبة، الآية)<sup>4</sup>.

**حال الثلاثة<sup>1</sup> الذين خلفوا :** وهؤلاء الثلاثة كلهم من الأنصار تخلفوا عن غزوة تبوك دون عذر فخلّفت التوبة عنهم، فقد (قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله

<sup>1</sup> تفسير المنار- محمد رشيد رضا - ج 11 ص 52.

<sup>2</sup> لباب التأويل في معاني التنزيل- الخازن- ج 2 ص 414.

<sup>3</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- البقاعي (ت 885هـ)- ج 9 ص 36

<sup>4</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 51.

صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا...﴾ ﴿٣٧٨﴾. وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه<sup>2</sup>.

صدق الثلاثة الله ورسوله: وقد خص هؤلاء الثلاثة بالذكر لمنقبة فيهم فامتازوا بها عن غيرهم ممّن تخلف عن غزوة تبوك، إنها الصدق، فقد تخلفوا عن غزوة تبوك (من غير عذر ومن غير نفاق ولا قصد للمخالفة)<sup>3</sup> فقد شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالصدق فقال: (أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)<sup>4</sup>. (فإنّ الصدق أخصّ ما امتاز به الثلاثة الذين خلفوا في الأرض، وكانوا صفوة الله ورسوله، رحض خطأ التخلف عن نفوسهم، ولقد صبروا على الاختبار، وصقلت نفوسهم، حتى قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأحدهم: " إنك منذ الليلة عدت كما ولدتك أمك"، لذلك كان يناسب هؤلاء أن يكون الأمر العام بالصدق ليرتفع كل مؤمن إلى هذه المرتبة التي تولى الله تعالى تربيتهم، ومن يتولى الله تربيته يحسن هذه التربية، ويكون ربانيا)<sup>5</sup>.

وهذا كعب ابن مالك يروي قصة صدقه فيقول (فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا، ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق

<sup>1</sup> قال ابن عاشور: (والتعريف في الثلاثة تعريف العهد فإنهم كانوا معروفين بين الناس) التحرير والتنوير - ج 11 ص 51، كلهم من

الأنصار تخلفوا عن غزوة تبوك دون عذر، وهم كعب بن مالك من بني سلمة؛ الذي شهد بيعة العقبة، قال رضي الله عنه: (ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، حين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها)، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية من بني واقفوكلاهما شهد بدر.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>3</sup> التسهيل لعلوم التنزيل - ابن جزى الكلبي (ت 741هـ) - ج 1 ص 349.

<sup>4</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>5</sup> زهرة التفاسير - أبو زهرة - ج 7 ص 3476.

الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت<sup>1</sup>.

### ابتلي الثلاثة الذين خلفوا بالتأخر عن قبول توبتهم ابتلاء عظيمًا فقد:

أ- أُخِّرَ قبول توبتهم وفي ذلك زيادة في تمحيص ثباتهم على الإيمان، في حين قبل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علانية الذين كذبوا الله ورسوله، ووكل سرائرهم إلى الله، قال كعب: (جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله)<sup>2</sup>.

ب- نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن تكليمهم فلبثوا خمسين ليلة لا يكلمهم أحد من المسلمين: ﴿

...حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ... ﴿١١٨﴾ التوبة، (وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأهم لا

يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعا مما هم فيه)<sup>3</sup> وهذا كعب ابن مالك يروي ابتلاءهم فيقول

(ونهي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ،

فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك

خمسين ليلة، فأما صاحبائي فاستكانا وقعدا في بيوتهما بيكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم

وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك

شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ،

وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار

حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت:

<sup>1</sup> صحيح البخاري- كتاب المغازي- باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>2</sup> صحيح البخاري- كتاب المغازي- باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم- كتاب التوبة- باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>3</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الرمخشري (المتوفى: 538هـ) - ج 2 ص 318.

يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى...<sup>1</sup>.

ج - راسل ملك غسان كعب ابن مالك فطلب منه الالتحاق به ليكرمه، ففهم كعب أن ذلك من البلاء، قال كعب: (...إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلّ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتابا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء، فتيمنت بما التنور فسجرت به)<sup>2</sup>.

د - أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلاثة باعتزال أزواجهم على رأس الليلة الأربعين من انتهاء الناس عن تكليمهم، فضاقت عليهم أنفسهم من فرط ما أصابهم من الهم والحزن: ﴿...وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ...﴾<sup>3</sup> التوبة، (لا يسعها أنس ولا سرور، لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم)<sup>3</sup>، يقول كعب بن مالك: (حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقر بها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك...)<sup>4</sup>.

هـ - أيقن الثلاثة أن أمر توبتهم بيد الله جلّ وعزّ فلجأوا إليه وانتظروا منه العفو والمغفرة بعد توبتهم إليه جلّ وعزّ: ﴿...وَوَظَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ...﴾<sup>5</sup> التوبة، فقد (...أيقنوا أن أمر التوبة عليهم موكول إلى الله دون غيره بما يوحي به إلى رسوله، أي التجأوا إلى الله دون غيره...)<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>3</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري (المتوفى: 538هـ) - ج 2 ص 318.

<sup>4</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>5</sup> التحرير والتنوير - ابن عاشور - ج 11 ص 53.

**وجاء الفرج بعد الشدة :** وبعد الليلة الخمسين ومع ظهور الفجر الجديد جاء الفرج وانكشفت الشدة التي عاشها الثلاثة فقد آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله عليهم حين صلى صلاة الفجر، وجاء البشير، وعمت الفرحة المدينة ؛ قال كعب بن مالك<sup>1</sup> : (حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر).

**بشارة النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك بخير يوم :** تهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم سرورا لتوبة الله على الثلاثة لفضلهم ومكانتهم وسبقهم ﴿... ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ التوبة، فبشر النبي صلى الله عليه وسلم كعبا بخير يوم مرّ عليه منذ ولدته أمه؛ قال كعب: (... فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يبرق وجهه من السرور: " أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك " ، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال: " لا، بل من عند الله "2).

### الفرع السابع: نموذج المؤمن الصادق الثابت على دينه

ولما كان هؤلاء الثلاثة هم المثال في الثبات على الصّدق، وبما نالوا من توبة الله عليهم ناسب أن تكون هذه الآية تذييلا<sup>3</sup> لقصّتهم ليحتذي المؤمنون بهم، فلا يخالفون عن أمر الله وسوله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ

<sup>1</sup> صحيح البخاري- كتاب المغازي- باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم- كتاب التوبة- باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>2</sup> صحيح البخاري- كتاب المغازي- باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم- كتاب التوبة- باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>3</sup> قال محمد الطاهر بن عاشور: (الظاهر أن هذه الآية خاتمة للآي السابقة وليست فاتحة غرض جديد. ففي صحيح البخاري من حديث كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك أنه قال: (فو الله ما أعلم أحدا... أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني

ءَامِنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ التوبة. (فهذه الآية بمنزلة التذييل للقصة فإن القصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذبا فغضب الله عليهم، وقوم تخلفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر فتاب الله عليهم، فلما كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلها هو الصدق لا جرم أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة)<sup>1</sup>.

عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي، قال<sup>2</sup>: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، حين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه، في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا وري بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادي بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله

ما تعدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا وأنزل الله على رسوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ...﴾ إلى قوله: ﴿...وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة. اهـ. التحرير والتنوير - ج 11 ص 54.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 54.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن

صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم أحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، ولتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فظفت فيهم، أحزني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: " ما فعل كعب " فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله ، حبسه برداه، ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضري همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادمًا، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: " تعال ". فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: " ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ ". فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله؛ لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك ". فقمتم، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذرت إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فوالله ما زالوا يؤتّبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت، فقيل لهما

مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنيت أشب القوم وأجلدهم فكنيت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفثيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، قال: فيينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيمنت بها التنوير فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقر بها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله: إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: "لا، ولكن لا يقربك". قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره، ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟ فلبثت

بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهي رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله ، قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ، أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرسا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، نزعت له ثوبي فكسوته إياهما، ببشراه والله ما أملك غيرها يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فيتلقاني الناس فوجا فوجا، يهنوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ، قال: رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ، وهو يبرق وجهه من السرور: " أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك " ، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال: " لا ، بل من عند الله " . وكان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله ، قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: " أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " . قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا، ما بقيت . فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ، أحسن مما أبلائي، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله صَلَّى الله عليه وسلم: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار إلى قوله وكونوا مع الصادقين) فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ، أن لا أكون كذبتة، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا - حين أنزل الوحي - شرّ ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى:

(سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إلى قوله فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)، قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا). وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

**وقد أعلم الله تعالى أنه وصف هؤلاء الثلاثة بصفات ثلاث:**

**الصفة الأولى:** أنهم ضاقت عليهم الأرض على رحابتها: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾ (١١٨) التوبة، لإعراض النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون عنهم، والامتناع عن مكالمتهم، واعتزال أزواجهم لهم، وبقوا على هذه الحالة خمسين يوماً.

**والصفة الثانية:** أنهم ضاقت عليهم أنفسهم ضيق همّ وغمّ، بسبب مجانبة الأولياء والأحباء لهم: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ...﴾ (١١٨) التوبة.

**الصفة الثالثة:** قوله: ﴿وَطَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ...﴾ (١١٨) التوبة، ويقرب معناه من قوله عليه الصلاة والسلام في دعائه: (أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ بك منك).

### المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الرابعة .

اشتملت الوحدة الموضوعية الخامسة على هدايات ربانية قرآنية لتكوين قاعدة استقرار المجتمع الإسلامي والتي مبناها على:

#### أولاً: إعلاء شأن الجماعة المسلمة بالجهاد في سبيل الله:

1- ترغيب المؤمنين في الجهاد بأبلغ آية لتشرب إلى الجهاد أعناقهم وتتوق للتلبس به نفوسهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي بَاعْتَمِرْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة، 113) فهل نجد أبلغ من هذا الترغيب في الجهاد؟ إنك (لا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ)<sup>1</sup>.

2- الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام وهو السبيل لإعلاء شأن المؤمنين وحمايتهم وتحقيق استقرارهم لقوله جلّ وعزّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ... (التوبة، 113) فقد (أعلى الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين في سبيله فجعلهم بفضلهم مالكين معه، ومبايعين له، ومستحقين للثمن الذي بايعهم به، وأكد لهم أمر الوفاء به وإنجازه)<sup>2</sup>.

3- البراءة من موتى المشركين والمنافقين كالبراءة من أحيائهم لقطع كل الوشائج والصلوات بين المؤمنين والمشركين والمنافقين ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... ﴾ (التوبة، 113).

4- التماس الأعذار لمن لا يعلم ما يتجنب ويتقى حتى يعلم: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ... ﴾ (التوبة، 114) (ويدخل في المشركين المنافقون الذين علم

<sup>1</sup> الكشاف - الزمخشري - ج 2 ص 314. وانظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث

الإسلامية بالأزهر - ج 4 ص 21.

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 40.

النبي صلى الله عليه وسلم نفاقهم والذين علم المسلمون نفاقهم بتحقق الصفات التي أعلنت عليهم في هذه السورة وغيرها<sup>1</sup>.

### ثانياً؛ إعلاء شأن الفرد في المجتمع الإسلامي: الصفات الذاتية للمؤمنين

1- أعلى الله شأن الفرد المسلم بصفات ذاتية يرتقي بها لأعلى الدرجات من التوبة والعبادة والحمد والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحافظة على حدود الله ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الْكَافِرُونَ أَلَا مَعْرُوفٍ﴾ والتَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١١٣)</sup> وهي أوصاف الكملة من المؤمنين فليستبقوا إليها لنيل أعلى المراتب.

2- الفرد المستحق للنعمة بهذه الصفات هو من أخلصها فأحاطها مما يحبطها: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الْكَافِرُونَ أَلَا مَعْرُوفٍ﴾ والتَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١١٣)</sup> التوبة.

3- ومن الهدى القرآني أن تزفّ البشارات للمؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأمواهم لله ﴿... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١١٣)</sup> التوبة، فقد تميزوا بصفات تؤهلهم لبشارة ربهم بما أعد لهم من نعيم مقيم.

4- ومن الهدى القرآني وصف إبراهيم عليه السلام بـ(أنه لدعاء لربه، شاكٍ له، حليمٌ عمّن سبّه وناله بالمكروه)<sup>2</sup> ليكون محلاً قدوة للمؤمنين ﴿... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾<sup>(١١٤)</sup> التوبة... ولا منافاة بين التبرؤ من الضلال وأهله والرحمة والرفقة والصبر على الأذى.

### ثالثاً؛ التربية بالشدائد والتعاشي معها

الشدائد هي المحك الذي تصقل به شخصية الرجال؛ فكلما زادت الشدّة زاد معها الصّقل حتى تجعل الشدائد من الرجل الصادق المتّصف بهذه الصفات رجلاً قرآنياً لا تزعه الشدائد والكروب.

1- فمن الهدى القرآني تهوين أوقات الكروب والشدائد ليجرؤ المسلمون على مواجهتها والاستهانة بشأنها ويتجشّمون صعابها، لأنّ وقتها يسير وأجرها كبير ﴿... الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾<sup>(١١٤)</sup>

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - ابن عاشور - ج 11 ص 45.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 14 ص 532.

﴿التوبة، وقد سماها الله جلّ وعزّ (...ساعة تھوينا لأوقات الكرب وتشجيعاً على مواجهة المكاره فإنّ أمدّها يسير وأجرها عظيم خطير)<sup>1</sup>.

2- ومن الهدى القرآني الرّفْع من شأن أتباع النبي صلّى الله عليه وسلّم - من المهاجرين والأنصار- لركوبهم المخاطر واقتحامهم الشدائد غير هيّابين ولا متردّدين ﴿...الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ (١١٤) التوبة.

3- ومن الهدى القرآني بيان أقدار الرجال ومكانتهم بما يقبلون عليه من اقتحام الشدائد والثبات على الإيمان أيام الشدائد والحن والفتن: ﴿...الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ (١١٤) التوبة.

4- ومن الهدى القرآني تقديم ذكر التوبة لبيان فضل الله على المؤمنين، ثم ذكر الله ذنبهم<sup>2</sup> الذي استغرقتهم حسناهم الكثيرة.

- **أنموذج التربية بالشدائد والتعايش معها والصبر عليها:** تبرز هذه الوحدة الموضوعية أنموذج الفرد المسلم المتعايش مع الشدائد والصّابر عليها فقد:

1- حُصّ الخلفون الثلاثة بالذكر لسبقهم ومكانتهم بين الأنصار فقد شهد كعب بن مالك بيعة العقبة الثانية<sup>3</sup> وشهد مرارة بن الربيع وهلال بن أمية بدر<sup>4</sup>.

2- ومع مكانة الثلاثة وسبقهم إلا أنّهم ابتلوا، وتخلّفت توبة الله عليهم خمسين يوماً، فضاقت عليهم الأرض وتنكرت لهم ﴿...حَتَّى إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾ (١١٨) التوبة، وضاقت عليهم أنفسهم همّاً وحزناً ﴿...وَضَاقتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ...﴾ (١١٨) التوبة، فثبتوا وكانوا أهلاً لتوبة الله عليهم.

3- من علامات التوبة النصوح وقبولها: أن يشعر التائب أنّ ذنبه قد أحاط به وأنّ الأرض قد ضاقت عليه على رحابتها، وأنّ نفسه قد ضاقت عليه همّاً وحزناً، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

<sup>1</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 9 ص 36.

<sup>2</sup> أنظر: التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 81.

<sup>3</sup> قال كعب بن مالك (ولقد شهدت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليلة العقبة، حين تواتقنا على الإسلام، وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها)

<sup>4</sup> لأهل بدر مكانة وفضل: ففي قصة حاطب بن أبي بلتعة وبيان فضل من شهد بدر قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: (إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعلّ الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم).

4- من الهدى القرآني: بيان سنة من سنن الله فيمن يصدق التجاؤه إلى الله ويثبت عليه ﴿...وَوَظُنُّوا

أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ... ﴿١١٨﴾ التوبة، فإنه يكشف عنه البلاء، ويُجَلِّ عليه اليسر بعد العسر كرما منه وتفضلا جلّ وعزّ<sup>1</sup>.

5- من الهدى القرآني: بيان مكانة الفرد الصالح وفضله والاهتمام بشأنه في المجتمع المسلم.

6- من الهدى القرآني: تنبيه المؤمنين على لزوم الصدق مع الله ورسوله، واتقاء مخالفة الله ورسوله صلى

الله عليه وسلم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ التوبة.

7- ومن الهدى القرآني: تنبيه المؤمنين على أن الله يبتلي من يشاء من المؤمنين مهما كان فضله وسبقه

كما حُلفت توبة الله على الثلاثة مع فضلهم وسبقهم، إنما خصّوا بأن أرحموا لأمر الله لعلو مقامهم بما لهم من السابقة ورسوخ القدم في الإسلام.

<sup>1</sup> أنظر للفائدة: لطائف الإشارات - القشيري (المتوفى: 465هـ) - ج 2 ص 71.

## الفصل السادس

خاتمة السورة: وفيها الهدي القرآني لما يجب أن يكون عليه المسلمون.

الوحدة الموضوعية الخامسة

من الآية العشرين بعد المائة إلى الآية التاسعة والعشرين بعد المائة (119 / 129).

المطلب الأول:

خاتمة السورة: وفيها الهدي القرآني لما يجب أن يكون عليه المسلمون

المطلب الثاني:

التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الخامسة

المطلب الثالث:

هدايات الوحدة الموضوعية الخامسة

## الفصل السادس

خاتمة السورة: وفيها الهدي القرآني لما يجب أن يكون عليه المسلمون.

## الوحدة الموضوعية الخامسة :

من الآية العشرين بعد المائة إلى الآية التاسعة والعشرين بعد المائة (119/ 129).

## تمهيد:

بعد بيان القرآن الكريم لقاعدة لقاعدة استقرار المجتمع الإسلامي، والتي مبناها على الصلاح الفردي والجماعي والقائم على متابعة الأنبياء والمرسلين، أتبعه بالارشاد إلى ما يجب أن يكون عليه المسلمون.

المطلب الأول: الإرشاد لما يجب أن يكون عليه المسلمون.

## الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الخامسة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يُرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوْنَ مَوَاطِنًا يَعِيطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غَاظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِإِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

رَعُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ  
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ التوبة.

### الفرع الثاني: القراءات :

قوله تعالى: ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ...﴾<sup>١</sup> التوبة، اختلف القراء في قراءة ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ...﴾<sup>٢</sup>، قال: الداني: (قرأ حمزة (أولا ترون) بالتاء، وقرأ الباقرن بالياء)<sup>١</sup> فقد انفرد حمزة من السبعة، وقال الكرماني<sup>٢</sup>: (قوله تعالى: ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ...﴾<sup>٣</sup> التوبة، من قرأ بالتاء فهو خطاب للمسلمين، ومن قرأ بالياء فهو تقرير للمنافقين بالإعراض عن التوبة).

الوجه الأول: القراءة بتاء الخطاب (أولا ترون) وهي قراءة حمزة ويعقوب، (فمن قرأ بالتاء فهو خطاب للمؤمنين على معنى التنبيه، وقال سيوييه عن الخليل في قوله: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) الحج:63، المعنى: انتبه، أنزل الله من السماء ماء، فكان كذا وكذا، والمعنى في هذه الآية: أن المؤمنين نبهوا على إعراض المنافقين عن النظر والتدبر لما ينبغي أن ينظروا فيه ويتدبروه)<sup>3</sup>.

والوجه الثاني: القراءة بياء الغيبة وهي قراءة القراء الباقرين، على أنّ الخطاب للمنافقين، جاء في حجة القراءات<sup>4</sup>: قراءة حمزة ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ...﴾<sup>٤</sup> التوبة، بالتاء أي: أنتم معشر المؤمنين أنهم يفتنون يعني المنافقين. وقرأ الباقرن ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ...﴾<sup>٥</sup> التوبة، أي: أولا يرى المنافقون أنهم يفتنون أي يمتحنون بالمرض من كل عام مرة أو مرتين. (ومن قرأ بالياء فمعناه التقرير بالإعراض عن التوبة للمنافقين من غير أن يصرف التنبيه إلى المسلمين في الخطاب؛ لأن المسلمين قد عرفوا ذلك من أمرهم)<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> جامع البيان في القراءات السبع - أبو عمرو الداني - ج 3 ص 1163. وفيها انفردة سبعة عن حمزة - أنظر الهامش الثامن.

<sup>2</sup> مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني - محمد بن أبي المحاسن الكرماني - ص 202.

<sup>3</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 100.

<sup>4</sup> حجة القراءات - ابن زنجلة - ص 326.

<sup>5</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 100.

## الفرع الثالث: المناسبة

## أولاً: علاقتها لما قبلها وما بعدها

هذه الآية تصلح أن تكون كالحاتمة للآيات السابقة، وأن تكون كالمقدمة للآيات اللاحقة؛ فعلى المعنى الأول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٦) أي كونوا كالثلاثة في صدق توبتهم وثباتهم عليها وقد ضاقت عليهم الأرض مع رحابتها وسعتها وضاقت عليهم أنفسهم (فهذه الآية بمنزلة التذييل للقصة فإن القصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذبا فغضب الله عليهم، وقوم تخلفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر فتاب الله عليهم، فلما كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلها هو الصدق لا جرم أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة)<sup>1</sup>.

قال ابن عطية: (هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، فجاء هذا الأمر اعتراضاً في أثناء الكلام إذ عنّ في القصة ما يجب التنبيه على امتثاله)<sup>2</sup>.

وعلى المعنى الثاني والذي تكون فيه الآية كالمقدمة لحاتمة السورة: ﴿... وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٦) الذين صدقوا في عهدهم مع الله نية وقولا وعملا، لا ما تلبس به المنافقون من خبث الطوية وسوء العمل، فيكونون مع أصدق الصادقين - محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم - ومع الصادقين من أصحابه مهما كانت الشدائد والمشقات (أنه لما أمر المؤمنين بتقوى الله، وأمر بكيونتهم مع الصادقين، وأفضل الصادقين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم المهاجرون والأنصار اقتضى ذلك موافقة الرسول وصحبته أنى توجه من الغزوات والمشاهد، فعوتب العتاب الشديد من تخلف عن الرسول في غزوة، واقتضى ذلك الأمر لصحبته وبذل النفوس دونه)<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 54.

<sup>2</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية (ت 542هـ) - ج 3 ص 95.

<sup>3</sup> البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) - ج 5 ص 522.

قال الزمخشري: ﴿... مَعَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١١٩﴾ ... وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولا وعملا، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: ﴿... رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عٰهَدُوا اللّٰهَ عَلَيْهِ...﴾ (الأحزاب) <sup>1</sup>.

### ثانياً: المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها

لما كان افتتاح السورة بالبراءة من المشركين وعهودهم وبيان الهدى القرآني في التعامل معهم جاءت خاتمة السورة مبيّنة لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في علاقتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وفي علاقتهم بالمشركين والمنافقين، وفي إقبالهم على ما فيه حياتهم وعلو شأنهم بالعلم والجهاد ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة).

### الفرع الرابع: موضوعات الوحدة الموضوعية

- سعة الثواب بسعة العمل في سبيل الله
- جهاد النفير بالعلم والدعوة إلى الله
- الهدى القرآني في مقاتلة الكفار
- تنبيه المؤمنين على خصال المنافقين حيال القرآن
- عدم اعتبار المنافقين بما يصيبهم
- من صفات النبي صلى الله عليه وسلم في خاتمة السورة
- الزاد في حال الإعراض

<sup>1</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري (ت 538هـ) - ج 2 ص 320. وانظر: معاني القرآن وإعرابه

- أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ) - ج 2 ص 475.

## المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الخامسة

جاءت خاتمة السورة مبيّنة للهدى القرآني فيما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من الكون من الصادقين<sup>1</sup> الذي يقتضي مماثلتهم في الحال والأقوال والأعمال وذلك للبراءة من النفاق وأهله، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩) فلم يكن للمؤمنين من أهل المدينة ولا القبائل المحيطة بها<sup>2</sup> التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء الهدى القرآني معاتباً لهم على تخلفهم وتقبيح عملهم لئلا يتكرر ذلك منهم، وليحتاط المسلمون من بعدهم كي لا يتخلفوا عن الجهاد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ (التوبة<sup>3</sup>، فقد(أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واعتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علما بأنها أعزّ نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكثر لها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربعوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهيج لمتابعته بأنفة وحمية)<sup>4</sup>، فما كان للمسلمين أن يتركوا النبي صلى الله عليه وسلم يكابد الشدائد والمشقات وهم ينعمون بالراحة والدعة خلفه، ففي مكابدتهم للشدائد واقتحامهم الصعاب من جزيل الثواب ما دلّ عليه الهدى القرآني:

<sup>1</sup> فائدة: (مع) في لغة العرب للصحة اللاتقة، ولا تستلزم المخالطة والممازجة، بل تختلف باختلاف مصحوبها، فكون الله تعالى مع المتقين لون، وكون عقل الإنسان معه لون، وكون زوجته معه لون، وكون أميره معه لون .. وهكذا، فإذا علم هذا كان المعنى اللائق بقوله تعالى: (وكونوا مع الصادقين) كونوا منهم؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يكون مع مجموعة جمعهم الصدق إلا إذا كان صادقاً موافقاً لهم في الخصلة التي جمعهم. والله أعلم. الهامش (1) من التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 88.

<sup>2</sup> أنظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي - ج 4 ص 109.

<sup>3</sup> فائدة: قال أبو حيان: وهذا التركيب معناه الانتفاء فتارة يدل من جهة المعنى على الجزر: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ التوبة، وتارة على التعجيز ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبَيِّنُوا سَجَرَهَا﴾ النمل، وتارة على التنزيه كهذه الآية ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ مريم 35. البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأندلسي - ج 7 ص 261

<sup>4</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الرخشي - ج 2 ص 321.

## الفرع الأول: سعة الثواب بسعة العمل في سبيل الله

سعة ثواب الله جلّ وعزّ للمؤمنين بسعة أعمالهم الصالحة في سبيل الله وذلك أنهم:

أ / لا يصيبهم الشدائد في خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم من عطش ولا تعب ولا مجاعة في سبيل إقامة دين الله ونصرته ﴿...ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾<sup>(١٢٠)</sup> التوبة.

ب / ولا يصيبهم المشقات في اقتحامهم أرض العدو والنيل منه وإثخانه فذلك الذي يعيظ العدو ويغضبه (وهو عام في كلّ ما يسوؤهم ويُنكِيهم ويلحق بهم ضرراً)<sup>1</sup> ﴿...وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا...﴾<sup>(١٢١)</sup> التوبة.

ج / لا يصيبهم من ذلك شيء - ظمأ ومشقة وجوع ونيلهم من العدو ودخول أرضه - إلا كتبه الله لهم من الأعمال الصالحة ذلك لأنهم قصدوا بخروجهم طاعة الله ﴿...إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ...﴾<sup>(١٢٢)</sup> التوبة، وإن ذهلوا عن استحضار نية التقرب بها إلى الله وذلك بحسب شرف نيتهم ونبيل مقصدهم (وقد دلّ على هذا المعنى التذييل الذي أفاد التعليل بقوله: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١٢٣)</sup>، ودلّ هذا التذييل على أنهم كانوا بتلك الأعمال محسنين فدخلوا في عموم قضية ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١٢٤)</sup> بوجه الإيجاز)<sup>2</sup>.

د / ولا يصيبهم من مشقات الإنفاق صغيره وكبيره ﴿...وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً...﴾<sup>(١٢٥)</sup> التوبة.

هـ / ولا يصيبهم من مشقات الضرب في الأرض وقطع الأودية في سبيل الله ﴿...وَلَا يَقَطْعُونَ وَادِيًا...﴾<sup>(١٢٦)</sup> التوبة؛ إلا وقد كتب الله لهم بذلك كلّه وأحسن منه ثوابا على حسن صنيعهم و(كتب الله لهم صالحا ليجزيهم عن أحسن أعمالهم، ولما كان هذا جزاء عن عملهم المذكور علم أنّ عملهم هذا من

<sup>1</sup> الكشف عن حقائق غوامض التنزيل - الزمخشري - ج 2 ص 321.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 57.

أحسن أعمالهم)<sup>1</sup>، ﴿...إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ التوبة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ النور.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى عند رجوعه من غزوة تبوك؛ إذ ذكر أن أقواما من أهل المدينة قد نالوا معيته صلى الله عليه وسلم ومعية أصحابه - رضي الله عنهم - وهم بالمدينة لم يخرجوا إلى تبوك، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: (إن بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم). قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)<sup>2</sup>، فلما حبسهم العذر عن الخروج كان مكثهم بالمدينة طاعة لله يثابون عليه كما يثاب الخارج في سبيل الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

### الفرع الثاني: جهاد التنوير بالعلم والدعوة إلى الله:

الجهاد جهادان: جهاد النفير بالسلاح لمقارعة أعداء الله والذّب عن دينه، وجهاد النفير بالعلم والدعوة إلى الله، فكلاهما إعلاء لشأن الإسلام هذا بالعلم والآخر بالقتال، فظهرت بذلك مناسبة هذه الآية لما قبلها؛ إذ لما جاءت الآيات التي قبلها حاضرة على النفير بالسلاح جاءت هذه الآية حاضرة على التفقه في الدين بطلب العلم (وإذ قد كانت الآية السابقة قد حرّضت فريقا من المسلمين على الالتفاف حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو لمصلحة نشر الإسلام ناسب أن يذكر عقبها نفر فريق من المؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وللتفقه في الدين ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام)<sup>3</sup>، ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ التوبة<sup>4</sup>، (والذي يظهر أن هذه الآية إنما جاءت للحض على طلب العلم والتفقه في دين الله، وأنه لا يمكن أن يرحل المؤمنون

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 58.

<sup>2</sup> صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 59.

<sup>4</sup> ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ قال الأزهري: (الفقه: العلم في الدين) تهذيب اللغة - ج 5 ص 263.

كلّهم في ذلك فتعرّى بلادهم منهم ويستولي عليها وعلى ذراريهم أعداؤهم، فهلا رحل طائفة منهم للتفقه في الدين ولإنذار قومهم؟ فذكر العلة للنفي وهي التفقه أولاً، ثم الإعلام لقومهم بما علموه من أمر الشريعة أي: فهلا نفر من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم فكفوهم النفي؟ وقام كلّ بمصلحة هذه بحفظ بلادهم، وقتال أعدائهم، وهذه لتعلم العلم وإفادتها المقيمين إذا رجعوا إليهم<sup>1</sup>.

فالنفي بالعلم هو الجهاد الأكبر، لأنّ الجهاد بالحجة أعظم أمراً من الجهاد بالسيف، وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ الفرقان، فالجهاد الكبير هنا الجهاد بالقرآن (ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به ويدعوا للعمل بجميعه طوعا وكرها)<sup>2</sup>.

### الفرع الثالث: خاتمة السورة والوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد

الإسلام<sup>3</sup> : سنة التدرج في مجاهدة الأعداء: ومن الهدي القرآني التدرج في مجاهدة الأعداء؛ فقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدة مشركي العرب فلما فرغ منهم قاتل قبائل العرب المحيطة بالمدينة، فلما فرغ من قتال من يليه من كفار العرب، أمره الله جلّ وعزّ بجهاد من يليه من كفار أهل الكتاب لأنه يتعدّد قتال أعداء الله كلّهم دفعة واحدة<sup>4</sup>، فكانت هذه الآية كالوصية للمؤمنين لمواصلة قتال الكفار وغزوهم و﴿إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ رَبَّمَا تَحْطَى فِي حَرْبِهِ الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ الْأَعْدَاءِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَهْيَبَ لَهُ فَأَمَرَ بِقِتَالِ مَنْ يَلِيهِ لِيُسْتَنَّ بِذَلِكَ﴾<sup>5</sup> ، فقال جلّ وعزّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ...﴾ ﴿١٢٣﴾ التوبة، فالتدرج في الجهاد سنة ربّانية هدى القرآن إليها، (وترجيح البدء بالأقرب فالأقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والإمكان والسهولة والنفقة، ولذلك كانت القاعدة فيه عامّة في الدّعوة والقتال والتّفقات والصدقات... وأما ما يعرض من ضرورة في كلّ ذلك فله حكمه فأحكام الضّرورات مستثناة في الواجبات والمحرمات والآداب)<sup>6</sup>، كما كانت قبل ذلك سنة التدرج في

<sup>1</sup> البحر المحيط في التفسير - أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) - ج 5 ص 526.

<sup>2</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري - ج 19 ص 281.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 62.

<sup>4</sup> أنظر: جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 576، والتحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 62.

<sup>5</sup> معاني القرآن وإعرابه - أبو إسحاق الزجاج - ج 2 ص 476.

<sup>6</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 65.

الدعوة إلى الله جلّ وعزّ (وقد كانت الدعوة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله صلّى الله عليه وسلّم: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾ ﴿٩٢﴾ الأنعام، وقال لأهل مكة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾ ﴿١٩﴾ الأنعام، أي وكلّ من بلغته دعوته بل أمره أن يخصّ الأقرب إليه في النسب من أهل بلده أم القرى فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٢١٤﴾ الشعراء<sup>1</sup>.

#### الفرع الرابع: خاتمة السورة والهدي القرآني في مقاتلة الكفار

وجاءت خاتمة سورة التوبة مبينة للهدي القرآني في مقاتلة الكفار ولذلك وجب الاهتداء بهديين قرآنيين في ذلك:

**الهدي القرآني الأول:** الشدّة في مقاتلتهم ترهيباً لهم والصبر على جهادهم وهذا من مقتضيات المصلحة ول(يقابلوا فيكم قوما أولى بأس وعزيمة حتى تنخلع قلوبهم، وتضطرب نفوسهم فترجع إلى هدى القرآن تنفهمه)<sup>2</sup>، ﴿... وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً...﴾<sup>3</sup> لتشتدّ رهبة المؤمنين في صدور الكافرين (والغلظة على المقاتلين في زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة، وتنكيرها في الآية يدلّ على أنّ لأولي الأمر أن يحدّوها في كلّ زمن وكلّ حال بما يتفق مع المصلحة، وإنما أمروا بها على كونها طبيعية لتقييد ما أمروا به في الأحوال العامّة من الرّفق والعدل والبرّ في معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الإسلام، وأمر القتال مبنيّ على الشدّة والغلظة في كلّ الأمم...) <sup>4</sup> وقد مرّ في هذه السورة الأمر بالشدّة على الكفار والمنافقين وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٧٣﴾ التوبة <sup>5</sup>.

<sup>1</sup> نفسه - ج 11 ص 65.

<sup>2</sup> التفسير الواضح - محمد محمود حجازي - ج 2 ص 31.

<sup>3</sup> قال أبو إسحاق الزجاج: (غِلْظَةً) فيها ثلاث لغات غِلْظَةٌ، وغلْظَةٌ، وغلْظَةٌ. معاني القرآن وإعرابه - ج 2 ص 476. قال أبوحيان:

(وقرأ الجمهور: غلظة بكسر الغين وهي لغة أسد، والأعمش وأبان بن ثعلب والمفضل كلاهما عن عاصم بفتحها وهي لغة الحجاز،

وأبو حيوة والسلمي وابن أبي عبلّة والمفضل وأبان أيضا بضمها وهي لغة تميم...) البحر المحيط في التفسير - ج 5 ص 528.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 66.

<sup>5</sup> وقد ذكرت الآية نفسها في سورة المنافقين وهي الآية التاسعة (9)

**و الهدى القرآني الثاني:** مراعاة تقوى الله في قتال الكفار: ﴿... وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>1</sup>

التوبة، إذ لما أمر الله جلّ وعزّ المؤمنين بالغلظة على الكفار ختمت الآية الكريمة بتبنيه المؤمنين إلى وجوب مراعاة تمحيض قتلهم الكفار والغلظة عليهم لله جلّ وعزّ، والتخلق بأخلاق الإسلام في الحرب والسلم، وألا تُقصد بقتال الكفار غنيمة ولا فخر ولا إظهار شجاعة وبسالة، لما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...)،<sup>1</sup> وباستصحاب تقوى الله في قتال الكفار ينال المؤمنون معية الله جلّ وعزّ بالعون والنصر والتأييد لأنّ (في مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب؛ من التقصير في أسباب النصر والغلب التي بينها في كتابه، والتي تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوّة، والصبر والثبات والطاعة والنظام وترك التنازع والاختلاف وكثرة ذكر الله والتوكل عليه فيما وراء الأسباب).<sup>2</sup>

**الفرع الخامس: خاتمة السورة والهدى القرآني في تنبيه المؤمنين على خصال المنافقين حيال القرآن:** وقد جاءت خاتمة السورة<sup>3</sup> منبّهة على موقف المنافقين من القرآن الكريم وتنزلاته، فقد تنوعت أساليبهم وتعدّدت مسالكهم في الاستهزاء بالوحي:

**الأسلوب الأول: ما يصدر من المنافقين من الأقوال على سبيل الاستهزاء**

<sup>1</sup> صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. وتأمّ الحديث: (... ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار).

<sup>2</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 66.

<sup>3</sup> الآيات الأربع في خاتمة سورة التوبة: 127/126/125/124 هي آخر ما نزل من القرآن في وصف علاقة المنافقين بالقرآن (وتأثير نزول القرآن فيهم وفي المؤمنين، ومن قام الدليل على اليأس من إيمانهم، وإخبار الله بموتهم على كفرهم). التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 66.

فمنهم الذين<sup>1</sup> إذا ما نزلت سورة يتهاكمون بالمؤمنين فيما بينهم، طمعا في ردهم إلى النفاق فيقولون: ﴿... أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا...﴾<sup>2</sup> التوبة، لأنّ نفوسهم المريضة لا ترقى للتأثر بالسورة القرآنية فيقولون ذلك (على سبيل التحقير للسورة والاستخفاف بها)<sup>3</sup> فهم يقيسون على أحوال قلوبهم المريضة فينكرون أن يكون نزول القرآن و سماعه ممّا يزيد المؤمنين إيمانا(توهما منهم بأنّ ما لا يزيدهم إيمانا لا يزيد غيرهم إيمانا، يقيسون على أحوال قلوبهم)<sup>4</sup> فجاء الجواب القرآني على إنكارهم من جهتين:

### - الجهة الأولى: ازدياد المؤمنين بالقرآن إيمانا :

﴿... فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا...﴾<sup>5</sup> التوبة، ذلك أنّ المؤمنين كلما ازداد القرآن تنزلا كلما ازدادوا إيمانا بكون القرآن حقًا وصدق النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغه عن الله جلّ وعزّ (التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وخضوع الوجدان الذي يستلزم العمل، لا مجرد اعتقاد صدق الخبر، الذي يقابله اعتقاد كذبه...)<sup>6</sup>، فقد أثبت القرآن الكريم زيادة المؤمنين إيمانا بزيادة نزول القرآن (وهو يشمل الزيادة في حقيقته وصفته من اليقين والإذعان واطمئنان القلب، وفي متعلقه وهو ما في السورة من مسائل العلم، وفي أثره من العمل والتقرب إلى الرب...)<sup>7</sup>.

والفاء في قوله: (فأما الذين آمنوا) للتفريع على حكاية استفهامهم بحمله على ظاهر حاله وصرفه عن مقصدهم منه. وتلك طريقة الأسلوب الحكيم، وهو: تلقي المخاطب بغير ما يتقرب بحمله على خلاف مراده لنكتة، وهي هنا إبطال ما قصدوه من نفي أن تكون السورة تزيد أحدا إيمانا قياسا على أحوال قلوبهم فأجيب استفهامهم بهذا التفصيل المتفرع عليه، فأثبت أنّ للسورة زيادة في إيمان بعض الناس وأكثر من الزيادة وهو حصول البشر لهم.

<sup>1</sup> قال الواحدي: (فمنهم من يقول) يعني من المنافقين، قاله جميع أهل التفسير. التفسير البسيط- ج 11 ص 98.

<sup>2</sup> البحر المحيط في التفسير- أبوحيان الأندلسي (ت 745هـ)- ج 5 ص 529.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 65.

<sup>4</sup> قال البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بنى الإسلام على خمس: وهو قول وفعل، ويزيد وينقص. قال ابن بطال: (القول بزيادة الإيمان ونقصانه هو مذهب أهل السنة وجمهور الأمة). كتاب الإيمان- باب زيادة الإيمان

ونقصانه- شرح صحيح البخارى- ابن بطال(ت 449هـ)- ج 1 ص 102.

<sup>5</sup> تفسير المنار- محمد رشيد رضا- ج 11 ص 67.

<sup>6</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 67.

**واستبشار المؤمنين بالقرآن:** والحال أنّ المؤمنين منبسطة أساريهم<sup>1</sup> مطمئنة قلوبهم، مسرورين بما آتاهم الله من القرآن وذلك بظهور البشر على محياهم إخبارا عما يختلج في صدورهم من الطمأنينة والاعتباط بما زادهم الله من شرف التكليف ﴿... وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾<sup>(١٢٤)</sup> التوبة<sup>2</sup>، لـ (...أنهم يعدّون زيادة التكليف بشارة التشريف)<sup>3</sup>.

**والجهة الثانية:** أنّ الله جلّ وعزّ جمع للمنافقين - المريضة قلوبهم - أمرين مقابلين لما ذكر للمؤمنين في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾<sup>(١٢٥)</sup> التوبة<sup>4</sup>:

**الأول:** ففي مقابل زيادة المؤمنين إيماننا يزداد الذين في قلوبهم مرض: نفاقا وشكا في دين الله<sup>5</sup> ﴿... فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ...﴾<sup>(١٢٥)</sup> التوبة<sup>6</sup> فهم بقذارتهم مستمسكون، وفي غيهم وإفكهم متمادون) وذلك أنهم شكوا في أنها من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدّقوا، فكان ذلك زيادة شكّ حادثه في تنزيل الله، لزمهم الإيمان به عليهم، بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نثن من أفعالهم، إلى ما سلف منهم نظيره من التّن والنفاق)<sup>7</sup>.

- **والثاني:** وفي مقابل استبشار المؤمنين بخيري الدنيا والآخرة يموت الذين في قلوبهم مرض على الكفر ﴿... وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾<sup>(١٢٥)</sup> التوبة، وهي أقبح من أختها - زيادة الرّجس - (فكان مقتضى

<sup>1</sup> قال ابن منظور: ( وَمَعْنَى يَبْشُرُكَ وَيُبَشِّرُكَ مِنَ الْبَشَارَةِ، الْبُشَارَةُ. قَالَ: وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ أَنْ بَشَّرَ الْإِنْسَانَ تَنْبَسِطُ عِنْدَ الشُّرُورِ). لسان العرب - ج 4 ص 62.

<sup>2</sup> قال ابن عاشور: (والاستبشار أثر البشرى في النفس، فالسين والتاء للتأكيد مثل استعجم). التحرير والتنوير - ج 11 ص 66.

<sup>3</sup> الأساس في التفسير - سعيد حوى - ج 4 ص 2378.

<sup>4</sup> قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾<sup>(١٢٥)</sup> التوبة، قال المفسرون: شك ونفاق، وسمي الشك في الدين مرضا لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج كالفساد في البدن. التفسير البسيط - ج 11 ص 99.

<sup>5</sup> أنظر: جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير - ج 14 ص 578.

<sup>6</sup> قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: (رجس: كلُّ شيءٍ يستفدّر فهو رجس كالخنزير، وقد رجس الرجل رجاسةً من القدر، وأنّه لرجسٍ مرجوسٍ. والرجس في القرآن العذاب كالرجز، وكلُّ قدرٍ رجسٍ. ورجس الشيطان وسوسته وهمزّه). كتاب العين - ج 6 ص 52. وقال ابن منظور: (قَالَ الرَّجْحُاجُ: الرَّجْسُ فِي اللَّغَةِ اسْمٌ لِكُلِّ مَا اسْتَفْذَرَ مِنْ عَمَلٍ فَبَالَغَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَمِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَسَمَّاهَا رِجْسًا). لسان العرب ج 6 ص 95.

<sup>7</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير - ج 14 ص 578.

سنة الله تعالى في تأثير الأعمال في صفات النفس: أن من مات منهم مات على كفره، وسيموت من بقي منهم وهم متلبسون بالكفر)<sup>1</sup>.

ومن شقوة المنافقين وخسارتهم أن ما كان سببا للشفاء والهداية ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء، ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس، يكون لهم سببا للخسارة والضلال (وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالتهم ودمارهم...)<sup>2</sup>.

**الفرع السادس: خاتمة السورة والهدي القرآني في بيان عدم اعتبار المنافقين بما يصيبهم؛** ومن الهدي القرآني في خاتمة السورة: تنبيه المؤمنين وتوبيخ المنافقين على سوء حالهم من عدم استفادتهم مما يُختبرون به المرة بعد المرة، بل ويتمادون في غيهم وضلالهم دون أن يتعظوا بما اختبروا به ولا أن يتوبوا من نفاقهم (... إن الله عجب عباده المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ووبخ المنافقين في أنفسهم بقلة تذكّرهم، وسوء تنبّههم لمواعظ الله التي يعظّمهم بها)<sup>3</sup> فقال جلّ وعزّ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ<sup>5</sup> فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ (التوبة.

**الأسلوب الثاني: ما يصدر منهم من الفعل الخفي على سبيل الاستهزاء<sup>6</sup>؛**

ومسلك المنافقين الثاني حين نزول الوحي وحين ذكر مثالبهم فيه، هو مسلك التخفي حين إرادة الانصراف عن القرآن والاهتداء بهديه والانصراف عن مجالسه لأهم لا يطبقون سماع القرآن بل إنهم

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 67.

<sup>2</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 210.

<sup>3</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - ابن جرير الطبري (ت 310هـ) - ج 14 ص 581.

<sup>4</sup> قال فخر الدين الرازي: المسألة الأولى: قرأ حمزة (أولا ترون) بالثناء على الخطاب للمؤمنين، والباقون بالياء خبرا عن المنافقين، فعلى قراءة المخاطبة، كان المعنى أن المؤمنين نبهوا على إعراض المنافقين عن النظر والتدبر، ومن قرأ على المغايبة، كان المعنى تفرغ المنافقين بالإعراض عن الاعتبار بما يحدث في حقهم من الأمور الموجبة للاعتبار). التفسير الكبير - ج 16 ص 175.

<sup>5</sup> قال الطبري: (وجائز أن تكون تلك المواعظ الشدائد التي ينزلها بهم من الجوع والقحط، وجائز أن تكون ما يريهم من نصرة رسوله على أهل الكفر به، ويرزقه من إظهار كلمته على كلمتهم، وجائز أن تكون ما يظهر للمسلمين من نفاقهم وخبث سرائرهم، بركوبهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولا خير يوجب صحّة بعض ذلك دون بعض، من الوجه الذي يجب التسليم له...). جامع البيان في تأويل القرآن - ج 14 ص 581.

<sup>6</sup> انظر: البحر المحيط - أبوحيان - ج 5 ص 531.

يتأذون من سماعه ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ...﴾ (١٢٧) التوبة، فإذا نزلت السورة من القرآن (نظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالاً على الطعن في تلك السورة والاستهزاء بها وتحقير شأنها، ويحتمل أنهم كانوا يستحقرون القرآن كله؛ فكلما سمعوا سورة، استهزؤا بها وطعنوا فيها وضحكوا وتغامزوا)<sup>1</sup>، فإذا أرادوا الخروج من المسجد قال بعضهم لبعض ﴿... هَلْ يَرَيْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ...﴾ (١٢٧) التوبة، (من المؤمنين إن قمتم، فإن لم يرههم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم أقاموا وثبتوا)<sup>2</sup>، فهم (يقولون ذلك إيماءً لأنهم منافقون لا يظهرون ذلك)<sup>3</sup>، خشية أن يكون أحد قد اطلع على ما يدبرونه سرّاً.

**سنة العقوبة من جنس العمل:** لما انصرف المنافقون عن الاهتداء بالوحي وأعرضوا عنه واستهزؤوا به صرف الله قلوبهم إلى النفاق والضلال مجازاة لهم على صنيعهم (صرف الله قلوبهم فطبع عليها بكفرهم ونفاقهم)<sup>4</sup> ﴿... ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ...﴾ (١٢٧) التوبة، وقد (صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين)<sup>5</sup>، ذلك ﴿... بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧) التوبة، فلا فطنة لهم ولا فهم كي يصلوا إلى حقيقة ما يدعوهم القرآن إليه، ولكنهم أعرضوا فحجب عنهم الفهم

<sup>1</sup> الباب في علوم الكتاب - سراج الدين بن عادل الحنبلي (ت 775هـ) - ج 10 ص 246.

<sup>2</sup> نفسه - ج 10 ص 246.

<sup>3</sup> معاني القرآن وإعرابه - أبو إسحاق الزجاج (ت 311هـ) - ج 2 ص 476.

<sup>4</sup> التفسير البسيط - الواحدي - ج 11 ص 104.

<sup>5</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 582. وتأويلات أهل السنة - أبو منصور الماتريدي (ت 333هـ) - ج 5 ص

516. وانظر: معاني القرآن وإعرابه - أبو إسحاق الزجاج (ت 311هـ) - ج 2 ص 476. والتفسير البسيط - الواحدي - ج 11

ص 104. البحر المحيط - أبوحيان - ج 5 ص 531. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج 4 ص 210. تفسير المنار - محمد

رشيد رضا - ج 11 ص 69...

<sup>6</sup> جاء في لسان العرب: فقه: الفقه: العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفصله على سائر أنواع العلم...

قال ابن الأثير: واشتقاقه من الشق والفتح، ... قال عزير: والفقه في الأصل الفهم. يُقال: أوتي فلان فقهاً في الدين أي فهماً فيه.

قال الله عز وجل: (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) أي ليكونوا علماء به... الأزهرى: وأما فقه، بصم القاف، فإنما يشتغل في التعمق. يُقال:

رجلٌ فقيهٌ، وقد فقهه يفقهه فقهه إذا صار فقيهاً وساد الفقهاء. ابن منظور - ج 13 ص 522.

- وجاء في المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: (الفقه: العلم بالشيء وفهمه " فهماً عميقاً مستوعباً) وقد فقه

الشيء: (كأنما غاص في داخله فأدرك دقائقه وخفاياه - وقد قال ابن الأثير إن اشتقاق الفقه من الشق والفتح، ولو أكمل

بقوله: "لنفاذ إلى باطن الشيء" الوبي الكلام - د/ محمد حسن حسن جبل - ج 3 ص 1703.

لأن الله جلّ وعزّ صرف قلوبهم عن الفهم والفقّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ﴿٤٦﴾ الإسراء، إنما يحدث الفقه بالقلب، وقلوب المنافقين عليها حجب ساترة تمنعهم من فقه القرآن ونعمة الاستفادة من هديه. واستماعهم له إنما كان سماع استهزاء وسخرية لا سماع تأمل وتدبّر، وهذا المنع كان جزاء لهم بسبب إعراضهم، فلم ينعموا بنعمة الاهتداء بالقرآن إلى القرآن، لإصرارهم على الجحود والإنكار، ( ذلك بأنهم اتخذوا أنفسهم أعداء وخصوما للرسول صلى الله عليه وسلم ، فوظنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل فيه)<sup>1</sup> فالمنافقون لا يفقهون ولا ينقّهون<sup>2</sup> ، لأنهم (أهلوا منافذ العلم والعرفان، وعطلوها عما خلقت له، فلم يصل إليها نور الحق، فقلوبهم غلف لا تعقل عن الله وحيه، وعيونهم عمي لا ترى الله في ملكوته، وآذانهم صم لا تسمع آيات الله، فهم مثل الأنعام التي لا تنتفع بحواسها الظاهرة والباطنة، بل أضلّ من الأنعام إذ الأنعام لم تزود بما زود به الإنسان من قوى نفسية وعقلية وروحية)<sup>3</sup>.

#### الفرع السادس: خاتمة الخاتمة هي قوله جلّ وعزّ:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ التوبة.

هاتان الآيتان من خاتمة السورة من آخر ما نزل من القرآن فقد روي عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ ﴿١٢٨﴾ التوبة، إلى آخر السورة. وقال: هما أحدث الآيات بالله عهدا)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 69.

<sup>2</sup> في لسان العرب: (فُلَانٌ مَا يَفْقَهُ وَمَا يَنْقَهُ؛ مَعْنَاهُ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ) - ابن منظور - ج 13 ص 522 .

<sup>3</sup> كتاب التوحيد المسمى: التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد - عمر العرابوي الحملاوي (ت 1405هـ) - ص 211

<sup>4</sup> معالم التنزيل في تفسير القرآن - البغوي (ت 510هـ) - ج 4 ص 116. انظر الهامش (1): أخرجه الحاكم: 2 / 338، والإمام

عبد الله بن أحمد في زوائد المسند: 5 / 117، وعزاه ابن حجر في المطالب العالية 3 / 337 لإسحاق بن راهويه، كلهم دون قوله: "هما أحدث الآيات...". وقال الهيثمي في المجمع: 7 / 36: "رواه عبد الله بن أحمد، والطبراني، وفيه علي بن زيد بن

جدعان، وهو ثقة سبي الحفظ، وبقية رجاله ثقات".

**عود على بدء :** علمنا أنّ سورة براءة بُدئت بالبراءة من المشركين، وبالشدّة والغلظة على أهل الكتاب والكفار والمنافقين وختمت السورة بامتنانه جلّ وعزّ على العرب ببعثة محمد صلى الله عليه وسلّم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾<sup>1</sup> التوبة<sup>1</sup>، كما قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾<sup>2</sup> آل عمران، في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾<sup>3</sup> الجمعة، فهو صلى الله عليه وسلّم من خير العرب نسبا ومن أعرقها قبيلة ومن أشرفها بيتا، فهو خيار من خيار، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلّم عن نسبه الشريف فقال: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)<sup>4</sup>، وعن العباس قال: بلغه صلى الله عليه وسلّم بعض ما يقول الناس، قال: فصعد المنبر فقال: " من أنا ؟"، قالوا: أنت رسول الله. فقال: " أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا"<sup>5</sup>، (فالمنة به صلى الله عليه وسلّم على قومه أعظم، والحجة عليهم به وبكتابه أنحض، وأخصّ قومه به قبيلته قريش، فعشيرته الأقربون بنو هاشم وبنو المطلب، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم)<sup>6</sup>، فقد (جعله الله من أنفسهم، فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة)<sup>7</sup>، فكان حري بالعرب - والحال كذلك- أن يفتخروا ببعثة محمد صلى الله عليه وسلّم منهم وأن يتشرفوا

<sup>1</sup> قال ابن عطية: وقوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ) مخاطبة للعرب في قول الجمهور وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام، وقال الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى لقد جاءكم رسول من البشر والأول أصوب). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ج 3 ص 100. قلت: والجمع بين القولين أقرب.

<sup>2</sup> صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلّم. وجاءت زيادة في صحيح ابن حبان - كتاب التاريخ - قوله صلى الله عليه وسلّم: (فأنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع).

<sup>3</sup> مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم - حديث العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلّم. سنن الترمذي -

أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم - باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلّم.

<sup>4</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 71.

<sup>5</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري (المتوفى: 310هـ) - ج 14 ص 585.

بالانتساب إليه) وفيه امتنان على العرب وتنبية على فضيلتهم، وفيه أيضا تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناوآته وأن الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله<sup>1</sup>.

وفي امتنان الله جلّ وعزّ على العرب ببعثة رسوله صلى الله عليه وسلّم امتناناً على البشرية المدعوة للإسلام، (فالخطاب بقوله: (جاءكم) وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام)<sup>2</sup>، لأنه صلى الله عليه وسلّم مبعوث رحمة إلى جميع الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٧)</sup> الأنبياء، فعلى وجازة هذه الآية فقد تضمنت مدح النبي صلى الله عليه وسلم ومدح رسالته: (وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه)<sup>3</sup>.

### الفرع الثامن : من صفات النبي صلى الله عليه وسلم في خاتمة السورة

وُصف النبي صلى الله عليه وسلم في خاتمة السورة بأربع صفات؛ اثنتان منهما لأمة الدعوة واثنتان للمؤمنين خاصة:

#### أ- فالصفتان اللتان لأمة الدعوة :

##### الصفة الأولى:

﴿...عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾<sup>(١٧٦)</sup> التوبة<sup>4</sup>، فالنبي صلى الله عليه وسلم يشقّ عليه ويشتدّ على نفسه ويثقل عليها - لأنه منكم - أن يرى أمة الدعوة تلاقى المكروه والضّرر والمشقة الشديدة، الموصلة لسوء

<sup>1</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 71.

<sup>2</sup> نفسه - ج 11 ص 70.

<sup>3</sup> نفسه - ج 17 ص 165.

<sup>4</sup> (عزيز عليه) قال ابن عاشور: (فإذا عدّي بـ(على) دلّ على معنى الثقل والشدة على النفس) التحرير والتنوير- ج 11 ص 72. وجاء في المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: (وكل ما في القرآن من التركيب فمعناه الشدة والقوة الذاتية، أو الواقعة). د/ محمد حسن حسن جبل- ج 3 ص 1455.

(ما عنتم) قال ابن عاشور: (والعدول عن الإتيان بلفظ (العنت) الذي هو المصدر الصريح إلى الإتيان بالفعل مع (ما) المصدرية السابقة للمصدر نكتة؛ وهي: إفادة أنه قد عزّ عليه عنتم الحصول في الزمن الذي مضى، وذلك بما لقوه من قتل قومهم، ومن الأسر في الغزوات، ومن قوارع الوعيد والتهديد في القرآن، فلو أتى بالمصدر لم يكن مشيراً إلى عنت معين ولا إلى عنت وقع لأن المصدر لا زمان له بل كان محتملاً أن يعزّ عليه بأن يجنّبهم إياه، ولكن مجيء المصدر منسبكا من الفعل الماضي يجعله مصدرا مقيدا

العاقبة، بأن تعمل ما يوقعها في العنت (وإنما وصفه الله جل ثناؤه بأنه عزيزٌ عليه عنتهم، لأنه كان عزيزاً عليه أن يأتوا ما يُعنتهم، وذلك أن يضلُّوا فيستوجبوا العنت من الله بالقتل والسي...<sup>1</sup>)، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسِكَ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ لِإِنَّ لَهُمُ الْيَوْمَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ۖ﴾ الكهف، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۗ﴾ الشعراء.

### الصفة الثانية :

﴿... حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ...﴾ التوبة<sup>2</sup>، شدة رغبة النبي صلى الله عليه وسلم وإرادته في اهتداء القوم الذين بُعث فيهم بإيمان كافريهم ومنافقيهم، وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق (حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به)<sup>3</sup>، ومن حرصه صلى الله عليه وسلم عليهم مكابدة المشاق في دعوته لهم من جهة وفي مجاهدتهم والغلظة عليهم من جهة أخرى، وفي ذلك مصلحتهم واستصلاح حالهم (ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم، وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۗ﴾ الأنبياء، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعمولوا بالغلظة تعقيباً للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن، فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها)<sup>4</sup>.

الحصول في الماضي، ألا ترى أنك تقدره هكذا: عزيز عليه عنتكم الحاصل في ما مضى، لتكون هذه الآية تنبيهها على أن ما لقوه من الشدة إنما هو لاستصلاح حالهم لعلهم يخفون بعدها من غلواتهم ويرعون عن غيهم ويشعرون بصلاح أمرهم). التحرير والتنوير - ج 11 ص 72.

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 586.

<sup>2</sup> قال الأزهري: (وقول العرب: حَرِيصٌ عَلَيْكَ مَعْنَاهُ حَرِيصٌ عَلَى نَفْعِكَ) تهذيب اللغة - ج 4 ص 140. قال ابن منظور: (حرص: الحرص: شدة الإرادة والشَّرة إلى المَطْلُوب). لسان العرب - ج 7 ص 11. جاء في المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: (فالحرص يقشر ويأخذ كل ما يستطيع أخذه ولا يفرط فيه ولا تسمح نفسه بإفلاته أو تضييعه) وهذا - لا الشَّرة ولا الجشع - هو التعبير المناسب لتفسير قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ) التوبة 128. د/ محمد حسن حسن جبل - ج 1 ص 409.

<sup>3</sup> الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - الرمخشري (ت 538هـ) - ج 2 ص 325.

<sup>4</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 70.

## ب - الصفتان اللتان خصَّ بهما المؤمنون :

فقد جمع الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بين صفتين من صفاته واسمين من أسمائه الحسنی جلّ وعزّ<sup>1</sup>، خصَّ بهما المؤمنین فقال: ﴿... بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>2</sup> (وتخصيص رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين، لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم، لعموم بعثته صلى الله عليه وسلم ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردها)<sup>3</sup>.

## الصفة الأولى:

أن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿... بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ...﴾<sup>4</sup> فالرأفة (تكون مع الضعف والشفقة والرقة)<sup>5</sup>، فإذا حلّ بالمؤمنين ضعف أو ضرر رقّ النبي صلى الله عليه وسلم لحالم ودعا ربّه جلّ وعزّ أن يرفع عنهم المضارّ وذلك ل(إفاضة الكمالات والسعادات التي بها يستحقّ الثواب)<sup>6</sup>، لأنه صلى الله عليه وسلم بهم ﴿... رَءُوفٌ...﴾<sup>7</sup>.

## الصفة الثانية:

<sup>1</sup> ومما جاء من اجتماع الاسمين والصفتين في حقّه جلّ جلاله قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ... إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>8</sup> التوبة. ﴿وَأُولَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>9</sup> النور، وسورة الحشر الآية 10 ، وسورة النحل الآية 7، والآية 47، وسورة الحج الآية 65، وسورة الحديد الآية 9.

<sup>2</sup> قال الرازي: (قوله: بالمؤمنين رؤوف رحيم يفيد الحصر بمعنى أنه لا رأفة ولا رحمة له إلا بالمؤمنين). التفسير الكبير - ج 16 ص 179.

<sup>3</sup> تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج 11 ص 72.

<sup>4</sup> قال الأزهرى: (والرأفة: أحص من الرحمة وأرق) تهذيب اللغة - ج 15 ص 172. قال ابن عاشور: (والرأفة: رقة تنشأ عند حدوث ضرر بالمرؤوف به... والرحمة: رقة تقتضي الإحسان للمرحوم). التحرير والتنوير - ج 11 ص 73.

<sup>5</sup> التفسير الواضح - محمد محمود الحجازي - ج 2 ص 34.

<sup>6</sup> قال الكفوي في بيان الفرق بين الرحمة والرأفة: (والرّحمة هي أن يوصل إليك المسار والرأفة هي أن يدفع عنك المضار، والرأفة إنما تكون باعتبار إفاضة الكمالات والسعادات التي بها يستحق الثواب، فالرحمة من باب التزكية، والرأفة من باب التحلية، والرأفة مبالغة في رّحمة مخصوصة هي رفع المكروه وإزالة الضرر، فذكر الرّحمة بعدها في القرآن مطردا لتكون أعم وأشمل...). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية - ص 471.

أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿... رَحِيمٌ ١٢٨﴾<sup>1</sup>، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُو رِقَّةٍ وَتَعَطُّفٍ وَإِحْسَانٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِإِيصَالِ الْمَسْرَاتِ إِلَيْهِمْ، وَهَذَا (يَعْنِي أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فُطِرَ عَلَى خَلْقِ الرَّحْمَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِ مَعَامَلَتِهِ الْأُمَّةَ، لِتَتَكُونُ مَنَاسِبَةً بَيْنَ رُوحِهِ الزَّكِيَّةِ وَبَيْنَ مَا يَلْقَى إِلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ بِشَرِيعَتِهِ الَّتِي هِيَ رَحْمَةٌ، حَتَّى يَكُونَ تَلْقِيهِ الشَّرِيعَةَ عَنْ انْشِرَاحِ نَفْسٍ أَنْ يَجِدَ مَا يُوحَى بِهِ إِلَيْهِ مَلَائِمًا رَغْبَتَهُ وَخَلْقَهُ)<sup>2</sup>، إِذْ لَمَّا طُلِبَ مِنْهُ الدَّعَاءُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أَحَدٍ وَقَدْ شَجَّ وَجْهُهُ وَكَسَرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالُوا: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَانًا وَإِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً)<sup>3</sup>، وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ شَهِدَ لَهَا بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ... ١٥٩﴾ آل عمران، (أَيَّ بِرَحْمَةٍ جَبَلِكَ عَلَيْهَا وَفَطْرِكَ بِهَا فَكُنْتَ لَهُمْ لِينًا). فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَذَاكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ بَعَثَةِ الرَّسْلِ تَبْلِيغَهُمْ شَرَائِعَ اللَّهِ إِلَى الْخَلْقِ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا مَالَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَيْهِمْ، وَسَكَنَتْ نَفْسُهُمْ لَدَيْهِمْ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ الرَّسُولُ رَحِيمًا كَرِيمًا، يَتَجَاوَزُ عَنِ ذَنْبِ الْمَسِيءِ وَيَعْفُو عَنِ زَلَاتِهِ، وَيَخْصُّهُ بِوَجْهِ الْبِرِّ وَالْمَكْرَمَةِ وَالشَّفَقَةِ)<sup>4</sup>.

### الفرع الثامن: الزاد في حال الإعراض

الهدى القرآني إن أعرض المدعوون عن الداعي ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا... ١٢٩﴾ التوبة، عن الاهتداء بما جاءهم به عنادا ومكابرة، بعد شفقتهم عليهم لما يصيبهم من عنت وحرصه الشديد على هدايتهم فزاد:

### الزاد الأول: الاحتساب:

﴿... فَقُلْ حَسْبِيَ... ١٣١﴾ التوبة<sup>5</sup>، وفي هذا تلقين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما يقوله ليستيقن بما علم إن أعرضوا عنه، فإنه جلّ وعزّ يكفي نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شأنهم ويعينه على مكرهم (ومعنى الأمر بأن يقول: حسبي الله أن يقول ذلك قولاً ناشئاً عن عقد القلب عليه، أي فاعلم أنّ حسبك الله وقل

<sup>1</sup> قال ابن منظور: (الرَّحْمَةُ: الرِّقَّةُ وَالتَّعَطُّفُ) - لسان العرب - ج 12 ص 230.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 17 ص 167.

<sup>3</sup> صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب النهي عن لعن الدواب وغيرها. وتمام الحديث: عن أبي هريرة، قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: "إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة".

<sup>4</sup> تفسير حدائق الروح والريحان - محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي المروري الشافعي - ج 5 ص 231.

<sup>5</sup> جاء في المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: (والأمر (قُلْ) في القرآن-332 مرة- لإسناد كل ما في القرآن إلى الله عزّ وجلّ دعماً للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحسماً لطمع الكفار في الهوادة) - د/ محمد حسن حسن جبل - ج 4 ص 1825.

(حسي الله)، لأن القول يؤكد المعلوم ويرسخه في نفس العالم به، ولأنّ في هذا القول إبلاغا للمعرضين عنه بأنّ الله كافيه إياهم)<sup>1</sup>، ومع الاحتساب يأتي الثناء على الله جلّ وعزّ بما هو أهل له ﴿...لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾<sup>١٢٩</sup> التوبة، إذ (لا مكافئ له، فلا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه)<sup>2</sup>، فالله جلّ وعزّ (كافيك شرّ إعراضهم لأنهم إن أعرضوا بعد هذا فقد أعرضوا عن حسد وحنق، وتلك حالة مظنة السعي في الكيد والأذى)<sup>3</sup>. وهو الهدى القرآني والتعليم لكل من لاقى الصدود والإعراض ممّن يدعوهم ﴿...لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾<sup>١٢٩</sup> التوبة.

### وزاده الثاني: التوكل؛

﴿...عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ...﴾<sup>١٢٩</sup> التوبة، وذلك بتفويض الأمر لمن قامت السموات والأرض بأمره والثناء عليه بعظيم قدرته، وكيف لا يخصّ بالتوكل ﴿...وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾<sup>١٢٩</sup> التوبة، فإذا عجزت وكلت أمرك فيما عجزت عنه إليه سبحانه جلّ وعزّ دون سواه فهو الذي له الخلق والأمر: ﴿...أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>١٥١</sup> الأعراف، فهو المدبّر لشؤون الخلق كلّهم (ولما قام الدليل على أنّه لا كفؤ له، وجب قصر الرغائب عليه فقال: (عليه) أي وحده (توكلت) لأنّ أمره نافذ في كلّ شيء (وهو ربّ) أي: مالك ومخترع ومدبر؛ ولما كان في سياق القهر والكبرياء بالبراءة من الكفار والكفاية للأبرار، كان المقام بالعظمة أنسب... فقال: (العرش العظيم) أي المحيط بجميع الأجسام الحاوي لسائر الأجرام الذي ثبت بأية الكرسي وغيرها أنّ ربه أعظم منه لأنّ عظيمته على الإطلاق فلا شيء إلا هو في قبضته وداخل في دائرة مملكته، وإذا كان كافي فأنا بريء ممّن تولى عنيّ وبعد مني كائناً من كان في كل زمان ومكان فقد عانق آخر السورة أولها وصافح منتهاها مبتدأها وتأكّد ما فهمته من سرّ الالتفات في (فسيحوا) وفي (فإنّ تبتم فهو خير لكم وإنّ توليتم فاعلموا أنّكم غير معجزين الله) والله تعالى أعلم)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور ج 11 ص 74.

<sup>2</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 9 ص 60.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 74.

<sup>4</sup> نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - ج 9 ص 61.

## المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الخامسة

جاءت خاتمة سورة التوبة مبيّنة للهدى القرآني الذي ينبغي على المسلم الاهتداء به:

1- **علاقة المسلم بغيره:** الهدى القرآني ألا يختار المسلم إلا ما اختار الله له ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ التوبة، فيكون مع من تجمعه بهم خصلة الصّدق في دين الله نية وقولا وعملا.

2- **علاقة المسلم بنبيه صلى الله عليه وسلم:**

أ - من الهدى القرآني تقبيح عمل المتخلفين من أهل المدينة والقبائل المحيطة بالمدينة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليحتاط المسلمون من بعدهم كي لا يتخلفوا عن الجهاد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ... ﴿١٣﴾ التوبة.

ب- ومن الهدى القرآني تقبيح لإيثار النفس وحبّها على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلف عنه صلى الله عليه وسلم وتركه وهو يكابد الشدائد والمشقات ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ التوبة، بل على المؤمنين مصاحبتة ومكابد الأهوال معه برغبة ونشاط واعتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، وكذلك السائرون على هديه من بعده.

3- **ومن الهدى القرآني في خاتمة السورة التنبيه على:**

أ - سعة ثواب الله بسعة العمل في سبيله ومكابدة الشدائد والمشقات في ذلك؛ فما من ظمأ ولا تعب ولا جوع، وما من عمل يلحق الضرر بالعدو بوطء أرضه والنيل منه إلا وكتب للعاملين به عملا صالحا وثوابا جزيلا ﴿...ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ التوبة.

ب- من هدى الآية الكريمة أنّ من قصد بعمله طاعة الله كان عطشه وتعبه ومشقته وقيامه وعوده ومشيته وحركاته كلّها حسنات مكتوبة له وعُدّ من المحسنين ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

﴿١٤﴾ التوبة.

ج- أن من كان ديدنه إنفاق المال صغيره وكبيره وإنفاق الجهد والوقت لإعلاء شأن الإسلام رُفِع شأنه

وأجزل الله ثوابه لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا

كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٦﴾ التوبة، (وفي ذكر (كانوا)

والإتيان بخبرها مضارعا إفادة أن مثل هذا العمل كان ديدنهم)<sup>1</sup>.

د- إعلاء شأن جهاد النفيير بالعلم والدعوة إلى الله وذاك هو ميراث النبوة (والعلم مستمد من الرسالة

فعلى أهله واجب التبليغ والندارة، والصبر على ما في طريق ذلك من الأذى والبلايا، والعطف على

الخلق والرحمة وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن

كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

يَحْذَرُونَ ﴿١١٧﴾ التوبة)<sup>2</sup>.

ذ- أن يكون القصد من التفقه في الدين العمل لبناء المجتمع الإسلامي على الاستقامة والحد من

سخط الله، لا أن يكون لكسب السمعة والترفع على الخلق (وفي قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾

إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة وتبليغ الشريعة لا الترفع على العباد، والتبسُّط

في البلاد، كما هو دأب أبناء الزمان...)<sup>3</sup>.

#### 4- ومن الهدى القرآني سنة التدرج في مقاتلة الكفار

فكما كانت الدعوة إلى الله في المرحلة المكية وفق سنة التدرج، كانت في المرحلة المدنية سنة

التدرج في مقاتلة الكفار ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾

#### 5- ومن الهدى القرآني في مقاتلة الكفار الجمع بين أمرين:

الأول: الشدة لإرهاب العدو ﴿... وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً...﴾.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 58.

<sup>2</sup> آثار ابن باديس- د/ عمار طالبي- ج 2 ص 70.

<sup>3</sup> نفسه - ج 2 ص 70.

**والثاني:** التقوى لتجنب حظوظ النفس والمحافظة على أخلاق المسلم في السلم وفي الحرب ﴿... وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ التوبة.

**6- ومن الهدي القرآني:** تأكيد أن معية الله للمؤمنين بالتأييد والتصر ﴿... وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ التوبة، وأنهم لا ينالون هذه المعية بالعودة والتمني ولكنهم ينالونها ب:

**تقوى الإعداد:** باجتناب التقصير في الأخذ بأسباب النصر والغلب، وذلك ببذل الوسع لتكون لهم القوة اللازمة ليتحقق أمر الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ...﴾ الأنفال.

**وتقوى المحاربة:** بتنبية المؤمنين إلى وجوب مراعاة تمحيض قتالهم الكفار والغلظة عليهم الله جلّ وعزّ، والتخلّق بأخلاق الإسلام في الحرب والسلم ليتحقق أمر الله جلّ وعزّ ﴿... وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً...﴾ ولا يتحقق هذا المقصد - تقوى المحاربة - إلا إذا تألف المؤمنون على طاعة الله فيجمعون بين الشدة على الكفار والرحمة بينهم ﴿... أَشَدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ...﴾ الفتح.

**7- الهدي القرآني في تنبيه المؤمنين على خصال المنافقين تجاه القرآن وتعداد أساليبهم في الاستهزاء بالوحي:**  
**الأسلوب الأول:**

استخفاف المنافقين بالقرآن واستهزأؤهم بالمؤمنين بالقول لأنهم يقولون: ﴿... أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدَاهَ إِيمَانًا...﴾ التوبة، فقد أنكروا أن يكون نزول القرآن وسماعه مما يزيد المؤمنين إيماناً، لأنهم يقيسون على أحوال قلوبهم المريضة التي لا تتأثر بالقرآن.

**الهدي القرآني في الجواب على إنكارهم من جهتين:**

**الجهة الأولى:** من حيث ازدياد المؤمنين إيماناً بالقرآن: ﴿... فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ

إِيمَانًا...﴾ التوبة، بزيادة إيمانهم واطمئنان قلوبهم وتحصيلهم للعلم التي حوته السورة والعمل بمقتضاها

<sup>1</sup> قال البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بنى الإسلام على خمس: وهو قول وفعل، ويزيد وينقص. قال ابن بطال: (القول بزيادة الإيمان ونقصانه هو مذهب أهل السنة وجمهور الأمة). كتاب الإيمان - باب زيادة الإيمان ونقصانه - شرح صحيح البخاري - ابن بطال (ت 449هـ) - ج 1 ص 102.

لينالوا القرب من الله جلّ وعزّ (وهو يشمل الزيادة في حقيقته وصفته من اليقين والإذعان واطمئنان القلب، وفي متعلقه وهو ما في السورة من مسائل العلم، وفي أثره من العمل والتقرّب إلى الرب)<sup>1</sup>.  
**ومن حيث استبشار المؤمنين بالقرآن:** بظهور البشر على محياهم وهم يستقبلون الوحي مطمئنةً به قلوبهم، سعيدةً به أرواحهم.

- **والجهة الثانية من الإجابة:** من حيث أنّ الله جلّ وعزّ جمع للمنافقين أمرين في مقابل ما ذكر للمؤمنين في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ١٢٥﴾ التوبة<sup>2</sup>:

**الأول:** في مقابل زيادة إيمان المؤمنين يزداد المنافقون نفاقا وشكًا في دين الله... ﴿فَزَادَهُمُ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ... ١٢٥﴾ التوبة، فهم بقنارتهم مستمسكون، وفي غيهم وإفكهم متمادون.

**والثاني:** في مقابل استبشار المؤمنين بالوحي يُبشّر المنافقون بالموت على الكفر ليزدادوا غمًا إلى غمهم... ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ١٢٥﴾ التوبة.

- **الأسلوب الثاني:**

**استخفاف المنافقين بالقرآن واستهزاؤهم بالمؤمنين بالأفعال الخفية للانصراف عن مجالس القرآن الكريم:**

حينما ينزل الوحي يفضح المنافقين ويذكر مثالبهم فيتأذون منه ولا يطيقون سماعه، فيتبادلون النظرات الخفية للانصراف عن مجلسه قال الله جلّ وعزّ ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ١٢٧﴾ التوبة.  
**8-** من شقوة المنافقين وخسارتهم أنّ ما كان سببا للشفاء والرحمة وهداية المؤمنين يكون لهم سببا للخسارة والضلال ﴿وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ٨٢﴾ الإسراء.

<sup>1</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج 11 ص 67.

<sup>2</sup> قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ... ١٢٥﴾ التوبة، قال المفسرون: شك ونفاق، وسمي الشك في الدين مرضا لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج كالفساد في البدن. التفسير البسيط - ج 11 ص 99.

9- ومن الهدى القرآني في خاتمة السورة تنبيه المؤمنين على خصلة من خصال المنافقين وهي: عدم

اعتبارهم بما يصيبهم المرة بعد المرة دون أن يتعظوا بمواعظ الله التي يعظهم بها ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٣٦) التوبة.

10- سنة: العقوبة من جنس العمل: لما انصرف المنافقون عن الاهتداء بالوحي وأعرضوا عنه صرف الله قلوبهم إلى النفاق والضلال مجازاة لهم على صنيعهم ﴿...ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ...﴾ (١٣٧) التوبة.

11- المنافقون لا يفقهون خطاب الله ﴿... بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣٧) التوبة، لأنهم لم يفهموا حقيقة ما يدعوهم إليه القرآن الكريم لوجود مغاليق قلبية وعقلية ونفسية تمنعهم من التدبر ودقة الفهم عن الله، فحرموا الاعتاض والانتفاع به<sup>1</sup>.

12- وفي خاتمة الخاتمة: امتنان الله جلّ وعزّ على العرب وعلى العالمين<sup>2</sup> ببعثة الرسول الخاتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بقول جلّ وعزّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ (١٣٩) التوبة، ومن الهدى القرآني في هذا أنّ باب التوبة والإيمان يظل مفتوحا ليدخله كل من أبصر الهداية وترك الغواية (فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها)<sup>3</sup>.

13- الهدى القرآني في بيان صفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليهتدي بها الدعاة إلى الله جلّ وعزّ:

أولاً: العلاقة بأمة الدعوة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ...﴾ (١٣٨) التوبة وذلك به:

- أن يحمل الدعاة إلى الله هم الدعوة وأن يكابدوا مشقاتها من أجل ألا تلقى أمة الدعوة المكروه والضّرر والمشقة الشديدة الموصلة لسوء العاقبة.

<sup>1</sup> يراجع: تفسير المنار - محمد رشيد رضا- ج 9 ص 352. بتصرف

<sup>2</sup> قال ابن عطية: وقوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ) مخاطبة للعرب في قول الجمهور وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بسلاخهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام، وقال الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى لقد جاءكم رسول من البشر والأول أصوب). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ج 3 ص 100. قلت: والجمع بين القولين أقرب.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور- ج 11 ص 70.

- وأن يبلغ حرص الدعاة ورغبتهم الشديدة - كشدة رغبة النبي صلى الله عليه وسلم - في اهتداء القوم الذين يدعونهم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق.

ثانياً: علاقة الدعاة بالمؤمنين من إخوانهم: ﴿... بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨) التوبة، فعلاقة الدعاة بإخوانهم المؤمنين قائمة على:

- **الرافة بهم:** فإذا حلّ بالمؤمنين ضعف أو ضرر رقّ الدعاة - كما رقّ النبي صلى الله عليه وسلم - لحالمهم ودعوا ربهم جلاً وعزّاً أن يرفع عنهم المضار.

- **الرحمة بهم:** بالرفقة والتعطف والإحسان للمؤمنين لإيصال المسرات إليهم، لأنّ المقصود من دعوتهم البلاغ عن الله إلى الخلق، ولا يتحقق ذلك إلا إذا مالت قلوبهم المدعّوين إليهم، واطمأنت نفوسهم إليهم.

14- الهدى القرآني في بيان زاد الداعي في حال الإعراض عنه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا...﴾ (١٢٩) التوبة، فلا بدّ له من أمرين:

**الأول: الاحتساب:** ﴿... فَقُلْ حَسْبِيَ...﴾ (١٢٩) التوبة، باعتقاد الداعي أنّ الله جلّ وعزّ يكفيه شأن المعرضين ويعينه على مكرهم، ومع الاحتساب يأتي الثناء على الله جلّ وعزّ بما هو أهل له ﴿... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ (١٢٩) التوبة، إذ لا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه.

**والثاني: التوكّل:** ﴿... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ...﴾ (١٢٩) التوبة، فإذا عجز الداعي وكل أمره فيما عجز عنه إليه سبحانه جلّ وعزّ دون سواه، وفوّض الأمر لمن قامت السموات والأرض بأمره والثناء عليه بعظيم قدرته، ﴿... وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩) التوبة. كل الخلق عبيد الله فهم في سلطانه وملكه يجري عليهم حكمه وقضاؤه (وأن من دونه في سلطانه وملكه، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه)<sup>1</sup> لأنه هو ﴿... وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩) فناسب ختام السورة أولها في حكمه جلّ وعزّ بالبراءة من المشركين.

<sup>1</sup> جامع البيان في تأويل القرآن - الطبري - ج 14 ص 587.

# خاتمة

جامعة الأمير  
عبد القادر  
للعلوم الإسلامية

## خاتمة

الحمد لله الذي وفقني ويسر لي إتمام هذا البحث الموسوم بـ: الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية - سورة التوبة أنموذجا - وبعد رحلة تدبرية ممتعة نافعة مع سورة من كتاب الله تعالى وامتدادات معانيها في باقي سوره ومع فهوم علماء التفسير في كتبهم أقف في الختام على ما خلصت إليه من نتائج وفوائد أذكر أهمها فيما يلي:

1- دلّت سورة التوبة في هديها على أنّ الكيانات التي ناوت الإسلام في مبدأ الوحي: مشركون وأهل كتاب ومنافقون، هم الذين ناؤوه في آخر عهد بالوحي، وهم الذين يناوئونه اليوم وغدا (حرب كفر وإلحاد وحرب يهود ونصارى وحرب نفاق).

2- السورة القرآنية وحدة عضوية متألّفة معانيها متناسبة وحداتها.

3- سورة التوبة على تعدّد مواضعها: نقض عهود المشركين والبراءة منها - أهل الكتاب حقيقة عقيدتهم وعبادتهم وكيدهم لإطفاء نور الله - المنافقون وكيدهم ودسائسهم ... فقد تحققت فيها الوحدة الموضوعية.

4- أصّلت سورة التوبة لـ:

أ- بيان علاقة المسلمين بغيرهم من المشركين والقائمة على: إعلان البراءة من عهود المشركين الناكثين والوفاء لمن وقي منهم، والتسامح مع غير المحاربين منهم، وقتال أئمة الكفر وقطع ولائهم.

ب- بيان علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب والقائمة على: بيان حقيقة عقيدتهم وعبادتهم، والعلم بعداوتهم للإسلام وأهله ومسالكهم لإطفاء نور الله بالقول والإرجاف والتحريض، علماؤهم وعبادهم سواء.

ت- بيان علاقة المسلمين بغيرهم من المنافقين والقائمة على: توصيف القرآن لأحوالهم الظاهرة والباطنة توصيفا تفصيلا لئلا ينخدع المؤمنون بمظاهرهم الكاذبة.

ث- معاملة المنافقين بالظاهر من أحوالهم لأنّ من ظاهره الإسلام كالمنافقين لا يحكم بكفره إلا بوحي من الله تعالى، أو بصدور ما يدلّ على الكفر دلالة قطعية، ولم يثبت أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قاتلهم أو قتلهم.

5- دلت ألفاظ العموم على أنّ المنافق أئمة إنساني مكرور يستوعبه الزمان والمكان في كلّ مراحل حياة الأمة بل وحياة البشرية، وفي ذلك حكمة بالغة تتمثل في أن يلتفت المؤمنون للنظر في تاريخ نشأة النفاق وأهله ومعرفة سيماهم ومسالكهم في الحياة ليسلم المجتمع من مكرهم.

6- تعددت مسالك المنافقين في الهدم الاجتماعي من الداخل رجالهم ونساءهم في ذلك سواء.

7- قاعدة استقرار مجتمع الإسلامى قائمة على :

أ- إعلاء شأن الجماعة المسلمة بالجهاد في سبيل الله .

ب- إعلاء شأن الفرد في المجتمع الإسلامى بصفات ذاتية يرتقي بها لأعلى الدرجات من التوبة

والعبادة والحمد والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحافظة على حدود الله.

ت- التربية بالشدائد والتعاشيش معها والصبر عليها، لأنها هي المحكّ الذي تصقل به شخصية الرجال؛

فكلما زادت الشدة زاد معها الصّقل حتى تجعل الشدائد من الرجل الصادق المتّصف بهذه

الصفات رجلاً قرانيا لا تزعزعه الشدائد والكروب.

ث- تهوين أوقات الكروب والشدائد ليجرؤ المسلمون على مواقععتها والاستهانة بشأنها ويتجشّمون

صعابها، لأنّ وقتها يسير وأجرها كبير.

ج- جهاد النفيّر بالعلم والدعوة إلى الله.

8- بينت خاتمة سورة التوبة ما ينبغي على المسلم الاهتداء به:

أ- علاقة المسلم بغيره: أن يكون مع من تجمعه بهم خصلة الصدق في دين الله نية وقولا وعملا.

ب- علاقة المسلم بنبيّه صلى الله عليه وسلم: مصاحبته ومكابدة الأهوال معه برغبة ونشاط واغتراب،

وأن يلقوا بأنفسهم في الشدائد ما تلقاه نفسه، وكذلك السائرون على هديه من بعده.

ت- الجمع بين أمرين في مقاتلة الكفار:

الأول: الشدة عليهم لإرهابهم.

والثاني: التقوى لتجنّب حظوظ النفس والمحافظة على أخلاق المسلم في السلم وفي الحرب.

ث - استحقاق المؤمنين معية الله بالتأييد والنصر وذلك بـ:

• تقوى الإعداد: باجتناّب التّقصير في الأخذ بأسباب النصر والغلب.

• وتقوى المحاربة: بتمحيض قتال الكفار والغلظة عليهم لله جلّ وعزّ، والتخلّق بأخلاق الإسلام في الحرب والسلم، ولا يتحقّق هذا المقصد- تقوى المحاربة- إلا إذا تألّف المؤمنون على طاعة الله فيجمعون بين الشدّة على الكفار والرحمة بينهم.

وأما أهم التوصيات فتتلخص فيما يلي:

- حث الطلبة على بحث الوحدة الموضوعية للوقوف على الهدى القرآني.
- إقامة الندوات العلمية لتدريب الطلبة على منهجية البحث في هذا اللون من التفسير الموضوعي.
- اقتراح عناوين حول علاقة الوحدة الموضوعية بمقاصد القرآن الكريم .

هذا ما تم جمعه وبيانه في البحث ونتائجه وتوصياته.

أسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يجعله في ميزان الحسنات إنه سميع قريب مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإسلامية

## الفهارس

فهرس الأييات القرآنية.

فهرس الأحاديث والأثار.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية<sup>1</sup>

| الصفحة               | السور / الآية  | رقمها |
|----------------------|--|-------|
| <b>سورة البقرة</b>   |  |       |
| 142                  | ﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ ﴿١٤﴾   | ١٤    |
| 92                   | ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَىٰ وَالصَّبِيَّةَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٩٢﴾   | ٩٢    |
| 58                   | ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿٥٨﴾   | ٥٨    |
| 197                  | ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ ﴿١٩٧﴾   | ١٩٧   |
| 98                   | ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْمُونَ ﴿٩٨﴾   | ٩٨    |
| 186                  | ﴿... وَالْمُؤُوفَاتِ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا... ﴿١٨٦﴾   | ١٨٦   |
| 101                  | ﴿الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالشَّرْكِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿١٠١﴾   | ١٠١   |
| 71                   | ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرَ اللَّهُ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٧١﴾ | ٧١    |
| 250                  | ﴿وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴿٢٥٠﴾   | ٢٥٠   |
| <b>سورة آل عمران</b> |  |       |
| 249                  | ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿٢٤٩﴾  | ٢٤٩   |
| 169                  | ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا ﴿١٦٩﴾   | ١٦٩   |

<sup>1</sup> لم أدرج آيات سورة التوبة لأنها محل الدراسة .

- 97 ﴿مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٧١﴾  
 ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعَامُونَ﴾ ﴿٧١﴾
- 72 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ﴾ ﴿١١٨﴾
- 131 ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِّنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا <sup>ف</sup> وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾
- 71 ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٤٢﴾
- 315 ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ﴿١٥٩﴾
- 311 ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ ﴿١٦٤﴾
- 132 ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾  
 ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ﴿١٦٧﴾
- 148 ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلَ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلَ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿١٧٨﴾

## سورة النساء

- 209 ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿٩٥﴾
- 204 ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٩٦﴾
- 140 ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٤٢﴾
- 25 ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ ﴿٧٦﴾

## سورة المائدة

- 186 ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ﴿١﴾
- 112 ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ﴿٥٤﴾
- 99 ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاكْلِهِمُ السُّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿لَوْلَا يَهْتَدُهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَاْلْاَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْاِثْمَ وَاكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٦٣﴾
- 165 ﴿لَعَنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِيْ اِسْرٰٓءِيْلَ عَلٰى لِسٰنِ دَاوُدَ وَعِيسٰى ابْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ﴾ ﴿٧٨﴾
- 165 / 165 ﴿كَانُوْا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مَّنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لَيْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ﴾ ﴿٧٩﴾
- 165 ﴿لَتَجِدَنَّ اَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا الْيَهُودَ وَالَّذِيْنَ اَشْرَكُوْا﴾ ﴿٨٢﴾

## سورة الأنعام

- 304 ﴿وَاَوْحٰى اِلٰى هٰذَا الْقُرْءٰنِ لِاَنْذِرْكُمْ بِهٖ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ﴿١١﴾
- 98 ﴿الَّذِيْنَ ءَاتَيْنٰهُمْ الْكِتٰبَ يَعْرِفُوْنَهُ كَمَا يَعْرِفُوْنَ اَبْنَاءَهُمُ الَّذِيْنَ حَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ فَهَمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾ ﴿٢٠﴾
- 171 ﴿الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَلَمْ يَلْبِسُوْا اِيْمٰنَهُمْ بِظُلْمٍ اُوْلٰئِكَ لَهُمُ الْاٰمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُوْنَ﴾ ﴿٨٢﴾
- 304 ﴿لِنُنذِرَ اُمَّ الْقُرٰى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ﴿٩٢﴾

## سورة الأعراف

- 255 ﴿اِنَّ الَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِعٰٓيٰتِنَا وَاَسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ اَبْوَابُ السَّمٰوٰتِ وَلَا يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ حَتّٰى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ﴿٥٠﴾
- 171 ﴿وَلُوْطًا اِذْ قَالَ لِقَوْمِهٖ اَتَاْتُوْنَ الْفٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ﴾ ﴿٨١﴾

أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ  
النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٥٨﴾

## سورة الأنفال

40 / 16

﴿١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ  
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴿٢﴾

278

﴿٤١﴾ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴿٤٢﴾

/46 / 41

﴿٥٨﴾ وَإِذَا تَخَافَتِ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ ﴿٥٩﴾

59

320

﴿٦٠﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ  
بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ﴿٦١﴾

41 / 40

﴿٧٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٧٣﴾

40

﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٧٤﴾

40

﴿٧٥﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

## سورة يونس

42

﴿٢﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ  
وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٣﴾

308

﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي  
الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾

## سورة يوسف

255

﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ  
وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٤﴾

169

﴿٣٥﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾

228

﴿٣٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴿٣٧﴾

## سورة الرعد

|                     |   |    |
|---------------------|---|----|
| 187                 | ﴿الَّذِينَ يُوْفُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾  | ٢٠ |
| 186                 | ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾  | ٢٥ |
| <b>سورة الحجر</b>   |   |    |
| 171                 | ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾   | ٧٤ |
| 170                 | ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾  | ٨٣ |
| 170                 | ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾  | ٨٤ |
| <b>سورة النحل</b>   |   |    |
| 224                 | ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾   | ٢٧ |
| 185                 | ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾                         | ٩١ |
| <b>سورة الإسراء</b> |   |    |
| 168                 | ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾  | ١٥ |
| 310                 | ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا﴾ | ٤٦ |
| 308                 | ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾   | ٨٢ |
| <b>سورة الكهف</b>   |   |    |
| 313                 | ﴿فَلَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ آسَفًا﴾  | ٦  |
| <b>سورة مريم</b>    |   |    |
| 300                 | ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ﴾  | ٣٥ |

- 275 ﴿ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا بَرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ۖ ﴾ ٤٦
- 275 ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۖ ﴾ ٤٧
- 237 ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۖ ﴾ ٧١
- 94 ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ ﴾ ٨٨
- 94 ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۖ ﴾ ٨٩
- 94 ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَنَخِرُ الْجِبَالَ هَدًّا ۖ ﴾ ٩٠
- 94 ﴿ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ ﴾ ٩١
- 94 ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۖ ﴾ ٩٢
- 94 ﴿ إِن كُفُّوا مِنْهُ لَنُنَزِّلَنَّ مِنَ السَّمَاءِ آيَاتٍ فَتَكُونُ آيَاتٍ لِلرَّحْمَنِ عَبْدًا ۖ ﴾ ٩٣
- 94 ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ ﴾ ٩٤
- 94 ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۖ ﴾ ٩٥
- سورة الأنبياء**
- 312 / ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۖ ﴾ ١٧٧
- 314
- سورة الحج**
- 69 ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتِ صَوْمِعُ وَيَبِعُ ۖ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ ﴾ ٤٤
- 293 ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۖ ﴾ ٦٣
- سورة النور**
- 259 ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ ﴾ ٦١
- 302 ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ ۖ ﴾ ٦٨

|     |  |         |
|-----|--|---------|
|     | مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٥٦﴾   |         |
| 140 | ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾   | ٥٦      |
|     | ﴿  |         |
| 128 | ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ             | ٦٢      |
|     | <b>سورة الفرقان</b>  |         |
| 303 | ﴿فَلَا تَطِعِ الْكٰفِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾   | ٥٦      |
|     | <b>سورة الشعراء</b>  |         |
| 313 | ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنِينَ﴾  | ٣       |
| 241 | ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾  | ١١٢     |
| 170 | ﴿أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاهُنَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَجُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾    | ١٤٦ ١٤٧ |
|     | <b>سورة النمل</b>  |         |
| 171 | ﴿أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَطَّهَّرُونَ﴾   | ٥٦      |
|     | <b>سورة القصص</b>  |         |
| 266 | ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَا كِنَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾   | ٥٦      |
|     | <b>سورة الأحزاب</b>  |         |
| 132 | ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾           | ١٣      |
| 150 | ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾   | ٥٧      |
| 167 | ﴿لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ | ٦٠      |

167 ﴿مَلْعُونِينَ أَيْمًا تُقْفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا﴾ ﴿٦١﴾

167 ﴿اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾

## سورة فصلت

﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبَّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٢﴾  
﴿فَمَا عَادُوا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٤﴾

## سورة الفتح

64 ﴿يَقُولُونَ بِالسِّنِينَ بِمَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿١١﴾

224 ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبِّينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ﴿١٢﴾

208 ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ ﴿١٧﴾

237 ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿١٨﴾

## سورة الحجرات

160 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ ﴿٢﴾

## سورة الحشر

235 ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ ﴿٨﴾

236 ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ﴿٩﴾

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴿٨﴾

### سورة المتحنة

77 ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ ﴿٩﴾﴾

### سورة الصف

114 ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

### سورة الجمعة

311 ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾

### سورة التحريم

174 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاَعْلَظْ عَلَيْهِمْ ﴿١﴾﴾

### سورة الملك

242 ﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

### سورة القلم

150 ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾

### سورة الحاقة

249 ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

### سورة الأعلى

259 ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَرَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾﴾

### سورة الشمس

259 ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّهَا ﴿١٠﴾﴾

## فهرس الأحاديث والآثار

| الصفحة       | طرف الحديث  |
|--------------|---|
| 98           | ❖ أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب              |
| 24           | ❖ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري                           |
| 27 / 22 / 19 | ❖ آخر سورة أنزلت تامة   |
| 76           | ❖ إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان               |
| 215          | ❖ أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله<br>الحملان |
| 25           | ❖ أعطيت مكان التوراة السبع  |
| 60           | ❖ ألا يطوف بالبيت مشرك  |
| 292          | ❖ أما هذا فقد صدق   |
| 104          | ❖ إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض          |
| 324          | ❖ إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل                              |
| 179          | ❖ إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة                            |
| 325          | ❖ إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه                            |
| 100          | ❖ إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها                           |
| 229          | ❖ إن الله قد أثنى عليكم في الطهور                                 |
| 244          | ❖ إن الله يقول لأهل الجنة   |
| 317          | ❖ إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد                   |
| 170          | ❖ إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل                             |

- ❖ إنَّ بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا 314
- ❖ أن تعبد الله كأنك تراه 283
- ❖ أن لا يحجَّ بعد العام مشرك 22
- ❖ إنا نأتيك من شقة بعيدة 29
- ❖ إني لم أبعث لعمانا وإنَّما بعثت رحمة 328
- ❖ آية الإيِّان حبُّ الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار 116
- ❖ آية المنافق ثلاث 192
- ❖ ائذن لي ولا تفتني 126
- ❖ أيكم يقرأ سورة التوبة 20
- ❖ ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم 181
- ❖ تعلّموا سورة التوبة 25 / 20
- ❖ تكفل الله لمن خرج من بيته لا يخرجه إلا جهاد في سبيل الله 281
- ❖ التوبة بل هي الفاضحة 19
- ❖ حتى كملت لنا خمسون ليلة 295
- ❖ الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات 284
- ❖ الدين النصيحة 213
- ❖ الرائد لا يكذب أهله ولا يغش نفسه 103
- ❖ شهداء الله في الأرض 256
- ❖ عسى الله أن لا يفشي سرنا علينا 160
- ❖ فأدرکه أعرابي فجذبه جذبة شديدة 234

- ❖ فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء 29
- ❖ فكان الرجل يجيء بالصدقة العظيمة 195
- ❖ قال أبي بن كعب: آخر آية نزلت 32
- ❖ قد أكثر علي من أبشر 236
- ❖ كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية 229
- ❖ كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى 261
- ❖ لا ترموه، دعوه 235
- ❖ لا تسبوا أصحابي 209
- ❖ لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد 243
- ❖ لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل 187
- ❖ لما حضرت أبا طالب الوفاة 276
- ❖ لما مات عبد الله بن أبي بن سلول 209 / 202
- ❖ اللهم ارحمني ومحمدا 235
- ❖ اللهم صل على آل أبي أوفى 253
- ❖ ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار 101
- ❖ ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام 52
- ❖ ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة 36
- ❖ ما ظنك باثنين الله ثالثهما 116
- ❖ ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن 236
- ❖ مثل المجاهد في سبيل الله 118

- ❖ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم 178
- ❖ مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر 93
- ❖ من يدل على كعب بن مالك 294
- ❖ نار بني آدم التي يوقدون 207
- ❖ والصدقة برهان 252 / 194
- ❖ وذلك دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم 64
- ❖ وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار 290
- ❖ وهم بالمدينة حبسهم العذر 214
- ❖ وهم يد على من سواهم 177
- ❖ ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل 234 / 142
- ❖ يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين 119

## فهرس المصادر والمراجع

- ❖ القرآن الكريم برواية حفص، طبعة مجمع الملك فهد للمصاحف الإلكترونية.
1. الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق سعيد المندوب، الناشر دار الفكر، ط: 1416 هـ - 1996 م.
  2. آثار ابن باديس: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط: 1388 هـ - 1968 ميلادية.
  3. أحكام القرآن - ابن الفرس الغرناطي، دار ابن حزم، ط: 1427 / 2006 م.
  4. أحكام القرآن: أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المالكي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
  5. أحكام القرآن - الكيا الهراسي الشافعي، تحقيق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ط 2: 1405 هـ.
  6. إرشاد العقل السليم على مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا مكتبة الرياض.
  7. أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: 1419 هـ - 1998 م.
  8. الأساس في التفسير: سعيد حوى، دار السلام - القاهرة، ط: 1424 هـ.
  9. الاستذكار: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 1421 - 2000
  10. أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية، ط: 1415 هـ - 1994 م.

11. أسرار ترتيب القرآن ، جلال الدين السيوطي ، دار بوسلامة تونس .
12. إصلاح الوجوه والنظائر، الدامغاني ، دار العلم للملايين .
13. أصول التفسير وقواعده :خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس -بيروت - ط2 :  
1406هـ - 1986م .
14. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ،محمد المختار الشنقيطي ،دار الفكر -بيروت -  
ط: 1415هـ -1995م .
15. إعراب القرآن: أحمد بن محمد النحاس ، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب -  
بيروت- ط3: 1409هـ -1988م .
16. الإفصاح عن معاني الصحاح : يحيى بن هُبَيْرَة أبو المظفر، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد  
، دار الوطن ، ط: 1417هـ
17. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي ، تحقيق: محمد عبد  
الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: 1418 هـ.
18. البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب  
العلمية - بيروت - ط: 1413 هـ -1993 م .
19. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة  
الحسني ، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، - القاهرة
20. البداية في التفسير الموضوعي : دراسة منهجية موضوعية ،عبد الحق الفرماوي
21. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة: عبد الفتاح بن  
عبد الغني بن محمد القاضي ، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان
22. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ،تحقيق:  
محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، ط: 1376 هـ - 1957 م .
23. تاج وصحاح اللغة العربية : الجوهري ، تحقيق: أحمد عبد الغفور ،دار العلم للملايين ،  
ط: 2: 1399 هـ.

24. تأملات في سورة الكهف ، أبو الحسن الندوي ، دار القلم .
25. التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع -تونس- ، ط:1997 م.
26. التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد: عمر العرباوي الحملاوي
27. التسهيل لعلوم التنزيل :محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ،دار العربية للكتاب،ط:4: 1403هـ
28. تصور الإلوهية كما تعرضه سورة الأنعام،إبراهيم زيد الكلاني .
29. تفسير ابن أبي حاتم،تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة الباز- مكة،ط:1:1417هـ- 1997 م.
30. التفسير البسيط : الواحدي، تحقيق صفوان عدنان داوودي،الناشر دار القلم ، الدار الشامية،ط: 1415هـ
31. تفسير الشعراوي : محمد متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم
32. التفسير الصحيح : حكمت بن بشير ياسين ، دار المآثر -المدينة- ط: 1: 1420هـ- 1999 م.
33. تفسير القرآن العزيز: لابن أبي زمنين ،تحقيق: حسين بن عكاشة ومحمد الكنز ، دار لفاروق ط:1: 1423 هـ - 2002 م.
34. تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع،ط:2:1420هـ - 1999 م.
35. تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي ، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت ،ط:1: 1426 هـ - 2005 م
36. تفسير المراغي:مصطفى المراغي،مطبعة مصطفى البابي - مصر- ط:1:1365هـ- 1946 م

37. تفسير المنار: رشيد رضا، دار المنار- القاهرة-، ط2: 1366هـ-1947م.
38. التفسير المنير في العقيدة و الشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر.
39. التفسير الواضح- محمد محمود الحجازي، دار الجيل الجديد.
40. التفسير الوسيط: محمد سيد طنطاوي دار إحياء التراث العربي بيروت، ط:1412هـ
41. التفسير الوسيط للقرآن الكريم - مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
42. تفسير بحر العلوم: السمرقندي، تحقيق: محمد معوض، عادل الموجود، زكرياء التوني،
43. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: محمد الأمين المهري، تحقيق: هشام محمد مهدي، دار طوق النجاة، ط1: 1421هـ-2001م.
44. تفسير سورة النور، ابن تيمية، دار الانتفاضة.
45. تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد -الرياض- ط1: 1410هـ-1989م.
46. تفسير مجاهد: أبو الحجاج مجاهد بن جبر، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط1: 1410هـ - 1989م.
47. تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط1: 1423هـ
48. التنوير شرح الجامع الصغير: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، تحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، ط1: 1432هـ، 2011م
49. تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت - 2001م
50. التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص، تحقيق: دار

- الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق - سوريا، ط1: 1429 هـ - 2008 م
51. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: محمد بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، دار ابن الجوزي، ط1: 1424 هـ-2003 م.
52. التيسير في أحاديث التفسير: محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1405 هـ - 1985 م
53. جامع البيان في تأويل أي القرآن: ابن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط1: 1422 هـ-2001 م.
54. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، ط1: 1423 هـ - 2003 م.
55. الجامع لشعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1410.
56. جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي، تحقيق: د. مروان العطيّة - د. محسن خرابة، دار المأمون للتراث - دمشق - بيروت، ط1: 1418 هـ - 1997 م..
57. الجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط1: 1418 هـ - 1997 م.
58. حجة القراءات: عبد الرحمن بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط5: 1418 هـ - 1997 م.
59. الحجة في القراءات السبع: ابن خالوية، الرسالة، ط5: 1418 هـ - 1997 م.
60. الحلل الإبريزية من التعليقات البازية على صحيح البخاري: عبد العزيز بن عبد الله بن باز بقلم: أبي محمد عبد الله بن مانع الروقي، دار التدمرية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ط1: 1428 هـ - 2007 م
61. الدر المنثور: جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت - ط1: 1993 م.

62. دراسات في التفسير الموضوعي زاهر عواض الألمعي ، مطابع الفرزدق .
63. دلائل الإعجاز: أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق : د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي - بيروت ط 1: 1995
64. دلائل النبوة: الإمام البيهقي، تحقيق : عبد المعطى قلعجي، دار الكتب العلمية - ودار الريان للتراث ط 1: 1408 هـ- 1988 م
65. الرحيق المختوم: الرحمن المباركفوري ، دار العصماء - دمشق ، ط 1: 1427
66. رسالة الشرك ومظاهره :مبارك بن محمد الملي الجزائري ،تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع ، ط 1: 1422 هـ - 2001 م.
67. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي ، دار إحياء التراث العربي، ط: 1415 هـ
68. زاد المسير في علم التفسير : أبو الفرج ابن الجوزي ،المكتب الإسلامي ، ط 3: 1404 هـ - 1914 م .
69. زاد المعاد في هدي العباد: ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان، ط 3: 406 هـ- 1986 م
70. زهرة التفاسير : محمد أبو زهرة ،دار الفكر العربي ،دون تخريج الطبعة .
71. سنن ابن ماجه القزويني . ترقيم: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتاب العربي، مصر
72. سنن أبي داود ،تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الجنان- بيروت- ط 1: 1409 هـ- 1988 م.
73. سنن الترمذي(الجامع الصحيح)، تحقيق وتخريج: فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
74. سنن الترمذي(الجامع الصحيح)، تحقيق وتخريج: فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
75. سنن الدارمي: لأبي عبد الله الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمري وخالد السبع العلمي

- دار الكتاب العربي - بيروت - ط1: 1407 هـ .
76. السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ط: 1414 هـ - 1994 م .
77. سنن سعيد بن منصور: أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ، الدار السلفية - الهند ، ط1: 1403 هـ - 1982 م
78. سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ابن هشام ، دار الفكر .
79. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن): شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي تحقيق: د. عبد الحميد هندراوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1: 1417 هـ - 1997 م
80. شرح صحيح مسلم : النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط2: 1392 هـ
81. صحيح ابن خزيمة، تحقيق: مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط1: 1399 هـ - 1979 م .
82. صحيح البخاري: محمد ابن إسماعيل البخاري، ترقيم: فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان .
83. صحيح مسلم لأبي مسلم بن الحجاج، ترقيم: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية بيروت ، لبنان. ط: 1339 هـ .
84. الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي ، دار الفكر ، ط4: 1420 هـ - 2000 م .
85. العواصم من الفتن في سورة الكهف عبد الحميد طههاز، دار القلم .
86. عون المعبود شرح سنن أبي داود: العظيم آبادي، دار الكتب العلمية - بيروت - ط2: 1415 هـ - 1995 م
87. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير : محمد بن علي الشوكاني، تحقيق : عبد الرحمن عميرة دار الوفاء .
88. فتح المنعم شرح صحيح مسلم - الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين، دار الشروق

الطبعة 1: 1423 هـ - 2002 م

89. فضائل القرآن للقاسم بن سلام: أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي ، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير ، ط1: 1415 هـ - 1995 م.
90. فقه السيرة ، محمد الغزالي ، دار الشهاب
91. فقه السيرة ، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الشهاب .
92. في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم ، دار الشروق - القاهرة
93. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّوجلّ : عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم بيروت
94. كتاب السبعة في القراءات: أبو بكر بن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيف الناشر: دار المعارف - مصر، ط 11: 1400 هـ.
95. كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د مهدي المخزومي و د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
96. كتاب عدد آي القرآن - أبو الحسن علي بن محمد الأنطاكي
97. الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق : أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، ط1: 1418 هـ - 1998 م.
98. الكليات : لأبي البقاء الكفومي، تحقيق: عدنان درويش و محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت - ، ط: 1419 هـ - 1998 م.
99. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري - محمد بن يوسف شمس الدين الكرمانى ر إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان، ط1: 1356 هـ - 1937 م.
100. كيف نتعامل مع القرآن ، محمد الغزالي، دار الوفاء للطباعة والنشر .
101. لباب التأويل في معاني التنزيل : علاء الدين علي بن محمد البغدادي المشهور بالخازن، دار الفكر - بيروت - ط: 1399 هـ - 1979 م

102. اللباب في علوم الكتاب: ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت - ط1: 1419 هـ - 1998 م.
103. لسان العرب: ابن منظور، دار إحياء التراث العربي بيروت.
104. لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر.
105. مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، دار القلم، ط4: 1426 هـ - 2005 م
106. المبسوط في القراءات العشر: أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، أبو بكر، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية - دمشق، ط: 1981 م
107. مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى، مكتبة الخانجي، القاهرة، تحقيق: محمد فواد سزكين
108. مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير ابن باديس مطبوعات وزارة الشؤون الدينية
109. محاسن التأويل: جمال الدين القاسمي، دار إحياء الكتب العربية، ط1: 1376 هـ - 1957 م
110. المحاور الخمسة في القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشهاب الجزائر.
111. المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية: خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، الدمام - المملكة العربية السعودية، ط1: 1427 هـ - 2006 م.
112. المحرر والوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1: 1422 هـ - 2001 م.
113. مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط5: 1420 هـ - 1999 م

114. المدخل إلى التفسير الموضوعي عبد الستار فتح الله سعيد دار الطباعة والنشر الإسلامية.
115. المدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، دار القلم .
116. المرجعية العليا في لإسلام للقرآن والسنة : ضوابط في الفهم والتفسير، مكتبة وهبة مصر
117. مرسوم الخط - العُقيلي
118. المستدرك على الصحيحين : الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت - ، ط1: 1411 هـ - 1990 م.
119. مسند أبي داود الطيالسي : سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي ، دار المعرفة - بيروت
120. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، و عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1: 1421 هـ - 2001 م
121. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر البزار ، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرون ، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط1 (بدأت 1988 م، وانتهت 2009 م).
122. مسند الشاميين : سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1: ، 1405 - 1984 .
123. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ، مكتبة المعارف - الرياض ، ط1: 1408 هـ - 1987 م
124. مصنف بن أبي شيبة ، تحقيق: محمد عوامة،الدار السلفية بالهند.
125. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، دار العاصمة، دار الغيث - السعودية ، ط1: 1419 هـ
126. مصحف ردوسي : ردوسي قدور بن مراد التركي - المطبعة الثعالبية - الجزائر - ط :

1350 هـ / 1931 م.

127. معالم التنزيل: أبو محمد البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، 1409 هـ

128. معاني القرآن الكريم: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، ط1، 1409

129. معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط1: 1408 هـ - 1988 م

130. معجزات قلب القرآن، هاشم محمد سعيد دفتر دار المدني دار الشروق.

131. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب - القاهرة، ط1، 2010 م

132. معجم الطبراني الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1: 1405 هـ - 1984 م

133. معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.

134. معركة النبوة مع المشركين إبراهيم زيد الكلافي

135. مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني - محمد بن أبي المحاسن الكرمانى، دراسة وتحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1: 1422 هـ - 2001 م

136. مفاتيح الغيب: فخر الدين الرَّازي، دار الفكر، ط1: 1408 هـ - 1981 م.

137. المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلافي.

138. مقدمات في التفسير الموضوعي، باقر الصدر، دار التوجيه الإسلامي بيروت

139. المقدمة، ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني.

140. مقدمة في أصول التفسير - ضمن مجموع الفتاوى -، طبعة مجمع الملك فهد للمصاحف، سنة: 1424 هـ - 2004 م.

141. مقدمة في التفسير الموضوعي ، محمد بن عبد العزيز الخضري
142. المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار.....
143. المكي والمدني- محمد شفاعت رباني - موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف -
144. المناهج الجديدة عبد الغني الراجحي
145. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبدالعظيم الزرقاني ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر - بيروت - ط: 1996م.
146. الموافقات في أصول الشريعة: الشاطبي ، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط: 1417 هـ - 1997 م.
147. موسوعة التفسير المأثور: إعداد مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، ط: 1: 2017م
148. الموسوعة القرآنية - إبراهيم بن إسماعيل الأبياري.
149. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة ط4.
150. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
151. الناسخ والمنسوخ : أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ) تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح - الكويت، ط1، 1408هـ.
152. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم : محمد بن عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، ط: 1426هـ - 2005م
153. النبوات : ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط1، 1420هـ/ 2000م.

154. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، محمد الغزالي، منشورات بغدادادي .
155. النشر في القراءات العشر: ابن الجزري ، دار الصحابة للتراث ، ط1: 2001م.
156. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ، الدار السلفية .
157. النكت والعيون : الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود ابن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ، بيروت .
158. الهداية إلى بلوغ النهاية - أبو محمد مكى بن أبي طالب القرطبي المالكي
159. الوحدة الموضوعية في القرآن ، محمد محمود حجازي

## فهرس الموضوعات

الإهداء

الشكر والتقدير

مقدمة

أ-ر

## الفصل الأول:

## بين يدي السورة

## المبحث الأول: التعريف بسورة التوبة

## المطلب الأول: التعريف بسورة التوبة.

الفرع الأول: تعريف السورة لغة واصطلاحاً.

الفرع الثاني: افتتاح سورة التوبة

الفرع الثالث: افتتاحها من مبتكرات القرآن

## المطلب الثاني: اسم سورة التوبة ووجه تسميتها وفضلها

الفرع الأول: اسم سورة التوبة ووجه تسميتها

الفرع الثاني: فضل سورة التوبة

## المطلب الثالث: سبب وزمن نزولها وعدد آياتها

الفرع الأول: سبب نزولها

الفرع الثاني: زمن نزول السورة

الفرع الثالث: ظروف نزول سورة التوبة

الفرع الرابع: عدد آي سورة التوبة

## المطلب الرابع: مدنية السورة و أول وآخر ما نزل منها.

الفرع الأول: تقرير مدنية السورة

الفرع الثاني: أول وآخر ما نزل منها

## المطلب الخامس: وجه عدم كتابة البسملة في مطلع سورة التوبة:

## المبحث الثاني: المناسبات في السورة

## المطلب الأول: التعريف بعلم المناسبات

الفرع الأول: المناسبة لغة واصطلاحاً

الفرع الثاني: المقصد من علم المناسبة

الفرع الثالث: أهمية علم المناسبة

## المطلب الثاني: المناسبة بين سورة التوبة وسورة الأنفال.

النوع الأول: من حيث مطلع السورتين

- 39 النوع الثاني: من حيث مناسبة مطلع التوبة لموضوع سورة الأنفال
- 40 النوع الثالث: مناسبة خاتمة سورة التوبة لمطلع سورة يونس
- 42 النوع الرابع: مناسبة مطلع سورة التوبة لخاتمها

### الفصل الثاني:

## الهدى القرآني في بيان العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المشركين وأهل الكتاب

الوحدة الموضوعية الأولى من الآية الأولى إلى الآية السابعة والثلاثين (37/1)

### المبحث الأول: بيان الهدى القرآني في بيان العلاقة بين المسلمين وغيرهم من

- 46 المشركين
- الآيات من الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين (28/1).
- 46 المبحث الثاني: الهدى القرآني في بيان علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب.
- 46 المطلب الأول: موضوعات الوحدة الموضوعية الأولى.
- 46 الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الأولى.
- 48 الفرع الثالث سبب النزول.
- 48 الفرع الرابع: القراءات.
- 52 الفرع الخامس: موضوعات الوحدة الموضوعية الأولى
- 53 المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الأولى.
- 53 الفرع الأول: الهدى القرآني في بيان كيفية التعامل مع المشركين.
- 61 الفرع الثاني: حكمة البراءة من عهود المشركين.
- 64 الفرع الثالث: الهدى القرآني في قتال أئمة الكفر.
- 67 الفرع الرابع: إنهاء هم المؤمنين لقتال أئمة الكفر وأتباعهم لتحقيق سنة التدافع.
- 69 الفرع الخامس: شأن التوبة وقبولها شأن خاص بالله جلّ وعزّ.
- 75 الفرع السادس: بلوغ المهاجرين المجاهدين المنية.
- 78 الفرع السابع: السرّ في ذكر غزوة حنين.
- 80 الفرع الثامن: مناسبة هذه الآيات لما قبلها.
- 83 المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الأولى.
- 87 المبحث الثاني: الهدى القرآني في بيان علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب
- 87 المطلب الأول: الأمر بقتال أهل الكتاب.
- 87 الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الأولى:
- 87 الفرع الثاني: سبب النزول
- 88 الفرع الثالث: القراءات.

- 88 الفرع الرابع: المناسبة
- 88 الفرع الخامس: موضوعات الوحدة الفرعية الثانية.
- 90 **المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الأولى.**
- 90 الفرع الأول: الهدى القرآني في بيان الصفات الموجبة لقتال أهل الكتاب.
- 92 الفرع الثاني: الهدى القرآني في بيان حقيقة عقيدة أهل الكتاب وعبادتهم.
- 94 الفرع الثالث: الهدى القرآني في بيان عداوة أهل الكتاب للإسلام .
- 96 الفرع الرابع: الهدى القرآني في بيان تلبس أكثر علماء أهل الكتاب وأكثر عبّادهم بأكل السحت وخيانة دينهم.
- 101 **المطلب الرابع: الهدايات المستنبطة من الآيات.**
- الفصل الثالث:**
- غزوة تبوك ظروفها وإفرازاتها**
- الرمدة الموضوعية الثانية من الآية العنص والثلاثين إلى الآية الواحدة والأربعين (38 / 41)
- 105 **المطلب الأول: استنهاض الهمم للنفير.**
- 105 الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الثانية.
- 105 أولاً: سبب النزول.
- 106 ثانياً: ظروف نزول الآيات.
- 107 ثالثاً: زمن الغزوة .
- 107 الفرع الثاني: الموضوعات والمناسبات.
- 109 **المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الثانية.**
- 109 الفرع الأول: استنهاض همم المؤمنين للنفير.
- 111 الفرع الثاني: نصره الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم.
- 112 الفرع الثالث: أنواع التفر وخيراته .
- 116 **المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الثانية.**
- الفصل الرابع:**
- توصيف القرآن لأحوال المنافقين الظاهرة والباطنة**
- الرمدة الموضوعية الثالثة من الآية الثانية والأربعين إلى الآية .....(42/...)
- 120 **المبحث الأول : المنافقون بين القعود عن الخروج إلى تبوك والاستئذان عنه**
- الوحدة الفرعية الأولى من الآية الثانية والأربعين إلى الآية الثانية والخمسين (42 / 52)
- 120 **المطلب الأول: مسالك المنافقين في التعذر عن الخروج.**
- 121 الفرع الأول: آيات الوحدة الفرعية الأولى.
- 121 الفرع الثاني: سبب وظروف نزول الآيات .

- 122 الفرع الثالث: المناسبات.
- 122 الفرع الثالث: موضوعات الوحدة الفرعية الأولى:
- 124 **المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الفرعية الأولى**
- 124 الفرع الأول: المنافقون بين القعود والاستئذان.
- 126 الفرع الثاني: المستأذنون.
- 127 الفرع الثالث: تدليل على إرادة القعود .
- 129 الفرع الرابع: أثر قعود المنافقين على المؤمنين.
- 130 الفرع الخامس: العبرة في التذكير بمسالكهم .
- 131 الفرع السادس: أمودج المستأذنين .
- 132 الفرع السابع: فرح المنافقين بمصاب المؤمنين وحزهم لمغنهم وسلامتهم.
- 134 **المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الأولى**
- المبحث الثاني: المال في حياة المنافقين**
- 136 الوحدة الفرعية الثانية: من الآية الثالثة والخمسين إلى الآية الستين (60 / 53)
- 136 **المطلب الأول: أحوال المنافقين في مقاصد إنفاقهم وإمساكهم**
- 136 أولاً: آيات الوحدة الفرعية الثانية
- 136 ثانياً: سبب النزول
- 137 ثالثاً: موضوعات الوحدة الفرعية الثانية:
- 138 **المطلب الثالث: التفسير الموضوعي للوحدة**
- 139 الفرع الأول: الأسباب المانعة من قبول نفقات المنافقين
- 140 الفرع الثاني: التفاق مهواة الخسار
- 143 الفرع الثالث: أمودج المنافع للماز في الصدقات
- 146 **المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الثانية**
- المبحث الثالث: إيذاء المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم بالطعن في أخلاقه**
- 149 **العظيمة وشمائله الكريمة.**
- الوحدة الفرعية الثالثة: من الآية الواحدة والستين إلى الآية السادسة والستين (66 / 61)
- 149 **المطلب الأول: بيان أساليب المنافقين في ضرب استقرار المجتمع الإسلامي.**
- 149 الفرع الأول: آيات الوحدة
- 150 الفرع الثاني: سبب نزول الآيات
- 150 الفرع الثالث: ظروف نزول الآيات
- 151 الفرع الرابع: موضوعات الوحدة الفرعية الثالثة:
- 152 **المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الفرعية الثالثة.**

- 152 الفرع الأول: المنافقون يبادلون الحلم بالأذى
- 154 الفرع الثاني: الأيمان الكاذبة ديدن المنافقين
- 155 الفرع الثالث: يستهزئون والله مخرج ما يحذرون
- 156 الفرع الرابع: أتمودج الاستهزاء بالمؤمنين
- 158 **المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الثالثة.**
- المبحث الرابع: رجال المنافقين ونساؤهم سواء في مسلك الهدم الاجتماعي من**
- 161 **الداخل**
- الوحدة الفرعية الرابعة: من الآية السابعة والستين إلى الآية الرابعة والسبعين (67/74)
- 161 **المطلب الأول: المنافقون والمنافقات شركاء في النفاق رجالمهم ونساؤهم سواء بعضهم**
- من بعض في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.
- 161 الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الرابعة
- 162 الفرع الثاني: المناسبة
- 162 الفرع الثالث: موضوعات الوحدة الفرعية الرابعة:
- 163 **المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الفرعية الرابعة**
- 163 الفرع الأول: تعاون المنافقين على الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف
- 165 الفرع الثاني: هم القابضون أيديهم نسوا الله فنسيهم
- 166 الفرع الثالث: ستّة الله في المنافقين
- 171 الفرع الرابع: ستّة الله إكرام المؤمنين و تلتّفه تعالى بهم
- 174 الفرع الخامس: الغلظة في مجاهدة المنافقين
- 176 **المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الرابعة**
- المبحث الخامس: نقض المنافقين للعهود**
- 180 الوحدة الفرعية الخامسة: من الآية الخامسة والسبعين إلى الآية الثمانين (80/75)
- 180 **المطلب الأول: مآلات نقض العهود وتحذير المؤمنين من الوقوع في نقضها**
- 180 الفرع الأول: آيات الوحدة الفرعية الخامسة
- 180 الفرع الثاني: سبب النزول
- 183 الفرع الثالث: المناسبة
- 183 الفرع الرابع: موضوعات الوحدة الفرعية الخامسة:
- 184 **المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الفرعية الخامسة**
- 184 الفرع الأول: القرآن المكي والمدني يأمر بالوفاء بالعهد:
- 185 الفرع الثاني: المنافقون ينقضون العهود والمواثيق
- 188 الفرع الثالث: المنافقون يعيبون المطّوعين بالنفقة

- 189 الفرع الرابع: تيميس المنافقين وتنبية المؤمنين
- 192 **المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية الخامسة**
- المبحث السادس: المنافقون بين الفرع بالتخلف عن الجهاد واستحقاق الطبع على قلوبهم.**
- 196 الوحدة الفرعية الثامنة من الآية الواحدة والثمانين إلى الآية السادسة والتسعين (96 / 81)
- 196 **المطلب الأول: فرح المخلفين بمقعدهم**
- 196 الفرع الأول: آيات الوحدة الفرعية السادسة
- 197 الفرع الثاني: أسباب النزول
- 199 الفرع الثالث: القراءات
- 199 الفرع الرابع: مناسبة هذه الآيات لما قبلها:
- 201 **المطلب الثاني: التفسير الموضوعي الوحدة الفرعية السادسة**
- 201 الفرع الأول: فرحهم بالقعود عن الخروج وكراهيتهم الجهاد
- 202 الفرع الثاني: تثبيط المخلفين لغيرهم
- 203 الفرع الثالث: عقوبة المنافقين لتخلفهم
- 205 الفرع الرابع: معاذير المنافقين للتخلف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- 209 الفرع الخامس: ثواب الناصحين من أصحاب الأعداء
- 209 الفرع السادس: شرف البكائين وعلو مكانتهم عند الله
- 211 الفرع السابع: هؤلاء هم المؤخذون: يعتذرون وهم أغنياء
- 212 الفرع الثامن: ديدن المنافقين الظهور بمظهر المعتذر
- 216 **المطلب الثالث: هدايات الوحدة الفرعية السادسة**
- المبحث السابع: جماعات أخرى من المنافقين الأعراب دورها وخطرها وبيان الهدى القرآني في كيفية التعامل معها.**
- 221 الوحدة الموضوعية الفرعية السابعة: من الآية السابعة والتسعين إلى الآية العاشرة بعد المائة (110 / 97).
- 221 **المطلب الأول: الأعراب المنافقون دورهم وخطرهم في الإخلال بتناسك المجتمع**
- 221 الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية السابعة
- 222 الفرع الثاني: أسباب النزول:
- 223 الفرع الثالث: القراءات
- 225 الفرع الرابع: المناسبة
- 226 الفرع الخامس: موضوعات هذا المقطع:
- 227 **المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة السابعة**
- 227 الفرع الأول: من صفات الأعراب المنافقين

- 232 الفرع الثاني: مقابلة حال المنافقين من الأعراب بحال المؤمنين منهم:
- 234 الفرع الثالث: التنبيه على مكانة السابقين الأولين محل القدوة الصالحة لهذه الأمة
- 239 الفرع الرابع: مردة المنافقين والهدي القرآني في معاملتهم
- 243 الفرع الخامس: توبة الله على المعترفين بذنوبهم من مردة المنافقين
- 250 الفرع السادس: من مكاييد مردة المنافقين: مسجد الضرار .
- 254 الفرع السابع: شتان بين مسجد أسس على التقوى وآخر للضرار
- 256 المطلب الثالث: هدايات آيات الوحدة الموضوعية السابعة

#### الفصل الخامس :

#### قاعدة استقرار المجتمع الإسلامي وأسس بنائها.

الروعة الموضوعية الرابعة: من الآية: الحارثية عشرة بعد المائة إلى الآية التاسعة عشرة بعد المائة (111/119).

- 265 المطلب الأول: قاعدة الاستقرار في المجتمع الإسلامي وأسس بنائها.
- 265 الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الرابعة
- 266 الفرع الثاني: أسباب النزول
- 268 الفرع الثالث: المناسبة:
- 268 الفرع الرابع: موضوعات الوحدة الموضوعية الرابعة
- 269 المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الرابعة
- 269 الفرع الأول: الصفة الراجحة
- 271 الفرع الثاني: صفات المؤمنين البائعين أنفسهم وأموالهم لله
- 274 الفرع الثالث: البراءة من أموات المشركين ومن المنافقين
- 276 الفرع الرابع: سنّة الله في الهداية والإضلال
- 278 الفرع الخامس: من الهدى القرآني التسامح: التوبة من الله والتوبة من العباد
- 280 الفرع السادس: التوبة على الثلاثة الذين خلفوا
- 284 الفرع السابع: نموذج المؤمن الصادق الثابت على دينه
- 290 المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الرابعة

#### الفصل السادس:

#### خاتمة السورة: وفيها الهدى القرآني لما يجب أن يكون عليه المسلمون.

الروعة الموضوعية الخامسة: من الآية العشرين بعد المائة إلى الآية التاسعة والعشرين بعد المائة (119/129).

- 295 المطلب الأول: الإرشاد لما يجب أن يكون عليه المسلمون.
- 295 الفرع الأول: آيات الوحدة الموضوعية الخامسة
- 296 الفرع الثاني: القراءات
- 297 الفرع الثالث: المناسبة:

|     |  |
|-----|--|
| 298 | الفرع الرابع : موضوعات الوحدة الموضوعية.   |
| 300 | <b>المطلب الثاني: التفسير الموضوعي للوحدة الموضوعية الخامسة</b>                            |
| 301 | الفرع الأول: سعة الثواب بسعة العمل في سبيل الله  |
| 302 | الفرع الثاني: جهاد النفير بالعلم والدعوة إلى الله  |
| 303 | الفرع الثالث: خاتمة السورة والوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام    |
| 304 | الفرع الرابع: خاتمة السورة والهدي القرآني في مقاتلة الكفار                                 |
| 305 | الفرع الخامس: خاتمة السورة والهدي القرآني في تنبيه المؤمنين على خصال المنافقين حيال القرآن |
| 308 | الفرع السادس: خاتمة السورة والهدي القرآني في بيان عدم اعتبار المنافقين بما يصيبيهم.        |
| 308 | الفرع السادس: خاتمة الخاتمة  |
| 310 | الفرع الثامن : من صفات النبي صلى الله عليه وسلم في خاتمة السورة                            |
| 313 | الفرع الثامن : الزاد في حال الإعراض  |
| 318 | <b>المطلب الثالث: هدايات الوحدة الموضوعية الخامسة</b>                                      |
| 325 | خاتمة  |
| 329 | فهرس الآيات القرآنية   |
|     | فهرس الأحاديث النبوية والأثار  |
| 341 | فهرس المصادر والمراجع  |
| 343 | فهرس الموضوعات   |
| 363 | الملخص باللغتين [ العربية والانجليزية ]  |

المُلخَص

اللغة العربية ❖

اللغة الإنجليزية ❖

اللغة الفرنسية ❖

## ملخص باللغة العربية

عنوان أطروحة الدكتوراه :

الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية

سورة التوبة أنموذجا

تقدّم هذه الأطروحة: رؤيةً بحثية عن الوحدة الموضوعية لسورة التوبة؛ من حيث أنّ موضوعاتها متعدّدة، ولكنها متّحدة المقاصد متعانقة المعاني، قد تألّف بعضها مع بعض في وحدة موضوعية متناسبة الوحدات الموضوعية العامة والفرعية، في بناء محكم متلائم الأجزاء، فظهر بذلك موضوع السورة العام والموسوم ب: الهدي القرآني في بيان علاقة المسلمين بغيرهم من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، مرتّبة أجزاءه كما بدأت العلاقة بالوحي أول مرّة:

- **مشركون:** مناوئون قد اعتدوا ونقضوا عهودهم ومواثيقهم، فكانت البراءة منها، وأخض القرآن هم المؤمنين لقتال أئمة الكفر منهم وأتباعهم لتحقيق سنّة التدافع من غير تعدّد، لأنهم في حال الظهور على المؤمنين لا يرقبون فيهم إلاّ ولا ذمة.

- **أهل كتاب:** اليهود في المدينة، وفي أطرافها النصارى: ما تركوا من سبيل لإطفاء نور الله إلاّ سلكوه، وإرادتهم في ذلك دائمة مستمرة لما تلبّسوا به من العداوة والبغضاء للإسلام وأهله، وذلك بتكذيب النبي صلّى الله عليه وسلّم وصدّد الناس عن إتباع الإسلام وإعانة المناوئين بالقول والإرجاف والتحريض.

- **منافقون:** بعد أن عزّ الإسلام وغلب، ظهر المنافقون للكيد والهدم من داخل الصفّ، رجّاهم ونساؤهم في ذلك سواء؛ متعاون على الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، ولما كانت حالهم مستترة، هتك القرآن الكريم أستارهم فظهرت مخازيهم الظاهرة والباطنة، وجاء النفي إلى تبوك فعجّل بكشف مسالكهم ومزالقهم وخبايا نفوسهم؛ ففعدوا عن الغزو، واعتذروا وأقسموا بالأيمان الكاذبة، وقبضوا أيديهم عن الإنفاق، وآذوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، واستهزؤوا بالمؤمنين و عابوا المطّوعين بالنفقة منهم، ونقضوا عهودهم، فاستحقوا الطبع على قلوبهم.

وجاء الهدي القرآني ببيان مسلك المؤمنين في معاملتهم: بظاهر إسلامهم وأن يكلموا سرائرهم إلى الله، مع مجاهدتهم باللسان وشدة الرّجر والتغليظ عليهم، وقد قرّن جهادهم بجهاد الكفار لإلقاء الرّعب في قلوبهم لعلّهم يرجعون.

وبعد الحديث عن المكونات المعادية للإسلام، جاء الحديث القرآني عن بيّنات القاعدة التي يبنى عليها الاستقرار في المجتمع الإسلامي والتي تؤهل المسلمين ليصلح فردهم ويعلو شأنه، وتصلح جماعتهم ويعلو شأنها بالجهاد في سبيل الله.

الكلمات المفتاحية: التوبة ، الوحدة ، الموضوعية، سور ، القرآن.

الجمعة الأمير عبد القادر للعطوم الإسلامية

## ملخص باللغة الانجليزية

## Abstract

Thematic unit in the Quranic surah  
Surat Al-Tawbah as a model

The thesis presents a research vision on the thematic unity of Surat Al-Tawbah; in terms of its multiple themes, but united purposes and embraced meanings, all coherently forming proportionate general and sub-thematic units, in a tight construction with compatible parts. The general theme of the Surat titled: The Qur'anic guidance in clarifying the relationship of Muslims with other polytheists, the People of the Book and the hypocrites. Its parts are arranged as when the revelation began for the first time:

-Polytheists: opponents who transgressed and broke their covenants, thus, there was a disavowal of them, and the Qur'an aroused the determination of the believers to fight back the imams of disbelief among them and their followers without transgression, because in case the disbelievers got hold of the believers, they will not let them go.

-The People of the Book: The Jews in Medina, and the Christians in its outskirts . They did not leave any way to extinguish the light of God, and their will to do so is permanent and continuous because of their clothed enmity and hatred for Islam and its people, via their denial of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, and prevention of people from following Islam and help of the opponents by talks and incitements.

-Hypocrites: After Islam was glorified and conquered, the hypocrites appeared , men and women alike ,to plot and destroy from within the ranks; cooperating in enjoining evil and forbidding good. Because their condition was hidden, the Holy Qur'an ripped their veils, revealing their outward and inward shame. The mobilization to Tabuk hastened to uncover their paths, their pitfalls, and the secrets of their souls. So they did not participate in the invasion, apologized, swore false oaths, held their hands from spending, insulted the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, mocked the believers, and rebuked the volunteers who spent their money, and broke their promises, so they deserved to have their hearts sealed. The Quranic guidance

as to the way the believers deal with them was based on considering their outward Islam and entrusting their secrets to Gad. Besides, the believers should be struggling with them with the tongue and the severity of rebuke and harshness. Their jihad has been linked to the jihad of the infidels to cast terror into their hearts so that they may return.

After talking about the components hostile to Islam, the Qur'anic hadith came about the rule on which stability in the Islamic society is built and which qualifies Muslims to reform their individual and elevate his status, and to reform their group and elevate its status through jihad in the way of God.

جامعة الامير  
عبد القادر للعوم الإسلامية

## ملخص بالفرنسية

Unité thématique dans la sourate coranique  
Sourate Al-Tawbah comme modèle

## Resumé:

La thèse présente une vision de recherche sur l'unité thématique de la sourate Al-Tawbah ; en termes de ses thèmes multiples, mais de ses objectifs unis et des significations embrassées, formant toutes de manière cohérente des unités générales et sous-thématiques proportionnées, dans une construction serrée avec des parties compatibles. Le thème général de la sourate s'intitulait : Les conseils coraniques pour clarifier la relation des musulmans avec les autres polythéistes, les Gens du Livre et les hypocrites. Ses parties sont disposées comme lorsque la révélation a commencé pour la première fois :

-Polythéistes : opposants qui ont transgressé et rompu leurs alliances, il y a donc eu un désaveu d'eux, et le Coran a suscité la détermination des croyants à combattre les imams mécréants parmi eux et leurs partisans sans transgression, car au cas où les mécréants s'ont emparé des croyants, ils ne les lâcheront pas.

Les Gens du Livre : Les Juifs de Médine et les Chrétiens de sa périphérie. Ils n'ont laissé aucun moyen d'éteindre la lumière de Dieu, et leur volonté de le faire est permanente et continue à cause de leur inimitié et de leur haine envers l'Islam et son peuple, et par leur refus du Prophète, que la prière et la paix de Dieu soient sur lui, et leur empêchement des gens de suivre l'islam et aide des opposants par des pourparlers et des incitations.

- Hypocrites : Après la glorification et la conquête de l'Islam, les hypocrites sont apparus, hommes et femmes confondus, pour comploter et détruire de l'intérieur des rangs; coopérant pour ordonner le mal et interdire le bien. Parce que leur état était caché, le Saint Coran a déchiré leurs voiles, révélant leur honte extérieure et intérieure. La mobilisation à Tabuk s'est empressée de découvrir leurs chemins, leurs embûches et les secrets de leurs âmes. Ils n'ont donc pas participé à l'invasion, se sont excusés, ont prêté de faux serments, se sont retenus de dépenser, ont insulté le Prophète, que la prière et la paix de Dieu soient sur lui, se sont moqués des croyants et ont réprimandé les volontaires qui ont dépensé leur argent , et ils

ont brisé leur promesses, alors ils méritaient d'avoir leur cœur scellé. Les conseils coraniques quant à la manière dont les croyants les traitaient étaient basés sur la considération de leur islam extérieur et de laisser leurs secrets à Dieu. En outre, les croyants devraient lutter contre eux avec la langue et la sévérité de la réprimande et la dureté. Leur djihad a été lié au djihad des infidèles pour semer la terreur dans leurs cœurs afin qu'ils puissent revenir.

Après avoir parlé des composantes hostiles à l'islam, le hadith coranique est venu sur la règle sur laquelle la stabilité dans la société islamique est construite et qui qualifie les musulmans pour réformer leur individu et élever son statut, et pour réformer leur groupe et élever son statut à travers le jihad dans la voie de Dieu.

عبد القادر للعطوم الإسلامية